مجموع

تفسير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

لسور وآيات من القرآن الكريم
وتعليقاته على بعض كتب التفسير

مراجعة وتقديم

معالي الشيخ
محمد بن حسن بن عبد الرحمن آل الشيخ
عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

فضيلة الشيخ
أ. د. علي بن عبد العزيز الشبل
المدرس بالمسجد الحرام

جمعه واعتنى به وخرج أحاديثه
صلاح الدين بن عثمان أحمد
أمين مكتبة سماحته

طبع على نفقة الفقير إلى الله
سعد بن عبد الله بن غنيم الحقباني وجعله وقفًا لوالديه
بإشراف مؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية

المجلد الثاني

من الآية ٧٢ - ١٨٨ من سورة البقرة

مجموع تفسير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

مجموع

تفسير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

لسور وآيات من القرآن الكريم
وتعليقاته على بعض كتب التفسير

طبع على نفقة الفقير إلى الله
سَعْد بن عبد الله بن غنيّم الحقباني وجعله وقفًا لوالديه

ح مؤسسة عبد العزيز بن باز الخيرية ، ١٤٤٦هـ
عبد العزيز بن عبدالله بن عبد الرحمن بن باز،
مجموع تفسير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لسور وآيات من القرآن الكريم وتعليقاته على بعض كتب التفسير. / عبد العزيز بن عبدالله بن عبد الرحمن بن باز ؛ صلاح الدين عثمان أحمد - ط١.
الرياض ، ١٤٤٦هـ
١٤ مج.

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٧٩٧٥
ردمك: ٠-٤٨ - ٨٣٩٧-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٣-٥٠-٨٣٩٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥م

مجموع
تفسير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

لسور وآيات من القرآن الكريم وتعليقاته على بعض كتب التفسير

مراجعة وتقديم

معالي الشيخ

محمد بن حسن بن عبد الرحمن آل الشيخ

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

فضيلة الشيخ

أ.د. علي بن عبد العزيز الشبل

المدرس بالمسجد الحرام

جمعه واعتنى به وخرج أحاديثه

صلاح الدين بن عثمان أحمد

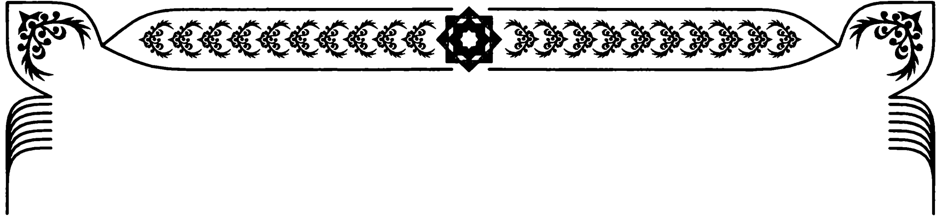
أمين مكتبة سماحته

بإشراف مؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية

المجلد الثاني

من الآية ٧٢ - ١٨٨ من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم



□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٣][(١)].

قال البخاري: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: اختلفتم، وهكذا قال مجاهد، قال فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي حذيفة، عن شبلٍ، عن ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: اختلفتم.

وقال عطاءٌ الخراساني والضحاك: اختصمتم فيها.

وقال ابن جريجٍ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ قال بعضهم: أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه، وكذا قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾؛ قال مجاهد: ما تغيِّبون.

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدثنا عمرو بن مسلمٍ البصري، حدثنا محمد بن الطفيل العبديُّ، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجلٌ حسنةً في سبعة أبياتٍ إلا أظهرها الله، وما عمل رجلٌ سيّئةً في سبعة أبياتٍ إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ هذا

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

البعض أي شيءٍ كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلةٌ به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدةٌ تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيَّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريقٍ صحيحٍ عن معصومٍ بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: ولهذا، ليس هناك حاجة لبيان البعض، والمقصود: أن الله أمر بضربها، ضرب القتيل ببعض البقرة، سواء كان الضرب بشيء من لحمها أو بلسانها أو بيدها أو برجلها، المقصود: أن الله جل جلاله أمرهم بضرب القتيل بشيء منها، أي شيء كان، ثم لما ضربوه بذلك أحياه الله وتكلم، وقال: قتلني فلان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ولهذا، قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أحمد بن سنانٍ، حدّثنا عفّان بن مسلمٍ، حدّثنا عبد الواحد بن زيادٍ، حدّثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرٍو، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: إنّ أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنةً حتّى وجدوها عند رجلٍ في بقرٍ له، وكانت بقرةً تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتّى أعطوه ملء مَسْكها دنانير، فذبحوها، فضربوه ـ يعني: القتيل ـ بعضوٍ منها، فقام تشخب أوداجه دمًا، فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني فلانٌ.

وكذا قال الحسن وعبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: إنّه ضرب ببعضها، وفي روايةٍ عن ابن عباس: أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف.

وقال عبد الرّزّاق: أنبأنا معمرٌ، قال: قال أيّوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها، قال معمر: قال قتادة: ضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلني فلانٌ.

وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا النّضر بن عربيٍّ، عن عكرمة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ﴾؛ فضُرِب بفخذها، فقام فقال: قتلني فلانٌ، قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن مجاهدٍ وقتادة وعكرمة نحو ذلك.

وقال السّدّيّ: فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه فقال: قتلني ابن أخي.

وقال أبو العالية: أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظمًا من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمّى لهم قاتله، ثمّ عاد ميّتًا كما كان.

وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها، وقيل: بلسانها، وقيل: بعَجب ذنَبها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: فضربوه فحيي، ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجّةً لهم على المعاد، وفاصلًا ما كان بينهم من الخصومة والعناد.

والله تعالى قد ذكر في هذه السّورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، وهذه القصّة، وقصّةُ ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، وقصّة ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وقصّة إبراهيم عليه السلام والطّيور الأربعة.

ونبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا، كما قال أبو داود الطّيالسيّ: حدّثنا شعبة، أخبرني يعلى بن عطاءٍ، قال: سمعت وكيع بن عدسٍ يحدّث عن أبي رزينٍ العقيليّ رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بوادٍ ممحلٍ، ثمّ مررت به خضرًا؟ قال: بلى. قال: كذلك النّشور، أو قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وشاهد هذا قوله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: ومثلما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، يخرج الناس من قبورهم، كما يحيي الله الأرض بعد موتها، يحيي الناس من قبورهم ويخرجهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فينتشرون كأنهم جراد منتشر. والله المستعان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[مسألة]:

استدل لمذهب الإمام مالكٍ في كون قول الجريح: فلانٌ قتلني، لوثًا بهذه القصّة؛ لأنّ القتيل لمّا حيي سئل عمن قتله، فقال فلان قتلني، فكان ذلك مقبولًا منه؛ لأنّه لا يخبر حينئذٍ إلّا بالحقّ، ولا يتّهم والحالة هذه. ورجحوا ذلك لحديث أنسٍ أن يهوديًّا قتل جاريةً على أوضاحٍ لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا، أفلان؟ أفلانٌ؟ حتى ذكروا اليهوديّ، فأومأت برأسها، فأخذ اليهوديّ، فلم يزل به حتّى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين.

وعند مالكٍ: إذا كان لوثًا، حلف أولياء القتيل قسامةً، وخالف الجمهور في ذلك، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا من باب القصاص؛ لأنه كما فعل يفعلون به، والقصاص (. . . .)[1]، فلما رضَّ رأسها بين حجرين، أمر النبي ﷺ أن يرض رأسه كذلك بين حجرين، جزاءً وفاقًا، وإذا قتله بالخنق يخنق، قتله بالتغريق يغرق، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]،

---

(١) بياض في الأصل.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ما لم تكن العملية محرمة فلا تعتبر، والمقصود أن الجاني يعامل بمثل ما فعل مع المجني عليه من قتله، جزاء وفاقًا، وذلك في غاية من العدل. وهذا اليهودي لما فعل ما فعل للجارية وأخذ أوضاحها، جمع بين الأمرين، بين قتلها وبين سرقة مالها، فعوقب بمثل ما فعل، نسأل الله العافية. . . . . . القتيل إذا قال: قتلني فلان، أنه لوث ظاهر، فلهذا قال لأصحابه أن يقسموا خمسين يمينًا على أن القاتل فلانًا، ويتمسكون بقول القتيل، كما أن القتيل هنا جعله الله ﷻ حجة في بيان القاتل؛ لما ضرب ببعض البقرة وأحياه الله، قال: قتلني فلان، وأخذ بذلك.

فالحاصل: أن القسامة لا بدّ فيها من لوث، واللوث معناه: وجود ما يغلب على الظن صحة الدعوى؛ كالعداوة بين المدعى عليهم وبين القتيل، وككلام القتيل إذا أدركوه وفيه رمق وسألوه من قتلك؟ فقال: قتلني فلان، فهذا أيضًا لوث.

كذلك، إذا وجدوا عليه من هو قائم بيده سكين فيه الدم، أو سيف فيه الدم فإن هذا لوث أيضًا في قسمهم عليه، وما أشبه ذلك مما يغلب على الظن لأولياء المقتول أن هؤلاء الجماعة أو هذا الشخص هو القاتل، فلهم أن يقسموا حينئذ بخمسين يمين ويستحقون دمه؛ كما فعل النبي ﷺ في قصة اليهودي.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ **[البقرة: ٧٤]**[1].

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كلّه، ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبدًا.

ولهذا، نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا، أن الواجب أن يستفيد المؤمن من آيات الله وأن يخشع قلبه وأن يلين وأن يزداد إيمانه قوة ورغبة في الخير، وألا تكون الآيات تفيده شرًّا وبعدًا؛ بل يجب أن يكون عنده عناية بالآيات والدلائل والبراهين ليستفيد منها ويخشع قلبه وليطمئن لما أمره الله به، ولما دعاه الله إليه، وليبتعد عما حرمه الله عليه، بخلاف هؤلاء الذين قست قلوبهم بعدما رأوا الآيات. وهذه الحجارة على قسوتها فيها ما يسقط من خشية الله، وهي حجارة جامدة صماء جماد، قال الله فيها: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، هذه من آيات الله العظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال العوفيّ في تفسيره عن ابن عبّاسٍ: لمّا ضرب المقتول ببعض البقرة، جلس أحيا ما كان قطّ، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي، قتلوني، ثمّ قُبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله، ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: أبناء أخي الشّيخ، ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو

أشدّ قسوةً من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشّقّق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله.

وفيه إدراكٌ لذلك بحسبه؛ كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: وقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج: ١٨]؛ فالجبال تخشع وتسجد وتسبح، بخلاف قلوب بني آدم هذه القاسية الشديدة المعرضة الغافلة، فإذا كانت الجبال والشجر والدواب والشمس والقمر تسبح وتسجد من خشية الله ﷿ سجودًا يليق بها أو يناسبها، فالله أعلم بكيفيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك، يجب أن تكون هذه القلوب التي خلقها الله لعبادته وأمرها بطاعته، يجب عليها أن تكون أقرب إلى هذا وأخشع من الجماد، وأقل قسوة، وأن تلين لأمره ودعوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله. ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: أنّه كان يقول: كلّ حجرٍ يتفجّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماءٍ أو يتردّى من رأس جبلٍ لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: وإنّ من الحجارة لألين من قلوبكم عمّا تدعون إليه من الحقّ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾.

وقال أبو علي الجياني في تفسيره: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: سقوط البُرَد من السّحاب.

قال القاضي الباقلّانيّ: وهذا تأويلٌ بعيدٌ، وتبعه في استبعاده الرازي، وهو كما قال، فإن هذا خروج عن اللّفظ بلا دليلٍ، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا هشام بن عمّارٍ، حدّثنا الحكم بن هشام الثّقفيّ، حدّثني يحيى بن أبي طالبٍ؛ يعني: يحيى بن يعقوب، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ قال: كثرة البكاء، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾؛ قال: قليل البكاء، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ قال: بكاء القلب من غير دموع العين.

وقد زعم بعضهم أنّ هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]. قال الرّازيّ والقرطبيّ وغيرهما من الأئمّة: ولا حاجة إلى هذا، فإنّ الله تعالى يخلق فيها هذه الصّفة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، وفي الصّحيح: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(١).

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو برقم (٢٨٨٩)، ومسلم في كتاب الحج باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حَرَمِها برقم (١٣٦٥).

وكحنين الجذع المتواتر خبره[١]، وفي صحيح مسلم: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلِيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[٢].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى في هذا: أن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل في بعض هذه المخلوقات خشوعًا فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالقها وعالم حقيقتها جَلَّ وَعَلَا، ويجعل فيها ما يجعل من الخشوع والخشية لله؛ كما ينطقها إذا شاء، كما تنطق الجلود يوم القيامة، وكما حنَّ الجذع، وكما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن السموات والأرض أنهما ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، إلى غير ذلك مما أخبر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو جَلَّ وَعَلَا، القادر على كل شيء، وهو الذي يجعل في هذه الجمادات من الشعور والخشية لله ما يجعل فيها بقدرته العظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالذي أنطق الحيوان العاقل فيما أنطقه به، وأنطق الحيوان البهيم بما جعل له من نطق مختلف، فهو القادر أن ينطق الجماد بما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو على كل شيء قدير، وله الحكمة البالغة والحجة القائمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي صفة الحجر الأسود: إنه يشهد لمن استلمه بحقٍّ يوم القيامة، وغير ذلك ممّا في معناه.

[تنبيهٌ]: اختلف علماء العربيّة في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾، بعد الإجماع على استحالة كونها للشّكّ، فقال بعضهم: (أو) هنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشدّ قسوةً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]، ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ [المرسلات: ٦]، وكما قال النابغة الذبياني:

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة برقم (٢٢٧٧).

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

تريد: ونصفه، قاله ابن جرير، وقال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدرًا كما أتى ربّه موسى على قدر

قال ابن جريرٍ: يعني: نال الخلافة وكانت لهُ قدرًا.

وحكى القرطبيّ قولًا أنّها للتّخيير؛ أي: مثلًا لهذا وهذا وهذا، مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين. وكذا حكاه الرّازيّ في تفسيره، وزاد قولًا آخر: إنّها للإبهام بالنّسبة إلى المخاطب؛ كقول القائل: أكلت خبزًا أو تمرًا، وهو يعلم أيّهما أكل، وقال آخر: إنّها بمعنى قول القائل: كل حلوًا أو حامضًا؛ أي: لا يخرج عن واحدٍ منهما؛ أي: وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشدّ قسوةً منها لا تخرج عن واحدٍ من هذين الشّيئين، والله أعلم.

وقال آخرون: (أو) هاهنا بمعنى (بل)؛ فتقديره: فهي كالحجارة بل أشدّ قسوةً، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النّساء: ٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصّافّات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النّجم: ٩].

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم، حكاه ابن جريرٍ.

وقال آخرون: المراد بذلك: الإبهام على المخاطب؛ كما قال أبو الأسود:

أحبّ محمّدًا حبًّا شديدًا وعبّاسًا وحمزة والوصيّا
فإن يك حبهم رشدًا أصبه وليس بمخطئ إن كان غيّا

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القول بمن قال: أنه وصي، والصحيح أنه ليس هناك وصية؛ لأن ظاهر أنه وصي، وأن خلافة الصديق وعمر وعثمان خطأ، فهذا غلط،

هذا إن صح عن الأسود الدؤلي، وأبو الأسود من ثقات التابعين المعروفين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن جريرٍ: قالوا: ولا شكّ أنّ أبا الأسود لم يكن شاكًّا في أنّ حبّ من سمّى رشدٌ، ولكنّه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنّه لمّا قال هذه الأبيات، قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله، ثم انتزع؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال؟

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المَثَلين؛ إمّا أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإمّا أن تكون أشد منها في القسوة.

قال ابن جريرٍ: ومعنى ذلك على هذا التّأويل: فبعضها كالحجارة قسوةً، وبعضها أشدّ قسوةً من الحجارة.

وقد رجّحه ابن جريرٍ مع توجيه غيره.

(قلت): وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة: ١٧]، مع قوله: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النور: ٣٩]، مع قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ [النور: ٤٠]؛ أي: إنّ منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقول بأنه للقسوة أظهر، فإن العرب تستعمل هذا في إثبات ما قالته أولًا؛ يعني: إن لم تكن الحجارة أشد قسوة منها؛ لتحقيق أنها كالحجارة في قسوتها، ومثل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]؛ يعني: إن لم يكن قدرهما فليس فوقهما في

القرب، والمقصود تحقيق أنها تطابق، وأنها كالحجارة في القسوة، وليس المراد الشك ولا التنويع، وإنما المراد أن هذه القلوب قد قست بعدما رأت الآيات حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، مبالغة في إثبات قسوتها، فإن لم تكن مثلها فليست أقل؛ بل أكثر وأشد.

والمقصود من هذا كله: إثبات قسوتها، وأنها والعياذ بالله قد بعدت عن الحق ولم تتأثر بالحجج والآيات، فصارت كالحجارة في قسوتها وبعدها عن التأثر. وهكذا ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]؛ يعني: أنه في القرب قدر قوسين؛ فإن لم يكن كذلك فهو أدنى؛ لتحقيق أنه قاب قوسين. كذلك: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصّافّات: ١٤٧]؛ يعني: إن لم يزيدوا لم ينقصوا، المعنى أنهم مائة ألف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدّثنا محمّد بن أحمد بن إبراهيم، حدّثنا محمّد بن أيّوب، حدّثنا محمّد بن عبد الله بن أبي الثّلج، حدّثنا عليّ بن حفصٍ، حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطبٍ، عن عبد الله بن دينارٍ، عن ابن عمر: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةُ الْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ: الْقَلْبُ الْقَاسِي**».

رواه التّرمذيّ في كتاب الزّهد من جامعه، عن محمّد بن عبد الله بن أبي الثّلج صاحب الإمام أحمد، به(١).

ومن وجهٍ آخر: عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطبٍ، به، وقال: غريبٌ، لا نعرفه إلّا من حديث إبراهيم، وروى البزّار عن

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب منه برقم (٢٤١١).

أنسٍ مرفوعًا: «**أَرْبَعٌ مِنَ الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

تكلم على محمد بن أبي الثلج؟

الطالب: محمد بن عبد الله ابن إسماعيل بن أبي الثلج بمثلثة وجيم، البغدادي، أصله من الري، صدوق من الحادية عشرة، مات سنة سبع وخمسين خ ت.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وسكوت الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا لأنه من باب الترهيب، وكان ينبغي للمؤلف أن ينبِّه على حاله، أو لا يذكره رَحِمَهُ اللَّهُ، وإلا، فهذه الأمور الأربعة كلها تدل على ضعف في الإيمان، أن جمود العين وقلة البكاء من خشية الله جَلَّ وَعَلَا، وهكذا قسوة القلب وهكذا الحرص على الدنيا، الحرص الزائد، وهكذا طول الأمل وعدم استحضار الموت وعدم ذكر الموت، كل هذه من أسباب الشقاء والهلاك إلا من رحم الله. نسأل الله العافية.

الطالب: علي بن حفص المدائني، نزيل بغداد، صدوق من التاسعة. م د ت س.

الآخر: علي بن حفص المروزي، نزيل عسقلان، قال البخاري: لقيته بعسقلان سنة سبع عشرة، وتعقبه أبو حاتم بأنه علي بن الحسن بن نشيط بفتح النون وكسر المعجمة، وأنه لقيه بعسقلان في تلك السنة، وإنه مقبول، وهو من صغار العاشرة. خ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

مقتضى هذا أن الحديث لا بأس به، الذي من طريق محمّد بن عبد الله بن أبي الثّلج، عن عليٍّ بن حفصٍ، عن إبراهيم بن عبد الله بن حاطبٍ، عن عبد الله بن دينارٍ، عن ابن عمر، ظاهره أنه لا بأس بإسناده.

ومما يؤيد الحديث هذا حديث أبي هريرة في الصحيحين: «**مَنْ كَانَ**

يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ ليصْمُتْ»[١]، ولأن كثرة الكلام بغير ذكر الله وبغير الخير قد توقع في أشياء كثيرة من الغيبة والنميمة والكذب، وغير ذلك مما يضر العبد في دينه ودنياه، فحفظ اللسان وضبطه إلا من الخير، هذا هو طوق النجاة وطريق السعادة، وإطلاق اللسان فيه خطر عظيم. نسأل الله السلامة.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ **[البقرة: ٧٥ ـ ٧٧]**[٢].

يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون، ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: ينقادوا لكم بالطّاعة، هؤلاء الفرقة الضّالّة من اليهود الّذين شاهد آباؤهم من الآيات البيّنات ما شاهدوه، ثمّ قست قلوبهم من بعد ذلك: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ أي: يتأوّلونه على غير تأويله، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: فهموه على الجليّة ومع هذا، يخالفونه على بصيرةٍ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنّهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه برقم (٦١٣٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير برقم (٤٧).

(٢) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، أنّه قال: ثمّ قال الله تعالى لنبيّه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيّسهم منهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وليس قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: يسمعون التّوراة، كلّهم قد سمعها، ولكن هم الّذين سألوا موسى رؤية ربّهم فأخذتهم الصّاعقة فيها.

وقال محمّد بن إسحاق، فيما حدّثني بعض أهل العلم: أنّهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلّمك، فطلب ذلك موسى إلى ربّه تعالى، فقال: نعم، مرهم فليتطهّروا وليطهّروا ثيابهم ويصوموا، ففعلوا، ثمّ خرج بهم حتّى أتوا الطّور، فلمّا غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجودًا، وكلّمه ربه، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا، ثمّ انصرف بهم إلى بني إسرائيل.

فلما جاءهم، حرّف فريقٌ منهم ما أمرهم به، وقالوا، حين قال موسى لبني إسرائيل: إنّ الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنّما قال كذا وكذا، خلافًا لما قال الله ﷻ لهم، فهم الّذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدّيّ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ قال: هي التّوراة حرّفوها.

وهذا الذي ذكره السّدّيّ أعمّ ممّا ذكره ابن عبّاسٍ وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جريرٍ لظاهر السّياق، فإنّه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصّلاة والسّلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٦]؛ أي: مبلّغًا إليه.

ولهذا، قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾؛ قال: هم اليهود، كانوا يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهدٌ: الّذين يحرّفونه والّذين يكتمونه هم العلماء منهم، وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمّدٍ ﷺ فحرّفوه عن مواضعه.

وقال السّدّيّ: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾؛ أي: أنّهم أذنبوا.

وقال ابن وهبٍ: قال ابن زيدٍ في قوله: ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ قال: التّوراة التي أنزلها الله عليهم يحرّفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا والحرام فيها حلالًا، والحقّ فيها باطلًا والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحقّ برشوةٍ أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوةٍ أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحدٌ يسألهم شيئًا ليس فيه حقٌّ ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحاصل من هذا أن الله ﷻ يبين لأوليائه من هذه الأمة، محمد ﷺ وأصحابه، أن اليهود لا رجاء فيهم، في إيمانهم وتقواهم، وأنهم معروفون بكتم الحق وتحريف الحق على حسب أهوائهم ومقاصدهم الخبيثة ومآكدهم، وما يحصل لهم من أخذ الرشوة، كل ذلك معروفٌ عنهم؛ فمن كان بهذه المثابة فهو بعيد أن يحصي الحق وأن يقبل الحق إذا خالف هواه، وإنما يفتون بالحق ويقولون به إذا وافق هواهم، أما إذا خالف أهواءهم فإنهم يكتمونه ويحرفونه، والمقصود من هذا كله تحذير هذه الأمة أن تفعل فعلهم فيصيبها ما أصابهم من القسوة والغضب والهلاك. نسأل الله العافية.

يعني: احذروا صفات هؤلاء المجرمين، لا تكونوا مثلهم، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾؛ يؤولونه على غير تأويله مع العلم بمعناه، لكن لأجل الهوى في حق من يدفع لهم الرشوة، أو في حق من كان لهم صديق، أو في حق من كان لهم عدو، فهم ليسوا على هدى؛ بل هم متَّبعون لأهوائهم فيما يحلِّلون ويحرِّمون، وبما يستجيبون له وبما لا يستجيبون له.

ولهذا، لم يستجب للرسول ﷺ منهم إلا النزر القليل النادر، أما النصارى فكثير قد أسلموا وأنابوا؛ لأنهم ليسوا مثلهم في التحريف والقسوة. نسأل الله العافية.

فالواجب على المؤمن وعلى كل مكلف أن يحذر صفات هؤلاء المجرمين، وأن يقبل الحق ويلتزمه، وألا يتبع هواه؛ بل يقبل الحق ويلتزمه؛ سواء وافق هواه أو خالف هواه، فالحق أحق أن يقدم، بخلاف حال هؤلاء اليهود وأشباههم من علماء السوء الذين آثروا الدنيا على الآخرة، وقدموا أهواءهم على طاعة الله ورسوله، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، وكل من فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى»؛ النصارى غلب عليهم الجهل وداؤهم الجهل، وأسلم منهم الكثير وجم غفير إلى الآن، أما اليهود، فلا، فداؤهم العناد والحسد والبغي والظلم وإيثار الدنيا على الآخرة، ولهذا، لا يسلم منهم إلا النادر في كل عصر وفي كل زمان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية، قال محمّد بن إسحاق: حدّثنا محمّد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا

ءَامَنَّا﴾؛ أي: بصاحبكم محمد رسول الله، ولكنّه إليكم خاصّةً، وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا: لا تحدّثوا العرب بهذا، فإنّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: تقرّون بأنّه نبيٌّ، وقد علمتم أنّه قد أخذ له الميثاق عليكم باتّباعه، وهو يخبرهم أنّه النّبيّ الذي كنّا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ: يعني المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمّدٍ ﷺ قالوا: آمنّا. وقال السّدّيّ: هؤلاء ناسٌ من اليهود، آمنوا ثمّ نافقوا. وكذا قال الرّبيع بن أنسٍ وقتادة وغير واحدٍ من السّلف والخلف، حتّى قال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهبٍ عنه، كان رسول الله ﷺ قد قال: «**لَا يَدخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةَ الْمَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**»، فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنّفاق: اذهبوا فقولوا: آمنّا، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون؛ ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر، فلمّا أخبر الله نبيّه ﷺ قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون، وكان المؤمنون يظنّون أنّهم مؤمنون، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا، فيقولون: بلى، فإذا رجعوا إلى قومهم؛ يعني: الرؤساء، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من محمّدٍ ﷺ.

وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾؛ قال: كانوا يقولون: سيكون نبيٌّ، فخلا بعضهم ببعض، ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

قولٌ آخر في المراد بالفتح: قال ابن جريج: حدّثني القاسم بن أبي بزة، عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ قال: قام النّبيّ ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «**يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَيَا عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ**»، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمّدًا؟ ما خرج هذا القول إلّا منكم، ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله للفتح، يكون لهم حجّةً عليكم.

قال ابن جريجٍ، عن مجاهدٍ: هذا حين أرسل إليهم عليًّا فآذوا محمّدًا ﷺ.

وقال السّدّيّ ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، من العذاب ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾؛ هؤلاء ناسٌ من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عذّبوا به، فقال بعضهم لبعضٍ: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا: نحن أحبّ إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال عطاءٌ الخراساني: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: بما قضى لكم وعليكم.

وقال الحسن البصريّ: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا: آمنّا، وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قال بعضهم: لا تحدّثوا أصحاب محمّدٍ بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾؛ قال أبو العالية: يعني: ما أسرّوا من كفرهم بمحمّدٍ ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم، وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾؛ قال: كان ما أسرّوا أنّهم كانوا إذا تولّوا عن أصحاب محمّدٍ ﷺ، وخلا بعضهم إلى بعضٍ، تناهوا أن يخبر أحدٌ منهم أصحاب محمّدٍ ﷺ بما فتح الله عليهم ممّا في كتابهم، خشية أن يحاجّهم أصحاب محمّدٍ ﷺ بما في كتابهم عند ربّهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾؛ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: وآمنا. وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة. والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والآية عامة: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾: ما يسرون من النفاق والكفر والضلال، وما يعلنون أيضًا؛ كإيمانهم الظاهر، والنفاق، وما قالوه للناس، كل هذا يعلمه سبحانه، لا تخفى عليه خافية جَلَّ وَعَلَا.

واليهود عندهم من المكر والخداع والكذب والجحد والحسد ما يحملهم على هذه الأمور؛ تارة ينافقون ويرفضون ما عندهم من الآيات والبراهين التي أنزلها الله عليهم وجعلها حجة قائمة، وتارة يجحدون ذلك ويلوم بعضهم بعضًا على ذلك: لماذا أخبرتم (........) أنزل عليهم وما أيد به نبيه عليه الصلاة والسلام، كلها من الفتح.

وقد يطلق الفتح على أنواع العذاب: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ يعني: احكم بيننا وبينهم بالعقوبة الفاصلة.

فالحاصل: أنهم قد يخبرون بهذا ويخبرون بهذا، فإذا رجعوا إلى شياطينهم وإلى أصحابهم جحدوا وكفروا. نسأل الله العافية.

وكذلك، أنه يجب على العبد الحذر، إذا كان هؤلاء جاءتهم الأنبياء وتابع الله عليهم الأنبياء وأنزل عليهم التوراة ثم الإنجيل، ثم جاء محمد ﷺ بالعلم العظيم الواضح، ومع هذا، كفروا بطغيانهم وضلالهم، فهذا يوجب للعبد الحذر، وأن يسأل ربه العافية، وأن يثبته على الإيمان، وقد أعطوا

عقولًا وأعطوا مكانًا وأعطوا فهمًا، فما زادهم إلا ضلالًا وطغيانًا، والبعد عن الهدى. نسأل الله العافية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩](١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾؛ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهدٌ. والأمّيّون جمع أمّيٍّ، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة. قال أبو العالية والرّبيع وقتادة وإبراهيم النّخعيّ وغير واحدٍ: وهو ظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ أي: لا يدرون ما فيه.

ولهذا، في صفات النّبيّ ﷺ: أنّه الأمي؛ لأنّه لم يكن يحسن الكتابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال عليه الصّلاة السلام: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**» الحديث؛ أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتابٍ ولا حساب، وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يفيد أن الأمي يجمع الأمرين، ليس من أهل القراءة ولا من أهل الكتابة، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ليسوا أهل علم وليسوا أهل قراءة، ولهذا، صارت

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

نبوته ﷺ وما جاء به من العلم العظيم من أعظم المعجزات، أنه لا يكتب ولا يقرأ ثم جاء بعلم عظيم وكتاب عظيم ووحي عظيم مشتمل على جميع مصالح العباد، فدل ذلك على أنه رسول الله حقًّا، فالأميون قراءتهم قليلة وعلمهم قليل، لا يكتبون ولا يقرؤون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن جريرٍ: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخطّ من الرّجال إلى أمه من جهله بالكتاب دون أبيه.

قال: وقد روي عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قولٌ خلاف هذا، وهو ما حدّثنا به أبو كريبٍ حدّثنا عثمان بن سعيدٍ، عن بشر بن عمارة، عن أبي روقٍ، عن الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾؛ قال: الأمّيّون قومٌ لم يصدّقوا رسولًا أرسله الله، ولا كتابًا أنزله الله، فكتبوا كتابًا بأيديهم، ثمّ قالوا لقومٍ سفلةٍ جهّالٍ: هذا من عند الله.

وقال: قد أخبر أنّهم يكتبون بأيديهم ثمّ سمّاهم أمّيّين لجحودهم كتب الله ورسله، ثمّ قال ابن جرير: وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أنّ الأمّيّ عند العرب الذي لا يكتب.

قلت: ثمّ في صحّة هذا عن ابن عبّاسٍ بهذا الإسناد نظرٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأن الضحاك ينفي سماعه من ابن عباس، قيل: سمع منه، وقيل: لم يسمع منه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال ابن أبِي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾: إلّا أحاديث.

وقال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ يقول: إلا قولًا يقولون بأفواههم كذبًا.

وقال مجاهدٌ: إلّا كذبًا، وقال سنيدٌ، عن حجّاجٍ، عن ابن جريجٍ، عن مجاهدٍ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ قال: أناسٌ من اليهود، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا، وكانوا يتكلّمون بالظّنّ بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب، أمانيّ يتمنّونها.

وعن الحسن البصريّ نحوه.

وقال أبو العالية والرّبيع وقتادة: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ يتمنّون على الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ قال: تمنّوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم.

قال ابن جريرٍ: والأشبه بالصّواب قول الضّحّاك عن ابن عبّاسٍ.

وقال مجاهدٌ: إنّ الأمّيّين الّذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئًا، ولكنّهم يتخرّصون الكذب ويتخرّصون الأباطيل كذبًا وزورًا، والتّمنّي في هذا الموضع هو تخلّق الكذب وتخرّصه، ومنه الخبر المرويّ عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه: ما تغنّيت ولا تمنّيت؛ يعني: ما تخرّصت الباطل ولا اختلقت الكذب.

وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ بالتشديد والتخفيف أيضًا؛ أي: إلا تلاوة، فعلى هذا يكون استثناء منقطعًا، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾؛ أي: تلا، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وقال كعب بن مالك الشاعر:

تمنَّى كتاب الله أول ليلة ... وآخره لاقى حِمام المقادر

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

يعني: عثمان رضي الله عنه، تمنى؛ يعني: تلا كتاب الله.

وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة ... تمنّى داود الكتاب على رسل

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

على رِسل؛ يعني: على مهل وتؤدة وعدم عجلة.

تمني داود؛ يعني: مثل تمني داود، مصدر تمنى، مصدر مميز للنوع. تمني عثمان؛ يعني: مثل تمني داود، مثل تلاوة داود.

وقال محمّد بن إسْحاق: حَدَّثَنِي محَمَّد بْن أَبِي محَمَّدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: ولا يدرون ما فيه، وهم يجدون نبوّتك بِالظَّنِّ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى: أنهم يتلونه، لكن لا يفقهونه، أميٌّ يتلو ولكن لا يفقه، الأمي قد يتلو أشياء ولكن لا يفقه معناه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال مجاهدٌ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾: يكذبون. وقال قتادة وأبو العالية والرّبيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، هؤلاء صنفٌ آخر من اليهود. وهم الدّعاة إلى الضّلال بالزّور والكذب على الله وأكل أموال النّاس بالباطل، والويل: الهلاك والدّمار، وهي كلمةٌ مشهورةٌ في اللّغة.

وقال سفيان الثّوريّ، عن زياد بن فيّاضٍ: سمعت أبا عياضٍ يقول: ويلٌ: صديدٌ في أصل جهنّم.

وقال عطاء بن يسارٍ: الويل: وادٍ في جهنّم، لو سيّرت فيه الجبال لماعت.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درّاجٍ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريّ، عن رسول الله ﷺ، قال: «**الوَيْلُ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي**

فِيهِ الْكَافِرِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَه»[١]، ورواه التّرمذيّ عن عبد الرحمٰن بن حميدٍ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن درّاجٍ، به، وقال: هذا الحديث غريبٌ لا نعرفه إلّا من حديث ابن لهيعة.

(قلت): لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكنّ الآفة ممّن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوع منكرٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعتمد فيه: أن (ويل) إشارة إلى شدة العذاب وشدة الوعيد، فهو من الألفاظ التي يتوعد بها، وهو وارد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] إلى غير ذلك؛ فالمقصود الوعيد وبيان قبح ما فعلوا، وأما ذكر أنه واد في جهنم وأنه كذا، فليس بثابت، وإنما هو إشارة إلى أنهم متوعدون، وأنهم على خطر، وأنهم فعلوا جريمة. فلهذا، جاء في أمرهم: ويل؛ يعني: ويل لهم مما سيقع من العذاب. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن جريرٍ: حدّثنا المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، حدثنا صالحٍ القشيريّ، حدّثنا عليّ بن جريرٍ، عن حمّاد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفرٍ، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ قال: «**الْوَيْلُ: جَبَلٌ فِي النَّارِ، وَهُوَ الذي أُنْزِلَ فِي الْيَهُودِ؛ لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، زَادُوا فِيهَا مَا أَحَبُّوا، وَمَحَوْا مِنْهَا مَا يَكْرَهُونَ، وَمَحَوُا اسْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَلِذَلِكَ، غَضِبَ اللهُ عليهم، فرفع بعض التوراة،**

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنبياء برقم (٣١٦٤)، والإمام أحمد (٢/ ٧٥).

فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾»، وهذا غريبٌ أيضًا جدًّا.

وعن ابن عبّاسٍ: الويل: المشقة من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدّة الشّرّ، وقال سيبويه: ويلٌ: لمن وقع في الهلكة، وويحٌ: لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع، والويح: ترحّمٌ، وقال غيره: الويل: الحزن، وقال الخليل: وفي معنى ويلٍ: ويحٌ وويشٌ وويهٌ وويكٌ وويبٌ، ومنهم من فرّق بينها، وقال بعض النّحاة: إنّما جاز الابتداء بها وهي نكرةٌ؛ لأنّ فيها معنى الدّعاء، ومنهم من جوّز نصبها بمعنى: ألزمهم ويلًا.

(قلت): لكن لم يقرأ بذلك أحدٌ، وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ قال: هم أحبار اليهود، وكذا قال سعيدٌ، عن قتادة: هم اليهود، وقال وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان الثّوريّ، عن عبد الرحمٰن بن علقمة: سألت ابن عباس رضي الله عنهما، عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب.

وقال السّدّيّ: كان ناسٌ من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدّثونهم أنه من عند الله، فيأخذوا به ثمنًا قليلًا.

وقال الزّهريّ: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبّاسٍ أنّه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضًّا لم يشب، وقد حدّثكم الله تعالى أنّ أهل الكتاب، قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله، ما رأينا منهم أحدًا قطّ سألكم عن الذي أنزل عليكم، رواه البخاريّ من طرقٍ عن الزّهريّ.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصريّ: الثّمن القليل: الدّنيا بحذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: فويلٌ لهم ممّا كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويلٌ لهم ممّا أكلوا به من السّحت؛ كما قال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ يقول: ممّا يأكلون به النّاس السفلة وغيرهم. والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

ما تكلم على السند الأخير؟

الطالب: قال: سنده مظلم، فالمثنى وإبراهيم بن عبد السلام وعلي بن جرير، وأما صالح القشيري، فإن الحديث في ابن جرير لإبراهيم بن عبد السلام، عن صالح، عن علي بن حرب؛ ثلاثتهم ما وجدت تراجمهم، وإن كنت تريد التفصيل راجع ما كتبه الشيخ أحمد شاكر على ابن جرير وكنانة العدوي، لا يدرى أسمع من عثمان أم لا؟! وبما أن هذين الحديثين لم يصِحّا، فيفسر الويل بما تقتضيه اللغة العربية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

قال في التقريب شيئًا عن إبراهيم بن عبد السلام؟

الطالب: إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الله بن باباه بفتح الموحدتين بغير همز، المخزومي المكي، ضعيف من الثامنة. ابن ماجه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

يعني: علي بن جرير، هذا غريب، والمؤلف الحافظ رحمه الله قال: غريب، وما علق عليه شيء.

والحاصل: أن ذكر شيء في تفسير الويل بأنه جبل أو وادٍ، فهذا

ليس بذلك، فمن فسَّره بأنه جبل أو وادٍ في جهنم ليس بذلك، إنما هو وعيد، إشارة للوعيد بما اقترفت يد من فعل ما جاء فيه الوعيد من المطففين، ولكل هُمَزة إلى آخره، فالمعنى: التحذير من هذا الشيء والترهيب منه وأن صاحبه معرض للوعيد.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ **[البقرة: ٨٠]**(١).

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادّعوه لأنفسهم من أنّهم لن تمسّهم النّار إلّا أيّامًا معدودةً، ثمّ ينجون منها، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾؛ أي: بذلك، فإن كان قد وقع عهدٌ فهو لا يخلف عهده، ولكنّ هذا ما جرى ولا كان، ولهذا، أتى (بأم) التي بمعنى: بل؛ أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

قال محمّد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ: أن اليهود كانوا يقولون أن هذه الدّنيا سبعة آلاف سنةٍ، وإنّما نعذّب بكلّ ألف سنةٍ يومًا في النّار، وإنّما هي سبعة أيّام معدودةٍ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾؛ إلى قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ثم رواه عن محمّدٍ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، بنحوه.

وقال العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ اليهود قالوا: لن تمسّنا النّار إلا أربعين ليلة، زاد غيره: وهي مدّة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبيّ عن ابن عباس وقتادة.

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من جهلهم وكذبهم وجرأتهم على الله؛ فإن من تاب من عبادة العجل ورجع إلى الله واستقام على شريعة موسى فله الجنة والكرامة، ومن لم يتب واستمر على الكفر والطغيان فله النار أبد الآباد، ليست أيامًا معدودة؛ بل أبد الآباد، نعوذ بالله، ولهذا، قالت الآية الأخرى في سورة آل عمران: ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]؛ غرَّهم كذبهم وافتراؤهم وجرأتهم على الله وإمهال الله لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالواجب على أهل العقل أن يحذروا الغرة بالله والتهاون بأمره والافتراء عليه، فإن عقابه شديد وعذابه عظيم والعاقبة للكذابين وخيمة، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله، أمر اليهود أمر غريب، وجرأتهم على الله، وكذبهم وافتراؤهم على الرسل وعلى الأنبياء وعلى الأخيار بإقدامهم على الباطل، وإصرارهم على العناد، هذه من آيات الله فيهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الضحاك: قال ابن عبّاسٍ: زعمت اليهود أنّهم وجدوا في التّوراة مكتوبًا أنّ ما بين طرفي جهنّم مسيرة أربعين سنةً إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزّقّوم التي هي نابتةٌ في أصل الجحيم، وقال أعداء الله: إنّما نعذّب حتّى ننتهي إلى شجرة الزّقّوم فتذهب جهنّم وتهلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾؛ يعني: الأيّام التي عبدنا فيها العجل.

وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قومٌ آخرون؛ يعنون: محمّدًا ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «**بل أنتم خالدون مخلّدون، لا يخلفكم فيها أحد**»، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رَحِمَهُ اللَّهُ: حدّثنا عبد الرّحمٰن بن جعفرٍ، حدّثنا محمّد بن محمّد بن صخرٍ، حدّثنا أبو عبد الرّحمٰن المقرئ، حدّثنا ليث بن سعدٍ، حدّثني سعيد بن أبي سعيدٍ، عن أبي هريرة، قال: لمّا فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ يَهُودَ**». فجمعوا له، فقال: «**إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟**». فقالوا: نعم. قال لهم النّبيّ ﷺ: «**منْ أبُوكُمْ**». قالوا: فلانٌ. فقال: «**كَذَبْتُمْ؛ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ**». قالوا: صدقت. قال «**فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟**» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: «**مَنْ أَهْلُ النَّارِ**». قالوا: نكون فيها يسيرًا ثمّ تخلفونا فيها. فقال النّبيّ ﷺ: «**اخْسَؤوا فِيهَا، وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا**»(١).

ثمّ قال: «**هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟**». فقالوا: نعم، يا أبا القاسم. قال: «**هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا**». قالوا: نعم. قال: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟**». قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرّك. ورواه الإمام أحمد والبخاريّ والنّسائيّ من حديث اللّيث بن سعد بنحوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من آيات النبوة، أن الله أطلعه على ما وضعوا في الشاة، وفي الحديث الثاني أن الذراع أنطقه الله بذلك، وبيّن له أنه مسموم، أن هذه الشاة مسمومة.

*

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم برقم (٣١٦٩).

□ **قوله تعالى:** ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: ٨١][(١)]؟

هذه للمشركين؛ يعني: سيئات الشرك، وخطيئة الشرك والكفر، فهؤلاء هم المخلدون في النار. أما العاصي فهو تحت المشيئة؛ كالزاني والسارق إذا لم يستحل ذلك، والعاق لوالديه وشارب الخمر والمُرابي هؤلاء تحت المشيئة؛ كما قال الله ـ سبحانه ـ في سورة النساء في موضعين من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فالشرك والكفر لا يغفر إذا مات عليه الإنسان، الشرك الأكبر، والكفر الأكبر، هذا لا يغفر، صاحبه مخلدٌ في النار، أما الشرك الأصغر والكفر الأصغر فهذا صاحبه على خطر، فإن رجحت حسناته سلم من دخول النار، وإذا عذب على ما قدر ما مات عليه من الشرك والشرك الأصغر والكفر الأصغر، وهكذا أصحاب المعاصي إن عفا الله عنهم وإلا عذبوا على قدر معاصيهم تعذيبًا مؤقتًا، ثم يخرجهم الله من النار إلى جنته، إذا كانوا ماتوا على التوحيد والإسلام، لكن من مات وهو زاني مات وهو سارق مات وهو عاقٌّ لوالديه، مات وهو يأكل الربا أو يشرب الخمر مات، هذا تحت المشيئة، بعضهم يعفو الله عنه وبعضهم يدخل النار، ويعذب في النار على قدر المعصية التي فعلها واستمر عليها، ثم يخرجه الله من النار بفضله ورحمته ﷻ، ولا يخلد في النار أبد الآباد إلَّا الكفار، الكفر الأكبر، والشرك الأكبر، هم الذين يخلدون في النار أبد الآباد، كما قال الله في حقهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال في شأنهم

(١) من برنامج نور على الدرب، رقم الحلقة (٧٧٩/ ١٠).

سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، نسأل الله العافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢](١).

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنّيتم ولا كما تشتهون؛ بل الأمر أنّه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة؛ بل جميع أعماله سيّئاتٌ، فهذا من أهل النّار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من العمل الموافق للشّريعة، فهم من أهل الجنّة.

وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النّساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؛ أي: عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فما له من حسنةٍ. وفي روايةٍ عن ابن عبّاسٍ، قال: الشّرك.

قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن أبي وائلٍ وأبي العالية ومجاهدٍ وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه.

وقال الحسن أيضًا والسّدّيّ: السّيّئة: الكبيرة من الكبائر، وقال ابن

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

جريجٍ، عن مجاهدٍ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ قال: بقلبه.

وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ قال: أحاط به شركه.

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خيثم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ قال: الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب، وعن السّدّيّ وأبي رزينٍ نحوه، وقال أبو العالية ومجاهدٌ والحسن في روايةٍ عنهما، وقتادة والرّبيع بن أنسٍ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، والموجبة: الكبيرة، وكلّ هذه الأقوال متقاربةٌ في المعنى، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ابن خثيم، تقديم الثاء على الياء.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمعنى هنا: أن من كسب خطيئة؛ يعني: أي خطيئة من المعاصي والكفر وغير ذلك، ثم قال بعده: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ لأن السيئات قسمان:

قسم: يحبط بالأعمال كلها، وهو الكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقسم: لا يحبط؛ بل يحصل به الوعيد، وقد يحصل به دخول النار، ولكن لا يحبط الأعمال، وهو ما دون الشرك.

فمن أحاطت به خطيئته؛ بأن كفر بالله وتعاطى ما يوجب حبوط الأعمال، فهذا مخلد في النار أبد الآباد، أما من كانت معصيته لا تحيط به، فيبقى له حسنة التوحيد، وحسنة الإيمان، وإنما يكون عنده معاصٍ دون الشرك، فهذا، وإن دخل النار، لا يخلد فيها أبد الآباد؛ بل له أمد وله نهاية ثم يخرج منها إلى الجنة على ما أجمع عليه أهل السُّنَّة والجماعة؛ أن المعاصي قسمان:

معاصٍ تعتبر كفرًا بالله وردَّة عن الإسلام، فهذه تحيط بالعبد وتبطل عمله كله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقسم ثانٍ: دون الشرك؛ كالزنا والسرقة والربا والعقوق والقطيعة وأشباه ذلك، والغيبة والنميمة وأشباه ذلك من المعاصي التي لا يستحلها أهلها؛ بل يعلمون أنها معاصٍ، ولكن يحملهم الهوى وحب الدنيا أو أسباب أخرى على تعاطيها، ثم يموتون عليها ولم يتوبوا، فهؤلاء تحت المشيئة؛ إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم عليها على قدرها، ثم بعد مضي المدة، والله يعلمها، على قدر أعمالهم السيئة، يخرجهم الله من النار إلى نهر الحياة، وهذا مما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة؛ خلافًا للخوارج والمعتزلة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، آيتان في سورة النساء محكمتان عليهما أهل السُّنَّة والجماعة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد؛ حيث قال: حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا عمرو بن قتادة، عن عبد ربّه، عن أبي عياضٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**»(١)، وإنّ رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا كمثل قومٍ نزلوا بأرضٍ فلاةٍ، فحضر صنيع القوم، فجعل الرّجل ينطلق فيجيء بالعود، والرّجل يجيء بالعود حتّى جمعوا سوادًا، وأجّجوا نارًا فأنضجوا ما قذفوا فيها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

والمعنى: أن المعاصي وإن كانت صغائر قد تجتمع على العبد حتى تهلكه، فينبغي للمؤمن أن يحذرها صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، وفي هذا الحديث ضرب المثل لقوم ينزلون منزلًا ليتغدوا أو يتعشوا وليس عندهم حطب، فيتفرقون؛ يأتي هذا بعود وهذا بعود، وهذا ببعضه وهذا ببعضه، حتى يجتمع شيء، ثم يوقدون نارًا ثم ينضجون صنيعهم، هكذا

(١) أخرجه الإمام (١/ ٤٠٢).

السيئات، تجتمع هاهنا وهاهنا، فإذا اجتمعت عليه أهلكته، وهو يحتقرها ولا يبالي بها، ولهذا، قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب**»، وفي اللفظ الآخر: «**فإن لها من الله طالبًا**»، وهذا مذكور عند قوله ﷻ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّدٌ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنّة خالدين فيها، يخبرهم أنّ الثّواب بالخير والشّرّ مقيم على أهله أبدًا لا انقطاع له.

* *

□ **تفسير قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣](١).

يذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنّهم تولّوا عن ذلك كلّه، وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه، ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثمّ بعده حقّ المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حقّ الوالدين، ولهذا، يقرن تبارك وتعالى بين حقّه وحقّ الوالدين؛ كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراءِ: ٢٦]. وفي الصّحيحين، عن ابن مسعودٍ: قلت: يا رسول الله، أيّ العمل أفضل؟ قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا**». قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**». قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١). ولهذا جاء في الحديث الصّحيح أنّ رجلًا قال: يا رسول الله من أبرّ؟ قال: «أُمَّكَ»، قال: ثمّ من؟ قال: «أُمَّكَ»، قال: ثُمّ من؟ قال: «أباك، ثم أدناك ثم أدناك»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: سقط عن المؤلف: «**ثم أمك**» في المرة الثالثة، سقط هنا، «**ثم أباك**» في الرابعة. وهكذا في اللفظ الآخر: قال: يا رسول الله؛ أي: الناس أحق بحسن صحبتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**». فالوالد في المرتبة الرابعة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ قال الزّمخشريّ خبرٌ بمعنى الطّلب، وهو آكد، وقيل: كان أصله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ كما قرأها من قرأها من السّلف، فحذفت أن فارتفع.

وحكي عن أبيٍّ وابن مسعود أنهما قرآها: لا تعبدوا إلّا الله.

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها برقم (٥٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (١٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به برقم (٢٥٤٨).

[وقيل: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قَسَم؛ أي: والله، والله، لا تعبدون إلا الله]، ونقل هذا التّوجيه القرطبيّ في تفسيره عن سيبويه. قال: واختاره الكسائي والفرّاء.

قال: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وهم الصّغار الّذين لا كاسب لهم من الآباء.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعنى: أن أعظم حق هو توحيد الله بالعبادة والإخلاص له سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا، قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فالله أخذ المواثيق على الأمم على أيدي الرسل أن يعبدوا الله وحده دون كل ما سواه، ثم حق المخلوق بعد ذلك من الوالدين والأقارب وغير ذلك، فحق الله أن يعبد بطاعة أوامره وترك نواهيه، وأن يوصى بذلك فلا يصلى إلا له، ولا يصام إلا له، ولا يزكى إلا له، وهكذا الحج، وهكذا غير ذلك.

والعبادات كلها يجب أن تكون له وحده، يقصد بها التقرب إليه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون كل ما سواه، وهكذا الدعاء والخوف والرجاء والتوكل ونحو ذلك، إلا ما كان بين المخلوقين فيما بينهم وهو في قدرتهم، ومما اقتضت العادة وسنة الله في عباده بينهم من الأشياء التي يستطيعونها، فهذا لا بأس به؛ كأن يستعيذ الأخ بأخيه الحاضر في قضاء حاجته من بناء أو غرس شجر أو اقتراض منه أو غير ذلك مما يكون بين الناس، فإذا طلب منه ذلك وهو حي حاضر يسمع كلامه، أو بالمكاتبة أو بالأدوات الجديدة من الهاتف وغير ذلك، كان هذا من حق المخلوقين فيما بينهم، ليس في هذا عبادة، وإنما هذه أمور عادية وأسباب عادية لا حرج فيها، أما دعاء الموتى والاستغاثة بالموتى، أو طلب الحاجة من الأصنام أو من الأشجار أو من الكواكب أو من الجن أو من غير ذلك، فهذا هو الشرك الأكبر، وهذه هي عبادة غير الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وهذا هو حق الله الذي افترضه على عباده وأرسل به الرسل وخلق من

أجله الثقلين، ولهذا، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إلى غير هذا من الآيات الدالَّات على أنه سبحانه افترض على عباده أن يخصُّوه بالعبادة؛ من الذل والخضوع له بطاعة الأوامر وترك النواهي؛ لقصد التقرب إليه والرغبة فيما عنده والحذر من عقابه سبحانه وتعالى.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

المقصود باليتيم: من مات أبوه وليس له ما يغنيه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

[وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم مطلق في بني آدم من الأم أيضًا].

والمساكين: الّذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم. وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النّساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحًا في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ أي: كلّموهم طيّبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالمعروف؛ كما قال الحسن البصريّ في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالحسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للنّاس حسنًا كما قال الله، وهو كلّ خلقٍ حسنٍ رضيه الله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

لأنه من القول الحسن: (قولوا للناس حسنًا) يدخل فيه الدعوة

إلى الله وبذل السلام ورد السلام والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير هذا من وجوه الخير، كله داخل في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ لأن من دعاهم إلى الله فقد أحسن إليه، ومن أمرهم بمعروف أو نهاهم عن منكر فقد قال لهم حسنًا، وهكذا مَن نَصَحَهم، وهكذا من أوصاهم بما ينفعهم، كل هذا حسنى، المعنى: استعملوا ما هو نافع لكم من الكلام الطيب والألفاظ وعدم الشدة والعنف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدّثنا روحٌ، حدّثنا أبو عامرٍ الخزّاز، عن أبي عمران الجونيّ، عن عبد الله بن الصّامت، عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**». وأخرجه مسلم في صحيحه[1]، والترمذي، وصحّحه من حديث أبي عامرٍ الخزّاز، واسمه: صالح بن رستم به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من كمال هذه الشريعة وما جاءت به من الخير العظيم وما يجمع القلوب ويؤلف بين الأقارب وغيرهم من المسلمين: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»، وفي اللفظ الآخر: «**طليق**»؛ يعني: منبسط ليس فيه عبوسة، ولا شك أن هذا مما يجمع القلوب ويؤلف بين الأقارب، ولو ما أعطوا مالًا، ولو ما بذلوا مالًا، فليس كل أحد يستطيع المال، لكن بذل المعروف والكلام الطيب وكف الأذى وحسن اللقاء، هذا من أعظم المعروف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للنّاس حسنًا بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعليّ والقوليّ.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء برقم (٢٦٢٦)، والإمام أحمد (٥/ ١٧٣).

ثمّ أكّد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعيِّن من ذلك، وهو الصّلاة والزّكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وأخبر أنّهم تولّوا عن ذلك كلّه؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمدٍ بعد العلم به، إلّا القليل منهم.

وقد أمر (الله تعالى) هذه الأمّة بنظير ذلك في سورة النّساء بقوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النّساء: ٣٦]، فقامت هذه الأمّة من ذلك بما لم تقم به أمّةٌ من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنّة.

ومن النّقول الغريبة هاهنا ما ذكره ابن أبي حاتمٍ في تفسيره: حدّثنا أبي، حدّثنا محمّد بن خلفٍ العسقلاني، حدّثنا عبد الله بن يوسف؛ يعني: التّنّيسيّ، حدّثنا خالد بن صبيحٍ، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنّه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديًّا ولا نصرانيًّا إلّا سلّم عليه، فقيل له: ما شأنك تسلّم على اليهودي والنصراني؟ فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ وهو السّلام.

قال: وروي عن عطاءٍ الخراساني نحوه.

(قلت): وقدْ ثبت في السّنّة أنهم لا يُبدؤون بالسلام[1]. والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا إن صح عن هذا الرجل فهو غلط؛ لأنه ورد في السُّنّة أنهم لا يُبدؤون مثل ما قال المؤلف.

(١) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في «صحيح مسلم» في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (برقم ٢١٦٧)، ولفظه: قال: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه**».

وهذا فيه عظة وعبرة، إذا كان اليهود والنصارى أعرضوا عن هذه الأوامر العظيمة وتركوها عمدًا؛ يعني: كفارهم وضُلّالهم، فالواجب على هذه الأمة ألا يشابهوهم، والله قصَّ علينا قصصًا كثيرة لليهود والنصارى، لماذا؟ قصَّها لنحذر أعمالهم الذميمة ونأخذ بأعمالهم الطيبة، فهذا المقصود من القصص، إنما قص الله علينا أخبار الأمم الماضية لنحذر أفعالهم القبيحة، ولنأخذ بالأفعال التي مدحها وأثنى عليها ﷻ، ولهذا، قال بعض السلف كحذيفة وغيره: مضى القوم ولم يُعنَ بها سواكم؛ يعني: المقصود: أنتم، إنما نقصُّ عليكم هذه القصص لتأخذوا بالطيب وتحذروا الصفات الذميمة والأعمال التي أنكرها الله ﷻ على أهلها، حتى لا تكونوا مثلهم.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦][1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول الله تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الّذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

والخزرج، وذلك أنّ الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهليّة عبّاد أصنامٍ، وكانت بينهم حروبٌ كثيرةٌ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النّضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كلّ فريقٍ مع حلفائه، فيقتل اليهوديّ أعداءه، وقد يقتل اليهوديّ الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرامٌ عليهم في دينهم ونصِّ كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثمّ إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التّوراة، ولهذا، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ولهذا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، وذلك أنّ أهل الملّة الواحدة بمنزلة النّفس الواحدة؛ كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتعاطفهِمْ مثل الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالحمى والسهر**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمعنى: أن قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾؛ المعنى: لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضًا من دياره: لأنهم كالشيء الواحد، الملة الواحدة كالشيء الواحد. ولهذا، نهاهم أن يقتل بعضهم بعضًا أو يُخرج بعضهم

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم رقم (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمن وتعاطفهم برقم (٢٥٨٦) واللفظ له.

بعضًا من دياره، أو يسبيه أو يأخذ ماله، فيجب أن يمتنع من هذا كله، وهكذا قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]؛ يعني: لا يقتل بعضكم بعضًا، كل يجب أن يحترم دم أخيه وعرض أخيه ومال أخيه وبشرة أخيه إلا بحق، فالمسلمون شيء واحد، فلا يقتل بعضهم بعضًا ولا يسبي بعضهم بعضًا، هكذا اليهود وهكذا النصارى، هكذا أهل الملل، حرَّم الله عليهم أن يسبي بعضهم بعضًا وأن يقتل بعضهم بعضًا، وجب عليهم أن يستقيموا على دينهم، وكانت الأوس تحالفهم قريظة، وكانت الخزرج تحالفهم بني قينقاع وبني النضير وهؤلاء هم الموجودون في المدينة من اليهود؛ ثلاثة أصناف: بنو قينقاع وبنو النضير، هؤلاء حلفاء الخزرج، والثالثة: طائفة قريظة، من حلفاء الأوس، فلما نقضت اليهود العهد، وهم بنو قريظة، وهم الأحزاب، نزلوا على حكم سعد لأنه رئيس الأوس وقريظة تتبعه حكم سعد رضي الله عنه أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذرياتهم ونساؤهم؛ لأنهم نقضوا العهد وظاهروا عُبَّاد الأوثان، فقال النبي ﷺ: «**لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات**»، فلما نزلوا على حكم سعد، قتل النبي ﷺ مقاتلتهم وسبى ذريتهم ونساءهم.

أما بنو النضير وبنو قينقاع فقد أُجْلوا قبل ذلك من المدينة إلى خيبر، وإلى أذريعات، إلى الشام؛ بسبب نقضهم العهد، فالحاصل من هذا كله: أن الواجب على المسلمين أن يصون بعضهم بعضًا من جهة الدماء والأموال، وألا يعتدي بعضهم على بعض؛ لأنهم أهل دين واحد وأهل ملة واحدة؛ كما حرم الله على اليهود أن يقتل بعضهم بعضًا، أو يسبي بعضهم بعضًا وهم أهل ملة واحدة.

فلما بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ، وجب عليهم جميعًا أن ينقادوا لما جاء به عليه الصلاة والسلام وأن يتبعوه وأن يَدَعوا ما هم عليه من دين التوراة ودين الإنجيل؛ لأن الله بعث محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، إلى الجميع: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فلما أبوا ولم يتبعوه صاروا بذلك كفارًا ضلَّالًا، ودمهم ومالهم حلال إلا أن يؤدوا الجزية، وكان النبي ﷺ وادعهم لما هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام، ثم لما اعتدوا؛ اعتدت بنو النضير وبنو قينقاع، أُجلوا، ولما جرى من قريظة ما جرى يوم الأحزاب من نقض العهد ومظاهرة أهل مكة من المشركين، حكم فيهم سعد لما طلبوا حكمه، وحكم فيهم بالحق رضي الله عنه.

والمقصود من هذا كله بيان تناقض اليهود، وبيان خلافهم ومخالفتهم لكتابهم قبل أن يخالفوا كتاب الله الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.

فاليهود كذَّبت عيسى عليه الصلاة والسلام، وزعموا أنه ولد بغي، ورموه بالبغي، فكفروا بذلك كفرًا مستقلًّا قبل أن يأتي محمد عليه الصلاة والسلام، ثم جاء محمد فكذبوه وصار كفرًا آخر وضلالًا آخر، نعوذ بالله كفر على كفر وضلالة على ضلالة. والنصارى كذلك، لما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ ولم يؤمنوا به، صاروا كفارًا ضالين كاليهود، ثم أقرهم ﷺ في المدينة أول ما قدم ووادعهم تأليفًا للمسلمين، فلما اعتدوا أُجلي من أُجلي منهم قبل الأحزاب، وقتل من قتل يوم الأحزاب، ثم استقر فيهم حكم الله بعد ذلك، في أخذ الجزية منهم إن لم يسلموا، فإن أبوا ولم ينقادوا للجزية وجب قتالهم كسائر الكفرة.

وهذا كله يبين لنا تناقض اليهود وضلالهم، وأنهم لم يلتزموا لا بكتابهم ولا بما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام؛ بل ناقضوا هذا وهذا، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾؛ أي: ثمّ أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحّته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾

الآية. قال محمّد بن إسحاق بن يسارٍ: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيد بن جبيرٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية؛ قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرّم عليهم في التّوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع، وهم حلفاء الخزرج والنضير، وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حربٌ، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النّضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كلّ واحدٍ من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتّى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التّوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شركٍ يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنّةً ولا نارًا، ولا بعثًا ولا قيامةً، ولا كتابًا ولا حلالًا ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقًا لما في التّوراة، وأخذًا به بعضهم من بعضٍ، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرةً لأهل الشّرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ أي: تفادونهم بحكم التوراة، وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدّنيا؟!

ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه الآية.

وقال أسباطٌ، عن السّدّيّ: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النّضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب بينهم، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفائهم، وكانت النّضير تقاتل قريظة وحلفاءها

ويغلبونهم، فيخرّبون ديارهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجلٌ من الفريقين كلاهما، جمعوا له حتّى يفدوه، فتعيّرهم العرب بذلك يقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: إنّا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن تستذلّ حلفاؤنا، فذلك حين عيّرهم الله تبارك وتعالى، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية.

وقال أسباط، عن السدي، عن الشعبي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية.

وقال أسباطٌ، عن السّدّيّ، عن عبد خيرٍ، قال: غزونا مع سليمان بن ربيعة الباهليّ بلنجر، فحاصرنا أهلها، ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا، واشترى عبد الله بن سلامٍ يهوديّةً بسبعمائةٍ، فلمّا مرّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك في عجوزٍ هاهنا من أهل دينك تشتريها منّي؟ قال: نعم، قال: أخذتها بسبعمائة درهم، قال: فإنّي أربحك سبعمائة أخرى، قال: فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلافٍ، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله، لتشرينها منّي أو لتكفرنّ بدينك الذي أنت عليه، قال: ادن منّي، فدنا منه، فقرأ في أذنه مما في التّوراة: إنّك لا تجد مملوكًا من بني إسرائيل إلا اشتريته، فأعتقته: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾؛ قال: أنت عبد الله بن سلامٍ؟ قال: نعم؛ فجاء بأربعة آلافٍ، فأخذ عبد الله ألفين، وردّ عليه ألفين.

وقال آدم بن أبي إياسٍ في تفسيره: حدّثنا أبو جعفرٍ؛ يعني: الرّازيّ، حدّثنا الرّبيع بن أنسٍ، أخبرنا أبو العالية: أنّ عبد الله بن سلامٍ مرّ على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليه العرب، ولا يفادي من وقع عليه العرب، فقال عبد الله: أما إنّه مكتوبٌ

عندك في كتابك أن تفاديهنّ كلّهنّ. والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السّياق، ذمّ اليهود في قيامهم بأمر التّوراة التي يعتقدون صحّتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصّحّة، فلهذا، لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة الرسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام.

واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا، قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾؛ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي استحبّوها على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: لا يفتّر عنهم ساعةً واحدةً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: وليس لهم ناصرٌ ينقذهم ممّا هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا كما أنه ذَمٌّ لليهود وعَيْب لهم وتعيير لهم، وخزي لهم، هو أيضًا تحذير لهذه الأمة أن تخالف كتاب ربها وسنة نبيها، فليس هذا خاصًّا بهم! بل هو عام، فإذا كان اليهود يعيَّرون ويعابون ويُذمُّون لمخالفة التوراة، فالمسلمون إذا خالفوا القرآن الذي هو أعظم من التوراة وأفضل من التوراة يكون إثمهم أكبر واستحقاقهم للعذاب أعظم، فالله يحذرنا من أعمال أولئك الأشرار اليهود وأشباههم، أنَّ مَن فَعَلَ فعلهم يستحق ما يستحقوه من العقوبة وما هو أكبر من ذلك.

فإذا كان اليهود والنصارى قد حرَّفوا وبدَّلوا وغيَّروا وبدلوا واستحقوا العقوبة على مخالفتهم أنبياءهم وعلى تعدِّيهم الحدود، فالواجب أيضًا على أمة محمد ﷺ أن يحذروا أخلاقهم الذميمة وصفاتهم

القبيحة، وأن يحذروا مخالفة كتابهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام؛ بل عليهم أن يلتزموا بالكتاب العظيم والسّنّة المطهرة، وأن يؤدوا أحكامهما، وأن يحذروا مخالفتهما في جميع الأمور، وبذلك يستحقون من الله الفضل العظيم والفوز الكبير والسعادة الأبدية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧][1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتوّ والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنّما يتّبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنّه آتى موسى الكتاب وهو التّوراة، فحرّفوها وبدّلوها وخالفوا أوامرها وأوّلوها، وأرسل الرّسل والنّبيّين من بعده الّذين يحكمون بشريعته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولهذا، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ﴾؛ قال السّدّيّ، عن أبي مالكٍ: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا، والكلّ قريبٌ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، حتّى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التّوراة في بعض الأحكام، ولهذا، أعطاه الله من البيّنات وهي المعجزات، قال ابن عبّاسٍ: من إحياء الموتى، وخلقه من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام،

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس ـ وهو جبريل عليه السلام ـ ما يدلّهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتدّ تكذيب بني إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التّوراة في البعض؛ كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة؛ ففريقًا يكذّبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التّوراة التي قد تصرّفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، وربّما قتلوا بعضهمْ، ولهذا، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا لا شك يدل على شدة المعاندة من كفار بني إسرائيل وضلالهم، وأنهم ـ والعياذ بالله ـ آثروا الهوى على الهدى، واستكبروا عن اتباع الحق إذا خالف أهواءهم، ثم حملهم هذا التكذيب وهذا الهوى الخبيث على أن قتلوا بعض الرسل وكذبوهم، وهذا كله من شدة العناد والكفر والفساد.

والمقصود من هذا تحذيرنا (. . . . .)(١) إلى هذه الأمة أن تنتبه، وأن تحذر مخالفة نبيها كما جرى لليهود والنصارى في مخالفة أنبيائهم، فالمعنى: احذروا أن تكونوا مثلهم، احذروا أن تكونوا مثل هؤلاء المغضوب عليهم وهؤلاء الضالين في اتباع الهوى والاستكبار عن الحق؛ بل كونوا خيرًا منهم، فاتبعوا الحق وإن خالف أهواءكم يقول سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فالواجب اتباع الحق ولو خالف هواك فيما تأتي وفيما تذر في

---

(١) بياض في الأصل.

الأوامر وفي النواهي. ولا تكن مثل أولئك الضالين من المغضوب عليهم الذين استكبروا عن الحق وتابعوا الهوى حتى حملهم ذلك على الجريمة العظيمة وهي تكذيب الرسل وقتل بعضهم، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾. نسأل الله العافية.

وهكذا في هذه الأمة، وجد الجم الغفير الذين شابهوا أولئك، فإذا جاء الحق بخلاف أهوائهم تأولوه والتمسوا له أنواع الشبه وأنواع التأويل ليتملَّصوا من الحق وليوافقوا أهواءهم وأهواء ساداتهم وشيوخهم وكبرائهم، وهذه كلها من اتباع أولئك والتشبه بأولئك: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[(١)]، والمعصوم من حفظه الله من ذلك واتبع الحق واستقام عليه وألزم نفسه بذلك واتبع ما جاءت به الرسل؛ سواء كان ذلك فيما يوافق هواه أو فيما يخالف هواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والدّليل على أنّ روح القدس هو جبريل، كما نصّ عليه ابن مسعودٍ في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب وإسماعيل بن خالدٍ والسّدّيّ والرّبيع بن أنسٍ وعطيّة العوفيّ وقتادة مع قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشّعراء: ١٩٣، ١٩٤] ما قال البخاريّ: وقال ابن أبي الزّناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: أنّ رسول الله ﷺ وضع لحسّان بن ثابتٍ منبرًا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نبيك**» فهذا من البخاري تعليقًا[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٥٦)، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب، وهذا لفظه: «**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**» برقم (٢٨٤٦)، والإمام أحمد (٦/ ٧٢).

وقد رواه أبو داود في سننه عن ابن سيرين، والتّرمذيّ، عن عليّ بن حجرٍ وإسماعيل بن موسى الفزاري؛ ثلاثتهم، عن أبي عبد الرّحمٰن بن أبي الزّناد، عن أبيه وهشام بن عروة؛ كلاهما عن عروة، عن عائشة، به. قال التّرمذيّ: حسنٌ صحيحٌ، وهو حديث أبي الزّناد.

وفي الصّحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزّهريّ، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مرّ بحسّان وهو ينشد الشّعر في المسجد، فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خيرٌ منك، ثمّ التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**»؟ فقال: اللّهمّ نعم، وفي بعض الرّوايات: أنّ رسول الله ﷺ قال لحسّان: «**اهْجُهُمْ - أَوْ: هَاجِهِمْ - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»[١].

وفي شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمّد بن إسحاق: حدّثني عبد الله بن عبد الرّحمٰن بن أبي حسينٍ المكّيّ، عن شهر بن حوشبٍ الأشعريّ: أنّ نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الرّوح، فقال: «**أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَبِأَيَّامِهِ عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وَهُوَ الذِي يَأْتِينِي؟**»، قالوا: نعم، وفي صحيح ابن حبان، عن ابن مسعودٍ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أنه لن تموت نفس حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[٢].

---

(١) متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة برقم (٣٢١٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه برقم (٢٤٨٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر رضي الله عنه في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة برقم (٢١٤٤).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الرُّوع: القلب، والرَّوع: ما يحصل للإنسان من الروعة والهيبة والرهبة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أقوالٌ أخر: قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا منجاب بن الحارث، حدّثنا بشرٌ، عن أبي روقٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى.

وقال ابن جرير: حدثت عن المنجاب، فذكره.

وقال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن سعيد بن جبيرٍ نحو ذلك، ونقله القرطبيّ عن عبيد بن عميرٍ أيضًا، قال: وهو الاسم الأعظم.

وقال ابن أبي نجيحٍ: الرّوح هو حفظةٌ على الملائكة. وقال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ: القدس: هو الرّبّ تبارك وتعالى، وهو قول كعب، وحكى القرطبيّ عن مجاهدٍ والحسن البصريّ أنّهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا، يكون كالقول الأول، وقال السّدّيّ: القدس: البركة.

وقال العوفيّ، عن ابن عباس: القدس: الطهر.

وقال ابن جريرٍ: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهبٍ، قال ابن زيدٍ في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ قال: أيّد الله عيسى بالإنجيل روحًا كما جعل القرآن روحًا؛ كلاهما روحٌ من الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: ٥٢]، ثمّ قال ابن جريرٍ: وأولى التّأويلات في ذلك بالصّواب قول من قال: الرّوح في هذا الموضع: جبرائيل، فإن الله تعالى أخبر أنّه أيّد عيسى به؛ كما أخبر في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ [المائدة: ١١٠]، فذكر أنَّه أيّده به، فلو كان الرّوح الذي أيّده به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾، ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ تكرير قولٍ لا معنى له، والله ﷻ أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

(قلت): ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أوّلِ السِّياقِ، ولِلّهِ الْحمْدُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو الحق، وهذا هو الصواب، لا شك أن المراد بروح القدس هو جبرائيل عليه الصلاة والسلام؛ كما تقدم في الأدلة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الزّمخشريّ: ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾: بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدقٍ، ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]، فوصفه بالاختصاص والتّقريب تكرمةٌ، وقيل: لأنّه لم تضمّه الأصلاب والأرحام الطّوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره.

فتضمَّن كلامه قولًا آخر، وهو أنّ المراد: روح عيسى نفسه المقدّسة المطهّرة.

وقال الزّمخشريّ في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ إنّما لم يقل: وفريقًا قتلتم؛ لأنّه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا؛ لأنّهم حاولوا قتل النّبيّ ﷺ بالسّمّ والسّحر، وقد قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مرض موته: «**مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته برقم (٤٤٢٨) ساقه بعد الحديث رقم (٤٤٣٠).

(**قلت**): وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

*

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ [البقرة: ٨٨][1].

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد، عنِ ابنِ عبّاسٍ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي في: أكنّةٍ.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: لا تفقه.

وقال العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: هي القلوب المطبوع عليها.

وقال مجاهدٌ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: عليها غشاوةٌ.

وقال عكرمة: عليها طابعٌ، وقال أبو العالية: أي: لا تفقه.

وقال السّدّيّ: يقولون: عليه غلافٌ، وهو الغطاء.

وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: هو كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ أي: فلا يخلص إلينا شي مما تقول، فلا تعي ولا تفقه، قال مجاهد وقتادة: وقرأ ابن عباس: غلف، بضم اللام، وهو جمع غلاف؛ أي: قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: طردهم الله وأبعدهم من كل خير.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾.

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

المعنى: دل على أنهم يفهمون ويعقلون، ولكن حملهم البغي والحسد، وليس ردهم الحق وليس استكبارهم عن الحق من أجل أنهم لا يفهمون؛ بل هم يفهمون ويعقلون، ولكن حملهم البغي والحسد والتكبر واتباع الهوى على عصيان الله ورسوله. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال قتادة: معناه: لا يؤمن منهم إلا القليل، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: ٥]، وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿غُلْفٌۢ﴾؛ قال: تقول: قلبي في غلاف، فلا يخلص إليه مما تقول شيء، وقرأ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، وهذا الذي رجحه ابن جرير، واستشهد بما رُوي من حديث عمرو بن مُرّة الجمليّ، عن أبي البختري، عن حُذيفة، قال: القُلُوبُ أربعةٌ؛ فذكر منها: وقلبٌ أغلفُ مغضُوبٌ عليه، وذاك قلبُ الكافر.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا مُحمّدُ بنُ عبد الرّحمٰن العرزميُّ، أنبأنا أبي، عن جدّي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ قال: لم تُختن، هذا القولُ يرجعُ معناهُ إلى ما تقدّم من عدم طهارة قُلُوبهم وأنّها بعيدةٌ من الخير.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

قد يكون معنى: لم تختن؛ يعني: لم ترفع عنها القلفة التي غطتها؛ كالقلفة التي على الذكر التي لم تقطع؛ يعني: أن عليها غلافًا مثل القلفة التي على ذكر الإنسان حتى تقطع. المقصود: أنهم يعتذرون أنهم ما يفهمون، فهذا كله باطل وكذب؛ بل يفهمون ويعقلون، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا أوقع في قلوبهم الطبع والإعراض والتكبر حتى هلكوا. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قولٌ آخر: قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ قال: يقولون: قلوبنا غلف مملوءة، لا تحتاج إلى علم محمّدٍ ولا غيره.

وقال عطية العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ أي: أوعيةٌ للعلم، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها، حكاه ابن جريرٍ: ﴿وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ﴾، بضمّ اللام، نقلها الزمخشري؛ أي: جمع غلافٍ؛ أي: أوعيةٌ، بمعنى: أنّهم ادّعوا أنّ قلوبهم مملوءةٌ بعلمٍ لا يحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التّوراة.

ولهذا، قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: ليس الأمر كما ادّعوا؛ بل قلوبهم ملعونةٌ مطبوعٌ عليها، كما قال في سورة النّساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ١٥٥]. وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]؛ فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، وقيل: فقليلٌ إيمانهم؛ بمعنى: أنّهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثّواب والعقاب، ولكنّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنّه مغمورٌ بما كفروا به من الذي جاءهم به محمّدٌ ﷺ.

وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيءٍ، وإنّما قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وهم بالجميع كافرون؛ كما تقول العرب: قلّما رأيت مثل هذا قطّ، تريد: ما رأيت مثل هذا قطّ.

وقال الكسائيّ: تقول العرب: من زنى بأرضٍ قلّما تنبت؛ أي: لا تنبت شيئًا، حكاه ابن جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود من هذا على ظاهر القرآن أن إيمانهم قليل، وإن كانوا كفارًا، وإن كانوا ضالين، وإن كانوا قد طبع الله على قلوبهم، لكن قد

يقع منهم الإيمان القليل، إنما بالنسبة إلى بعضهم؛ كما كان من عبد الله بن سلام وأشباهه، فهو قليل بالنسبة إلى من كفر منهم، وقد أطبق على الكفر والضلال، ولا يؤمن منهم إلا النادر القليل.

أو: المعنى: فقليل إيمانهم بما جاءت به الرسل، بالنسبة إلى أنهم قد يؤمنون بأشياء لكن لا تنفعهم؛ لأن الكافر لا ينفعه إيمانه، يحبط إيمانه بسبب الكفر: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]؛ فلو آمن بكل شيء ثم كذب محمدًا ﷺ بطل إيمانه ولم ينفعه ذلك الإيمان، وصار وجوده كالعدم وصار حجة عليه.

المقصود من هذا: أن هؤلاء اليهود وأشباههم لا يؤمن منهم بالحق إلا القليل؛ لما طبعوا عليه من الاستكبار والإعراض والحسد والبغي، وما وقع منهم من بعض من الإيمان فهو إيمان طغى عليه الكفر وأبطله.

❋

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ **[البقرة: ٨٩]**[(١)].

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ يعني: اليهود، ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهو: القرآن الذي أنزل على محمّدٍ ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ يعني: من التّوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرّسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين، إذا قاتلوهم يقولون: إنّه سيبعث نبيٌّ في آخر الزّمان نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم؛ كما قال محمّد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاريّ، عن أشياخٍ منهم، قال: فينا والله

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وفيهم؛ يعني: في الأنصار وفي اليهود الّذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصّة؛ يعني: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ قالوا: كنا قد علوناهم قهرًا دهرًا في الجاهليّة، ونحن أهل شركٍ، وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبيًّا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم. فلمّا بعث الله رسوله من قريشٍ واتّبعناه كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾. وقال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ قال: يستنصرون، يقولون: نحن نعين محمّدًا عليهم، وليْسوا كذلك؛ بل يكْذبون.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحاصل من هذا: أن اليهود ـ قبحهم الله وعليهم لعائن الله المتتابعة ـ كانوا دائمًا أهل كفر وكذب، وأهل عناد ومكابرة، وكانوا في الجاهلية يقولون أنه سيبعث نبي في آخر الزمان قد أظل زمانه سنقاتلكم معه، فلما بعث الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام، كفروا به وقالوا: لو أنه منا من بني إسرائيل، فلما كان من العرب كفروا به وأنكروا، وهم يعلمون أنه من العرب وأنه حق، ولكنه البغي والعدوان. وأعوذ بالله! ولهذا، ذمهم الله وعابهم ولعنهم على أعمالهم الخبيثة، وهذا يوجب الحذر لهذه الأمة أن تتبع الهوى، والمقصود من هذا تحذير أمة محمد أن يتشبهوا بأعداء الله اليهود في إنكار الحق واتباع الباطل؛ إيثارًا للهوى بغيًا وعدوانًا، أو لقصد أمر آخر من الرياسة أو المال، أو ما أشبه ذلك، فالواجب: أن يكون الحق فوق الجميع، وأن يكون العاقل متبعًا للحق سواء وافق هواه أو خالف هواه، سواء فاتته فيه الرياسة أو فاته فيه المال أو لم يفت، فالحق يقدم ويؤثر على جميع ما تهواه النفوس، هذا هو الواجب على كل ذي عقل وكل ذي إيمان وكل ذي هدى، أما إيثار الهوى ومراعاة الجماعة أو القوم أو القبيلة أو ما

أشبه ذلك مما يراعيه أعداء الله من اليهود وغيرهم، هذا هو الهلاك والضلال الذي ذم الله به الأمم وعابهم به وأنكره عليهم كاليهود نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال محمّد بن إسحاق: أخبرني محمّد بن أبي محمّدٍ، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ: أنّ يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمّا بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبلٍ وبشر بن البراء بن معرورٍ وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّدٍ ﷺ ونحن أهل شركٍ وتخبروننا بأنّه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلّام بن مشكمٍ أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم، فينزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

وقال العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ يقول: يستنصرون بخروج محمّدٍ ﷺ على مشركي العرب؛ يعني بذلك: أهل الكتاب، فلمّا بعث محمّدٌ ﷺ ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمّدٍ ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللّهمّ ابعث هذا النّبيّ الذي نجده مكتوبًا عندنا حتّى نعذّب المشركين ونقتلهم. فلمّا بعث الله محمّدًا ﷺ ورأوا أنّه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنّه رسول الله ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، وقال قتادة: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ قال: وكانوا يقولون: إنّه سيأتي نبيٌّ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

وقال مجاهدٌ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾؛ قال: هم اليهود.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٩٠][1].

قال مجاهدٌ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: يهود شروا الحقّ بالباطل وكتمان ما جاء به محمّدٌ ﷺ بأن يبيّنوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شروا؛ بمعنى: باعوا؛ يعني: باعوا الحق وارتضوا الباطل، وأخذوا الباطل واعتاضوا الباطل عن الحق. والعياذ بالله. ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾؛ يعني: باعوا أنفسهم إلى النار وإلى الشيطان، واعتاضوا عن ذلك باتباع الهوى وإنكار الحق وجحده. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال السّدّيّ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾؛ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمّدٍ ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرته، وإنّما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية، ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق، عن محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيدٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: إنّ الله جعله من غيرهم.

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾؛ قال ابن عباس: في الغضب، على الغضب عليهم، فيما كانُوا ضيّعُوا من التّوْراة وهي معهُمْ، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم.

(قلت): ومعنى ﴿فَبَآءُو﴾: اسْتوجبوا واستحقّوا واستقرّوا بِغضبٍ على غضبٍ.

وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنْجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن.

وعن عكرمة وقتادة مثله.

قال السّدِّيُّ: أمّا الْغضب الأوّل، فهو حين غضب عليهم في العِجل، وأمّا الغضب الثّاني، فغضب عليهم حين كفروا بمحمّدٍ ﷺ. وعن ابن عباس مثله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا منافاة، فإن الله غضب عليهم لأسباب كثيرة، ١ ـ غضب عليهم لاتباعهم الباطل وعبادتهم العجل، ٢ ـ وغضب عليهم لتحريفهم التوراة ٣ ـ وجحدهم بعضها ٤ ـ وعدم أخذهم بها كلها، ٥ ـ وغضب عليهم لإنكارهم عيسى وزعمهم أنه ولد بغي، ٦ ـ وغضب عليهم لأشياء كثيرة من أعمالهم الخبيثة، ٧ ـ ثم جاء غضب آخر وهو كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾: لمّا كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التّكبّر، قوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدّنيا والآخرةِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

وقد قال الْإمام أحْمدُ: حدّثنا يحيى، حدّثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جدّه، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**يُحْشرُ**

الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أهل النار»[١].

*

❏ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩١، ٩٢][٢].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمّدٍ ﷺ وصدّقوه واتّبعوه، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التّوراة والإنجيل، ولا نقرّ إلّا بذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ يعني: بما بعده، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾؛ أي: وهم يعلمون أنّ ما أنزل على محمّدٍ ﷺ الحقّ، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾؛ منصوبًا على الحال؛ أي: في حال تصديقه لما معهم من التّوراة والإنجيل، فالحجّة قائمةٌ عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ثمّ قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الّذين جاؤوكم بتصديق التّوراة التي بأيديكم، والحكم بها، وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٩).

(٢) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

على رسل الله، فلستم تتّبعون إلّا مجرّد الأهواء والآراء والتّشهّي؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٨٧].

وقال السّدّيّ: في هذه الآية يعيّرهم اللهُ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل ـ يا محمد ـ ليهود بني إسرائيل، إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا: لم تقتلون ـ إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله ـ أنبياء الله يا معشر اليهود، وقد حرّم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم؛ بل أمركم باتّباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟ وذلك من الله تكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وتعييرٌ لهم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

مثلما تقدم في الآيات السابقات، المقصود هو تحذيرنا أن نفعل فعلهم، وأن نسير على نهجهم الخبيث في اتباع الهوى وترك الحق، بدعوى أنه كذا، وأنه كذا، وأنه كذا، والحقيقة أنه خالف أهواءهم فقط، ولهذا، عابهم ﷻ وذمهم وفضحهم في هذه الآيات وأشباهها لاتباعهم الهوى؛ فكذبوا عيسى اتباعًا للهوى، وكذبوا محمدًا ﷺ اتباعًا للهوى، وهذه الكتب جاءت بتصديق ما هم عليه، تصديق ما جاء به نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام؛ فالإنجيل جاء مصدقًا للتوراة ومحلًّا لهم بعض ما حرم الله عليهم، ومسهلًا عليهم وحاكمًا بينهم فيما اختلفوا فيه، وجاء القرآن العظيم وهو ـ أشرف كتاب وأعظم كتاب ـ مصدق لما عندهم من الحق في التوراة والإنجيل، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ومع ذلك، قابلوه بالتكذيب والإنكار واتباع الهوى والكذب على الله وعلى رسوله والكذب على التوراة وتحريفها، كل ذلك من

اتباعهم للهوى. ولذلك، غضب الله عليهم غضبًا بعد غضب، وصاروا بذلك عبرة للعباد بجحدهم وكفرهم وعنادهم وبغيهم، وسبة بين العالم لما فعلوا من القبائح. نسأل الله العافية والسلامة؛ يعني: فجدير بكم يا أمة محمد، وحري بكم أن تبتعدوا عن أخلاقهم الذميمة، وأن تبادروا وتسارعوا إلى فعل ما أمركم الله وترك ما نهى الله عنه، وتصديق الله في أخباره والوقوف عند حدوده، والمسارعة إلى مراضيه والابتعاد عن مناهيه، هكذا يكون المتبعون، وهكذا يكون الأخيار، وهكذا يكون المصدقون، يبتعدون عن صفات الأشرار وعن أخلاقهم الذميمة، ويسارعون إلى صفات الأخيار وأخلاقهم العظيمة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنّه رسول الله، وأنّه لا إلٰه إلا الله، والآيات البينات هي: الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم والعصا واليد، وفلق البحر وتظليلهم بالغمام والمنّ والسّلوى والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾؛ أي: معبودًا من دون الله في زمان موسى وأيامه.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصّنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنّه لا إلٰه إلّا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣][1].

يعدّد ﷻ عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوّهم وإعراضهم عنه، حتّى رفع الطّور عليهم، حتّى قبلوه، ثم خالفوه، ولهذا، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وقد تقدّم تفسير ذلك.

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾؛ قال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾؛ قال: أشربوا حبّه حتّى خلص ذلك إلى قلوبهم.

وكذا قال أبو العالية والرّبيع بن أنسٍ.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عصام بن خالدٍ، حدّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسّانيّ، عن خالد بن محمّدٍ الثّقفيّ، عن بلال بن أبي الدّرداء، عن أبي الدّرداء، عن النّبيّ ﷺ: قال: «**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[2].

ورواه أبو داود عن حيوة بن شريحٍ، عن بقيّة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا واقع في الناس، فإن العبد إذا أحب الشّيء وهويه قد يعميه عن مساويه وعما فيه من الباطل بسبب الهوى، ولهذا، يروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»؛ يعني: يعمي عن

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في كتاب الأدب، باب في الهوى برقم (٥١٣٠)، والإمام أحمد (٥/ ١٩٤).

النظر في عيوبه ومعرفة عيوبه، ويصمه عن النطق بذلك بسبب الهوى. والحديث، وإن كان ضعيفًا؛ لأن ابن أبي مريم هذا لا يحتج به، ضعيف، لكن يصلح في الشواهد، ومن باب الدلالة على أن الأهواء ـ والعياذ بالله ـ إذا غلبت على الناس عمت أبصارهم وأصمت آذانهم عن النطق بالحق، وعن النظر في الحق؛ لأنه يعميهم ما وقع في قلوبهم من الهوى. هكذا هؤلاء الذين عبدوا العجل وأشربت قلوبهم به، عموا عن الحق، مع أن التوراة وكتب الله السابقة كلها دالة على وجوب الإخلاص في العبادة لله وحده، وأنه الإله الحق، وأن من سواه مخلوق، وهو الخلاق العليم، وهو المستحق للعبادة ﷻ. ولكن، بسبب أهوائهم وميولهم عن الحق، وقع في قلوبهم هذا الشيء الذي هو أوضح من الواضحات وأبين من البينات في بطلانه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال السّدّيّ: أخذ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ العجل فذبحه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، ثم لم يبق بحرٌ يجري يومئذٍ إلّا وقع فيه شيءٌ، ثمّ قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبّه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا من أخبار بني إسرائيل، والسدي وأشباهه (. . . . . .)، وأخبار بني إسرائيل مثل ما أخبر النبي ﷺ: «**لا تصدقوهم ولا تكذبوهم**»، عندهم الأعاجيب والغرائب، إلا ما شهد له نص الكتاب أو السُّنَّة بالصحة، وأما ما ليس به نص؛ لا من كتاب ولا سنة، فإنه لا يصدق ولا يكذب؛ بل يوقف، حتى يوجد ما يدل على كذبه أو صحته. والحاصل: أن الله ﷻ ابتلاهم بهذا العجل حتى انقسموا فيه ووقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك بالله، نسأل الله العافية، وصارت لهم عجائب وغرائب مع أنهم يشاهدونه ويعرفون أنه مخلوق وأنه من

صنعهم المعروف الذي عندهم، يعرفونه ويشاهدونه، لكن إذا عميت الأبصار فلا حيلة. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا عبد الله بنُ رجاءٍ، حدّثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عمير وأبي عبد الرحمٰن السلمي، عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عمد مُوسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبردهُ بها، وهُو على شاطئ نهرٍ، فما شرب أحدٌ من ذلك الماء ممّن كان يعبد العجل إلّا اصفرّ وجهه مثل الذّهب.

وقال سعيد بن جبيرٍ: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾؛ قال: لمّا أحرق العجل، برد ثمّ نسف، فحسوا الماء حتّى عادت وجوههم كالزّعفران.

وحكى القرطبيّ عن كتاب القشيريّ: أنّه ما شرب أحد منه ممّن عبد العجل إلّا جنّ، ثمّ قال القرطبيّ: وهذا شيءٌ غير ما هاهنا؛ لأنّ المقصود من هذا السياق: أنه ظهر على شفاههم ووجوههم، والمذكور هاهنا: أنّهم أشربوا في قلوبهم العجل؛ يعني: في حال عبادتهم له، ثمّ أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ... ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذ ذكرت العهد منها ... أطير لو انّ إنسانًا يطير

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحاصل: أن الله جَلَّ جَلَالُهُ أخبرنا أن موسى حرقه: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، الله أخبرنا أنه أتلفه عليهم بعدما حرقه، وانتهى منه، نسف في البحر حتى لا يبقى له عين ولا أثر، وصارت لهم بقايا في نفوسهم مما وقع في قلوبهم من الشر، نسأل الله

العافية، إلا من هدى الله منهم وعرف الباطل ورجع إلى الحق والصواب، ومن تاب تاب الله عليه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾؛ أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدّهر وحديثه من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، ثمّ اعتمادكم في كفركم بمحمّدٍ ﷺ، وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمر عليكم؛ إذ كفرتم بخاتم الرّسل وسيّد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى النّاس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة: من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله؟

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ **[البقرة: ٩٤ - ٩٦]**[١]

قال محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يقول الله تعالى لنبيّه محمّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾؛ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾؛

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، لو تمنّوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهوديٌّ إلّا مات.

وقال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾: فسلوا الموت.

وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن عبد الكريم الجزريّ، عن عكرمة: قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾؛ قال: قال ابن عبّاسٍ: لو تمنى يهود الموت، لماتوا.

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبي، حدّثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عثّامٌ: سمعت الأعمش قال: لا أظنّه إلّا عن المنهال، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: لو تمنّوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحةٌ إلى ابن عبّاسٍ.

وقال ابن جريرٍ في تفسيره: وبلغنا أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ الْيَهودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا**»[1]، حدّثنا بذلك أبو كريبٍ، حدّثنا زكريّا بن عديٍّ، حدّثنا عبيد الله بن عمرٍو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، عن رسول الله ﷺ. ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي، حدّثنا فراتٌ، عن عبد الكريم، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا الحسن بن أحمد، حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشّارٍ، حدّثنا سرور بن المغيرة، عن عبّاد بن منصورٍ، عن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمنّوه بما قدّمت أيديهم، قلت: أرأيتك لو أنّهم أحبّوا الموت حين قيل لهم: تمنوا الموت، أتراهم كانوا ميّتين؟ قال: لا والله، ما كانوا ليموتوا ولو تمنّوا الموت، وما كانوا ليتمنّوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

هذا من اجتهاد الحسن البصري، وما قاله ابن عباس أظهر، وهو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٤٨).

مرفوع إلى النبي ﷺ، والمرفوع إلى النبي ﷺ والموقوف عن ابن عباس يدل على أنهم لو تمنوه لهلكوا، ولهذا امتنعوا، قال الله عنهم: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ يعني: بأسباب ما قدمت أيديهم من الكفر والضلال والشرور، لا يتمنون الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم إلى النار، نعوذ بالله. فهم تعمدوا الباطل وتعمدوا الجحود وتعمدوا الكفر، ويعلمون أن مصيرهم النار لإيثارهم الدنيا على الآخرة وإيثارهم الهوى والبغي والعدوان، ولهذا، لا يتمنونه أبدًا. ولهذا، قال سبحانه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ يعني: بأسباب ما قدمت أيديهم من المعاصي والكفر والضلال، أما قول الحسن هذا فليس بشيء!

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وهذا غريبٌ عن الحسن. ثمّ هذا الذي فسّر به ابن عبّاسٍ الآية، هو المتعيّن، وهو الدّعاء على أيّ الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جريرٍ عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٨]؛ فهم ـ عليهم لعائن الله تعالى ـ لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، قالوا لن يدخل الجنة إلا من كانوا يهودًا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدّعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، لما نكلوا عن ذلك، علم كلّ أحدٍ أنّهم ظالمون؛ لأنّهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلمّا تأخّروا، علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله وفد نجران من النّصارى بعد قيام الحجّة

عليهم في المناظرة وعتوّهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فلمّا رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعضٍ: والله، لئن باهلتم هذا النّبيّ لا يبقى منكم عينٌ تطرف، فعند ذلك جنحوا للسّلم، وبذلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينًا..

ومثل هذا المعنى أو قريبٌ منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]؛ أي: من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله ممّا هو فيه ومدّ له واستدرجه؛ كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله تعالى.

وأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: (إن كنتم صادقين) في دعواكم، فتمنّوا الآن الموت، ولم يتعرّض هؤلاء للمباهلة؛ كما قرّره طائفةٌ من المتكلّمين وغيرهم.

ومال إليه ابن جريرٍ بعدما قارب القول الأوّل، فإنّه قال: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الآية، فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيّه ﷺ على اليهود الّذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، وذلك أنّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النّصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم عليه السلام، وجادلوه فيه إلى فاصلةٍ بينه وبينهم من المباهلة، فقال لفريق اليهود: إن كنتم محقّين فتمنّوا الموت، فإنّ ذلك غير ضاركم إن كنتم محقّين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله لكم؛ لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنّيتم، فإنّما تصيرون إلى الرّاحة من تعب الدّنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جنّاته إن كان الأمر كما

تزعمون من أنّ الدّار الآخرة لكم خاصة دوننا، وإن لم تعطوها علم النّاس أنّكم المبطلون ونحن المحقّون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم.

فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك؛ لعلمها أنّها إن تمنّت الموت هلكت فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وآخره فيه نظرٌ، وذلك أنّه لا تظهر الحجّة عليهم على هذا التّأويل؛ إذ يقال: إنّه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنّهم صادقون في دعواهم، أنهم يتمنون الموت، فإنّه لا ملازمة بين وجود الصّلاح وتمنّي الموت، وكم من صالحٍ لا يتمنّى الموت؛ بل يودّ أن يعمّر ليزداد خيرًا وترتفع درجته في الجنّة؛ كما جاء في الحديث: من خير النّاس؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(١).

ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون أيّها المسلمون أنّكم أصحاب الجنّة وأنتم لا تتمنّون في حال الصّحّة الموت، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم؟ وهذا كلّه إنّما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأمّا على تفسير ابن عبّاسٍ فلا يلزم عليه شيءٌ من ذلك؛ بل قيل لهم كلامٌ نصف: إن كنتم تعتقدون أنّكم أولياء الله من دون النّاس، وأنّكم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّكم من أهل الجنّة ومن عداكم من أهل النّار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أنّ المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلمّا تيقّنوا ذلك وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحقّ من صفة الرّسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن برقم (٢٣٢٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والإمام أحمد (٤/١٨٨ و١٩٠).

ويتحقّقونه، فعلم كلّ أحدٍ باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وسمّيت هذه المباهلة تمنّيًا؛ لأنّ كلّ محقٍّ يودّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيّما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقّه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأنّ الحياة عندهم عزيزةٌ عظيمةٌ لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾؛ أي: على طول العمر، لما يعلمون من مآلهم السيء، وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأنّ الدّنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر، فهم يودّون لو تأخّروا عن مقام الآخرة بكلّ ما أمكنهم. وما يحاذرون منه واقعٌ بهم لا محالة، حتّى وهم أحرص من المشركين الّذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاصّ على العامّ.

قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أحمد بن سنانٍ، حدّثنا عبد الرّحمٰن بن مهديٍّ، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ قال: الأعاجم، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث الثّوريّ، وقال: صحيحٌ على شرطهما، ولم يخرّجاه. قال: وقد اتّفقا على سند تفسير الصّحابيّ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا فيه نظر؛ بل هو عام، للمشركين، يعمُّ الأعاجم والعرب جميعًا، هم أحرص الناس على حياة، من جميع المشركين عربًا وعجمًا، اليهود أحرص الناس على حياة من جميع المشركين عربهم وعجمهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الحسن البصريّ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾؛ قال:

المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: يود أحد اليهود، كما يدلّ عليه نظم السّياقِ.

وقال أبو العالية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: أحد المجوس، وهو يرجع إلى الأوّل، ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباس: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ قال: هو كقول الفارسي: «ده هزار سال»؛ يقول: عشرة آلاف سنةٍ. وكذا روي عن سعيد بن جبيرٍ نفسه أيضًا.

وقال ابن جريرٍ: حدّثنا محمّد بن عليّ بن الحسن بن شقيقٍ: سمعت أبي يقول: حدّثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ قال: هو قول الأعاجم: هزار سال نوروز مهرجان.

وقال مجاهدٌ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ قال: حبّبت إليهم الخطيئة طول العمر، وقال مجاهد بن إسحاق:

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال محمد بن إسحاق، بدل مجاهد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾؛ أي: وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحبّ طول الحياة، وأنّ اليهوديّ قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع ما عنده من العلم.

وقال العوفي، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾؛ قال: هم الّذين عادوا جبرائيل.

قال أبو العالية وابن عمر: فما ذاك بمغيثه من العذاب، ولا منجيه منه.

وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمَّر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر؛ كما أن عمر إبليس، لم ينفعه إذ كان كافرًا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾؛ أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خيرٍ وشرٍّ، وسيجازي كل عامل بعمله.

*

☐ تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [٩٧][١].

وقال عكرمة: جبر، وميك، وسراف: عبدٌ، إيل: الله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: معناه: عبد الله، جبرائيل وميكائيل إسرافيل معناه: عبد الله.

جبر: عبد، إيل: الله، وهكذا ميكا وإسراف.

يعني: معنى جبرائيل، وميكائيل، إسرافيل، معناها: عبد الله، عبد الله، عبد الله. الله أكبر.

*

حدّثنا عبد الله بن منيرٍ سمع عبد الله بن بكرٍ، حدّثنا حميدٌ، عن أنسٍ قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النّبيّ ﷺ فقال: إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبيٌّ: فما أوّل أشراط السّاعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنّة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه، أو إلى أمّه؟ قال: «**أخبرني بهنّ جبريل آنفًا**»، قال:

---

(١) من شرح سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ لصحيح البخاري كتاب التفسير.

جبريل؟ قال: «**نعم**»، قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآيـة: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، «**أمّا أوّل أشراط السّاعة فنارٌ تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرّجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت**»، قال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّك رسول الله، يا رسول الله، إنّ اليهود قومٌ بهتٌ، وإنّهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النّبيّ ﷺ: «**أيّ رجلٍ عبد الله فيكم؟**»، قالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وسيّدنا، وابن سيّدنا، قال: «**أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟**»، فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، فقالوا: شرّنا، وابن شرّنا، وانتقصوه، قال: فهذا الّذي كنت أخاف يا رسول الله[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عندك (يحترف) أو يخترف[(٢)]؟

(من القارئ): يخترف.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نعم؛ يعني: يأخذ الرّطب من النّخل. هذا المعروف في الرواية.

(القارئ): [قال الإمام العينيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «عمدة القاريّ» (١٨/ ٩٠)]: «قوله: (**يخترف**) بالخاء المعجمة؛ أي: يجتني من ثمارها: يجتني من ثمارها». [انتهى كلامه].

وهذا يدلّ على ظلمهم وكذبهم وجرأتهم على الله؛ في المجلس

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب التفسير، باب ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ (٩٧) برقم (٤٤٨٠).

(٢) قرأها الطالب من نسخته (يحترف) بالحاء المهملة.

الواحد يمدحونه ويثنون عليه، وهذا من بهتهم وحسدهم وبغيهم وظلمهم الّذي هو سجيةٌ لهم، نسأل الله العافية، نعوذ بالله.

ويقولون: (**خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا**) ثمّ لما أسلم يقولون هذا الكلام: (**شرّنا وابن شرّنا**)؟! أين الحياء؟! أين الدّين؟! أين الإيمان؟! غضب الله عليهم صدق الله العظيم، قوم بهتٍ، قوم شرٍّ، عندهم الحسد والبغي الكثير، إلى الآن وهم على حالتهم السّيئة، عندهم البغي والحسد والكفر العنادي.

هذه الدّهور الطّويلة أربعة عشر قرنًا وزيادة قلّ أن يسلم منهم أحدٌ؛ لكفرهم العظيم وعنادهم وبغيهم وحسدهم، بخلاف النّصارى فهم أقرب، والمسلمون منهم كثيرون، في كلّ وقتٍ يسلم الجمّ الغفير من النّصارى.

وأمّا هؤلاء مصرّون على كفرهم وعنادهم وبغيهم وحسدهم، يتواصون به. نسأل الله العافية.

وعبد الله بن سلامٍ أسلم في أوّل ما هاجر النّبيّ ﷺ، وهو من أحبارهم وعلمائهم، ومن أحاديثه أوّل ما أسلم، قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول ـ لما قدم المدينة ـ: «**يَا أَيُّهَا النَّاس أَفْشُوا السَّلَام، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَام، وَصَلُّوا بِاللَّيْل وَالنَّاس نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّة بِسَلَام**»[1]. من أوّل الأحاديث الّتي سمعها عبد الله بن سلامٍ من النّبيّ ﷺ لما قدم المدينة: «**أيها النّاس، أفشوا السّلَام...**»، لما في إفشاء السّلام من المحبّة والتّآلف.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه في كتاب صفة القيامة، باب برقم (٢٤٥٨)، وقال الترمذي: هذا حديثٌ صحيح، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام برقم (٣٢٥١)، والإمام أحمد (٥/ ٤٥١).

وهكذا إطعام الطّعام فيه أيضًا التّآلف والتقارب والرّحمة.

(**وصِلُوا الأَرْحَام**) كذلك، وصل الأرحام فيه خيرٌ عظِيم.

فهذه الخصال العظيمة من أسباب الألفة والمحبة: إفشاء السّلام، وإطعام الطّعام - لا سيّما على الفقراء - وصلة الأرحام.

(**وَصَلُّوا بِاللَّيْل وَالنَّاس نِيَامٌ**) بين العبد وبين ربّه، من أسباب صلاح القلب، وطهارة القلب ورقّته، والرّغبة فيما عند الله؛ «**تدخُلُوا الجَنَّة بسلامٍ**».

• **س: كيف الجمع بين هذه النار، والنار التي تخرج من قعر عدنٍ؟**

○ **الجواب**: وهذه النّار غير النّار الّتي تخرج من قعر عدنٍ، هما ناران:

نارٌ هي في آخر الآيات، وهي تخرج من قعر عدنٍ من الجنوب، وهذه جاء في النّصوص أنّها آخر الآيات.

وهذه النّار الّتي هنا هي نارٌ أخرى من أوّل الآيات المتّصلة بقيام السّاعة تخرج من المشرق، تحشر النّاس إلى المغرب. فهما ناران.

قال بعضهم: ولعلّها الّتي تخرج من الجنوب، ثمّ تعتدل وتكون إلى الشّرق، فسمّاها أوّل الآيات بالنّسبة إلى الآيات المتّصلة بقيام السّاعة، والآيات الّتي غير الدّجال وهدم الكعبة ويأجوج ومأجوج.

لكن هذا ليس بجيّدٍ؛ لأنّ هنا صريحٌ بأنّها أوّل الآيات، وهناك صريحٌ بأنّ آيات عدنٍ آخر الآيات، قعر عدن.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: ماذا قال الشّارح على أوّل الآيات؟ تكلّم عليها بشيءٍ أو قال يأتي في أشراط السّاعة؟

القاري [قال الإمام العينيّ رَحِمَهُ اللهُ في «عمدة القاريّ» (١٨/ ٩٠)]: «مضى في كتاب المغازي». [انتهى كلامه].

[قال الإمام ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ في «الفتح» (٨/ ١٦٦)]: «وسيأتي شرح ذلك في أواخر كتاب الرقاق إن شاء الله». [انتهى كلامه].

• **س: نارٌ حسيّةٌ ولّا معنويّةٌ؟**

قَالَ سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا ، حِسِّيَّةٌ.

• **س: خروجها من المشرق؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نعم، وهذه من قعر عدنٍ، من الجنوب.

• **س: هذه عفا الله عنك الّتي من المشرق لا تعتبر من العظام العشر؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ظاهر ما ذكره العلماء أنّ العاشرة هي نار عدن، ما ذكروا هذه، هذه من أوّل الآيات، الله أكبر.

• **س: آخرها نار عدنٍ؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: آخرها. نسأل الله العافية.

• **س: هناك نارٌ غيرها؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الّتي سمعتها الآن، أوّل الآيات نارٌ تخرج من الشّرق إلى المغرب.

• **س: عفا الله عنك: يعني: قبل الدّجال؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ظاهر هذا أنّها قبل الدّجال ـ والله أعلم ـ لا بدّ من جمع الرّوايات في هذا.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨][(١)].

قال الإمام أبو جعفر بن جريرٍ الطّبريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أنّ هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم، ثمّ اختلفوا في السّبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنّما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرةٍ جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوّته.

(ذكر من قال ذلك): حدّثنا أبو كريبٍ، حدّثنا يونس بن بكيرٍ، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشبٍ، عن ابن عبّاسٍ، أنّه قال: حضرت عصابةٌ من اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدّثنا عن خلالٍ نسألك عنهنّ، لا يعلمهنّ إلّا نبيٌّ، فقال رسول الله ﷺ: **«سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذِمَّةَ اللهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعنني عَلَى الْإِسْلَامِ»**، فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: **«سلُوا عمّا شئتم»**، قالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهنّ، أخبرنا أيّ الطّعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرّجل، وكيف يكون الذّكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة، ومَن وليّه من الملائكة؟

فقال النبي ﷺ: **«عَلَيْكُمْ عَهْدَ الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني؟»** فأعطوه ما شاء الله من عهدٍ وميثاقٍ، فقال: **«نَشَدْتُكُمْ بِالذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ، فَنَذَرَ للهِ نَذْرًا لئن عافاه الله من مرضه لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَام وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ: لُحُومَ الْإِبِلِ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا»**؟ فقالوا: اللّهمّ نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ، وَأَنْشُدُكُم بِاللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ الله ﷻ، فإذا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الْوَلَدُ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى بِإِذْنِ اللهِ ﷻ»**؟ قالوا: اللّهمّ نعم، قال: **«اللَّهُمَّ اشهد، وَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ**

عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟»، قالُوا: اللّهمّ نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1].

قالوا: أنت الآن فحدّثنا من وليّك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ»، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدّقناك.

قال: «فما يمنعكم أَنْ تُصَدِّقُوهُ؟»، قالوا: إنّه عدوّنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فعندها باؤوا بغضبٍ على غضبٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا واضح في عنادهم وكفرهم وضلالهم، فإنهم يعلمون أن جبرائيل هو السفير بين الله إلى الرسل جميعًا، وهو يحمل الوحي من الله إلى الأنبياء؛ إلى موسى وإلى هارون وإلى من قبلهم وإلى من بعدهم عليهم الصلاة والسلام، ولكنه العناد والبغي والحسد. نعوذ بالله، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي النّضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمٰن بن حميدٍ في تفسيره عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام، به.

ورواه أحمد أيضًا عن الحسين بن محمّدٍ المروزيّ، عن عبد الحميد بنحوه.

وقد رواه محمّد بن إسحاق بن يسارٍ، حدثنا عبد الله بن عبد الرّحمٰن بن أبي حسينٍ، عن شهر بن حوشبٍ، فذكره مرسلًا.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٢).

وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الرّوح، قال: «**فأنشدكم بِاللهِ وَبِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أنه جبريل وهو الذي يأتيني؟**»، قالوا: اللّهمّ نعم، ولكنه عدو لنا، وهو ملكٌ إنّما يأتي بالشّدّة وسفك الدّماء، فلولا ذلك اتبعناك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - إلى قوله: - ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو أحمد، حدّثنا عبد الله بن الوليد العجليّ، عن بكير بن شهابٍ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء؛ فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنّك نبيٌّ واتّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل، قال: هاتوا، قالوا: فأخبرنا عن علامة النّبيّ؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه»(١).

قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تُذكِر؟ قال: «**يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَنَّثَتْ**».

قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**كان يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا أَلْبَانَ**» كذا قال أحمد، قال بعضهم: يعني: الإبل، «**فَحَرَّمَ لُحُومَهَا**»، قالوا: صدقت.

قالوا: أخبرنا ما هذا الرّعد؟ قال: «**مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ ﷻ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بيديه أو: في يديه مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حيث أمره الله تعالى**».

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء برقم (١٣٨)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٦٣).

قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «**صوته**»، قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنّه ليس من نبيٍّ إلّا وله ملكٌ يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «**جِبرِيلُ** عليه السلام»؛ قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوّنا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية.

ورواه التّرمذيّ والنّسائيّ من حديث عبد الله بن الوليد، به، وقال التّرمذيّ: حسنٌ غريبٌ[(١)].

وقال سنيدٌ في تفسيره عن حجّاج بن محمّدٍ، عن ابن جريجٍ: أخبرني القاسم بن أبي بزة أن يهودًا سألوا النّبيّ ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي، قال: «**جِبْرِيلُ**»، قالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال، فنزلت: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

قال ابن جرير: قال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما نزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، فإنه لنا عدوٌّ، فنَزَلَ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

قال البخاري: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ قال عكرمة: جبرا وميكا وإسراف: عبد. إيل: اللهُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

المعنى أن جبرائيل وميكائيل وإسرافيل بمعنى عبد الله، جبرا بمعنى عبد،وإيل معناها الله، فجبرائيل وميكائيل وإسرافيل ونحو ذلك كلها بمعنى تعبيد الله؛ يعني: عبد الله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

حدّثنا عبد الله بن منيرٍ، سمع عبد الله بن بكرٍ، حدّثنا حميدٌ، عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٧٤).

أنس بن مالكٍ، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النّبيّ ﷺ فقال: إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبيٌّ: ما أوّل أشراط السّاعة، وما أوّل طعام أهل الجنة، وما ينزع الوالد إلى أبيه أو إلى أمّه؟ قال: «**أَخبَرَنِي بهذه جبرائيل آنِفًا**» قال: جبريل؟ قال: «**نعم**» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ وأما أوّل أشراط السّاعة، فنارٌ تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب.

وأمّا أوّل طعامٍ يأكله أهل الجنّة، فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرّجل ماء المرأة، نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت.

قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله. يا رسول الله، إنّ اليهود قومٌ بهتٌ، وإنّهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أَيُّ رَجُلٍ عبد اللهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟**»، قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيّدنا وابن سيدنا، قال: فقال النّبيّ ﷺ «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ**». قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله. قالوا: شرّنا وابن شرّنا. وتنقّصوه. قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله ـ انفرد به البخاريّ[(١)] من هذا الوجه. وقد أخرجه من وجهٍ آخر عن أنسٍ بنحوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا يدل على خبث اليهود وعنادهم واستكبارهم عن الحق وإقدامهم على الباطل بقلة حياء وقلة مبالاة نسأل الله العافية، فهم

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في كتاب المناقب، باب ٥١ برقم (٣٩٣٨).

يتعمَّدون الكذب ويجاهرون بالكذب ولا يبالون، و﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويتكبرون عن اتباع الحق، ولهذا، باؤوا بغضب على غضب. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح مسلمٍ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قريبٌ من هذا السياق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وحكاية البخاري كما تقدم عن عكرمة هو المشهور أنّ إيل هو الله، وقد رواه سفيان الثّوريّ عن خصيفٍ، عن عكرمة، ورواه عبد بن حميدٍ عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جريرٍ عن الحسين بن يزيد الطّحّان، عن إسحاق بن منصورٍ، عن قيسٍ بن عاصمٍ، عن عكرمة أنّه قال: إنّ جبريل اسمه عبد الله، وميكائيل اسمه عبيد الله، إيل: الله.

ورواه يزيد النّحويّ عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، مثله سواءً.

وكذا قال غير واحدٍ من السّلف كما سيأتي قريبًا.

وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله.

ومن النّاس من يقول: إيل عبارةٌ عن عبدٍ، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأنّ كلمة إيل لا تتغيّر في الجميع فوزانه عبد الله، عبد الرّحمٰن، عبد الملك، عبد القدّوس، عبد السّلام، عبد الكافي، عبد الجليل، فعبد موجودةٌ في هذا كلّه، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك.

وفي كلام غير العرب يقدّمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثمّ قال ابن جريرٍ: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النّبيّ ﷺ.

(ذكر من قال ذلك): حدّثني محمّد بن المثنى، حدّثني ربعيّ بن عليّة، عن داود بن أبي هندٍ، عن الشّعبيّ، قال: نزل عمر الرّوحاء، فرأى رجالًا يبتدرون أحجارًا يصلّون إليها، فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا يزعمون أنّ رسول الله ﷺ صلّى هاهنا، قال: فكره ذلك، وقال: إنّما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بوادٍ فصلّى، ثمّ ارتحل فتركه، ثمّ أنشأ يحدّثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدّق التّوراة، فبينما أنا عندهم ذات يومٍ قالوا: يا ابن الخطّاب ما من أصحابك أحدٌ أحبّ إلينا منك.

قلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا.

فقلت: إنّي آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدّق التّوراة ومن التّوراة كيف تصدّق القرآن.

قال: ومرّ رسول الله ﷺ، فقالوا: يا ابن الخطّاب، ذاك صاحبكم فالحق به.

قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذي لا إلٰه إلّا هو، وما استرعاكم من حقه، وما استودعكم من كتابه، هل تعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا، فقال له عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظم عليكم فأجيبوه، قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت، قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا، فإنا نعلم أنه رسول الله، قلت: ويحكم إذًا هلكتم، قالوا: إنا لم نهلك، قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنّه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدّقونه؟ قالوا: إنّ لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة، وإنّه قرن بنبوته عدونا من الملائكة، قلت: ومن عدوّكم، ومن سلمكم؟ قالوا: عدوّنا جبريل، وسلمنا ميكائيل، قالوا: إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة

والإعسار والتّشديد والعذاب ونحو ذلك، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتّخفيف ونحو هذا.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربّهما ﷻ؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال: فقلت: فوالذي لا إله إلّا هو، إنّهما والذي بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما، وسلمٌ لمن سالمهما، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدوّ ميكائيل، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل.

قال: ثمّ قمت فاتّبعت النّبيّ ﷺ، فلحقته وهو خارجٌ من خوخةٍ لبنِي فلانٍ، فقال: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا أُقْرِئَكَ آيَاتٍ نَزَلْنَ قَبْلُ**». فقرأ علي: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، حتى قرأ هذه الآيات.

قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجدون محمدًا في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولًا إلا جعل له من الملائكة كفْلًا، وإن جبريل كَفَل محمَّدًا، وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه أسلمنا. قال: فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله.

قال عمر: وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل.

فبينما هو عندهم إذ مر النبي ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب، فقام إليه عمر، فأتاه، وقد أنزل الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾.

وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما أبصروه رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله، ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمدًا على سرنا، وإذا جاء جاء الحرب والسَّنَة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم.

فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتنكرون محمدًا ﷺ؟

ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ، ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يومًا، فذكر نحوه. وهذا ـ أيضًا ـ منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمٰن ـ يعني الدَّشْتَكي ـ، حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمٰن، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، أن يهوديًّا أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾، قال: فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه.

[ورواه عبد بن حميد عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر هو الرازي].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمٰن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم اتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه لنا عدو، قال: فنزلت هذه الآية.

حدثني يعقوب، قال: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا؛ لأنه ينزل بالشدة والسَّنَة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [الآية].

وأما تفسير الآية، فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله مَلَكي [عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فحكم عليهم بالكفر المحقّق، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى

جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه؛ كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]. وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»(١). ولهذا، غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾؛ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي ـ ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

(وجبريل وميكال) وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة ثم في عموم الرسل، ثم خُصِّصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق، باب التواضع برقم (٦٥٠٢).

أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا؛ لأنه أيضًا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وهذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصُّور للنفخ للبعث يوم القيامة؛ ولهذا، جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ومِيكَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَات والأرضِ، عَالِمَ الْغَيبِ والشَّهَادَةِ، أنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اختُلِف فيهِ من الحَق بِإِذنِكَ، إنَّكَ تَهْدي مَنْ تشاء إلى صِرَاط مُسْتَقيم**»(١).

وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة، أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عُبَيد. وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و«عبد الرحمٰن». وقيل جبر: عبد. وإيل: الله.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله. وكل اسم مرجعه إلى «يل» فهو إلى الله.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِي،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٧٠).

حدثني عبد العزيز بن عمير، قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحبّ إليَّ من كل شيء، [وكتبه] في دفتر كان بين يديه.

وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسَرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾: فيه إيقاع المُظْهَر مكان المُضمَر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾؛ كما قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيء نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا...

وقال آخر:

ليتَ الغرابَ غداة ينعَبُ دائبا كـان الـغـرابُ مـقـطَّـع الأوداج

وإنما أظهر الاسم هاهنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة؛ كما تقدم الحديث: «**من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب**». وفي الحديث الآخر: «**إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب**»(١).

وفي الحديث الصحيح: «**وَمَن كنتُ خَصْمَه خَصَمْتُه**»(٢).

* *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم من حديث أنس ﷺ كما ذكره الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٤٤٠).

(٢) جزء من حديث رواه أبو هريرة ﷺ مرفوعًا: «**قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»، برقم (٢٢٧٠)

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ٩٩ ـ ١٠٣][(١)].

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات [دلالات] على نبوَّتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمَّنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم وبدَّلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وَصَفَ، من غير تعلُّم تعلَّمه من بَشَريٍّ ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي. كما قال الضحاك، عن ابن

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أميٌّ لا تقرأ كتابًا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال ابن صُوريا الفطْيُوني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وقال مالك بن الصيف ـ حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عَهِد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ [له] علينا ميثاقًا. فأنزل الله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾؛ قال: نَعَم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غدًا.

وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: نقضه فريق منهم.

وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبوذًا، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرِحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرتُ إلى عنوانه فنبذْتُه   كنبذك نَعْلًا أخْلقَتْ من نعَالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم اللهُ إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا، أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه،

وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته؛ كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال هاهنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾؛ أي: اطَّرَحَ طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ، وراء ظهورهم؛ أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا، أرادوا كيْدًا برسول الله ﷺ وسَحَروه في مُشْط ومُشَاقة وجُفّ طَلْعَة ذَكر، تحت راعوثة بئر ذي أروان. وكان الذي تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله، فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطًا في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه. قال السدي: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾؛ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾: وكان حين ذهب مُلْكُ سليمان ارتد فِئَامٌ من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع اللهُ إلى سليمان ملكَه، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفي سليمان عليه السلام، حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه عنا، فأخذوا به فجعلوه دينًا. فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، واتبعوا الشهوات؛ [أي]: التي كانت [تتلو الشياطين]، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جُهَّالُ الناس وسبّوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان سليمان عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئًا من نسائه، أعطى الجرادة - وهي امرأة - خاتمه. فلما أراد الله أن يبتلي سليمان عليه السلام، بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتَمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر. ثم دفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئ الناس من سليمان عليه السلام، وأكفروه حتى بعث الله محمدًا ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمٰن، عن

عمران، وهو ابن الحارث، قال: بينا نحن عند ابن عباس رضي الله عنهما، إذ جاء رجل فقال له: مِنْ أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيِّه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليًّا خارج إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرِّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذْبة، قال: فَتَشْرَبُها قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام، فدفنها تحت كرسيه. فلما توفي سليمان عليه السلام، قام شيطانُ الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنزه الممنَّع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره، فتناسخا الأمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق - وأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

ورواه الحاكم في مستدركه، عن أبي زكريا العَنْبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ أي: على عهد سليمان؛ قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدِّث الكهنة الناسَ فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناسُ ذلك الحديثَ في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبُعث سليمانُ في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق. ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق. وقال: لا أسمع أحدًا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا

يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خَلْف، تمثل شيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدًا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فَادْنُ. قال: لا، ولكنني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرًا. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمدًا ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. وإن الشياطين عَمَدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان [سليمان] عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه. فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث، فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حجتهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾؛ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي، فما سمعوا من كلمة [إلا] زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسِل سليمان عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين، فعلمته الناس [به]، وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان عليه السلام، يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبَّت إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستثار به الإنسُ واستخرجوه فعملوا بها. فقال أهل الحجا: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على [لسان] نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عُنْوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه، واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر في الناس [وتعلموه وعلموه]. وليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عَدَّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبيًّا، ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا عن أبي بكر، عن شَهْر بن حَوشب، قال: لما سلب سليمان عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتي كذا

وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس، وليقل كذا وكذا. فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان [بن داود] من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيبًا، [ثم] قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نَبيًّا، إنما كان ساحرًا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه. فقالوا: والله، لقد كان سليمان ساحرًا! هذا سحره، بهذا تَعَبَّدَنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبيًّا مؤمنًا. فلما بعث الله النبي ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود [لعنهم الله]: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، إنما كان ساحرًا يركب الريح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حُدَير، عن أبي مِجْلَز، قال: أخذ سليمان عليه السلام، من كل دابة عهدًا، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلَّى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رَوّاد، حدثنا آدم، حدثنا المسعودي، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة.

وقال: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي، حدثني سُرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ واتبعته اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: واتبعت اليهود ـ الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمدًا ﷺ ما تتلوه الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعدَّاه بـ«على»؛ لأنه تضمن تتلو: تكذب. وقال ابن جرير: «على» هاهنا بمعنى «في»، أي: تتلو في ملك سليمان. ونقله عن ابن جُرَيج، وابن إسحاق.

قلت: والتضمُّن أحسن وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصري رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح ـ وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ـ لنبيِّهم صالح: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]؛ أي: [من] المسحورين، على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾؛ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، أعني التي في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾؛ قال القرطبي: «ما» نافية ومعطوفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾؛ أي: السحر، وذلك أن اليهود ـ لعنهم الله ـ كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل

وميكائيل، فأكذبهم الله في ذلك، وجعل قوله: ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بدلًا من: (الشياطين). قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، أو يكون لهما أتباع، أو ذُكِرا من بينهم لتمرُّدهما، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ الآية؛ يقول: لم ينزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؛ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم.

قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ من السحر، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾، وما أنزل الله «السحر» على الملكين، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ببابل وهاروت وماروت، فيكون معنيًّا بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرَّأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلِّمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت،

فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس، وردًّا عليهم.

هذا لفظه بحروفه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حُدِّثت عن عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؛ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر.

حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا يعلى - يعني: ابن أسد -، حدثنا بكر - يعني: ابن مصعب -، حدثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمٰن بن أبزى كان يقرؤها: «وما أنزل على الملكين داود وسليمان».

وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر اختبارًا لعباده وامتحانًا، بعد أن بيَّن لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به.

وهذا الذي سلكه غريب جدًّا! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن [كما زعمه ابن حزم].

وروى ابن أبي حاتم بإسناده، عن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، ويقول: هما علجان من أهل بابل.

وَوَجَّه أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخَلْق، لا بمعنى الإيحاء، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ

لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وفي الحديث: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً**»(١).

وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

[وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن البصري: أنهم قرؤوا: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بكسر اللام. قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا، تكون «ما» نافية أيضًا].

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [و«ما» نافية] قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾، قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

ثم روى عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أيّ ذلك كان، إني آمنت به.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده، كما سنورده إن شاء الله تعالى.

[وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الطب، باب ما «**أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**» برقم (٥٦٧٨).

وعلى هذا، فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت ـ على ما ذكر ـ أخف مما وقع من إبليس لعنه الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر الحديث الوارد في ذلك إن صحّ سنده ورفعه وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبلٍ رحمه الله تعالى في مسنده: أخبرنا يحيى بن بكيرٍ، حدّثنا زهير بن محمّدٍ، عن موسى بن جبيرٍ، عن نافعٍ، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّه سمع نبيّ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ آدَمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لَمَّا أَهْبَطَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: أَيْ رب** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠][(١)] **قَالُوا: رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: هَلُمُّوا مَلَكَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى نُهْبِطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ، قالوا: ربنا هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَأُهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ، وَمُثِّلَتْ لَهُمَا الزُّهَرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ، فَجَاءَتْهُمَا فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَتَكَلَّمَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْإِشْرَاكِ، فَقَالَا: وَاللهِ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا أَبَدًا، فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَقْتُلَا هَذَا الصَّبِيَّ، فَقَالَا: لَا وَاللهِ، لا نقتله أبدًا، فذهبت ثم رجعت بِقَدَحِ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، حَتَّى تَشْرَبَا**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣٤).

هَذَا الْخَمْرَ، فَشَرِبَا، فَسَكِرَا، فَوَقَعَا عَلَيْهَا وَقَتَلَا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَفَاقَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَاللهِ، مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا أَبَيْتُمَاهُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَاهُ حِينَ سَكِرْتُمَا، فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا».

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبّان في صحيحه عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن بكيرٍ، به.

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ورجاله كلّهم ثقاتٌ من رجال الصّحيحين إلّا موسى بن جبيرٍ هذا، وهو الأنصاريّ السّلميّ مولاهم المدينيّ الحذّاء، وروى عن ابن عبّاسٍ وأبي أمامة بن سهل بن حنيفٍ ونافعٍ وعبد الله بن كعب بن مالكٍ، وروى عنه ابنه عبد السّلام وبكر بن مضر وزهير بن محمّدٍ وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيّوب، وروى له أبو داود وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتمٍ في كتاب الجرح والتّعديل، ولم يحك فيه شيئًا من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرّد به عن نافعٍ مولى ابن عمر عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النّبيّ ﷺ، وروي له متابعٌ من وجهٍ آخر عن نافعٍ، كما قال ابن مردويه: حدّثنا دعلج بن أحمد، حدّثنا هشام بن عليّ بن هشامٍ، حدّثنا عبد الله بن رجاءٍ، حدّثنا سعيد بن سلمة، حدّثنا موسى بن سرجس، عن نافعٍ، عن ابن عمر: سمع النّبيّ ﷺ يقول؛ فذكره بطوله.

الطالب: قال ابن حبان: كان يخطئ ويخالف، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله؛ كما في «تهذيب التهذيب».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال أبو جعفر بن جريرٍ رحمه الله: حدّثنا القاسم، أخبرنا الحسين، وهو سنيد بن داود صاحب التّفسير، أخبرنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالحٍ، عن نافعٍ، قال: سافرت مع ابن عمر، فلمّا كان من آخر اللّيل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرّتين أو

ثلاثًا، ثمّ قلت: قد طلعت، قال: لا مرحبًا بها ولا أهلًا، قلت: سبحان الله، نجمٌ مسخّرٌ سامعٌ مطيعٌ، قال: ما قلت لك إلّا ما سمعت من رسول الله ﷺ. وقال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبِّ، كَيْفَ صَبْرُكَ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ؟ قَالَ: إِنِّي ابْتَلَيْتُهُمْ وَعَافِيْتُكُمْ، قَالُوا: لَوْ كُنَّا مَكَانَهُمْ مَا عَصَيْنَاكَ، قَالَ: فَاخْتَارُوا مَلَكَيْنِ مِنْكُمْ، قَالَ: فَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا أَنْ يَخْتَارُوا فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ**».

وهذان أيضًا غريبان جدًّا، وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النّبيّ ﷺ؛ كما قال عبد الرّزّاق في تفسيره، عن الثّوريّ، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب الأحبار، قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذّنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إنّي أرسل إلى بني آدم رسلًا وليس بيني وبينكم رسولٌ، انزلا، لا تشركا بي شيئًا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر، قال كعبٌ: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

رواه ابن جريرٍ من طريقين، عن عبد الرّزّاق، به.

ورواه ابن أبي حاتمٍ، عن أحمد بن عصامٍ، عن مؤمّلٍ، عن سفيان الثّوريّ، به.

ورواه ابن جريرٍ أيضًا: حدّثني المثنّى، أخبرنا المعلى، وهو ابن أسد، أخبرنا عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة، حدّثني سالمٌ، أنّه سمع عبد الله يحدّث عن كعب الأحبار، فذكره، فهذا أصحّ وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدّمين، وسالمٌ أثبت في أبيه من مولاه نافعٍ، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا جيد، وهذا عن كعب الأحبار، وكعب الأحبار يروي عن بني إسرائيل الغث والسمين والباطل والصحيح، فلا يعتمد عليه ولا يعوَّل عليه، أما عن النبي ﷺ فهو حديث ضعيف لما تقدم لحال موسى مولى الأنصار، والفرج بن فضالة وهو ليس بشيء ولا يعول عليه، وموسى بن سرجس ما تكلم عليه المؤلف ولعله. . . . .

الحاصل: أنه ليس بثابت عن النبي ﷺ، وإنما هو من أخبار بني إسرائيل التي فيها الغث والسمين والباطل والصحيح والكذب وغيره، فلا يعوَّل عليه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ماذا عندكم؟

الطالب: ما وجدنا ابن الزبير، وجدنا ابن جبر؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لعله ماذا قال؟

الطالب: موسى بن جبر الأنصاري المدني الحذاء، مولى بني سلمة، نزيل مصر، مستور من السادسة. أبو داود وابن ماجه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: موسى بن سرجس؟

الطالب: موسى بن سرجس، بفتح المهملة وسكون الراء وكسر الجيم بعدها مهملة، مدني مستور، من السادسة. الترمذي والنسائي في عمل اليوم والليلة وابن ماجه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المقصود أن موسى وموسى كلاهما مجهولان. . . . . . ضعيف، فما بقي له سند. . . .

فالأصح مثلما قال المؤلف من أخبار كعب في مسألة الملكين وإنزالهما، وأنهما أنزلا على طريقة بني آدم وجعلت فيهما الشهوة، وأنهما بسبب الشهوة وبسبب عدم الصبر وقعا في الخمر وقتل النفس بغير حق والزنا، فمثل هذا لا يثبت بمثل هذه الأخبار الإسرائيلية.

ثم هذا لو صح فيه دلالة على خبث الخمر وأنها وسيلة إلى كل

شر، نعوذ بالله، وسيلة للقتل، وسيلة للشرك، وسيلة إلى الزنا، وسيلة إلى كل فساد. نعوذ بالله، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصّحابة والتّابعين رضي الله عنهم أجمعين)

قال ابن جريرٍ: حدّثني المثنّى، حدّثنا الحجّاج، أخبرنا حمّادٌ، عن خالدٍ الحذّاء، عن عمير بن سعيدٍ، قال: سمعت عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كانت الزّهرة امرأةً جميلةً من أهل فارس، وإنّها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراوداها عن نفسها، فأبت عليهما إلّا أن يعلّماها الكلام الذي إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السّماء، فعلّماها فتكلّمت به، فعرجت إلى السّماء فمسخت كوكبًا. وهذا الإسناد رجاله ثقاتٌ، وهو غريبٌ جدًّا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: قد يكون هذا مما أخذه علي عن بني إسرائيل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا الفضل بن شاذان، أخبرنا محمد بن عيسى، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا معاوية، عن خالدٍ عن عمير بن سعيدٍ، عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: هما ملكان من ملائكة السّماء؛ يعني: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بسنده عن مغيثٍ، عن مولاه جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه، عن جدّه، عن عليٍّ مرفوعًا. وهذا لا يثبت من هذا الوجه. ثمّ رواه من طريقين آخرين عن جابرٍ، عن أبي الطّفيل، عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ الزُّهَرَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ التي فَتَنَتِ الْمَلَكَيْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**»[1]، وهذا أيضًا لا يصحّ، وهو منكرٌ جدًّا، والله أعلم.

---

(١) السيوطي في جامع الأحاديث برقم (٤٥١٥٩).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وجابر هذا هو الجعفي المعروف فلا يعول عليه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن جريرٍ: حدّثني المثنّى بن إبراهيم، أخبرنا الحجّاج بن منهالٍ، حدّثنا حمّادٌ، عن عليّ بن زيدٍ، عن أبي عثمان النّهديّ، عن ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ، أنّهما قالا جميعًا: لما كثر بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال: ربّنا لا تمهلهم، فأوحى الله إلى الملائكة: إنّي أزلت الشّهوة والشّيطان من قلوبكم، وأنزلت الشهوة والشيطان في قلوبهم، ولو نزلتم لفعلتم أيضًا.

قال: فحدّثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزّهرة إليهما في صورة امرأةٍ من أهل فارس يسمونها بيذخت، قال: فوقعا بالخطيئة، فكانت الملائكة يستغفرون للّذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فلمّا وقعا بالخطيئة، استغفروا لمن في الأرض: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، فخيّرا بين عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا.

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الله بن جعفرٍ الرّقّيّ، أخبرنا عبيد الله؛ يعني: ابن عمرٍو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرٍو ويونس بن خبّابٍ، عن مجاهدٍ، قال: كنت نازلًا على عبد الله بن عمر في سفرٍ، فلمّا كان ذات ليلةٍ قال لغلامه: انظر، هل طلعت الحمراء؟ لا مرحبًا بها ولا أهلًا ولا حيّاها الله، هي صاحبة الملكين، قالت الملائكة: يا ربّ، كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدّم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الأرض؟ قال: إنّي

ابتليتهم، فلعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون، قالوا: لا، قال: فاختاروا من خياركم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إني مهبطكما إلى الأرض، وعاهد إليكما أن لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا، فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشهوة، وأهبطت لهما الزّهرة في أحسن صورة امرأةٍ، فتعرّضت لهما فراوداها عن نفسها، فقالت: إنّي على دينٍ لا يصحّ لأحدٍ أن يأتيني إلّا من كان على مثله، قالا: وما دينك؟ قالت: المجوسيّة، قالا: الشّرك، هذا شيءٌ لا نقرّ به، فمكثت عنهما ما شاء الله تعالى، ثم تعرضت لهما فراوداها عن نفسها، فقالت: ما شئتما غير أنّ لي زوجًا وأنا أكره أن يطّلع على هذا منّي فأفتضح، فإن أقررتما لي بديني وشرطتما لي أن تصعدا بي إلى السّماء فعلت، فأقرا لهما بدينها وأتياها فيما يريان ثمّ صعدا بها إلى السّماء، فلمّا انتهيا بها إلى السّماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان، وفي الأرض نبيٌّ يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب فقالا: لو أتينا فلانًا فسألناه فطلب لنا التّوبة، فأتياه فقال: رحمكما الله، كيف يطلب التّوبة أهل الأرض لأهل السّماء؟ قالا: إنّا قد ابتلينا، قال: ائتياني يوم الجمعة، فأتياه، فقال: ما أجبت فيكما بشيءٍ، ائتياني في الجمعة الثّانية فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن اخترتما معافاة الدّنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدّنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله.

فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلّا القليل. وقال الآخر: ويحك، إنّي قد أطعتك في الأمر الأوّل فأطعني الآن، إنّ عذابًا يفنى ليس كعذاب يبقى. فقال: إننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذّبنا، قال: لا. إنّي أرجو إن علم الله أنّا قد اخترنا عذاب الدّنيا مخافة

عذاب الآخرة أن لا يجمعها علينا، قال: فاختارا عذاب الدّنيا، فجُعلا في بكراتٍ من حديدٍ في قليبٍ مملوءةٍ من نار عليهما وسافلهما.

ـ وهذا إسنادٌ جيّدٌ إلى عبد الله بن عمر ـ. وقد تقدّم في رواية ابن جريرٍ من حديث معاوية بن صالحٍ، عن نافعٍ، عنه رفعه.

وهذا أثبت وأصحّ إسنادًا، ثمّ هو ـ والله أعلم ـ من رواية ابن عمر، عن كعبٍ؛ كما تقدّم بيانه، من رواية سالمٍ، عن أبيه.

وقوله: إنّ الزّهرة نزلت في صورة امرأةٍ حسناء، وكذا في المرويّ عن عليٍّ، فيه غرابةٌ جدًّا.

وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا أبو جعفرٍ، حدّثنا الرّبيع بن أنسٍ، عن قيس بن عبّادٍ، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: لمّا وقع النّاس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السّماء: يا ربّ، هذا العالم الذي إنّما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتل النّفس، وأكل المال الحرام، والزّنا والسّرقة، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم، فقيل: إنّهم في غيبٍ، فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما، وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئًا، ونهيا عن قتل النّفس الحرام وأكل المال الحرام وعن الزّنا والسّرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زمانًا يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمن إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزّمان امرأةٌ حسنها في النّساء كحسن الزّهرة في سائر الكواكب، وأنّهما أتيا عليها فخضعا لها في القول وأراداها على نفسها، فأبت إلّا أن يكون على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها،

فأخرجت لهما صنمًا فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثمّ أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، فلمّا رأت أنّهما قد أبيا أن يعبدا الصّنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثّلاث: إمّا أن تعبدا هذا الصّنم، وإمّا أن تقتلا هذه النّفس، وإمّا أن تشربا هذه الخمر، فقالا: كلّ هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر، فشربا الخمر فأخذت فيهما، فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلمّا ذهب عنهما السّكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السّماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السّماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كلّ العجب، وعرفوا أنّه من كان في غيبٍ فهو أقلّ خشيةً، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فنزل في ذلك: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشّورى: ٥]؛ فقيل لهما: اختارا عذاب الدّنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أمّا عذاب الدّنيا فإنّه ينقطع ويذهب، وأمّا عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدّنيا، فجعلا ببابل فهما يعذّبان.

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطوّلًا عن أبي زكريّا العنبريّ، عن محمّد بن عبد السّلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكّام بن سلم الرّازيّ، وكان ثقةً، عن أبي جعفرٍ الرّازيّ، به، ثمّ قال: صحيح الإسنادً لم يخرّجاه، فهذا أقرب ما روي في شأنٍ الزّهرة، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأبو جعفر الرازي لا يحتج به، ضعيف، سيئ الحفظ. والحاصل أن كل الخبر عن بني إسرائيل، فلا يعول عليها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا مسلم، أخبرنا القاسم بن

الفضل الحذائي، أخبرنا يزيد؛ يعني: الفارسي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ أهل سماء الدّنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصي، فقالوا: يا ربّ، أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي، فقال الله: أنتم معي وهم في غيبٍ عنّي، فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثةً، فاختاروا منهم ثلاثةً على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمروا أن لا يشربوا خمرًا ولا يقتلوا نفسًا ولا يزنوا ولا يسجدوا لوثنٍ، فاستقال منهم واحدٌ فأقيل، فأهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأةٌ من أحسن النّاس يقال لها: مناهية، فهوياها جميعًا، ثمّ أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأراداها، فقالت لهما: لا، حتّى تشربا خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني، فقالا: لا نسجد، ثمّ شربا من الخمر، ثمّ قتلا، ثمّ سجدا، فأشرف أهل السماء عليهما، وقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما، فأخبراها فطارت، فمسخت جمرةً، وهي هذه الزّهرة، وأمّا هما فأرسل إليهما سليمان بن داود، فخيّرهما بين عذاب الدّنيا، وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدّنيا فهما مناطان بين السّماء والأرض.

وهذا السياق فيه زيادة كثيرةٌ وإغرابٌ ونكارةٌ، والله أعلم بالصّواب.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: تقدم أن هذه كلها أخبار إسرائيلية لا يعول عليها، والله أعلم جل وعلا بمراده سبحانه وتعالى.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال عبد الرّزّاق: قال معمرٌ: قال قتادة والزّهريّ، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾: كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكما بين النّاس، وذلك أنّ الملائكة سخروا من حكّام بني آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فخافا لها، ثمّ ذهبا يصعدان فحيل

بينهما وبين ذلك، ثمّ خيّرا بين عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

وقال معمرٌ: قال قتادة: فكانا يعلّمان النّاس السّحر، فأخذ عليهما أن لا يعلّما أحدًا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال أسباطٌ، عن السّدّيّ أنّه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنّهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم، فقيل لهما: إنّي أعطيت بني آدم عشرًا من الشّهوات فبها يعصونني، قال هاروت وماروت: ربّنا لو أعطيتنا تلك الشّهوات ثمّ نزلنا لحكمنا بالعدل. فقال لهما: انزلا فقد أعطيتكما تلك الشّهوات العشر فاحكما بين النّاس، فنزلا ببابل دیناوند، فكانا يحكمان، حتّى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتّى أتتهما امرأةٌ تخاصم زوجها، فأعجبهما حسنها واسمها بالعربيّة الزهرة، وبالنبطية بيدخت، وبالفارسية ناهيد، فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبني، قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك، فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها. قال: نعم، ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنّا لنرجو رحمة الله. فلمّا جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها، فقالت: لا، حتّى تقضيا لي على زوجي، فقضيا لها على زوجها ثمّ واعدتهما خربةً من الخرب يأتيانها فيها فأتياها لذلك، فلمّا أراد الذي يواقعها قالت: ما أنا بالذي أفعل حتّى تخبراني بأيّ كلامٍ تصعدان إلى السّماء، وبأيّ كلامٍ تنزلان منها، فأخبراها فتكلمت فصعدت، فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبًا، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت.

فلمّا كان اللّيل، أرادا أن يصعدا فلم يطيقا، فعرفا الهلكة، فخيّرا بين عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدّنيا، فعلّقا ببابل وجعلا يكلّمان الناس كلامها، وهو السّحر.

وقال ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: أمّا شأن هاروت وماروت، فإنّ الملائكة عجبت من ظلم بني آدم وقد جاءتهم الرّسل والكتب والبيّنات، فقال لهم ربّهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض، فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما من بني آدم من ظلمهم ومعصيتهم، وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء وإنكما ليس بيني وبينكما رسولٌ، فافعلا كذا وكذا ودعا كذا وكذا، فأمرهما بأمور ونهاهما، ثمّ نزلا على ذلك ليس أحدٌ أطوع لله منهما فحكما فعدلا، فكانا يحكمان في النّهار بين بني آدم فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان، حتّى أنزلت عليهما الزّهرة في أحسن صورة امرأةٍ تخاصم فقضيا عليها.

فلمّا قامت وجد كلّ واحدٍ منهما في نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذي وجدت؟ قال: نعم، فبعثا إليها أن ائتيانا نقض لك، فلمّا رجعت قالا وقضيا لها، فأتتهما فكشفا لها عن عورتيهما، وإنما كانت سوأتهما في أنفسهما ولم يكونا كبني آدم في شهوة النساء ولذاتها، فلمّا بلغا ذلك واستحلّا افتتنا، فطارت الزّهرة فرجعت حيث كانت.

فلمّا أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما، فاستغاثا برجلٍ من بني آدم فأتياه فقالا: ادع لنا ربّك، فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السّماء؟ قالا: سمعنا ربّك يذكرك بخيرٍ في السّماء.

فوعدهما يومًا، وغدا يدعو لهما، فدعا لهما فاستجيب له، فخيّرا بين عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: ألا تعلم أنّ أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد وفي الدّنيا تسع مرّاتٍ مثلها؟

فأمرا أن ينزلا ببابل فتم عذابهما.

وزعم أنّهما معلّقان في الحديد مطويّان يصفّقان بأجنحتهما.

وقد روى في قصّة هاروت وماروت عن جماعةٍ من التّابعين كمجاهدٍ والسّدّيّ والحسن البصريّ وقتادة وأبي العالية والزّهريّ والرّبيع بن أنسٍ ومقاتل بن حيّان وغيرهم، وقصّها خلقٌ من المفسّرين من المتقدّمين والمتأخّرين، وحاصلها راجعٌ في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديثٌ مرفوعٌ صحيحٌ متّصل الإسناد إلى الصّادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وظاهر سياق القرآن إجمال القصّة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الذي قاله المؤلف هو الصواب؛ لأن أخبار بني إسرائيل، النبي ﷺ قال: «**لا تصدّقوهم ولا تكذبوهم، فقد يكون حقًّا فتكذبوه، وقد يكون باطلًا فتصدّقوه**»، وهذه أخبارهم مختلفة متنوعة متضاربة لا يعوَّل عليها، وإنما يعوَّل على نصِّ الكتاب العزيز، والله أعلم بمراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس فيها نص عن رسول الله ﷺ يشرح ذلك، ولهذا، قرأ بعضهم «ملِكين» وأنهما ملكان من ملوك الدنيا، وقرأ آخرون وهو المشهور: «ملكين»....... وأنهما من الملائكة، فالله أعلم بأسباب ذلك، ولكنه ابتلاء وامتحان. نسأل الله السلامة.

والمهم في هذا أنه بيّن سبحانه أنه كفر وأن عمائل السحر وتعليمه كفر، ولهذا، قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فبيَّن جَلَّ وَعَلَا أن السحر كفر وأن تعليمه كفر، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ يعني: اعتاضه ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ يعني: من حظ ولا نصيب، وقال بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فدل على أنه ضد الإيمان وضد

التقوى. والسحر إنما يكون بعبادة الشياطين والتقرب إليهم بمطالبهم حتى يعطوه بعض ما لديهم من المعلومات التي تضر الناس. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ورد في ذلك أثرٌ غريبٌ وسياقٌ عجيبٌ في ذلك، أحببنا أن ننبّه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جريرٍ رحمه الله تعالى: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا ابن أبي الزّناد، حدّثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النّبيّ ﷺ، أنها قالت: قدمت علي امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك، تسأله عن شيءٍ دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، فكانت تبكي حتّى إنّي لأرحمها، وتقول: إنّي أخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوجٌ فغاب عنّي فدخلت على عجوزٍ فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك، فلمّا كان اللّيل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن لشيء حتّى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بك؟ قلت: أتعلّم السّحر، فقالا: إنّما نحن فتنةٌ فلا تكفري فارجعي، فأبيت وقلت: لا، قالا: فاذهبي إلى ذلك التّنّور فبولي فيه، فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم، فقالا: هل رأيت شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فأربيت وأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التّنّور فبولي فيه، فذهبت فاقشعررت وخفت، ثمّ رجعت إليهما وقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئًا، فقالا: كذبت، لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنّك على رأس أمرك، فأربيت وأبيت، فقالا: اذهبي إلى التّنّور فبولي فيه، فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسًا مقنّعًا بحديدٍ خرج

منّي فذهب في السماء وغاب حتّى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارسًا مقنّعًا خرج مني فذهب في السماء وغاب حتّى ما أراه، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي.

فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئًا وما قالا لي شيئًا، فقالت: بلى لم تريدي شيئًا إلّا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت وقلت: اطلعي فأطلعت، وقلت: احقلي فأحقلت، ثم قلت: افركي فأفركت، ثمّ قلت: أيبسي فأيبست، ثمّ قلت: اطحني فأطحنت، ثمّ قلت: اخبزي فأخبزت.

فلمّا رأيت أنّي لا أريد شيئًا إلّا كان سقط في يدي، وندمت، والله يا أمّ المؤمنين ما فعلت شيئًا ولا أفعله أبدًا..

ورواه ابن أبي حاتم عن الرّبيع بن سليمان، به مطوّلًا كما تقدم، وزاد بعد قولها: ولا أفعلها أبدًا: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حداثة وفاة رسول الله ﷺ وهم يومئذٍ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلّهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلّا أنّه قد قال لها ابن عبّاسٍ، أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيّين أو أحدهما.

قال هشامٌ: فلو جاءتنا أفتيناها بالضّمان..

قال ابن أبي الزّناد: وكان هشامٌ يقول: إنّهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثمّ يقول هشامٌ: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمقٍ وتكلّفٍ بغير علمٍ، فهذا إسنادٌ جيّدٌ إلى عائشة رضي الله عنها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

في إسناده عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، وفيه كلام، وهذا من الغرائب، ثم هو ليس فيه شيء إلا العجوز هذه التي أخبرتها بهذا الخبر، فقد تكون صادقة وقد تكون كاذبة، ما يعول عليه، ثم فيه أشياء أخرى،

ما فيه بيان ما يفعلون أنهم يعلمونها غير هذا، يعلمونها الشرك بالله وعبادة غيره، فلم ينفعهم إلا مجرد البذر والحقل، فهذا ليس بشيء.

المقصود: أن السحرة يعلمون تلامذهم الشرك بالله ﷻ وعبادة الجن من دون الله والتقرب إليهم وإضاعة حق الله ﷻ، فهم يعلِّمونهم أنواعًا من الكفر والضلال، ولهذا، قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾، فلا يكفي في هذا الأثر أنه مجرد الزرع والحصد والطحن، فهذا ليس بشيء، فالحاصل أن هذا من الغرائب، وهو إما مدلس، وإما من غرائب عبد الرحمٰن، وإما من كذب العجوز هذه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد استدلّ بهذا الأثر من ذهب إلى أنّ السّاحر له تمكّنٌ في قلب الأعيان؛ لأنّ هذه المرأة بذرت واستغلّت في الحال.

وقال آخرون: بل ليس له قدرةٌ إلّا على التخييل؛ كما قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. استدل به على أنّ بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق لا بابل دیناوند كما قاله السّدّيّ وغيره.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا منافاة، فإن السحر يكون بالتخييل؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ يعني: فعلوا شيئًا خيل إلى الناس خلاف الحقيقة؛ كأن يتخيل الحبل حية والعصا حية والكلب عنز، والعنز كلب، وما أشبه ذلك مما يغير المرئي على أعين الناس، ويوجد أنواع من السحر لها أثر ولها وجود، ولهذا، قال ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾، فيحصل به تأثير

على الزوج في المحبة والبغضاء، وفي الزوجة بالمحبة والبغضاء، هذا غير مجرد التخييل، ولعل من أسباب التأثير أن السحر يخيل إلى الرجل قباحة الزوجة وتغير صورتها، والعكس، يخيل إلى المرأة قبح زوجها وتغير صورته بما يفعله الساحر من التخييل وسحر العيون، ولهذا، قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، فهو مضر غير نافع، مفسد لبني آدم وملبس عليهم، ولهذا، حرَّمه الله على الناس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ الدّليل على أنّها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا عليّ بن الحسين، أخبرنا أحمد بن صالحٍ، حدّثني ابن وهبٍ، حدّثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمّار بن سعدٍ المراديّ، عن أبي صالحٍ الغفاريّ: أنّ عليّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرّ ببابل وهو يسير، فجاء المؤذّن يؤذنه بصلاة العصر، فلمّا برز منها أمر المؤذّن فأقام الصّلاة، فلمّا فرغ قال: إنّ حبيبي ﷺ نهاني أن أصلّي بأرض المقبرة، ونهاني أن أصلّي ببابل، فإنّها ملعونة.

وقال أبو داود: أخبرنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهبٍ ويحيى بن أزهر، عن عمّار بن سعدٍ المراديّ، عن أبي صالحٍ الغفاريّ، أنّ عليًّا مرّ ببابل وهو يسير، فجاءه المؤذّن يؤذّنه بصلاة العصر، فلمّا برز منها أمر المؤذّن فأقام الصّلاة، فلمّا فرغ قال: إنّ حبيبي ﷺ نهاني أن أصلّي في المقبرة، ونهاني أن أصلّي بأرض بابل فإنّها ملعونةٌ.

حدّثنا أحمد بن صالحٍ، حدّثنا ابن وهبٍ، أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة، عن حجاج بن شدّادٍ، عن أبي صالحٍ الغفاريّ، عن عليٍّ، بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما خرج منها برز.

وهذا الحديث حسنٌ عند الإمام أبي داود؛ لأنّه رواه وسكت عنه، ففيه من الفقه كراهية الصّلاة بأرض بابل؛ كما تُكره بديار ثمود الّذين

نهى رسول الله ﷺ عن الدّخول إلى منازلهم إلّا أن يكونوا باكين.

قال أصحاب الهيئة: وبُعد ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربيّ، ويقال له: أوقيانوس، سبعون درجةً، ويسمّون هذا طولًا، وأمّا عرضها، وهو بُعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المُسامِت لخطّ الاستواء اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ قال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ، عن قيس بن عبادٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السّحر نهياه أشدّ النّهي، وقالا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وذلك أنّهما علما الخير والشّرّ والكفر والإيمان، فعرفا أنّ السّحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا تعلمه خرج منه النّور، فنظر إليه ساطعًا في السّماء فيقول: يا حسرتاه، يا ويله، ماذا صنع.

وعن الحسن البصريّ أنّه قال في تفسير هذه الآية: نعم، أنزل الملكان بالسّحر ليعلّما النّاس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به النّاس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلّما أحدًا حتّى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، رواه ابن أبي حاتمٍ.

وقال قتادة: كان أخذ عليهما أن لا يعلّما أحدًا حتّى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: بلاءٌ ابتلينا به، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال السّدّيّ: إذا أتاهما إنسانٌ يريد السّحر وعظاه وقالا له: لا تكفر إنّما نحن فتنةٌ، فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرّماد فبُل عليه، فإذا بال عليه خرج منه نورٌ فسطع حتّى يدخل السّماء، وذلك الإيمان، وأقبل شيءٌ أسود كهيئة الدّخان حتّى يدخل في مسامعه، وكل شيء، وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علّماه السّحر، فذلك قول الله تعالى:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال سنيد، عن حجّاج، عن ابن جريجٍ في هذه الآية: لا يجترئ على السّحر إلّا كافرٌ، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فتن النّاس في دينهم   وخلّى ابن عفّان شرًّا طويلا

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: بعد الفتنة، بعد قتله، قد تلهي وقد وقع شر طويل، والمقصود من هذا: أن هذين الملكين، فتن بهما الناس، وجعلهما الله فتنة واختبارًا وامتحانًا لمن يريد الكفر أو يريد الإيمان، فمن أراد الكفر تعلم السحر وأقدم على زوال الإيمان وعبادته لغير الله وخدمته للشياطين وتعلمه منهم ما فيه الشر والفساد، ولهذا، قال ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾؛ يعني: لهذا المتعلم، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾: نحن فُتِنَّا وفُتِنَ بنا غيرنا، وهذه الدار دار فتنة ودار ابتلاء ودار امتحان، فوجب على المكلف أن يحذر ذلك وأن يبتعد عن أسباب الفتنة، فإذا أقدم على ذلك علّماه ما يضره ولا ينفعه، نسأل الله العافية.

ومن هذا قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]؛ يعني: اختبار وامتحان، يُختبر الإنسان في ولده، يُختبر في ماله هل يستقيم أو لا يستقيم، هل يضره ماله، هل يضره أولاده، هل ينتفع بذلك، ومن هذا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤]؛ يعني: اختبرناه، إلى غير هذا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك قوله تعالى إخبارًا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد استدلّ بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلّم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكرٍ البزّار، حدّثنا محمّد بن المثنى، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ ساحرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[(١)]، وهذا إسنادٌ صحيحٌ وله شواهد أخر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا على شرط الشيخين، ولهذا المعنى، أشار الشيخ محمد بن عبد الوهاب في باب ما جاء في السحر، لما ذكر حديث: «**مَنْ أتى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»؛ قال: ولأبي يعلى مثله موقوف بسند جيد عن ابن مسعود، ونسبه الشيخ محمد لأبي يعلى، ونسبه هنا إلى البزار، ويحتمل أنهما روياه جميعًا، وهو موقوف لكنه في حكم المرفوع؛ لأن هذا ما يقوله ابن مسعود من جهة رأيه، فهو من جهة له حكم الرفع: «**مَنْ أتى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**».

كذلك، لأن الكهانة دعوى علم الغيب، وأنه يأتيه رِئِيَّه من الجن فيخبره ببعض الأشياء التي سمعها من مسترقي السمع، وأشياء أخرى يكذبها، والكذب أكثر؛ ولهذا قال: «**يكذبون مائة كذبة**»، وفي بعضها: «**أكثر من مائة كذبة**»، فيدَّعي علم الغيب ويكون بذلك كافرًا ضالًّا فمن صدقه في ذلك صار مثله، من صدَّقه في دعواه علم الغيب صار مثله في ذلك.

أما مجرد السؤال، أن يسأل المشعوذين ومن يدعون علم الغيب ويزعمون أن لهم فراسة وأنهم يأخذون اسم أبي الشخص واسم أمه واسم فلان وفلان، ثم يجمعون بين ذلك ويعرفون بذلك أنهم يطلعون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٣٩)، وأخرجه البزار في مسنده (١٩٣١): وفيه من أتى كاهنًا أو ساحرًا.

على مرضه أو على مستقبله، فهذا كله كذب وكله تلبيس وكله من باب إغفال الناس وعدم إطلاعهم على الحقيقة، وإلا، فهم في هذا كله إنما هم يخدمون الجن ويعبدونهم من دون الله، ويسألونهم ما قد يُشكِل عليهم، وقد يصدقهم الجن وقد يكذبونهم، وهؤلاء تبع لهم في ذلك، فقد يكذبون، وهو الأكثر، وقد يصدقون في كلمة سمعها المُسترِقون أو نقلوها من بلاد إلى بلاد أو من قطر إلى قطر، أنه يرى كذا وحدث كذا مما تأتي به الشياطين إليهم.

فالحاصل: أن هؤلاء يعلمون الناس ما يضرهم ولا ينفعهم حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، حتى يعيشوا مع الناس بالباطل في أكل أموالهم والكذب عليهم، فإذا صدقهم من يسألهم بدعوى علم الغيب كفر مثلهم، وأما مجرد السؤال فهو لا يجوز؛ لأنه وسيلة إلى تصديقهم. ولهذا روى مسلم في الصحيح عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال عليه الصلاة والسلام: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»، فهذا وعيد، فهذا إذا لم يصدق، وما جاء في بعض نسخ التوحيد فصدَّقه فهذا غير محفوظ، وإنما الرواية: «**فسأله عن شيء**» فقط، هكذا في مسلم في الصحيح، ليس فيه التصديق، أما إذا صدقه فقد جاء في حديث: «**فقد كفر بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام**»، فسؤاله وإتيانه وسيلة إلى تصديقه ووسيلة إلى الكفر، نسأل الله العافية؛ فلهذا، حرَّم الله إتيانهم وحرَّم سؤالهم وحرَّم تصديقهم جميعًا، هذا وهذا، فلا يسألون المنجمين والكهنة والسحرة ولا يصدقون لا هذا ولا هذا، السؤال منكر ووسيلة إلى الكفر، وهو محرم، والتصديق تصديق بالكفر، نسأل الله العافية. ولهذا، جاء النهي عن هذا وهذا، النبي ﷺ لما سئل عن الكهان، قال: «**لا تأتوهم**»(١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو داود الطيالسي (١/ ١٥٠).

وقال: «**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**»(١)، وقال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(٢) دلَّ على أنه لا يكفر، لكن هذا وعيد في عدم قَبول صلاته، فإذا صدَّقهم في دعوى علم الغيب كفر مثلهم؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ. ولهذا، يقول ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ويقول ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]، ويقول ﷻ للنبي ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ فإذا كان أفضل الخلق وسيدهم محمد ﷺ لا يعلم الغيب، فغيره من باب أولى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ﴾؛ أيْ: فيتعلّم النّاس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنّهم ليفرّقون به بين الزّوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف.

وهذا من صنيع الشّياطين؛ كما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن أبي سفيان، عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عنِ النّبيِّ ﷺ، قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، ويجيء أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ:**

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيء، وهو ينوي أنه ليس بحق برقم (٦٢١٣)، ومسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم (٢٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم (٢٢٣٠).

مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللهِ، مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيُقَرِّبُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ».

[ورجَّح شيخنا أبو الحجاج المزي فتح النون، وراجعته فثبت على ذلك، والمشهور عند النحاة الكسرة، واحتج به بعضهم على جواز كون فاعل«نِعْمَ» «مضمرًا»؛ وهو قليل](١).

وسبب التفريق بين الزّوجين بالسّحر ما يخيّل إلى الرّجل أو المرأة من الآخر من سوء منظرٍ أو خُلقٍ أو نحو ذلك، أو عقدٍ أو بغضه،أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارةٌ عن الرّجل وتأنيثه امرأةٌ ويثنّى كلٌّ منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: وهذا من ظلمه وشره وفساده؛ ولهذا، يتشبه بالله ﷻ ويضع عرشه على الماء تشبهًا بالله ﷻ حتى يغر ويخدعهم؛ لأنه يعلم أن عرش الله على الماء، فيضع عرشه على الماء ويبث جنوده، وكل من جاء من جنده بشيء أثنى عليه بما يليق أو ذمه على تقصيره؛ فإذا جاءه مَن فرَّق بين الرجل وأهله قال: أنت أنت، وأثنى عليه وقرَّبه، وهذا مقصوده من الحرص على التفريق بين الناس والتحريش بين الناس وإيقاع الفتن والتفرقة بين الأحبة: ولهذا، قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾. والشياطين من شأنهم الإفساد في الأرض، وغالب السحر هو التخييل؛ كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]؛ يعني: يخيل إلى الناس من سحرة فرعون أن الحبال والعصي حيَّات تسعى، ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهي على حالها، ولكن في أعين الناس تغيرت الأحوال، يضعون أشياء تسحر العيون وتجعل الأشياء على خلاف ما هي

(١) ما بين المعكوفين ساقط.

عليه، فيظن من يشاهدها أنها حيات، فيحصل له الهرب ويحصل له الرعب والخوف. ومن تخييلهم ما يضعون بين الرجل وأهله، فيفعلون أشياء تجعل المرأة في صورة ينفر منها الزوج ويكرهها حتى يطلقها، أو العكس، يجعلون الزوج في صورة أمام زوجته شنيعة تنفرها عنه وتكره قربه فيحصل الطلاق والفراق. نسأل الله العافية والسلامة.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: قد يقع التخييل الذي ينفِّر، قد يقع أعمال أخرى تجعل الأمور تتغير، قد يجعل أشياء أو يدخله إياها، أو ما أشبه ذلك مما يسبب نفرة القلوب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ قال سفيان الثّوريّ: إلّا بقضاء الله، وقال محمّد بن إسحاق: إلّا بتخلية الله بينه وبين ما أراد.

وقال الحسن البصريّ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ قال: نعم، من شاء الله سلّطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضَرَّ أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفي روايةٍ عن الحسن أنّه قال: لا يضرّ هذا السّحر إلّا من دخل فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾؛ أي: يضرّهم في دينهم وليس له نفعٌ يوازي ضرره.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: بإذنه الكوني القدري؛ يعني: بقدر الله وقضائه، وكما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ فالإذن إذن قدري وشرعي، هنا الإذن قدري ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]: إلا بمشيئة الله، فإنه لا يقع في ملكه ما لا يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما الإذن الشرعي، فمثلما في قوله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]؛ يعني: أنه أذن لهم شرعًا في ذلك في محاربة بني النضير، وهكذا الأمر الشرعي والأمر الكوني، والإرادة كذلك.

ومن هذا الإرادة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، هذه الإرادة الشرعية والقدرية مثل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، هذه الإرادة الكونية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ومثل هذا قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وأما المشيئة، فالغالب أنها تكون كونية، غالب المشيئة أنها في أمر كوني.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾؛ أي: ولقد علم اليهود الّذين استبدلوا بالسّحر عن متابعة الرّسول ﷺ لمن فعل فعلهم، ذلك أنّه ما له في الآخرة من خلاقٍ، قال ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ والسّدّيّ: من نصيبٍ، وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: ما له في الآخرة من جهة عند الله، وقال عبد الرزاق: وقال الحسن: ليس له دينٌ، وقال سعدٌ، عن قتادة: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾؛ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أنّ السّاحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ

﴿١٠٣﴾؛ يقول تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ البديل ما استبدلوا به من السّحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علمٌ بما وعظوا به. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ أي: ولو أنّهم آمنوا بالله ورسله واتّقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم ممّا استخاروا لأنفسهم ورضوا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يستدلّ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ من ذهب إلى تكفير السّاحر، كما هو روايةٌ عن الإمام أحمد بن حنبلٍ وطائفةٍ من السّلف، وقيل: بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل، قالا: أخبرنا سفيان، هو ابن عيينة عن عمرو بن دينارٍ، أنّه سمع بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن اقتلوا كلّ ساحرٍ وساحرةٍ، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وقد أخرجه البخاريّ(١) في صحيحه أيضًا.

وهكذا صحّ أنّ حفصة أمّ المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها، فقتلت.

قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثةً من أصحاب النّبيّ ﷺ في قتل السّاحر.

وروى التّرمذيّ من حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندبٍ الأزديّ، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ**

---

(١) لم يخرج البخاري منه محل الشاهد؛ لكن ابن كثير قصد أن البخاري خرج أصل الحديث؛ كما صرح بذلك الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٦)، وقد ذكره الحميدي في مفاريد البخاري في كتابه الجمع بين الصحيحين (١/ ١٨٧)، وأخرجه الإمام أحمد باللّفظ المذكور هنا (١/ ١٩٠).

بِالسَّيْفِ»[١]، ثمّ قال: لا نعرفه مرفوعًا إلّا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلمٍ يضعّف في الحديث، والصّحيح: عن الحسن، عن جندبٍ موقوفًا.

قلت: قد رواه الطّبرانيّ من وجهٍ آخر عن الحسن، عن جندبٍ مرفوعًا. والله أعلم. وقد روي من طرقٍ متعدّدةٍ أنّ الوليد بن عقبة، كان عنده ساحرٌ يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرّجل ثمّ يصيح به فيردّ إليه رأسه، فقال النّاس: سبحان الله، يحيي الموتى، ورآه رجلٌ من صالحي المهاجرين، فلمّا كان الغد جاء مشتملًا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرّجل سيفه فضرب عنق السّاحر، وقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثمّ أطلقه، والله أعلم.

وقال الإمام أبو بكرٍ الخلّال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، حدّثني أبي، أخبرنا يحيى بن سعيدٍ، حدّثني أبو إسحاق، عن حارثة، قال: كان عند بعض الأمراء رجلٌ يلعب، فجاء جندب مشتملًا على سيفه فقتله، قال: أراه كان ساحرًا، وحمل الشّافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصّة عمر وحفصة على سحرٍ يكون شركًا، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو الحق الذي عليه أهل العلم، أن الساحر يجب قتله مطلقًا، ولو أظهر التوبة؛ لأن شره لا يزول بالتوبة، وقد يظهرها نفاقًا وهو على حاله السيئة. ولهذا، وجب قتله إراحة للناس من شره، وصيانة للمجتمع المسلم من فساده. ولهذا، كتب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى أمرائه أن يقتلوا كل ساحر وساحرة، وهكذا حفصة، لما ثبت عندها أن جارية لها

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر برقم (١٤٦٠).

سحرتها أمرت بقتلها، وهكذا جندب، قتل الساحر كما ذكر المؤلف من عدة طرق عن جندب.

والحاصل: أن الصواب في الساحر أنه كافر، وأنه يقتل؛ لأنه لا يتعاطى السحر إلا من طريق عبادة الشياطين؛ عبادة الجن والتقرب إليهم، فهم يحبون من يتقرب إليهم أن يعلِّموه أشياء يسحر بها الناس ويرهبوا به الناس ويسحروا أعينهم. ولهذا، وجب قتله بأمرين:

أحدهما: كفره وضلاله ورِدَّته إن كان مسلمًا.

والثاني: لأنه من أهل الفساد؛ من المفسدين في الأرض، ومن كان من أهل الفساد وجب إراحة الناس من شره؛ كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢]. ولهذا، وجب قتل قطَّاع الطريق إذا كانت المصلحة تقتضي قتلهم، هو خير في ذلك، فإذا رأى ولي الأمر أن قتلهم أصلح من صلبهم وقطعهم قتلهم حماية للناس من شرهم، والساحر فوق ذلك وأشر من ذلك، فإنه يتعاطى عبادة غير الله، يتعاطى الشرك. ولهذا، قال سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال في حقهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، هذا كله يبيِّن أنهم لا حظ لهم في الدين، وأنهم ضد الإيمان والتقوى. ولهذا، قال جمهور أهل العلم بقتله، وأن كفره وضلاله. والمعروف عند أهل العلم أنه كافر للآية الكريمة، ولكن، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة: أنه ينظر في سحره فإن كان سحره؛ مما يتعاطى فيه الأدوية والتدخين من دون التقرب إلى الجن ولا عبادة الجن، فهذا يؤدب أو يقتل على الخلاف في ذلك، أما إن كان سحره مما يتعاطى فيه عبادة الجن والتقرب إليهم، فهذا كافر، وهذا في المعنى لا ينبغي أن يكون فيه خلاف، إذا عرف أنه ليس

بالساحر المعروف الذي يتقرب إلى الجن وإنما سحره بأشياء تؤذي الناس وتضر الناس من أدوية ونحوها، فهذا يؤدب، وإذا رأى ولي الأمر قتله قتله، ولكن إذا كان ممن يعرف بتعاطي عبادة غير الله والتقرب إلى الجن بالعبادات من ذبح أو سجود ودعاء وغير ذلك، ولهذا، عقد الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد» بابًا متعلقًا بهذا مستقلًّا فيما يتعلق بالسحر؛ لأنه موجود في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نجد وأهله منتشرون، وهكذا في البلدان الكثيرة الآن، موجودون، كل بلاد لا يحكم فيها بالشريعة يكثر فيها هؤلاء المفسدون.

الطالب: الحديث رواه الطبراني من طريق إسماعيل بن مسلم، ومن طريق خالد العبد، وهو خالد بن عبد الرحمٰن العبد، قال الحافظ الذهبي في «الميزان»: رواه عمرو بن علي بالوضع، وكذبه الدارقطني، وقال ابن حبان: كان يسرق الحديث ويحدث من كتب له.

يقول قاعدة: قال الحافظ في الإصابة في ترجمة جندب بن سعد: أخرج الطبراني حديث حدّ الساحر في ترجمة جندب بن عبد الله البجليّ، والصّواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين، عن الحسن، عن جندب الخير، أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. انتهى.

قلت: وهكذا ذكر الحديث في ترجمة جندب بن سعد في «أسد الغابة».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لعن الله من ذبح لغير الله، يقول الله جَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢].

من صلى لغير الله أو ذبح لغير الله، كلاهما كافر. . .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فَصْلٌ]

حكى أبو عبد الله الرّازيّ في تفسيره عن المعتزلة أنّهم أنكروا وجود السّحر، قال: وربّما كفّروا من اعتقد وجوده، قال: وأمّا أهل السّنّة فقد جوّزوا أن يقدر السّاحر أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حمارًا، والحمار إنسانًا، إلّا أنّهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعيّنة، فأمّا أن يكون المؤثّر في ذلك هو الفلك والنّجوم، فلا، خلافًا للفلاسفة والمنجّمين والصابئة، ثمّ استدلّ على وقوع السّحر وأنّه بخلق الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾. ومن الأخبار بأنّ رسول الله ﷺ سُحِر، وأنّ السّحر عمل فيه، وبقصّة تلك المرأة مع عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلّمها السّحر، قال: وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثمّ قال بعد هذا:

المسألة الخامسة: في أنّ العلم بالسّحر ليس بقبيحٍ ولا محظورٍ - اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريفٌ، وأيضًا لعموم قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، ولأنّ السّحر لو لم يكن يعلّم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزًا واجبٌ، وما يتوقّف الواجب عليه فهو واجبٌ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسّحر واجبًا، وما يكون واجبًا كيف يكون حرامًا وقبيحًا؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة. وهذا الكلام فيه نظرٌ من وجوهٍ:

أحدها: قوله: العلم بالسّحر ليس بقبيحٍ عقلًا، فمخالفوه من

المعتزلة يمنعون هذا، وإن عنى أنّه ليس بقبيحٍ شرعًا، ففي هذه الآية الكريمة تبشيعٌ لتعلّم السّحر، وفي الصّحيح: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»(١)، وفي السّنن: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِّلَ إِلَيْهِ**»(٢).

وقوله: ولا محظور، اتّفق المحقّقون على ذلك، كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث، واتّفاق المحقّقين يقتضي أن يكون قد نصَّ على هذه المسألة أئمّة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله في علم السحر في عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظرٌ؛ لأنّ هذه الآية إنّما دلّت على مدح العالمين بالعلم الشّرعيّ، ولم قلت: إنّ هذا منه؟ ثمّ ترقّيه إلى وجوب تعلّمه بأنّه لا يحصل العلم بالمعجز إلّا به ضعيفٌ بل فاسدٌ؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصّلاة والسّلام هي القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم إن العلم بأنه معجزة لا يتوقّف على علم السّحر أصلًا، ثمّ من المعلوم بالضّرورة أنّ الصّحابة والتّابعين وأئمّة المسلمين وعامّتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السّحر ولا تعلَّموه ولا علّموه، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٢٨).

(٢) أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة برقم (٤٠٧٩).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن صح هذا الذي قاله الرازي فهو قول باطل؛ لأن تعلم السحر وتعليمه من المنكرات؛ بل من الشرك؛ لأن تعلمه وتعليمه لا يكون إلا بالكفر، نعوذ بالله؛ ولهذا، حرَّمه أهل العلم وبيَّنوا أنه من المحرمات الشركية، ونص الله في كتابه على هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ثم قوله: أنه يحصل به لتغيير الأعيان أيضًا غلط، وإنما حصل التخييل والأذى والضرر، فأما تغيير الأعيان فلا يستطيع الساحر على ذلك، وإنما يخيل هذا لهذا وهذا لهذا ما يستقبح صورته وينفره من صاحبه؛ كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، فيحصل به التخييل، ويحصل به كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أما قلب الأعيان فلا. فهذا باطل وجهل كبير.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قد ذَكَرَ أَبُو عبد اللهِ الرَّازِيُّ، أَنَّ أَنْوَاعَ السحر ثمانية:

[**الأول**]: سحر الكذابين والكشدانيّين، الّذين كانوا يعبدون الكواكب السّبعة المتحيّرة، وهي السّيّارة، وكانوا يعتقدون أنّها مدبّرة العالم، وأنّها تأتي بالخير والشّرّ، وهم الّذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلًا لمقالتهم وردًّا لمذهبهم، وقد استقصى في (كتاب السّرّ المكتوم، في مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه، كما ذكرها القاضي ابن خلّكان وغيره، ويقال: إنّه تاب منه، وقيل: بل صنّفه على وجه إظهار الفضيلة، لا على سبيل الاعتقاد، وهذا هو المظنون به، إلّا أنه ذكر فيه طريقهم في مخاطبة كلٍّ من هذه الكواكب السّبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتمسكون به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل من أكبر أنواع الكفر والضلال، عبادة الشمس والنجوم على طريقة الصابئة من الملاحدة، وسماه سحرًا؛ لأنهم يزعمون أنه يكون كذا ويكون كذا في عبادتهم لهذه الكواكب، والسحر عبارة عما لطف وخفي سببه، فسمي السحر سحرًا لأنه شيء يخفى ولا يظهر للناس، ويقال للسحر سحر لأنه في آخر الليل، وللرئة سحر لأنها في داخل الجسم، والمقصود أن هذا من أنواع الكفر والضلال التي يخفى سرها عند أهلها ومن ليس له بصيرة بها، لأنه شيء يخفى ولا يعرف، فلهذا، قيل: سحر، والمقصود من هذا كله: الدلالة على نوع من كفر أولئك وضلالهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: [**والنّوع الثّاني**]: سحر أصحاب الأوهام والنّفوس القويّة، ثمّ استدلّ على أنّ الوهم له تأثيرٌ؛ بأنّ الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهرٍ أو نحوه.

قال: وكما أجمعت الأطبّاء على نهي المرعوف عن النّظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذلك إلّا لأنّ النّفوس خلقت مطيعةً للأوهام.

قال: وقد اتّفق العقلاء على أنّ الإصابة بالعين حقٌّ، وله أن يستدلّ على ذلك بما ثبت في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «**العين حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا**»(١).

قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النّفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى برقم (٢١٨٨).

تكون قويّةً جدًّا، فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفةً فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات.

وتحقيقه: أن النفس إذا كانت متعلية عن البدن، شديدة الانجذاب إلى عالم السّماوات، صارت كأنّها روحٌ من الأرواح السّماويّة، فكانت قويّةً على التّأثير في موادّ هذا العالم، وإذا كانت ضعيفةً شديدة التّعلّق بهذه الذّات البدنيّة، فحينئذ لا يكون لها تأثير البتّة إلّا في هذا البدن، ثمّ أرشد إلى مداواة هذا الدّاء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن النّاس والرّياء.

(قلت): وهذا الذي يشير إليه هو التّصرّف بالحال، وهو على قسمين؛ تارةً تكون حالًا صحيحةً شرعيّةً يتصرّف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله ورسوله ﷺ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكراماتٌ للصّالحين من هذه الأمّة، ولا يسمّى هذا سحرًا في الشّرع.

وتارةً تكون الحال فاسدةً، لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ، ولا يتصرّف بها في ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشّريعة، ولا يدلّ إعطاء الله إيّاهم هذه الأحوال على محبته لهم؛ كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنّه مذمومٌ شرعًا لعنه الله، وكذلك من شابهه من مخالفي الشّريعة المحمّديّة، على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، وبسط هذا يطول جدًّا وليس هذا موضعه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا النوع الثاني يسمَّى سحرًا أيضًا؛ لأنه يكون له آثار خفية ما تعرف أسبابها، فلهذا، سمَّاه ويسمُّونه سحرًا، مثلما قال المؤلف؛ يسمَّى الحال عند الصوفية والأحوال قسمان: أحوال رحمانية ملكية إيمانية، وأحوال شيطانية.

فالأحوال الرحمانية الملكية الشرعية هي أحوال أهل الإيمان

والاستقامة الذين أعطاهم الله من الإيمان والبصيرة والهدى ما جعلهم يفعلون الأفعال التي ترضي الله ﷻ وتعين على طاعته، فيظهر لهم من القوة والنشاط والصبر على ما يرضي الله من الأعمال العظيمة من جهاد ومن صيام ومن صلوات ومن طلب للعلم ومن جهاد في سبيل الله ما يعجز عنه كثير من الناس، لكن الله قواهم عليه بطاعته والاستقامة على أمره والأنس به والذكر له والاستعانة بما شرع ﷻ. هذه أحوال رحمانية أعان الله بها أولياءه على طاعته، فكان لهم من الصبر عليها والثبات والقوة والتأثير ما ليس لغيرهم.

وهناك أحوال شيطانية للسحرة والمنجمين وأصحاب الأعمال الخبيثة؛ كالتعلق بالشياطين، وعبادة الشياطين، ونحو ذلك، فهذه أحوال قبيحة مذمومة ليس لأهلها فضل؛ بل هم مذمومون، كما يقع للدجال وأشباه الدجال وعبَّاد الشياطين، فيتصرفون التصرفات التي قد يخرجون بها عن المعتاد، ولكنها خوارق شيطانية لا رحمانية، فهم يستحقون عليها الذم والعيب والمعاقبة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: [**والنوع الثّالث**] من السّحر: الاستعانة بالأرواح الأرضيّة؛ وهم الجنّ، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة، وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطين.

وقال: واتّصال النّفوس النّاطقة بها أسهل من اتّصالها بالأرواح السماوية؛ لما بينها من المناسبة والقرب، ثمّ إنّ أصحاب الصّنعة وأرباب التّجربة شاهدوا أنّ الاتّصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بها أعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتّجريد، وهذا النّوع هو المسمّى بالعزائم وعمل التسخير.

قال: [**النوع الرابع**] من السحر: التخييلات والأخذ بالعيون والشّعوذة، ومبناه على أنّ البصر قد يخطئ ويشتغل بالشّيء المعيّن دون غيره، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيءٍ يذهل أذهان النّاظرين

به ويأخذ عيونهم إليه، حتّى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئًا آخر عملًا بسرعةٍ شديدةٍ، وحينئذٍ يظهر لهم شيءٌ آخر غير ما انتظروه، فيتعجّبون منه جدًّا، ولو أنّه سكت ولم يتكلّم بما يصرف الخواطر إلى ضدّ ما يريد أن يعلمه، ولم تتحرك النّفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن النّاظرون لكلّ ما يفعله.

(قال): وكلّما كانت الأحوال التي تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشدّ، كان العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعوذ في موضع مضيءٍ جدًّا أو مظلمٍ، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يسمُّونها..........[1] كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ يعني: جعلوا أشياء تجعل المنظور غير الحقيقة، يسحرون العين حتى ترى ما ليس هو الحقيقة، ترى الإنسان كأنه حمار أو كأنه قرد أو كأنه كذا فيلبس عليه، وهكذا ترى الزوجة زوجها في صورة أخرى فتنفر منه، ويرى الزوج زوجته في صورة أخرى فينفر منها في رأي عينه، وهي هي على حالها، مثلما قال ﷻ في قصة السحرة: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهكذا الآن السحرة في المجامع الباطلة والمجامع التي يخدعون بها الناس، يظهرون لهم أنه يخرجون من فمه بيضًا أو دجاجًا صغارًا أو أشياءً أخرى، وآخر يظهر لهم أنه يطعن نفسه وأنه لا يموت وأنه لا يخرج الدم، وأنه كذا وأنه كذا، وكله تخييل ولا حقيقة له، كله مثلما قال ﷻ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

---

(١) بياض في الأصل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قلت): وقد قال بعض المفسّرين: إنّ سحر السّحرة بين يدي فرعون إنّما كان من باب الشّعوذة، ولهذا، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، قالوا: ولم تكن تسعى في نفس الأمر، والله أعلم.

[النّوع الخامس من السّحر]: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية، فتارة على فرسٍ في يده بوقٌ كلّما مضت ساعةٌ من النّهار ضرب بالبوق من غير أن يمسّه أحدٌ، ـ ومنها الصّور التي تصوّرها الرّوم والهند حتّى لا يفرّق النّاظر بينها وبين الإنسان، حتّى يصوّرونها ضاحكةً وباكية.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويسمَّى هذا سحرًا؛ لأنه من الأشياء الخفية، وليس من السحر الذي نزل فيه القرآن، وهو من أنواع الكفر، لا، سمَّاه سحرًا من باب أنه أعمال خفية، ولهذا، ذكر الآلات التي تنطق مثل الساعة وما أشبهها إذا جاء وقتها ضربت وأشباه هذا.

كذلك الصور الضاحكة والناطقة، الآلات الموجودة الآن بين الناس، هذا يدل على أن هذا من دهر قريب، والمؤلف من أعيان المائة السادسة، وله الآن أكثر من ثمانمائة سنة، فالمقصود أن هذه أمور قديمة عند الروم وعند غير الروم، آلات عجيبة اخترعوها وظهرت الآن أكثر مما كان في عهد المؤلف، ظهرت الآن في الآلات، في الإذاعات، في التلفاز، وغير ذلك؛ كمكبر الصوت، وغير هذه الأشياء،

من الأشياء الخفية التي درسوها وأتقنوا صنعتها، وحصل بها نفع للناس، فتسمى سحرًا لكون خفائها، والآن صارت أمرًا ظاهرًا معروفًا، والله المستعان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قلت): يعني: ما قاله بعض المفسّرين: أنّهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصيّ فحشوها زئبقًا فصارت تتلوّى بسبب ما فيها من ذلك الزّئبق فيخيّل إلى الرّائي أنّها تسعى باختيارها.

قال الرّازيّ: ومن هذا الباب تركيب صندوق السّاعات، ويندرج في هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة.

قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعدّ من باب السّحر؛ لأنّ لها أسبابًا معلومةً يقينيّةً من اطّلع عليها قدر عليها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو كما قال، يسمى سحرًا من باب ما خفي على بعض الناس، ولكن من عرف أسبابها ما يكون عنده خفية.

فجر الأثقال بالآلات الخفيفة، هذا معروف الآن، وهذه الأمور كانت قليلة ذاك الوقت، ولكنها برزت إلى الناس الآن. والله المستعان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قلت): ومن هذا القبيل حيل النّصارى على عامّتهم بما يرونهم إيّاه من الأنوار؛ كقضيّة قمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النّار خفيةً إلى الكنيسة وإشعال ذلك القنديل بصنعةٍ لطيفةٍ تروج على العوامّ منهم. وأمّا الخواصّ فهم معترفون بذلك، ولكن يتأوّلون أنّهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغًا لهم. وفيهم شبهة للجهلة الأغبياء من (متعبدي) الكرامية الّذين يرون جواز وضع الأحاديث في التّرغيب والتّرهيب، فيدخلون في عداد من قال

رسول الله ﷺ فيهم: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[١]، وقوله: «**حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلِيَّ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيَّ، يَلِجُ النَّارَ**».[٢]

ثمّ ذكر هاهنا حكايةً عن بعض الرّهبان، وهو أنّه سمع صوت طائرٍ حزين الصّوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطّيور ترقّ له فتذهب فتلقي في وكره من ثمر الزّيتون ليتبلّغ به، فعمد هذا الرّاهب إلى صنعة طائرٍ على شكله وتوصّل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الرّيح يسمع منه صوت كصوت الطّائر، وانقطع في صومعةٍ ابتناها وزعم أنّها على قبر بعض صالحيهم، وعلق على ذلك الطّائر في مكانٍ منها فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته، فيدخل الرّيح إلى داخل هذه الصّورة، فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضًا، فتأتي الطّيور فتحمل من الزّيتون شيئًا كثيرًا، فلا ترى النّصارى إلّا ذلك الزّيتون في هذه الصّومعة ولا يدرون ما سببه، ففتنهم بذلك وأوهم أنّ هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيهم شبه من باب التشبيه؛ يعني: على الجهلة.

وشبههم بالجهلة الأغبياء من متعبّدي الكرّاميّة. أتباع محمد بن كرَّام.

ومعناه: أن النصارى شبَّهوا على عامتهم فيجعلون عند القمامة من الأنوار ويقولون أنها من أنوار عيسى أو من أنوار مريم، كذا حتى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ برقم (١١٠)، ومسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ برقم (٣).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ برقم (٢).

يجمعوا العامة، هم بهذا العمل الخبيث يشبهون الكرامية من الذين قالوا: نضع أحاديث في فضل الرسول ﷺ وفي فضل القرآن؛ لأجل أن نجمع الناس على الخير وندعوهم إلى الخير، فهم لهم شبهة في هذا مثلما فعل النصارى.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا كله من تشبيه النصارى وكذبهم وحيلهم ومكرهم، وهذه أمثلة من أمثلة مكر دعاة الباطل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الرّازيّ: **النّوع السّادس من السّحر** الاستعانة بخواصّ الأدوية؛ يعني في هذا: الأطعمة والدهانات، قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن تأثير المغناطيس مشاهدٌ.

(قلت): يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحيل على جهلة النّاس بهذه الخواصّ مدّعيًا أنّها أحوالٌ له؛ من مخالطة النّيران ومسك الحيّات إلى غير ذلك من المحالات.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويقصدون بهذا ويروِّجون للناس أنهم أولياء، أنهم من الأولياء الصالحين حتى يعطيهم الناس المال، حتى يكرموهم، وحتى يعظموهم، وهم يستعملون أشياء مما خلق الله، وهناك أشياء من النباتات وأشباهها إذا جعلها حول الإنسان نوَّمت الإنسان وخدَّرته، فيأخذونها ويجعلون حولها حيات، فإذا جعلوها حول الحيات تخدرت الحيات وصار يأخذها ويلعب بها؛ لأنها خدرت، ما فيها قدرة على الحراك، فيقال: هذا ولي من أولياء الله، ولهذا، أطاعته الحية، فيلعبون على الناس بهذه الأشياء.

● **س: شروط الرقية؟**

○ **الجواب**: شروط الرقية ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون بكلمات معروفة؛ إما آيات أو أحاديث؛ يعني: كدعوات الأحاديث أو دعاء معروف لا بدّ أن يكون المراد به شيء معروف. فإن كانت الرقية بشيء مجهول لا، لا بدّ أن يكون معروفًا؛ إما آيات وإما دعوات جاءت عن النبي ﷺ، أو دعوات معروفة في المعنى.

الشرط الثاني: أن تكون الرقية بلسان معروفة في المعنى، أما إذا كانت بلغات غير معروفة يمنع الراقي، إلا إذا كان الراقي يرقي مثله وتعرف رقية لغتهم بتفسيرها وشرحها، تعرف أنها سليمة، فإذا رقى بها لأن هذه لغته، وعرف بترجمتها أنها لا بأس بها.

الثالث: أن يعتقد أن هذه الرقية وهذه الأدوية سبب لا مستقلة، الشفاء بيد الله سبحانه وتعالى، إنما هي أسباب، إن شاء الله نفع بها وإن شاء سلب نفعها سبحانه وتعالى، وهو الشافي جل وعلا وهو المعافي، وإنما الرقية والأدوية وما يقوله الطبيب، كل ذلك أسباب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قال: **النّوع السابع من السحر**: التعليق للقلب، وهو أن يدّعي السّاحر أنّه عرف الاسم الأعظم، وأنّ الجنّ يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السّامع لذلك ضعيف العقل قليل التّمييز، اعتقد أنّه حقٌّ وتعلّق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، فإذا ما حصل الخوف ضعفت القوى الحسّاسة، فحينئذٍ يتمكّن السّاحر أن يفعل ما يشاء.

(قلت): هذا النّمط يقال له: التّنبلة، وإنّما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبل حاذقًا في علم الفراسة عرف من ينقاد له من النّاس من غيره.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا واقع في الكهان والعرَّافين، يكرمون الجن ويعبدونهم ويستعينون بهم على الإنس في أشياء كثيرة مما قد يقع من الخبل والجنون وغير ذلك، نسأل الله العافية.

وأما الفراسة، فأمرها معلوم، الناس الأذكياء إذا خاطبوا الرجل أو المرأة عرفوا الذكي من الغبي والحاذق من غيره، هذا يعرفه الناس. يُعرف الناس بمكالماتهم ومن اختبارهم، يعرف الذكي والفطن ويعرف البليد والغبي، هذا يعرفه كثير من الناس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: **النّوع الثّامن من السّحر**: السّعي بالنّميمة والتّضريب من وجوهٍ خفيفةٍ لطيفةٍ، وذلك شائعٌ في النّاس.

(**قلت**): النّميمة على قسمين: تارةً تكون على وجه التحريش بين النّاس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرامٌ متفق عليه، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين النّاس وائتلاف كلمة المسلمين؛ كما جاء في الحديث: «**لَيْسَ بِالْكَذَّابِ مَنْ يَنُمُّ خَيْرًا**»، أو يكون على وجه التّخذيل والتّفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمرٌ مطلوبٌ؛ كما جاء في الحديث: «**الْحَرْبُ خُدْعَةٌ**»، وكما فعل نعيم بن مسعودٍ في تفريق كلمة الأحزاب وبني قريظة: جاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلامًا، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثمّ لأم بين ذلك، فتناكرت النّفوس وافترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النّافذة، والله المستعان.

ثمّ قال الرّازيّ: فهذه جملة الكلام في أقسام السّحر وشرح أنواعه وأصنافه.

(**قلت**): وإنّما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة في فنّ السّحر للطافة مداركها؛ لأنّ السّحر في اللّغة عبارةٌ عمّا لطف وخفي سببه، ولهذا، جاء في الحديث: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»، وسمّي السّحور لكونه يقع خفيًّا آخر اللّيل، والسّحر: الرّئة، وهي محلّ الغذاء، وسمّيت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه؛ كما قال أبو جهلٍ يوم بدرٍ لعتبة: انتفخ سحره؛ أي: انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة رضي الله عنها: توفّي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ أي: أخفوا عنهم علمهم، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

النميمة مثل ما ذكر الشيخ محمد في «كتاب التوحيد»: «النميمة القالة بين الناس»، وأنها تفسد بين الناس أحوالهم وعقولهم. ولهذا، قال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: يفسد النمام والكذاب في الساعة أكثر مما يفسد الساحر في سنة؛ لأن النمامين ينقلون الشحناء بين الناس، ولهذا، تفسد القلوب بين الناس وتحصل الشحناء بينهم، فهذا إذا جاء ينقل، يقول: قال فلان فيك كذا، وقال في القبيلة كذا، وأنكم بخلاء، وأنكم جبناء، وأنكم وأنكم، ثم يذهب إلى الآخرين ويقول لهم مثل ذلك، فتشتد العداوة بين الناس، فهذه من النميمة؛ ولهذا، سماها بعضهم سحرًا؛ لأنها تؤثر في القلوب، تؤثر هذه العبارات وهذه الألفاظ كما يؤثر السحر في قلب المسحور، تؤثر النميمة والكذب في أنفس الناس حتى تقع الشحناء والعداوة، وربما وقع القتال بعد ذلك وفتنة، ولهذا، يقول ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**» نسأل الله العافية.

ولعل التضريب؛ يعني: الضرب، قد يكون ضرب شيء من الأمور

التي يزعمون بها أنهم يعرفون أشياء من علم الغيب، وهو في الحقيقة إنما هو تخييل على الناس، وإلا، فهم جعلوها علامة بينهم وبين الجن، يشافهونهم ويسألونهم، يسمونه الضرب بالحصى فهذا يفعله الرَّمَّالون ويفعله الكثير من السحرة، وهو تخييل لا حقيقة له، وإنما تلبيس على الناس، وإلا، فهم يفعلون هذا لشيء بينهم وبين شياطين الجن الذين يعبدونهم ويستعينون بهم على إضلال الناس.

وقد يكون: «التقريب» بين الناس؛ يعني: لكن بعيد؛ لأن النميمة لا تقرب، النميمة تبعد.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا ليس من السحر، ولكن مثلما تقدم أنه لما كان يؤثر آثار السحر ويوجب الفرقة شبه بالسحر، ومثلما قال المؤلف: النميمة إذا أطلقت هي التي تفرق بين الناس وتسبب الشحناء والعداوات، أما النميمة التي للإصلاح وتفريق جموع الكفار فهذه ليست نميمة في الحقيقة، ولكنها إصلاح بين الناس وجهاد وخدعة لأعداء الله الذي يتوسط بين الناس بالإصلاح وينقل لهم كلامًا طيبًا فليس بنمام وليس بكذاب، ولهذا، فيما رواه الشيخان عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيرًا**»، أو ينمي خيرًا وفي رواية مسلم: لم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس أنه كذب إلا في ثلاث: في الإصلاح بين الناس، وفي الحرب، وفي حديث الرجل امرأته والمرأة زوجها، هذه الثلاث لا بأس بها بالكذب، يكذب بين الناس للإصلاح، مثل: قبيلتان متنازعتان، أو أسرتان متنازعتان متشاحنتان، فيأتي هؤلاء ويقول: أنا أجيكم من عند آل فلان وأثنوا عليكم خيرًا ومدحوكم، وقالوا: إنهم آسفون وما يرضون بالشحناء بينكم وبينهم ولا يحبون ذلك، ويودون الصلح بينكم وبينهم ويودون إزالة هذه الأمور التي سببت الفرقة بينكم،

فيشكرونه على ما ذكر ويقولون أنهم يحبون ذلك أيضًا، ثم يروح للآخرين ويقول كذا وكذا، ثم يجمع بينهم ويصلح بينهم فهذا ليس بكذاب، هذا مصلح، والإصلاح بين الناس من أفضل القرب، وهذا النوع ليس بنميمة، هذا النوع يسمى إصلاحًا، أما النوع الذي يسمى نميمة فذاك نميمة في الخير، فهذا يطلق عليها خدعة ما يطلق عليها نميمة، يقال: خدعه للمصلحة، مثلما فعل نعيم بن مسعود يوم الأحزاب لما اتفقت قريظة مع قريش على حرب النبي ﷺ ونقضوا العهد، نقضت اليهود العهد، سعى بينهم نعيم بما يفسد حالهم ويفرقهم، فجاء إلى اليهود وقال: إن هؤلاء سوف يذهبون عنكم إلى بلادهم ويتركونكم مع محمد فيقتلكم محمد ويفعل ويفعل، وأنتم لا تجيبونهم إلى نقض العهد ولا تساعدونهم، وسيطلبون منكم رهائن، وإذا أخذوا الرهائن تركوكم، وأنتم ومحمد سيقع بينكم كذا وكذا، ثم جاء إلى قريش وقال: إن اليهود لا يؤمنون ولا ينبغي أن تتفقوا معهم، أنا رجل ناصح، وإن اليهود سوف ينقضون العهد وسوف يفعلون وسوف يفعلون، حتى فرق بينهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[فَصْلٌ]

وقد ذكر الوزير أبو المظفّر يحيى بن محمد بن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بابًا في السّحر فقال: أجمعوا على أنّ السّحر له حقيقةٌ إلّا أبا حنيفة فإنّه قال: لا حقيقة له عنده، واختلفوا فيمن يتعلّم السّحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالكٌ وأحمد يكفر بذلك. ومن أصحاب أبي حنيفة من قال إن تعلّمه ليتّقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلّمه معتقدًا جوازه أو أنّه ينفعه كفر.

وكذا من اعتقد أنّ الشّياطين تفعل له ما يشاء فهو كافرٌ.

وقال الشّافعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا تعلّم السّحر قلنا له: صف لنا سحرك؛ فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التّقرّب إلى الكواكب السّبعة، وأنّها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافرٌ، وإن كان لا يوجب الكفر؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافرٌ.

قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرّد فعله واستعماله؟ فقال مالكٌ وأحمد: نعم، وقال الشّافعيّ وأبو حنيفة: لا، فأمّا إن قتل بسحره إنسانًا، فإنّه يقتل عند مالكٍ والشّافعيّ وأحمد.

وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتّى يتكرّر منه ذلك، أو يقرّ بذلك في حقّ شخصٍ معيّنٍ، وإذا قتل فإنّه يقتل حدًّا عندهم إلّا الشّافعيّ فإنّه قال: يقتل والحالة هذه قصاصًا.

قال: وهل إذا تاب السّاحر تقبل توبته؟ فقال مالكٌ وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل.

وقال الشّافعيّ وأحمد في الرّواية الأخرى تقبل.

وأمّا ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنّه يقتل كما يقتل السّاحر المسلم، وقال مالك وأحمد والشافعي: لا يقتل؛ يعني: لقصّة لبيد بن الأعصم.

واختلفوا في المسلمة السّاحرة؛ فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس، وقال الثّلاثة حكمها حكم الرّجل، والله أعلم.

وقال أبو بكرٍ الخلّال: أخبرنا أبو بكرٍ المروزيّ، قال: قرأ على أبي عبد الله - يعني: أحمد بن حنبل - عمر بن هارون، أخبرنا يونس، عن الزّهريّ، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأنّ رسول الله ﷺ سحرته امرأةٌ من اليهود فلم يقتلها.

وقد نقل القرطبيّ عن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنّه قال في الذّمّيّ: يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويزمنداد عن مالكٍ روايتين في الذّمّيّ إذا سحر:

إحداهما: أنّه يستتاب؛ فإن أسلم وإلّا قتل، والثّانية: أنّه يقتل وإن أسلم.

وأمّا السّاحر المسلم؛ فإن تضمّن سحره كفرًا كَفَرَ عند الأئمّة الأربعة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. لكن قال مالكٌ: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته؛ لأنّه كالزّنديق؛ فإن تاب قبل أن يُظهَر عليه وجاءنا تائبًا قبلناه؛ فإن قتل سحره قتل.

قال الشّافعيّ: فإن قال: لم أتعمّد القتل، فهو مخطئٌ تجب عليه الدية.

[مسألة]:

وهل يسأل الساحر حلًّا لسحره؟

فأجاز سعيد بن المسيّب فيما نقله عنه البخاريّ.

وقال عامرٌ الشّعبيّ: لا بأس بالنّشرة، وكره ذلك الحسن البصريّ، وفي الصّحيح عن عائشة أنّها قالت: يا رسول الله، هلّا تنشّرت؟ فقال: «**أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِير عَلَى النَّاسِ شَرًّا**»(١).

وحكى القرطبيّ عن وهبٍ أنّه قال: يؤخذ سبع ورقاتٍ من سدرٍ فتدقّ بين حجرين ثمّ تضرب بالماء، ويقرأ عليها آية الكرسيّ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسواتٍ ثمّ يغتسل بباقيه فإنّه يذهب ما به، وهو جيّدٌ للرّجل الذي يؤخذ عن امرأته.

(قلت): أنفع ما يستعمل لإذهاب السّحر ما أنزل الله على رسوله

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ...﴾ [النحل: ٩٠] برقم (٦٠٦٣)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر برقم (٢١٨٩).

في ذهاب ذلك وهما المعوّذتان، وفي الحديث: «**لَمْ يَتَعَوَّذِ المتعوذ بِمِثْلِهِمَا**»، وكذلك قراءة آية الكرسيّ فإنّها مطردةٌ للشيطان.

وقال أبو عبد الله القرطبيّ: وعندنا أنّ السّحر حقٌّ وله حقيقةٌ يخلق الله عنده ما يشاء، خلافًا للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفرايني من الشافعية، حيث قالوا: إنه تمويه وتخييل. قال: ومن السّحر ما يكون بخفّة اليد كالشّعوذة، والشّعوذيّ البريد لخفّة سيره، قال ابن فارس: وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية، قال القرطبيّ: ومنه ما يكون كلامًا يحفظ ورقًى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشّياطين ويكون أدويةً وأدخنةً وغير ذلك، قال: وقوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لسحرًا**»[1]، يحتمل أن يكون مدحًا كما تقول طائفةٌ، ويحتمل أن يكون ذمًّا للبلاغة، قال: وهذا أصح، قال: لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي له**»[2]. الحديث.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

ومعنى: أنه حق؛ يعني: أنه موجود، وليس حق ضد الباطل، لا؛ يعني: أنه موجود فالسحر موجود؛ فالسحر قسمان: شيء تخييل ويسمى سحرًا، وشيء له وجود يؤثر على الناس كما قال جل وعلا: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، فله وجوده في الحقيقة وله أضرار، هذا مقصوده رحمه الله.

الطالب: قوله: «**إن من البيان لسحرًا؟**»

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب الطب، باب «**إن من البيان لسحرًا**» برقم (٥٧٦٧).

(٢) متفق عليه من حديث أم سلمة رضي الله عنها. أخرجه البخاري في كتاب الحيل، باب ١٠ برقم (٦٩٦٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة برقم (١٧١٣).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا فيه خلاف مشهور، والأظهر أنه ما هو للذم؛ بل للمدح إذا كان في الحق. ولهذا، بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأعطاهم البيان والكلام العظيم في إبلاغ الدعوة، وهو مدح وليس بذم على الصحيح إذا كان لحق، أما إذا كان لترويج الباطل فهو مذموم. ولهذا، في الحديث الآخر: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها**»(١)، وإذا كان بيانه وتكلفه وتنطعه في نصر الباطل فهذا مذموم بأي كلام كان، وإذا كان بالبيان والبلاغة فهو أشد ضررًا وأعظم خطرًا، فيكون مذمومًا، أما البيان في إيضاح الحق والدعوة إليه ورد الباطل وكسر الشبه، فهذا مأمور به.

والصواب في هذه المسألة: أن السحرة يُقتلون مطلقًا؛ لأنهم من المفسدين في الأرض، فمتى ثبت سحرهم وفعلهم بما يتعاطاه السحرة وجب أن يقتلوا؛ سواء كان السحر على طريق التخييل الذي يجعل المرأة تبغض زوجها، والزوج يبغض امرأته، وغير ذلك مما يفعلونه من التخييلات التي تغير الأحوال ويتسبب عليها البغضاء والمحبة أو الاجتماع أو الفراق، ولهذا، كتب عمر إلى أمرائه أن يقتلوا كل ساحر وساحرة، وهكذا حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قتلت جارية لها سحرتها، قتلت بأمرها، وهكذا جندب، ثبت أنه قتل ساحرًا في عهد الوليد.

فالمقصود: أن السحرة مفسدون في الأرض، فالواجب متى ثبت أنهم سحرة وجب قتلهم، أما تكفيرهم فمثلما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ينظر في سحرهم، فإن كان من قبيل التقرب إلى غير الله وعبادة الشياطين أو

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو في كتاب الأدب، باب ما جاء في المتشدق في الكلام برقم (٥٠٠٥)، والترمذي في كتاب الأدب باب ما جاء في الفصاحة والبيان برقم (٢٨٥٣)، والإمام أحمد (٢/ ١٦٥ و١٨٧).

اعتقاد أن غير الله يحفظ هذا الكون وأنه يفعل ما يشاء، فهذا كفر أكبر وردَّة عن الإسلام، أما إن كان سحرهم بشيء آخر من أدوية أن يشربها وتدخينات ليس لها تعلق بالعبادات، فهذا ليس بشرك، لكن يقتل لفساده في الأرض. نسأل الله العافية.

والصواب أنها لا تقبل ولا يستتاب؛ بل يقتل مطلقًا لتخليص الناس من شره وفساده.

وهذا هو الصواب؛ حكمها حكم الرجل؛ ولهذا، قتلت حفصة جاريتها التي سحرتها.

الصواب سحره لبيد، أما اليهودية فسمَّت الشاة. نعم.

وهذا الذي قاله وهب بن منبه ذكره غير واحد، وهو مجرب في هذا أنه يأخذ سبع ورقات من السدر ويدق ثم يجعل في ماء ثم يقرأ فيه آية الكرسي، و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوِّذتان، وآيات السحر المعروفة في سورة الأعراف ويونس وطه، ثم يحسو منه حسوات ثم يغتسل بالباقي. هذا مجرب بإذن الله في سلامته وعافيته، وهكذا المحبوس عن زوجته، مجرب هذا فيه، وهو علاج وطب شرعي لا بأس به.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: استعمل النشرة للعلاج، وأخبر أن الله شفاه وما عاد يحتاج إليها، والنبي ﷺ جاء في حديث جابر عند أحمد وأبي داود أنه سئل عن النشرة، فقال: «**هي من عمل الشيطان**»، رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند جيد، والنشرة حل السحر من المسحور، فإذا كانت بالسحر لم يجز؛ لأن السحر منكر فلا يحل بها السحر، وهو عبادة الشياطين، أو استعمال محرم؛ أو الحل بغير ذلك من الرقية أو التعوذات والأدوية المباحة، فهذا لا بأس، والحمد لله، والله جَلَّ وَعَلَا ما جعل شفاءنا فيما حرم علينا.

*

□ **تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [١٠٢]**(١).

هذه الآية تتعلق بأحكام:

أما الأول: فيتعلَّق بالسحر ووجوب الحذر منه، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. قال بعده: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو شر عظيم وبلاء كبير؛ فالواجب الحذر منه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ فالشياطين تعلمه الناس ليكفروا والملكان يعلمان الناس ويحذِّران؛ لأنه كُفر ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ يعني: اختبار وامتحان وابتلاء ﴿فَلَا تَكْفُرْۖ﴾؛ يعني: بتعلمه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والسبب في ذلك أن تعلمه إنما يكون بواسطة الشياطين وعبادتهم من دون الله والاستغاثة بهم والذبح لهم والنذر لهم ونحو ذلك؛ فلهذا كان تعلم السحر وسيلة إلى الشرك بالله، فمن تعلَّمه إنما يتعلمه من طريق الكفر وهم أهل السحر يستخدمون الشياطين في تنفيذ مرادهم من إيذاء أحد أو ظلم أحد، أو قتل أحد، أو غير هذا، فالسحرة هم أولياء الشياطين يتولون عبادتهم من دون الله، والاستغاثة بهم، والنذر لهم، والذبح لهم، ويستعينون بهم على ما يريدون من إيذاء الناس؛ ولهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى قوات الجيوش في الشام أن يقتلوا كل ساحر وساحرة لعظم شرهم وبلائهم، وروي عنه عليه

(١) انظر: شرح كتاب رياض الصالحين لسماحته رحمه الله ج٤ (ص٥٥١).

الصلاة والسلام أنه قال: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»[(١)]، وقتلت حفصة رضي الله عنها أم المؤمنين جارية لها سحرتها فأمرت بها فقتلت؛ فالساحر إنما يسحر بواسطة الشياطين والشرك مع ضرره بالناس وإيذائه للناس.

يقول ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» (يعني: المهلكات) قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ**، (فجعل السحر قرين الشرك لأنه منه) **وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**»[(٢)]؛ يعني: قذفهن بالفاحشة فهذه من الكبائر، سبع من الكبائر، والكبائر كثيرة هذه السبع منها: عقوق الوالدين من الكبائر، قطيعة الرحم من الكبائر، كتم العلم من الكبائر، اللعن والسب من الكبائر، قطع الطريق من الكبائر، إلى غير هذا، الكبائر عديدة، يروى عن ابن عباس أنه قال: «هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبعةٍ».

وضابطها أنها كل ذنب توعّد عليه بالنار أو بغضب الله أو باللعنة فإنه يسمّى كبيرة، وقال بعض أهل العلم: كذلك كل ذنب نفي الإيمان عن صاحبه أو جاءت البراءة منه فهو كبيرة مثل قوله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ**

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث جندب رضي الله عنه في كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر برقم (١٤٦٠). قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعَّف في الحديث من قبل حفظه وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال: وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوفًا والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس. وقال الشافعي: «إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملًا دون الكفر فلم نر عليه قتلًا» والدارقطني والحاكم.

(٢) متفق عليه من حديث أبو هريرة رضي الله عنه في كتاب الوصايا، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا...﴾ برقم (٢٧٦٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم (٨٩).

ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[(١)]؛ يعني: عند المصيبة قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا من الكبائر، ومن هذا قوله ﷺ: **«أنا بَرِيءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ»**[(٢)] براءة، الصالقة هي التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة هي التي تشق ثوبها عند المصيبة؛ فالواجب الحذر من جميع السيئات، الواجب الحذر من جميع السيئات، والبدار بالتوبة من جميع السيئات، هذا هو الواجب على المؤمن أن يكون حذرًا من المعاصي، الله يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: ٩٢]، الواجب الحذر من جميع المعاصي والبدار بالتوبة من جميع المعاصي؛ فالتوبة هي طريق النجاة بعد الحذر، فإذا وقع في الذنب الإنسان يبتلى، فإذا وقع فالبدار بالتوبة يبادر بالتوبة والندم وسؤال الله المغفرة قبل أن يهجم عليه الأجل، ومن أسباب الخير كثرة الأعمال الصالحات فإنها تعين على محو السيئات فإن الحسنات تذهبن السيئات، فالاستكثار من الخير والعمل الصالح من أسباب تكفير السيئات كقراءة القرآن، كثرة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دعوة

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ليس منا من ضرب الخدود برقم (١٢٩٤) و(١٢٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية برقم (١٠٣).

(٢) متفق عليه من حديث أبي بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة برقم (١٢٩٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية برقم (١٠٤).

إلى الله الإحسان إلى الناس بالصدقة وغيرها، كل هذا من أسباب الخير وأسباب تكفير السيئات.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة: ١٠٢][(١)].

● س: نرجو إيضاح قول الله تعالى عن الكهنة ومن شابههم، الذين تركوا طريق الله وذهبوا إلى الشياطين؛ ليتعلموا منهم ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كيف يكون ذلك؟ وهل يحدث ذلك الضرر للمؤمنين الفاسقين؟ وما طريق الوقاية من هذه الشرور والأضرار؛ حيث يروج كثير من الكهنة للعوام قدرتهم على ذلك؟.

قَالَ سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

قد تكون هذه الطرق الخبيثة من خدمة الشياطين، وخدمة من تعاطى هذه الأمور، وصحبتهم لهم، وتعلمهم منهم من أنواع السحر، والكهنة والرمّالين والعرّافين، وغيرهم من المشعوذين؛ فيتعاطون هذه الأمور من أجل المال، والاستحواذ على عقول الناس، وحتى يعظمهم الناس فيقولوا: إنهم يعرفون كذا ويعرفون كذا.

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات (٢٤/١٧٦).

وهذا واقع، والله يبتلي عباده بالسرَّاء والضرَّاء، ويبتلي عباده بالأشرار والأخيار؛ حتى يتميز الصادق من الكاذب، وحتى يتميز ولي الله من عدو الله، وحتى يتميز من يعبد الله، ويسعى في سلامة دينه، ويحارب الكفر والنفاق والمعاصي والخرافات، وبين من هو ضعيف في ذلك أو مُخلِد إلى الكسل والضعف.

والله يميز الناس بما يبتليهم به من السرَّاء والضرَّاء، والشدة والرخاء، وتسليط الأعداء والجهاد؛ حتى يتبين أولياء الله من أعدائه المعاندين لدين الله، وحتى يتبين أهل القوة في الحق من الضعفاء والخاملين.

وهذا واقع لا شك فيه، والتوقي لذلك مشروع ـ بحمد الله ـ بل واجب، وقد شرع الله لعباده أن يتوقوا شرهم بما شرع سبحانه من التعوذات والأذكار الشرعية، وسائر الأسباب المباحة.

فقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»**. أخرجه مسلم في «صحيحه»[(١)].

وكما أخبر النبي ﷺ: **«منْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه من حديث خولة بنت حكيم السلمية ﵂ في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره برقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث عثمان بن عفان ﵁ في كتاب الآداب، باب ما يقول إذا أصبح برقم (٤٤٢٥)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى برقم (٣٣٨٨)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى برقم (٣٨٦٩)، وأحمد (١/ ٦٢، ٦٦، ٧٢).

وكما أخبر النبي ﷺ: أن من قرأ آية الكرسي حين ينام على فراشه لم يضره شيء حتى يصبح. وهذا من فضل الله ﷻ.

وأخبر ﷺ: أن من قرأ سورة (الإخلاص): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وسورتي: (الفلق) و(الناس) ثلاث مرات عند نومه لم يضره شيء.

فهي من أسباب السلامة من كل سوء، إذا قرأها المؤمن عند النوم (ثلاث مرات) وهكذا بعد الصلوات الخمس، ويشرع تكرارها بعد صلاة الفجر والمغرب ثلاثًا، وذلك بعد أن ينتهي من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل. وذلك من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده، وإرشاده لهم إلى أسباب العافية، والوقاية من شر الأعداء.

وهكذا من الأسباب الشرعية: الإكثار من الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فهي من أسباب السلامة والعافية؛ لقول النبي ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**». أخرجه مسلم في «صحيحه»(١).

وهكذا العناية بقراءة القرآن الكريم، والإكثار منها بالتدبر والتعقل والعناية بأمر الله ﷻ بطاعته وترك معاصيه.

وهكذا الإكثار من قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كلها من أسباب السلامة، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فِي يَوْمٍ مِائَةَ**

---

(١) أخرجه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في كتاب الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه برقم (٢١٣٧).

مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ». متفق على صحته[١].

ومما يجمع الخير كله للمسلم: العناية بكتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ قولًا وعملًا، والأخذ بما أوصى به الله عباده وأمرهم به في كتابه الكريم وسُنَّة رسوله الأمين؛ ومن ذلك أنه أوصى عباده بالتقوى وأمرهم بها في آيات كثيرة، ولا شك أن التقوى هي أعظم الوصايا؛ فهي وصية الله ﷻ ووصية رسوله عليه الصلاة والسلام وهي جامعة للخير كله.

ومن جملة التقوى: العناية بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ تنزيل من حكيم حميد، وقد أوصى الله بذلك، فقال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده برقم (٣٢٩٣)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم (٢٦٩١).

فقال: أولًا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والحكمة في ذلك ـ كما قال جمع من أهل التفسير ـ: إن الإنسان إذا تعقَّل ما خُلِق له وما أمر به، وما خوطب به، ونظر فيه وتأمله، حصل له به التذكر لما يجب عليه ولما ينبغي له تركه، ثم بعد ذلك تكون التقوى؛ بفعل الأوامر وترك النواهي، وبذلك يكمل للعبد العناية بما قرأ أو بما سمع، فإنه يبدأ بالتعقل والتذكر، ثم العمل وهو المقصود.

فالوصية بكتاب الله قولًا وعملًا تشمل: الدعوة إليه، والذب عنه، والعمل به؛ لأنه كتاب الله الذي من تمسك به نجا، ومن حاد عنه هلك، وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن أبي أوفى: أن النبي ﷺ أوصى بكتاب الله، وذلك حينما سئل عبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى النبي ﷺ بشيء؟ قال: نعم، أوصى بكتاب الله، فالرسول ﷺ أوصى بكتاب الله؛ لأنه يجمع الخير كله. وفي «صحيح مسلم»، عن جابر رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ أوصى في حجة الوداع بكتاب الله، فقال: «**قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللهِ**»(١).

وفي «صحيح مسلم» أيضًا، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**» فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»(٢).

---

(١) جزء من حديث جابر الطويل، أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة الوداع برقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم (٢٤٠٨).

فالنبي ﷺ أوصى بكتاب الله، كما أوصى الله بكتابه، ثم الوصية بكتاب الله وصية بالسُّنَّة؛ لأن القرآن أوصى بالسُّنَّة وأمر بتعظيمها، فالوصية بكتاب الله وصية بسُنَّة رسول الله ﷺ، وهما الثقلان، وهما الأصلان اللذان لا بد منهما، من تمسك بهما نجا، ومن حاد عنهما هلك، ومن أنكر واحدًا منهما كفر بالله، وحل دمه وماله، وقد جاء في رواية أخرى: «**إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسُنَّتي**»[(١)]. أخرجها الحاكم بسند جيد.

وقد عرفت ـ أيها المسلم ـ أن الوصية بكتاب الله والأمر بكتاب الله، وصية بالسُّنَّة وأمر بالسُّنَّة؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ الآية [الحشر: ٧]، ويقول أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

وهناك آيات كثيرة يأمر فيها سبحانه بطاعته، وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام.

والعلم النافع هو المتلقى عنهما والمستنبط منهما، فهذا هو العلم، فالعلم: قال الله سبحانه وقال رسول الله ﷺ وما جاء عن الصحابة ﭫ؛ لأنهم أعلم بكتاب الله وأعلم بالسُّنَّة؛ فاستنباطهم وأقوالهم يُعين طالب العلم، ويرشد طالب العلم إلى الفهم الصحيح عن الله، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ثم الاستعانة بكلام أهل العلم بعد ذلك: أئمة الهدى كالتابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم من علماء الهدى، وهكذا أئمة اللغة، يستعان بكلامهم على فهم كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. فطالب

---

(١) أخرجه الحاكم في كتاب العلم المستدرك برقم (٣٢٣) ط. دار الميمان.

العلم يُعنى بكتاب الله سبحانه ويُعْنَى بالسُّنَّة، ويستعين على ذلك بكلام أهل العلم المنقول عن الصحابة ومن بعدهم في كتب التفسير والحديث، وكتب أهل العلم والهدى؛ لكي يعرف معاني كتاب الله، فيتعلمه ويعمل به ويعلمه الناس؛ لما في ذلك من الأجر العظيم والثواب الجزيل، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١)، وقوله ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»(٢).

وقد حثَّ الرسول ﷺ على المحافظة على كتاب الله ﷻ وتدبر معانيه؛ لما في ذلك من الأجر العظيم، مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**»(٣)، وقوله ﷺ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**» خرَّجه مسلم في «صحيحه»(٤).

وأصحابه: هم العاملون به، كما جاء في الحديث الآخر، وهو قوله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ**

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه برقم (٥٠٢٧).

(٢) جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٢٦٩٩)، وأبو داود في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم برقم (٣٦٤١)، والترمذي في كتاب العلم، باب فضل العلم والحث على طلبه برقم (٢٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن برقم (٢٩١٠).

(٤) أخرجه من حديث أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه في كتاب الصلاة، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٤).

كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا». أخرجه مسلم في «صحيحه»[(١)].

والآيات والأحاديث في فضل القرآن والعمل به، وفضل السُّنَّة والتمسُّك بها كثيرة جدًّا.

فنسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أن يوفقنا والمسلمين للتمسُّك بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ والعمل بهما، إنه جواد كريم.

*

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٤ ـ ١٠٥][(٢)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أنّ اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه توريةٌ لما يقصدونه من التّنقيص، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون: راعنا، ويورُّون بالرّعونة؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاءِ: ٤٦].

وكذلك، جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنّهم كانوا إذا سلّموا

---

(١) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب الصلاة، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٥).

(٢) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إنّما يقولون السّام عليكم، والسّام هو الموت، ولهذا، أمرنا أن نردّ عليهم بـ«وعليكم»، وإنّما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا[١].

والغرض: أنّ الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾، وقال الإمام أحمد: أخبرنا أبو النضر، أخبرنا عبد الرحمٰن بن ثابت، أخبرنا حسّان بن عطيّة، عن أبي منيبٍ الجرشيّ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[٢].

وروى أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة، عن أبي شيبة، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[٣]. ففيه دلالةٌ على النّهي الشّديد، والتّهديد والوعيد على التّشبّه بالكفّار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

النصوص في تحريم التشبه بأعداء الله وبيان مكائدهم وحرصهم

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا برقم (٦٠٣٠)، ومسلم باختلاف في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم (٢١٦٥) وانظر: الحديث رقم (٢١٦٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٥٠و٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة برقم (٤٠٣١).

على إيذاء المسلمين والتشويش عليهم كثيرة جدًّا؛ ففي الكتاب العظيم والسُّنَّة المطهرة، ومن ذلك هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ يعني: لا تتشبهوا بأعداء الله اليهود في كلماتهم الخبيثة وفي كيدهم للمسلمين وفي عدم صراحتهم في الحق، وكونوا صرحاء في الحق وكونوا بعيدين عن التشبه بأعداء الله، ومن ذلك، هذا الحديث، حديث ابن عمر: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ عن التشبه بأعداء الله، ومن هذا قوله ﷺ: «**خالفوا اليهود والنصارى، فإنهم لا يصبغون فخالفوهم**»، **وكذلك قوله** ﷺ: «**جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى، خَالِفُوا الْمَجُوسَ**»[١].

«**أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى**»[٢].

«**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنّصارى؟ قال: «**فَمَنْ؟**»[٣]. إلى غير هذا من الأحاديث الدالة على التحذير من التأسي بأعداء الله. ومن هذا، قول اليهود إذا تكلموا قالوا: السام بإدغام وإخفاء، فالذي ما يدري يقول: يقولون: السلام، وهم ما قالوا السلام؛ بل: السام، فيأتون بهذه العبارة الغير واضحة. والسام؛ يعني: الموت، يريد النبي ﷺ والصحابة، وهم غير مفصحين في هذا؛ بل في ذلك إخفاء وإدغام للكلام، فلهذا، قال ﷺ: «**إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدُهُمْ فَإِنَّمَا**

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة برقم (٢٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة برقم (٢٥٩).

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» برقم (٧٣٢٠)، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).

يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»(١)، فإن كانوا قالوا: السلام، فالسلام على الجميع، وإن كانوا قالوا: السام فهو المطلوب، لكن يستجاب للمسلمين ولا يستجاب لأولئك؛ يعني: تعجيل الموت.

والقاعدة: أن اليهود أهل مكر وأهل خداع وأهل كيد، فالواجب التحرز منهم والحذر من مكائدهم في غاية العناية، وهكذا بقية الكفار، لا يؤمَنون على المسلمين بأي شيء، ولهذا نُهينا أن نتخذهم بطانة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]؛ أي: لا يألونكم شرًّا وبلاء ويدخلونه عليكم، والبطانة الخاصية توظيفهم وجعلهم في أمور المسلمين. ولهذا، قال بعدها: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ يعني: يودون عنتكم؛ ما: مصدرية؛ يعني: ودوا عنتكم؛ يعني: ودوا إدخال الشر عليكم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فالمقصود: أن الواجب على أهل الإسلام الحذر من أعدائهم، وأن يكونوا على غاية من الحيطة، وألا يتخذوهم بطانة، وألا يأمنوهم وقد خوَّنهم الله، وأن يعاملوهم بما شرع الله؛ من الحذر والحيطة ووضع الجزية، عليهم أو المعاهدة، إذا ما أمكن وضع الجزية فالمعاهدة التي توجب البُعد عن شرهم والأمن من مكرهم، وإذا قدر على قتالهم قوتلوا إلا أن يمتثلوا بالجزية عن صَغار وعن ذل في حق اليهود والنصارى والمجوس، وجاء في الحديث: «**بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده**». هذا الأصلح، شرع الجهاد ليعبد الله وحده، أما وضع الجزية فهذا عامل لدفع شرهم والسلامة من كيدهم، ولعلهم يرجعون إلى

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب الأدب، باب في السلام على أهل الذمة برقم (٥٢٠٦)، والإمام أحمد (٢/٥٨).

الصواب ويفكرون فيدخلون في الإسلام في حق اليهود والنصارى والمجوس، وإلا، فالأصل أن يقاتلوا حتى يدخلوا في دين الله. ولهذا، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]. هذا هو الأصل، وإنما تفرض الجزية في حق أهل الكتاب فقط دون غيرهم، وما ذاك إلا لأن الرسل بعثوا ليدعوا الناس إلى عبادة الله ويلزموهم بطاعة الله، هذا هو الأصل، ومن أجاب فله السعادة ومن أبى قوتل، إلا أن يكون من هذه الطائفة، وهم أهل الكتاب والمجوس، فتقبل منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، في حكمة بالغة، وهي أن لهم شبهة الكتاب ولهم شبهة اتباع لأنبياء مضوا، وكان من حكمة الله أن شرع أخذ الجزية منهم عن يد وهم صاغرون؛ لعلهم ينظرون، لعل ما عندهم من العلم يحملهم على الدخول في دين الله، والله المستعان...

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا نعيم بن حماد، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا مسعرٌ، عن ابن معنٍ وعونٍ أو أحدهما، أنّ رجلًا أتى عبد الله بن مسعودٍ، فقال: اعهد إليّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرعها سمعك، فإنّه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن معن، كذا عندكم؟

الطالب: يقول: صوابه عن معن وأبي عون، وهو معن بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود، وأبو عون هو محمد بن عبيد الله الثقفي،

---

(١) في تفسيره (١٠٤٤)، والإمام أحمد في الزهد (ص١٥٨).

وكلاهما روى عنهما مسعر، والأثر فيه نعيم بن حماد وهو ضعيف، وهو أيضًا منقطع؛ لأن معن بن عبد الرحمٰن وابن عون لم يدركا ابن مسعود.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: يراجع ابن أبي حاتم.

الشيخ: يحتمل أنه عبد الله بن عون، ويحتمل أنه قال..... يحتمل عن معن بن عبد الرحمٰن، وعون بن عبد الله بن عتبة.

والمقصود من هذا: أنه ينبغي للمؤمن في هذا الذي رواه ابن مسعود، ومعناه صحيح، أن المؤمن إذا سمع الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فهو واحد من المؤمنين إذا كان مسلمًا وهو واحد من الناس فيرعها سمعه، فلينتبه؛ فهو إما مأمور وإما منهي، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فانتبه ماذا يراد منك؛ إما أمر وإما نهي، وهكذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، جاء في بعض الصحيح من حديث أم سلمة أنها سمعت النبي ﷺ يخطب، ويقول: «**يا أيها الناس**»، وكانت تمشط رأسها، فقالت للمشَّاطة: لفي رأسي، قالت: إنه يقول يا أيها الناس، ما قال: يا أيها النساء، فقالت: أنا من الناس، فجعلت تستمع لخطبته عليه الصلاة والسلام. فالمقصود أن الإنسان ينبغي له أن يكون ذا همة عالية وذا رغبة في الخير وذا حرص على التدبر والتعقل، فإذا سمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾،﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فلينتبه؛ أو سمع القارئ يقول ذلك في الصلاة أو غيرها، فلينتبه، وهو مقصود.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيد بن جبيرٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿رَٰعِنَا﴾؛ أي: أرعنا سمعك.

وقال الضّحّاك: عن ابن عبّاسٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾؛ قال: كانوا يقولون للنّبيّ ﷺ: أرعنا سمعك، وإنّما راعنا كقولك عاطنا.

وقال ابن أبي حاتمٍ، وروي عن أبي العالية وأبي مالكٍ والرّبيع بن أنسٍ، وعطيّة العوفيّ وقتادة نحو ذلك.

وقال مجاهدٌ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لا تقولوا خلافًا، وفي روايةٍ: لا تقولوا: اسمع منّا ونسمع منك.

وقال عطاءٌ ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: كانت لغةً تقولها الأنصار، فنهى الله عنها.

وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾؛ قال: الرّاعن من القول: السّخريّ منه، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمّدٍ ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روي عن ابن جريجٍ، أنّه قال مثله.

وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أدبر ناداه من كانت له حاجةٌ من المؤمنين، فيقول: أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له.

وقال السّدّيّ: كان رجلٌ من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيدٍ يأتي النّبيّ ﷺ، فإذا لقيه فكلّمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مسمعٍ، وكان المسلمون يحسبون أنّ الأنبياء كانت تفخّم بهذا، فكان ناسٌ منهم يقولون: اسمع غير مسمعٍ غير صاغرٍ، وهي كالتي في سورة النّساء، فتقدّم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا. وكذا قال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم بنحوٍ من هذا.

قال ابن جريرٍ: والصّواب من القول في ذلك عندنا: أنّ الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه: راعنا؛ لأنّها كلمةٌ كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيّه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**لَا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ: الْكَرْمَ، وَلَكِنْ قُولُوا: الْحَبَلَةُ، وَلَا تَقُولُوا: عَبْدِي، وَلَكِنْ قُولُوا: فَتَايَ**»، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ

أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾؛ يبيّن بذلك تعالى شدّة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذّر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودّة بينهم وبينهم، ونبّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشّرع التّامّ الكامل الذي شرعه لنبيّهم محمّدٍ ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا يبيِّن لنا خبث الكفرة وعداوتهم العظيمة، وأنهم ما يودُّون أن ينزل على المسلمين خيرٌ من ربهم، ولا يودون لهم نصرًا ولا غنى ولا سلامة ولا اجتماعًا؛ بل هم ضد ذلك، يحبون لهم الشر والفرقة والاختلاف وكل ما يضرُّهم، ولهذا حذَّر الله من شرِّهم وكيدهم وبيَّن حالهم، فينبغي للمؤمن أن يكون منهم على حذر أينما كان، فهم أعداء وخصوم. نسأل الله للجميع العافية والسلامة.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [١٠٦][(١)].

حدّثنا عمرو بن عليٍّ، حدّثنا يحيى، حدّثنا سفيان، عن حبيبٍ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ قال: قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أقرؤنا أبيٌّ، وأقضانا عليٌّ، وإنّا لندع من قول أبيٍّ، وذاك أنّ أبيًّا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾»[(٢)].

---

(١) من شرح سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصحيح البخاري كتاب التفسير.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ برقم (٤٤٨١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

اللّهمّ ارض عنه. في قراءةٍ {نَنْسَأَهَا}، وفي القراءة الأخرى ﴿نُنسِهَا﴾؛ يعني: ننزعها من صدور النّاس حتّى ينسوها، الله يأتي بخيرٍ منها أو مثلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا فيه فضل عليٍّ وأبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وما أعطاهم الله من العلم، ولكن مراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ العالم قد يخفى عليه بعض الشّيء؛ لأنّ الله قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ قد ينسخ الشّيء ولا يعلمه العالم، قد يكون مخصّصًا قد يكون مقيدًا، كلّ عالمٍ مهما بلغ من العلم فقد يخفى عليه بعضه.

فالواجب على أهل العلم عرض ما أشكل وما تنازع فيه أهل العلم على الأدلّة الشّرعيّة، فإنّها هي الحكم؛ لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النّساء: ٥٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فإذا تنازع العالمان أو جماعةٌ في قضيةٍ سواءٌ كانت تتعلّق بالعبادات، أو بالمعاملات، أو بالأحوال الشّخصيّة أو بغير ذلك؛ وجب ردّها إلى الأدلّة الشّرعيّة، والحاكم إذا اجتهد له أجران إن أصاب، وأجرٌ إن أخطأ، وهكذا المفتي، وهكذا المدرّس.

لكن يجب على من عرف الحقّ أن يرجع إليه، وألا يتعصّب متى ظهر الحقّ بأدلته وجب الرّجوع إليه، وما مضى فيه حكم الله فالمصيب له أجران، والمخطئ له أجرٌ كما تقدّم.

- **س: هل يدلّ على أنّ أبيًّا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **ما كان يعلم بعض النّاسخ؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هو وغيره! قد يخفى عليه.

- **س: عندي: «ننسها»؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

في قراءةٍ: ﴿نُنسِهَا﴾ من النّسيان، (نَنْسؤهَا) نؤجّلها. ماذا قال عليه الشّارِح تكلّم؟

[قال الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (٨/ ١٦٧)]: «قوله: (**بابُ قوله تعالى**: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾): كذا لأبي ذرٍّ ﴿نُنسِهَا﴾ بضمّ أوّله وكسر السّين بغير همزٍ، ولغيره {نَنْسَأْهَا}، والأوّل: قراءة الأكثر واختارها أبو عبيدة، وعليه أكثر المفسّرين.

والثّانية: قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمرٍو وطائفةٍ، وسأذكر توجيههما، وفيها قراءاتٌ أخرى في الشّواذّ». [انتهى كلامه].

❃

☐ **تفسير قوله تعالى**: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: ما نبدل من آيةٍ.

وقال ابن جريجٍ، عن مجاهدٍ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: ما نمحو من آيةٍ، وقال ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ قال: نثبت خطّها ونبدّل حكمها، حدّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

وقال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن أبي العالية ومحمّد بن كعبٍ القرظيّ نحو ذلك.

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال الضّحّاك: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما نُنْسِك.

وقال عطاءٌ: أمّا ﴿مَا نَنسَخْ﴾؛ فما نترك من القرآن.

وقال ابن أبي حاتمٍ: يعني: ترك فلم ينزل على محمّدٍ ﷺ.

وقال السّدّيّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: نسخها: قبضها.

وقال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها ورفعها، مثل قوله: «الشّيخ والشّيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة»، وقوله: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى الثّالث**»[1].

وقال ابن جريرٍ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما ننقل من حكم آيةٍ إلى غيره، فنبدّله ونغيّره، وذلك أن يحوّل الحلال حرامًا، والحرام حلالًا، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك إلّا في الأمر والنّهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة؛ فأمّا الأخبار فلا يكون فيها ناسخٌ ولا منسوخٌ، وأصل النّسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيرها، وسواءٌ نسخ حكمها أو خطّها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخةٌ.

وأمّا علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم في حدّ النّسخ، والأمر في ذلك قريبٌ؛ لأنّ معنى النّسخ الشرعي معلوم عند العلماء. ولحظ بعضهم أنه: رفع الحكم بدليلٍ شرعيٍّ متأخّرٍ. فاندرج في ذلك نسخ الأخفّ بالأثقل وعكسه، والنّسخ لا إلى بدلٍ.

وأمّا تفاصيل أحكام النّسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال برقم (٦٤٣٦)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب «**لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا**» برقم (١٠٤٨).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والخلاصة: أن النسخ واقع في هذه الشريعة المحمدية كما قد وقع في الشرائع الماضية، وهي التغيير والنقل، يقال: نسخت الرياح أثر الديار؛ يعني: غيرتها ومحتها. ويقال: نسخت الكتاب، إذا نقلت ما فيه إلى كتاب آخر؛ فالنسخ تغيير ونقل، وتارة ينقل الحكم بالكلية وينسخ بالكلية، وتارة ينقل من أشد إلى أخف، ومن أخف إلى أشد، وتارة ينقل اللفظ ويبقى الحكم؛ كما في آية الرجم، كل ذلك واقع، فالله ﷻ هو الحكيم العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد يشرع أشياء أول ما يبعث النبي ثم ينسخ ذلك لحصول المقصود فيما فعل أولًا، وهو الحكيم العليم، وتارة يشرع أشياء خفيفة ثم يرفع لهم زيادة لمصلحتهم وفائدتهم، كما شرع لهم أولًا توحيد الرب ﷻ والإخلاص له وكفها عن المحارم، ثم شرع لهم الصلاة، ثم شرع لهم الزكاة والصيام، ثم شرع لهم الحج لحكمة بالغة، فالله سبحانه الحكيم العليم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ معنى: ﴿نَنسَخْ﴾؛ أي: نغير أو ننقل من آية أو ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نؤخرها، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. وهو ﷻ حكيم عليم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، والعلم بأحوال عباده ومصالحهم فيما يأتي ويذر، فيما ينسخ وفيما يبقي، وفيما يغير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك، قصة القبلة، صلوا أولًا إلى بيت المقدس، فمر على هذه مدة طويلة حتى بعد الهجرة، ثم غير الله ذلك وجعل القبلة إلى الكعبة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحكم وأعلم لمصالح عباده.

وقال الطبراني: أخبرنا أبو سنبل عبيد الله بن عبد الرّحمٰن بن واقدٍ، أخبرنا أبي، أخبرنا العبّاس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزّهريّ، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورةً أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلةٍ يصلّيان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين إلى رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال

رسول الله ﷺ: «**إِنَّهَا مِمَّا نُسِخَ وَأُنْسِي، فَالْهُوَا عَنْهَا**»، فكان الزّهريّ يقرؤها: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بضم النون الخفيفة. سليمان بن الأرقم ضعيفٌ.

وقد روى أبو بكر بن الأنباريّ، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبي عبيد الله، عن عبد الله بن صالحٍ، عن اللّيث، عن يونس وعقيل، عن ابن شهاب، عن أمامة بن سهل بن حنيفٍ، مثله مرفوعًا، ذكره القرطبي.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فقرىء على وجهين: ننسأها، وننسها؛ فأمّا من قرأها بفتح النّون والهمزة بعد السّين، فمعناه: نؤخّرها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: (ما ننسخ من آية أو ننسأها)؛ يقول: ما نبدّل من آيةٍ أو نتركها لا نبدّلها.

وقال مجاهدٌ، عن أصحاب ابن مسعود: أو ننسأها: نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء: أو ننسأها: نؤخرها ونرجئها.

وقال عطية العوفي: أو ننسأها، نؤخّرها فلا ننسخها، وقال السّدّيّ مثله أيضًا، وكذا الرّبيع بن أنسٍ، وقال الضّحّاك: ما ننسخ من آية أو ننسأها؛ يعني: الناسخ والمنسوخ.

وقال أبو العالية: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو ننسأها): نؤخرها عندنا.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، أخبرنا خلف، أخبرنا الخفاف، عن إسماعيل؛ يعني: ابن أسلم، عن حبيب بن أبي ثابتٍ، عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبّاسٍ قال: خطبنا عمر رضي الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ ننسأها)؛ أي: نؤخّرها.

وأمّا على قراءة: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن

قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾؛ قال: كان الله ﷻ ينسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقال ابن جرير: أخبرنا سوار بن عبد الله، أخبرنا خالد بن الحارث، أخبرنا عوفٌ، عن الحسن أنّه قال في قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ قال: إنّ نبيّكم ﷺ قرأ علينا قرآنًا ثمّ نسيه.

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا ابن نفيل، أخبرنا محمّد بن الزّبير الحرّانيّ، عن الحجّاج؛ يعني: الجزريّ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: كان ممّا ينزل على النّبيّ ﷺ الوحي باللّيل وينساه بالنّهار، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، قال ابن أبي حاتم: قال لي أبو جعفر بن نفيلٍ: وليس هو الحجّاج بن أرطاة، هو شيخٌ لنا جزريٌّ.

وقال عبيد بن عميرٍ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نرفعها من عندكم.

وقال ابن جريرٍ: حدّثني يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا هشيمٌ، عن يعلى بن عطاءٍ عن القاسم بن ربيعة، قال: سمعت سعد بن أبي وقّاصٍ يقرأ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾؛ قال: قلت له: فإنّ سعيد بن المسيّب يقرأها: (أو تنساها)؛ قال: قال سعدٌ: إنّ القرآن لم ينزل على المسيّب ولا على آل المسيب، قال: قال الله جلّ ثناؤه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وكذا رواه عبد الرّزّاق، عن هشيمٍ.

وأخرجه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي حاتمٍ الرّازيّ، عن آدم، عن شعبة، عن يعلى بن عطاءٍ، به، وقال: على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه.

قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن محمّد بن كعبٍ وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى، أخبرنا سفيان الثّوريّ، عن حبيب بن أبي ثابتٍ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال عمر: عليٌّ أقضانا وأبيٌّ أقرأنا، وإنّا لندع من قول أبيٍّ، وذلك أنّ أبيًّا يقول: ما أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، والله يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ قال البخاري: أخبرنا يحيى، أخبرنا سفيان، عن حبيبٍ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال عمر: أقرؤنا أبيٌّ وأقضانا عليٌّ، وإنّا لندع من قول أبيٍّ، وذلك أنّ أبيًّا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ أي: في الحكم بالنّسبة إلى مصلحة المكلّفين؛ كما قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾: ويقول: خيرٌ لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، فلا نعمل بها، (أو ننسئها)؛ أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها.

وقال السّدّيّ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ يقول: نأت بخيرٍ من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه.

وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ يقول: آيةٌ فيها تخفيفٌ، فيها رخصةٌ، فيها أمرٌ، فيها نهيٌ.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾؛ يرشد تعالى عباده بهذا إلى أنّه المتصرّف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرّف؛ فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويُصحّ من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفّق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء،

ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يُحكِم ما يريد، لا معقّب لحكمه، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنّسخ، فيأمر بالشّيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثمّ ينهى عنه لما يعلمه تعالى؛ فالطّاعة كلّ الطّاعة في امتثال أمره واتّباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا.

وفي هذا المقام ردٌّ عظيمٌ وبيانٌ بليغٌ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله، في دعوى استحالة النّسخ؛ إمّا عقلًا كما زعمه بعضهم جهلًا وكفرًا، وإمّا نقلًا كما تخرّصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وكله باطل، فإنه لا استحالة في النسخ لا عقلًا ولا شرعًا؛ فالعقل يقتضي ذلك، فإن الحكيم من الناس قد يأمر بشيء ويدعو إليه، ثم يرى بعد ذلك في وقت آخر أن تركه أولى وأصلح لأسباب طرأت، فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين أولى بهذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يأمر بما يشاء لحكمة بالغة ثم ينسخه لحكمة بالغة، ويحله في أول الأمر لحكمة بالغة ثم ينهى عنه، أو بالعكس، فله الحكمة البالغة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنقل واقع.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: فتأويل الآية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمّد، أنّ لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عمّا أشاء، وأنسخ وأبدّل وأغيّر من أحكامي التي أحكم بها في عبادي، بما أشاء إذ أشاء، وأقر منهما ما أشاء. ثمّ قال: وهذا الخبر، وإن كان خطابًا من الله تعالى لنبيّه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنّه منه جل ثناؤه تكذيبٌ لليهود، الّذين أنكروا نسخ أحكام التّوراة وجحدوا نبوّة عيسى ومحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام؛ لمجيئهما بما جاءا به من عند الله

بتغيير ما غيّر الله من حكم التّوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأنّ الخلق أهل مملكته وطاعته، وعليهم السّمع والطّاعة لأمره ونهيه، وأنّ له أمرهم بما يشاء ونهيهم عمّا يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

(قلت): الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النّسخ، إنّما هو الكفر والعناد، فإنّه ليس في العقل ما يدلّ على امتناع النّسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنّه يحكم ما يشاء؛ كما أنّه يفعل ما يريد، مع أنّه قد وقع ذلك في كتبه المتقدّمة وشرائعه الماضية؛ كما أحلّ لآدم تزويج بناته من بنيه، ثمّ حرّم ذلك، وكما أباح لنوحٍ بعد خروجه من السّفينة أكل جميع الحيوانات، ثمّ نسخ حلّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثمّ نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل مَن عَبَدَ العجل منهم، ثمّ رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرةٌ يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه.

وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود؛ كما في كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمّدٍ ﷺ والأمر باتّباعه، فإنّه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام، وأنّه لا يقبل عملٌ إلّا على شريعته، وسواءٌ قيل: إنّ الشّرائع المتقدّمة مغيّاةٌ إلى بعثه عليه السلام، فلا يسمّى ذلك نسخًا؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقيل: إنّها مطلقةٌ، وإنّ شريعة محمّدٍ ﷺ نسختها، فعلى كلّ تقديرٍ، فوجوب متابعته متعيِّن؛ لأنّه جاء بكتابٍ هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى.

ففي هذا المقام، بيّن تعالى جواز النّسخ، ردًّا على اليهود عليهم

لعنة الله؛ حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، فكما أنّ له الملك بلا منازعٍ، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل صدرها خطابًا مع أهل الكتاب، وقوع النّسخ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]، كما سيأتي تفسيره.

والمسلمون كلّهم متّفقون على جواز النّسخ في أحكام الله تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلّهم قال بوقوعه.

وقال أبو مسلم الأصبهانيّ المفسّر: لم يقع شيءٌ من ذلك في القرآن، وقوله ضعيفٌ مردودٌ مرذولٌ، وقد تعسّف في الأجوبة عمّا وقع من النّسخ؛ فمن ذلك قضيّة العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلامٍ مقبولٍ، وقضيّة تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيءٍ، ومن ذلك، نسخ مصابرة المسلم لعشرةٍ من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك، نسخ وجوب الصّدقة قبل مناجاة الرّسول ﷺ، وغير ذلك، والله أعلم.

*

□ **تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨][1].**

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النّبيّ ﷺ عن الأشياء قبل كونها؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المَائِدَةِ: ١٠١]؛ أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبيّن لكم،

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولا تسألوا عن الشّيء قبل كونه، فلعلّه أن يحرّم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصّحيح: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**»(١)، ولمّا سئل رسول الله ﷺ عن الرّجل يجد مع امرأته رجلًا، فإن تكلّم تكلّم بأمرٍ عظيمٍ، وإن سكت سكت عن مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثمّ أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا، ثبت في الصّحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة: أنّ رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**» ـ ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»(٢).

وهذا إنّما قاله بعدما أخبرهم «**أَنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْحَجَّ**»، فقال رجلٌ: أكلّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا، ثمّ قال عليه السلام: «**لَا، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ**»، ثُمّ قال: «**ذروني ما تركتكم**»، الحديث.

ولهذا، قال أنس بن مالكٍ: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يعجبنا أن يأتي الرّجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصليّ في مسنده: أخبرنا أبو كريب،

---

(١) متفق عليه من حديث عامر بن سعد بن وقاص عن أبيه رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه برقم (٧٢٨٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما..... برقم (٢٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر برقم (١٣٣٧).

أخبرنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازبٍ، قال: إن كان ليأتي عليّ السّنة، أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء، فأتهيّب منه، وإن كنّا لنتمنّى الأعراب.

وقال البزار: أخبرنا محمد بن المثنى، أخبرنا ابن فضيلٍ، عن عطاء بن السّائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمّدٍ ﷺ، ما سألوه إلّا عن اثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ـ و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ يعني: هذا وأشباهه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود من هذا النهي عن التعمق في كثرة السؤال بغير حاجة، بل للتعمق، أو لإظهار الفهم وجودة الفهم وأنه أفهم من غيره. أما إذا كان السؤال عن شيء واقع، أو شيء يهمه ويحتاج إليه، فهو مأمور بذلك. ولهذا، قال سبحانه: ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وفي الحديث: «**ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإن شفاء العي السؤال**». فالمؤمن يسأل عن حاجته في نفسه وفي إخوانه، وما يهمه وما جاء في أحكام الله وشرعه، أما التعنت والأسئلة التي فيها إيذاء المسؤول، أو يقصد بها غير وجه الله ﷻ، فهذه هي الأشياء التي نهي عنها الناس ألا يسألوا إلا ما نزل بهم وعمَّتهم الحاجة إليه، فهذا هو محل السؤال: أما أن يسأل الإنسان للتعنت أو إيذاء المسؤول، أو ليقول الناس أنه جيد أو أنه طالب علم، أو أنه كذا؛ ليرائي الناس، فكل هذا مذموم وعاقبته وخيمة. وعلى هذا يؤخذ قوله ﷺ: «**وكثرة السؤال**»؛ يعني: كثرة السؤال التي ليست في محلها؛ بل إما لهوى أو رياء أو في الأغلوطات التي لا حاجة إليها ولا ضرورة إليها.

والقيل والقال؛ معناه: كثرة الكلام والخوض الذي يضر صاحبه، وقد يؤذيه وقد يوقعه فيما حرم الله ﷻ؛ بل ينبغي أن يكون متحريًا، ويتحرى في كلامه ونطقه بما يراه صالحًا ومفيدًا، وإن سأل سأل عما

يحتاج إليه مع الإخلاص لله ومع قصد الخير والفقه في الدين؛ لا لمقصد آخر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعلم المؤمنين والكافرين، فإنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: **﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾** [النّساء: ١٥٣].

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيدٍ: يا محمّد، ائتنا بكتابٍ تنزّله علينا من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهارًا نتبعك ونصدّقك، فأنْزل الله من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

وقال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النّبيّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا نَبْغِيهَا - ثَلَاثًا - مَا أَعْطَاكُمُ الله خير مما أعطى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدُهُمُ الْخَطِيئَةَ وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِهِ وَكَفَّارَتَهَا؛ فَإِنْ كَفَّرَهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يُكَفِّرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الْآخِرَةِ، فَمَا أَعْطَاكُمُ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**»(١)، قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٨٣)، وابن أبي حاتم (١٠٨١).

ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ١١٠]، وقال: «**الصَّلوات الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ**»(١).

وقال: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا**»(٢)، ولا يهلك على الله إلّا هالكٌ، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا من رحمة الله وإحسانه لهذه الأمة، أن شرع لهم التوبة وأوجبها عليهم، وستر عليهم ما قد يجنون على أنفسهم من السيئات بينهم وبينه، ولم يفضحهم وتكتب على أبوابهم؛ بل ستر الله عليهم ورحمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأمرهم بالتوبة بينهم وبينه؛ فمن تاب إليه صادقًا وندم على ما مضى منه وأقلع عن ذلك وعزم ألا يعود محاها الله عنه، فإذا أتبعها بالعمل الصالح والإيمان كتبها الله له مكان كل سيئة حسنة، هذا من فضله وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكانت بنو إسرائيل قد أمروا بتوبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا، وما روي أيضًا من إعلان سيئاتهم على أبوابهم، كل هذا من البلايا العظيمة والآصار التي محاها الله عن هذه الأمة وسترها على عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلله الحمد والمنة.

والمقصود من هذا: أن المؤمن يحمد ربه على ما منّ به عليه في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام من مضاعفة الأجور وتكفير السيئات

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في كتاب الطهارة باب «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن ما اجتُنبت الكبائر**» برقم (٢٣٣).

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هَمَّ بحسنة أو بسيئة برقم (٦٤٩١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب إذا هَمَّ العبد بحسنة كتبت وإذا هَمَّ بسيئة لم تكتب برقم (١٣١).

وحط الخطايا باجتناب الكبائر، وما شرع من التوبة التي ليس فيها آصار ولا أغلال، توبة ميسرة، ندم على الماضي وإقلاع من الذنب وعزم صادق ألا يعود، فيمحى عنه ولو لم يقتل نفسه ولو لم يجرح نفسه ولو لم يضرب نفسه ولو لم يعلنها بين الناس، كل هذا من فضل الله ﷻ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهرةً، قال: سألت قريشٌ محمّدًا ﷺ أن يجعل لهم الصّفا ذهبًا، قال: «**نَعَمْ، وَهُوَ لَكُمْ كَالْمَائِدَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**» فأبوا ورجعوا. وعن السّدّيّ وقتادة نحو هذا، والله أعلم.

والمراد: أنّ الله ذمّ من سأل الرّسول ﷺ عن شيءٍ على وجه التّعنّت والاقتراح؛ كما سألت بنو إسرائيل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعنّتًا وتكذيبًا وعنادًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: ومن يشتر الكفر بالإيمان، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾؛ أي: فقد خرج عن الطّريق المستقيم إلى الجهل والضّلال.

وهكذا حال الّذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتّباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التّعنّت والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: يعتاض الكفر بدلًا من الإيمان. نسأل الله العافية.

ومن رحمة الله أن العبد إذا قصد الخير وطلبه وحرص عليه وفِّق: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»، أما من أراد التعنت والإيذاء وإظهار الفهم الجيد أو أنه فوق الناس، أو أنه كذا وكذا، فهذا يخسر

ويعاقب بنقيض قصده. نسأل الله السلامة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٩، ١١٠][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفّار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظّاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيّهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصّفح والعفو والاحتمال، حتّى يأتي أمر الله من النّصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة، ويحثّهم على ذلك ويرغّبهم فيه؛ كما قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيد بن جبيرٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: كان حييّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود للعرب حسدًا، إذ خصّهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في ردّ النّاس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا مما يبين لكل مؤمن حرص أعداء الله على إضلال المسلمين وعلى إخراجهم من دينهم بكل وسيلة؛ حسدًا وبغيًا وظلمًا أن أعطاهم الله

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

من فضله ما أعطاهم، وهذا واضح في علماء أهل الكتاب الذين عرفوا الحق وتبين لهم الحق ولكنهم عاندوا وآثروا الدنيا على الآخرة وقدَّموا أهواءهم، فهؤلاء هم أشد الناس عداوة لأهل الحق، أما الجهلة فأمرهم عكس، الجهلة قد يرجعون إلى الصواب ويهتدون إذا أرادوا الحق، ولكن المصيبة العظيمة الذين عاندوا على بصيرة وكفروا على بصيرة وآثروا الدنيا على الآخرة وحسدوا المؤمنين ،هؤلاء هم أهل العداوة العظمى. ولهذا، قال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ مثل: حيي بن أخطب وأخيه أبي ياسر وغيرهم من أهل الكتاب، ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ يعني: ودوا هذا، ومثل الآية الأخرى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]؛ فهم حسدوا العرب أن يكون منهم نبي، وأحبوا أن يكون النبي منهم كأنبياء بني إسرائيل الماضين، فلما جاء الحق على خلاف أهواءهم كفروا وعاندوا واستكبروا، وصار ذلك سُبَّة عليهم وشرًّا عليهم، ومن أعظم الأسباب في عقابهم في الدنيا والآخرة.

ثم مع هذا كله يقول ﷻ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ يعني: مع هذه العداوة، المؤمنون مأمورون بالعفو والصفح في حال الهدنة، وفي حال المعاهدة، وفي حال إعطاء الذمة لعلهم يهتدون، لعلهم يرجعون، لئلا يبقوا لهم طريقة وشبهة، فينبغي للمؤمن أن يكون هكذا شيمته الصفح والعفو والإحسان في محلهما، فإذا جاء محل الجد والعقوبة عاقب بما يقتضيه الشرع المطهر، وهذه سنته سبحانه في عباده، يأمرهم بالعفو والصفح والإحسان في محله وبالعقوبة والانتقام في محلهما: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ من فتح أو عقاب لهم أو هداية لهم، إلى غير ذلك، فالعفو والصفح في محلهما من أسباب الهداية للعدو، ومن أسباب انقماعه، ومن أسباب قيام الحجة عليه، ومن أسباب دفاع الله عن المؤمنين، وفي قصة مسطح: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ [النور: ٢٢].

ثم قال بعدها: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠]؛ يعني: قوموا بما وجب عليكم وأمرتم به، واستمروا في الخير والصفح والعفو عمن أساء إليكم حتى تأتي الساعة وحتى يأتي الوقت المناسب لعقوبة من اعتدى والقضاء على من أفسد.

وهناك أشباه لليهود من ظَلَمة المسلمين ومن فسَّاق المسلمين، فهكذا يعاملون، بالعفو والصفح ما دام ذلك يرجى فيه الخير، وما دام ذلك يرجى منه الرجوع إلى الصواب والهداية وصلاح أمر المسلمين؛ فإذا كان المقام يقتضي العقاب وعدم الصفح وعدم العفو، فعل ذلك في الأشياء التي هي محل اجتهاد ومحل نظر، وأما الحدود التي حدَّها الله فهذه ليس فيها تأخير وليس فيها تأجيل وليس فيها عفو، فمتى بلغت السلطان وجب أن تقام، وإنما الاجتهاد في الأمور التي يشرع فيها التأديب، فولي الأمر والمسؤولون وأهل الحل والعقد، فالمؤمن مع أخيه ومع أهل بيته إلى غير ذلك، ينظر فيما هو الأصلح وما هو الأقرب إلى الخير وما هو الأنفع وما هو الأجدى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن الزّهريّ، في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ قال: هو كعب بن الأشرف.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا قال المفسرون: فلان أو فلان، المراد به كمثال، ككعب الأشرف وحيي بن أخطب وغيرهما وأشباههما، كلهم أعداء، فهذه أمثلة، وإلا نظراؤهم كثيرون. نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيبٌ، عن الزّهريّ، أخبرني عبد الرّحمٰن بن عبد الله بن كعب بن

مالكٍ، عن أبيه، أنّ كعب بن الأشرف اليهوديّ كان شاعرًا، وكان يهجو النّبيّ ﷺ، وفيه أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾.

وقال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ: أنّ رسولًا أمّيًّا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرّسل والآيات، ثمّ يصدّق بذلك كلّه مثل تصديقهم، ولكنّهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيًا، ولذلك، قال الله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحقّ، لم يجهلوا منه شيئًا، ولكنّ الحسد حملهم على الجحود، فعيّرهم ووبّخهم ولامهم أشدّ الملامة، وشرع لنبيّه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التّصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الرّبيع بن أنسٍ: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: من قبل أنفسهم.

وقال أبو العالية: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: من بعد ما تبين أنّ محمّدًا رسول الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التّوراة والإنجيل، فكفروا به حسدًا وبغيًا، إذ كان من غيرهم.

وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تمامها: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. لا بدّ أن يسمع المؤمنون من أعدائهم ما يؤذيهم ويحزنهم، ولكن مع الصبر والتقوى لا يضرهم كيدهم شيئًا، ﴿وَإِن

تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]؛ فصبر المؤمنين وتقواهم لله وقيامهم بحقه وإعراضهم عن أعدائه الذين حسدوهم يزيد أعداءهم كمدًا ونكدًا ويقيهم الله شرهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: نسخ ذلك قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التَّوْبةِ: ٢٩]، فنسخ هذا عفوه عن المشركين.

وكذا قال أبو العالية والرّبيع بن أنسٍ وقتادة والسّدّيّ، إنّها منسوخةٌ بآية السّيف، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: حتّى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيبٌ، عن الزّهريّ، أخبرني عروة بن الزّبير، أنّ أسامة بن زيدٍ أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

وكان رسول الله ﷺ يتأوّل من العفو ما أمره الله به، حتّى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريشٍ، وهذا إسناده صحيحٌ، ولم أره في شيءٍ من الكتب السّتّة، ولكن له أصلٌ في الصحيحين عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾: يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة؛ من إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، حتّى يمكن

لهم الله النّصر في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، ولهذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾؛ يعني: أنّه تعالى لا يغفل عن عمل عاملٍ، ولا يضيع لديه؛ سواءٌ كان خيرًا أو شرًّا، فإنّه سيجازي كلّ عاملٍ بعمله.

وقال أبو جعفر بن جريرٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾: هذا الخبر من الله للّذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنّهم مهما فعلوا من خيرٍ أو شر، سرًّا وعلانية، فهو به بصيرٌ، لا يخفى عليه منه شيءٌ، فيجزيهم بالإحسان خيرًا، وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإنّ فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا، وذلك أنّه أعلم القوم أنّه بصيرٌ بِجمِيعِ أعمالِهِم، لِيجِدّوا فِي طاعتِهِ، إذ كان ذلك مذخورًا لهم عِنده، حتّى يثِيبهم عليهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولِيحذروا معصِيته.

قال: وأمّا قوله: ﴿بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾؛ فإنّه مبصِرٌ، صرِف إلى بصيرٍ، كما صرف مبدعٌ إلى بديعٍ، ومؤلمٌ إلى أليمٍ، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو زرعة، أخبرنا ابن بكيرٍ، حدّثني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيبٍ، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامرٍ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾؛ يقول: بكلّ شيءٍ بصير.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ومثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فآية

السيف، وإن نسخت جنس العفو وأمرت بالقتال، وهكذا ما جاء في معناها، فالعفو والصفح والإحسان في محلهما أيضًا في حال المعاهدة وحال بقاء الذمة، فللسيف محله، والعفو في محله في وقت الصلح والمهادنة، وفي وقت عقد الذمة، فكل شيء في محله مشروع، وعند وجود ما ينقض العهد شرع الله قتالهم، وعند وجود ما يجوز عقد الذمة والمهادنة يكون ذلك في محله أيضًا مما شرعه الله من العفو والإحسان والإصلاح.

*

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٣][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يبيّن تعالى اغترار اليهود والنّصارى بما هم فيه، حيث ادّعت كلّ طائفةٍ من اليهود والنّصارى، أنّه لن يدخل الجنّة إلّا من كان على ملّتها؛ كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنّه معذّبهم بذنوبهم. ولو كانوا كما ادّعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدّم من دعواهم، أنّه لن تمسّهم النّار إلّا أيّامًا معدودةً، ثمّ ينتقلون إلى الجنّة، وردّ عليهم تعالى في ذلك.

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

وهكذا قال لهم في هذه الدّعوى التي ادّعوها بلا دليلٍ ولا حجّةٍ ولا بيّنةٍ، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وقال أبو العالية: أمانيّ تمنّوها على الله بغير حقٍّ.

وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

ثمّ قال تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمّد ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد والسدي والرّبيع بن أنسٍ: حجّتكم، وقال قتادة: بيّنتكم على ذلك، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: فيما تدّعُونهُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يبين أن الدعاوى التي لا برهان عليها لا قيمة لها، وأن كل إنسان يستطيع أن يدَّعي ما ليس له، ويستطيع أيضًا أن يخادع وأن يكذب وأن يأتي بشهود كذبة وإلى غير ذلك، وإنما الاعتبار بالحقائق التي تقوم عليها البراهين الصادقة والدلائل القاطعة من كلام الله أو كلام رسوله عليه الصلاة والسلام؛ فدعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه أو أنهم هم أهل الجنة دون غيرهم، أو غير هذا من الدعاوى، كلها دعاوى باطلة، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ يعني: أماني يتمنونها، وهي كاذبة باطلة، ولهذا، قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ فليست الجنة لصنف من الناس بأنسابهم أو بأموالهم أو بوظائفهم أو بأجدادهم، لا، الجنة لأناس مخصوصين من جهة العمل، الجنة لمن استقام على أعمالها من أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فليست لزيد أو عمرو، ولا لليهود أو النصارى، ولا للعرب ولا للعجم، ولا للأحرار ولا للعبيد، ولا للأغنياء ولا للفقراء، وإنما هي لمن استقام على الطريقة التي علق الله بها دخول الجنة، هي لمن استقام على أمر الله، ووقف عند حدود الله، وترك محارم الله، هكذا أخبر ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]. ولهذا، قال سبحانه هنا: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾: من وحَّد الله واستقام على أمره وأحسن في عمله، فهذا صاحب الجنة من أي جهة كان؛ من العرب، من العجم، من بني إسرائيل، من غيرهم، من الجن من الإنس، من الأغنياء من الفقراء، من عبد الله وحده واستقام على دينه فهو صاحب هذا الوعد العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالواجب على المكلف أن يحذر خداع نفسه وخداع الشيطان، وأن يلتزم بالأمر الذي علق الله به النجاة وأن يحذر نفسه الأمارة بالسوء وشيطانه ودعاة الباطل والمغالطة التي ترديه وتجعله في عداد الهالكين. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثمّ قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال أبو العالية والرّبيع: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ يقول: من أخلص لله.

وقال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾: أخلص، ﴿وَجۡهَهُۥ﴾؛ قال: دينه. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ أي: اتبع فيه الرّسول ﷺ، فإنّ للعمل المتقبل شرطين:

أحدهما: أن يكون صوابًا خالصًا لله وحده. **والآخر**: أن يكون صوابًا موافقًا للشّريعة.

فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبّل، ولهذا، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، رواه مسلمٌ(١) من حديث عائشة، عنه عليه الصلاة والسلام.

فعمل الرّهبان ومن شابههم، وإن فرض أنّهم مخلصون فيه لله، فإنّه لا يتقبّل منهم، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى النّاس كافّةً، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفُرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النُّور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لأنها عَملت على غير هدى، عَملت على البدع والأهواء والشرك بالله ﷻ، فلم تنفعها أعماله، فلا بدّ في الأعمال من شرطين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، بعد الإسلام، بعد الدخول في الإسلام؛ فلا عمل إلا بالدخول في الإسلام أولًا، فإذا دخل في الإسلام فلا بدّ في عمله من هذين الشرطين، أما إن كان مشركًا فأعماله باطلة مطلقًا ولو عملها لله، إذا كان مشركًا فأعماله باطلة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ فلو تصدّق يرجو ثواب الله، أو برّ والديه يرجو ثواب الله، أو فعل غير ذلك وهو مشرك كان عمله حابطًا:

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الاعتصام، باب اذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، وقد وصله مسلم في كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨).

﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ فشرط الأعمال وشرط صحتها أن تصدر من مسلم، وأن تكون لله وحده، وأن توافق الشريعة، ولهذا، يقول ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فأعمال اليهود والنصارى وبقية الكفرة، كل أعمالهم مهما كانت فهي باطلة لا تنفعهم يوم القيامة؛ بل قد يجازون عليها في الدنيا إذا فعلوها لله، قد يجازون عليها في الدنيا بالطعمة في الدنيا؛ كما قاله النبي ﷺ، فإذا أفضوا إلى الآخرة لم يجدوا إلا النار، نسأل الله العافية، فالواجب على المكلف البصير أن يتقي الله وأن يلزم الحق وأن يستقيم عليه في كل أعماله، وأن يتوجه بقلبه وقالبه وسائر أعماله إلى الله وحده ﷻ، وأن يتفقه في الدين ويتبصر في الدين حتى يؤديها على الوجه الذي شرعه الله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنّه تأوّلها في الرّهبان كما سيأتي.

وأمّا إن كان العمل موافقًا للشّريعة في الصّورة الظّاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردودٌ على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]. ولهذا، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فيما يستقبلونه،

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ على ما مضى ممّا يتركونه؛ كما قال سعيد بن جبير: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾؛ يعنِي: لا يحزنون للموت.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يبيِّن به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم؛ كما قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: لمّا قدم أهل نجران من النّصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيءٍ، وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجلٌ من أهل نجران من النّصارى لليهود: ما أنتم على شيءٍ، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتّوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ قال: إنّ كلًّا يتلو في كتابه تصديق من كفر به؛ أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التّوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتّصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التّوراة من عند الله، وكلٌّ يكفر بما في يد صاحبه.

وقال مجاهدٌ في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنّصارى على شيءٍ.

وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ قال: بلى، قد كانت أوائل النّصارى على شيءٍ، ولكنّهم ابتدعوا وتفرّقوا، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيءٍ، ولكنّهم ابتدعوا وتفرّقوا.

وعنه روايةٌ أخرى كقول أبي العالية والرّبيع بن أنسٍ في تفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: هؤلاء أهل الكتاب الّذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذا القول يقتضي، أنّ كلًّا من الطّائفتين صدقت فيما رمت به الطّائفة الأخرى، ولكنّ ظاهر سياق الآية يقتضي ذمّهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وهم يعلمون شريعة التّوراة والإنجيل، كلٌّ منهما قد كانت مشروعةً في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلةً للفاسد بالفاسد؛ كما تقدّم عن ابن عبّاسٍ ومجاهدٍ وقتادة في الرّواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: بيَّن بهذا جهل اليهود والنّصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة.

وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فقال الرّبيع بن أنسٍ وقتادة: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ قالا: وقالت النّصارى مثل قول اليهود وقيلهم.

وقال ابن جريجٍ: قلت لعطاءٍ: من هؤلاء الّذين لا يعلمون؟ قال: أممٌ كانت قبل اليهود والنّصارى وقبل التّوراة والإنجيل.

وقال السّدّيّ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فهم العرب، قالوا ليس محمّدٌ على شيءٍ.

واختار أبو جعفر بن جريرٍ أنّها عامّةٌ تصلح للجميع، وليس ثمّ دليلٌ قاطعٌ يعيّن واحدًا من هذه الأقوال، والحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا هو الصواب، كل الأتباع في الباطل ودعاة السوء، كلهم على هذا السبيل، كلٌّ يسب الآخر ويكذب الآخر، تشابهت قلوبهم فضلُّوا عن السبيل، نعوذ بالله، ولا يستقيم على الحق إلا من طلبه وأراده وأخلص في ذلك واستقام عليه، وإلا، فطوائف الكفر وطوائف الضلال وهكذا

طوائف البدع يكذب بعضهم بعضًا ويناقض بعضهم بعضًا، ويسبُّ بعضهم بعضًا وكلهم لا يعلمون، كلهم جهلوا الحق ووقعوا في الباطل، نعوذ بالله، فهم قد تشابهت قلوبهم فضلذُوا عن سواء السبيل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾؛ أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الْحجّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الْحجِّ: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمقصود من هذا: أن الواجب على اليهود الإيمان بعيسى وبما جاءهم في التوراة، والواجب على النصارى الإيمان بما جاءهم به عيسى والإيمان بما في التوراة، هذا هو طريق الحق، أن يؤمن كل منهم بهذا وهذا، وعلى المسلمين بعد ذلك أن يؤمنوا بهذا وهذا؛ بما جاء به موسى وبما جاء به عيسى وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، هذا هو طريق الهدى.

أما أن يكذب بعضهم بعضًا وينكر بعضهم على بعض، فهذا هو اتباع الهوى وطاعة الشيطان والحسد والبغي؛ فموسى جاء بالحق، وعيسى جاء بالحق، وهكذا بقية الرسل، كلهم جاؤوا بالحق عليهم الصلاة والسلام، كلهم يصدِّق بعضهم بعضًا، فالواجب على أتباعهم أن يكونوا هكذا وأن يصدقوهم بما جاؤوا به، وألا يكذبوهم؛ بل يقبلوا

الحق كله وينقادوا للحق كله، وكلما جاء نبيٌّ صدَّقوا به والتزموا بما جاء به. ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ، كذلك وجب عليهم اتباعه مع عدم تكذيب موسى وعيسى، مع الإيمان بموسى وعيسى أنهما جاءا بالحق، ثم جاء رسول الله ﷺ مكملًا لما معهم ومصدقًا لما معهم، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فوجب اتباعه وتصديق من قبله أيضًا، فإنه مصدق لما جاؤوا به عليه الصلاة والسلام.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ **[البقرة: ١١٤]**(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف المفسّرون في المراد من الّذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها، على قولين:

أحدهما: ما رواه العوفيّ في تفسيره عن ابن عبّاسٍ، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؛ قال: هم النّصارى.

وقال مجاهدٌ: هم النّصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون النّاس أن يصلّوا فيه.

وقال عبد الرّزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة في قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: هو بختنصّر وأصحابه، خرّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النّصارى.

وقال سعيدٌ، عن قتادة؛ قال أولئك أعداء الله النّصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصّر البابليّ المجوسيّ على تخريب بيت المقدس.

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال السّدّيّ: كانوا ظاهروا بختنصّر على خراب بيت المقدس، حتّى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف، وإنّما أعانه الرّوم على خرابه، من أجل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريّا.

وروي نحوه عن الحسن البصريّ.

(القول الثّاني): ما رواه ابن جريرٍ: حدّثني يونس بن عبد الأعلى حدّثنا ابن وهبٍ، قال: قال ابن زيدٍ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾؛ قال: هؤلاء المشركون الّذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكّة، حتّى نحر هديه بذي طوى، وهادنهم وقال لهم: ما كان أحدٌ يصدّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل، يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يصدّه، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدرٍ وفينا باقٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا منافاة بين القولين؛ فإن الاعتبار يعود للألفاظ والمعاني لا بخصوص الأسباب؛ سواء كان المانع هنا من النصارى أو من كفار قريش أو من غيره، فالآية تعم الجميع، وأن من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هو داخل في هذا الذم والعيب، وأنه لا أعظم منه، فإنه قد أتى ظلمًا عظيمًا؛ ولهذا، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾؛ المعنى: لا أحد أظلم، فهو استفهام معناه النفي، ومعناه التشنيع على من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه؛ بالصلاة، وبالطواف في مكة، أو بالقراءة، أو بغير ذلك، بالإضافة إلى ذلك سعى إلى خرابها أيضًا؛ بهدمها، وإلقاء القمامة فيها، وما أشبه ذلك؛ فهذا شر إلى شر فالآية تعم كل من فعل هذا الفعل، وتبين أنه من أظلم الناس إذا منع المساجد أن يذكر فيها اسمه؛ من قراءة أو صلاة أو اعتكاف أو طواف في الكعبة المشرفة؛

كما فعلت قريش حين صدُّوا النبيَّ ﷺ وأصحابه يوم الحديبية.
والمعنى: ذم الجميع، وأن الواجب تبشير العباد في بناء المساجد حتى يؤدوا فيها شعائر الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾؛ قال: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحجّ والعمرة.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة، قال: قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، أنّ قريشًا منعوا النّبيّ ﷺ الصّلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

ثمّ اختار ابن جريرٍ القول الأوّل، واحتجّ بأنّ قريشًا لم تسعَ في خراب الكعبة، وأمّا الرّوم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

(قلت): والذي يظهر، والله أعلم، القول الثّاني كما قاله ابن زيدٍ، وروي عن ابن عبّاسٍ؛ لأنّ النّصارى إذا منعت اليهود الصّلاة في البيت المقدّس، كأنّ دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك؛ لأنّهم ﴿لُعِنُواْ﴾ من قبل ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

وأيضًا، فإنّه تعالى لمّا وجّه الذّمّ في حقّ اليهود والنّصارى، شرع في ذمّ المشركين الّذين أخرجوا الرّسول ﷺ وأصحابه من مكّة، ومنعوهم من الصّلاة في المسجد الحرام.

وأمّا اعتماده على أنّ قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأيّ

خرابٍ أعظم ممّا فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التّوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التّوبة: ١٨]؛ فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها، فأيّ خرابٍ لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنّما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدّنس والشّرك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: أن هذا خراب معنوي، فليس شرط الخراب أن يكون هدمًا لها، ولكن منع أهل الحق منها، وإدخال الشرك فيها، والأصنام فيها، فهذا فعل في خرابها في المعنى؛ لأن صد أهل الحق وتمكين أهل الباطل خراب للمساجد وإن لم تهدم؛ كما الآن في المساجد التي في البلاد التي استحلها الكفار وجعلوا فيها الكنائس؛ كما في الأندلس وغير الأندلس، خربوها وإن لم يهدموها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾: هذا خبرٌ معناه الطّلب؛ أي: لا تمكّنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلّا تحت الهدنة والجزية، ولهذا، لمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منًى: «**أَلَّا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ**»[(١)]، وهذا إنما كان تصديقًا وعملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلّا خائفين، على حال التّهيّب وارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلًا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان إلا الحقّ والواجب إلّا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل إنّ هذا بشارةٌ من الله للمسلمين، أنّه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنّه يذلّ المشركين لهم، حتّى لا يدخل المسجد الحرام أحدٌ منهم، إلّا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد؛ كما تقدّم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنّصارى منها، ولله الحمد والمنّة.

وما ذاك إلّا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى النّاس كافّةً، بشيرًا ونذيرًا، صلوات الله وسلامه

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث زيد بن أثيع في كتاب الحج عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية الطواف عريانًا برقم (٨٧١).

عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدّنيا؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل، فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدّوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أُجلوا عنها، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه؛ من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطّواف به عريًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وأمّا من فسّر ببيت المقدس، فقال كعب الأحبار: إنّ النّصارى لمّا ظهروا على بيت المقدس خرّبوه، فلمّا بعث الله محمّدًا ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ الآية، فليس في الأرض نصرانيٌّ يدخل بيت المقدس إلّا خائفًا.

وقال السّدّيّ: فليس في الأرض روميٌّ يدخله اليوم إلّا وهو خائفٌ أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤدّيها.

وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلّا مسارقةً.

(قلت): وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية، فإنّ النّصارى لمّا ظلموا بيت المقدس بامتهان الصّخرة، التي كانت تصلي إليها اليهود، عوقبوا شرعًا وقدرًا بالذّلّة فيه، إلّا في أحيانٍ من الدّهر امتحن بهم بيت المقدس، وكذلك اليهود لمّا عصوا الله فيه أيضًا، أعظم من عصيان النّصارى، كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم.

وفسّر هؤلاء الخزي في الدّنيا بخروج المهديّ عند السّدّيّ وعكرمة ووائل بن داود، وفسّره قتادة بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، والصّحيح أنّ الخزي في الدّنيا أعمّ من ذلك كلّه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تقدم أن الاعتبار بالنصوص بعمومها لا بخصوص أسبابها؛ سواء

كانت نزلت في شأن اليهود أو النصارى لما غيروا الكتاب في بيت المقدس، ولما تظاهروا الكفرة وظاهروا أعداء الله وأيدوا بختنصر المجوسي، أو غير ذلك مما قد يقع من الكفرة في بيت المقدس، وهكذا ما فعلته قريش في المسجد الحرام حين صدوا النبي ﷺ يوم الحديبية ولم يمكنوه وأصحابه من أداء العمرة، وهكذا ما يقع من الكفرة في كل مكان وزمان من الظلم للمسلمين وصدهم عن مساجدهم كله داخل في الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعم هؤلاء وهؤلاء، ومن فعل مثلهم في أي زمان وفي أي مكان، وهو استفهام معناه النفي؛ معناه: لا أحد أظلم من هذا الجنس من الناس الذين يمنعون الحق ويصدون عن الحق باتباع أهوائهم.

وفيه حث للمسلمين على العمارة لمساجد الله وارتيادها والحرص عليها، وألا يتشبهوا بأعداء الله في تعطيلها والإعراض عنها؛ فإن تعطيلها وعدم إقامة الصلاة فيها وعدم إقامة حلقات العلم ونحو ذلك نوع من خرابها، فلا ينبغي لأهل الإسلام أن يتأسوا بأولئك ولا يتشبهوا بأولئك بل ينبغي أن يكون لهم عناية في المساجد والحرص على إقامة الصلوات فيها والمحافظة عليها وإقامة حلقات العلم فيها؛ تأسيًا بالمصطفى عليه الصلاة والسلام وبأصحابه رضي الله عنهم وبسلف الأمة في كل مكان. ولهذا يقول جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾، ولم يعين أحدًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة؛ كما قال الإمام أحمد: أخبرنا الهيثم بن خارجة، أخبرنا محمّد بن أيّوب بن ميسرة بن حلبسٍ، سمعت أبي يحدّث عن بسر بن أرطاة؛ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ**»(١)، وهذا حديث حسن، وليس هو في شيءٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٨١).

من الكتب السّتّة، وليس لصحابيّه وهو بسر بن أرطاة ـ ويقال: ابن أبي أرطاة ـ حديثٌ سواه، وسوى حديث: «**لا تقطع الأيدي في الغزو**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا هو الصواب، كذلك الخزي هو عام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾: ما كان ينبغي للكفرة أن يدخلوا المساجد إلا خائفين من أن يضربوا أو يسجنوا أو يعذبوا إذا فعلوا شيئًا لا ينبغي في المساجد، وإن كان يسمح لهم بدخول المسجد إن كان لمصلحة كاستماع العلم أو الدخول في الإسلام أو السؤال عن مهمة أو ما أشبه ذلك.

أما قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ هذا وعيد يعم أن يقتلوا في الدنيا، قد يكون من خزيهم، أن يستولى عليهم وتفرض عليهم الجزية، قد يكون من خزيهم، أن يؤدبوا ويعذبوا بالضرب إذا فعلوا ما لا ينبغي وإن كانوا على ذمة، فالخزي يتنوع، أما في الآخرة فعذاب النار نسأل الله العافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ **[البقرة: ١١٥]**.

• **سؤال: هل قول الله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ **الآية؟ من آيات الصفات أم.. لا جزاكم الله خيرًا**(١).

○ **الجواب**: بسم الله، والحمد لله، **وبعد**:

---

(١) مجموع تفسير آيات من القرآن، جمع: يزيد الدرعان (ص٢٩).

نعم؛ هذه الآية من آيات الصفات؛ فهي تثبت أن الله له وجه كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والواجب إثبات الوجه لله على الوجه اللائق لله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وهي من آيات القبلة من جهة أن المؤمن يستقبل أي جهة إذا خفي عليه الأمر، فيجتهد ويصلي لأي جهة ظن أنها قبلة، ويجزيه ذلك، ففي الأسفار قد تشتبه الأمور، فإذا اجتهد وظن أن القبلة في جهة معينة حسب اجتهاده وصلى فلا حرج عليه والحمد لله ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، الله ﷻ أمام المصلي؛ فإن الله يقبل وجهه أينما كان، وهو فوق عرشه، وفوق جميع خلقه ﷻ؛ لأن صفات الله لا تشابه صفات المخلوقين، وهو سبحانه فوق العرش، وفوق جميع الخلق، وأينما توجه العباد فهم إليه ﷻ.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥][(١)]

وهذا، والله أعلم، فيه تسليةٌ للرّسول ﷺ وأصحابه، الّذين أخرجوا من مكّة، وفارقوا مسجدهم ومصلّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلّي بمكّة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلمّا قدم المدينة، وُجّه إلى بيت المقدس ستّة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثمّ صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

قال أبو عبيدٍ القاسم بن سلّامٍ في كتاب «النّاسخ والمنسوخ»: أخبرنا حجّاج بن محمّدٍ، أخبرنا ابن جريجٍ وعثمان بن عطاءٍ، عن عطاءٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: أوّل ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا، والله

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

أعلم، شأن القبلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلّى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثمّ صرفه إلى بيته العتيق ونسخها، فقال:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ، قال: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السّماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٤]، إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٤] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وقال عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ قال: قِبلة الله، أينما توجّهت شرقًا أو غربًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا فيه تسلية للمؤمنين وتعزية للمؤمنين، حيث وقع في نفوسهم شيء من استقبال قبلة اليهود، وردًّا على اليهود في نسخ القبلة إلى الكعبة؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا هو المقصود، المقصود استقبال الجهة التي يأمر بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس المقصود أي جهة معينة؛ بل المقصود طاعة أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وامتثال شرعه؛ فأينما وجَّه عباده توجَّهوا. ولهذا، المؤمن في الصحراء وفي أماكن الاشتباه يجتهد ويتحرى ويصلي، وتكون صلاته صحيحة إلى أي جهة كانت؛ فإذا علم القبلة استقبلها وكانت القبلة في أول الهجرة

إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم نسخ الله ذلك وولاهم إلى جهة بيته العتيق، فعظم هذا على اليهود، وأبطل الله به شبههم، وقالوا: إن هؤلاء لهم تارة كذا؛ ولهم تارة كذا يعيبون المسلمين باستقبالهم بيت المقدس تارة ثم الكعبة. وبين ﷻ أن الأمر إليه ﷻ، فهو الذي يأمر وينهى ﷻ، فأينما يولي المسلمون وجههم فثم وجه الله؛ فالوجه هنا صيغة عظيمة ويفسر بالجهة، ولا مانع من القولين، فكلاهما حق، فأينما يولي المسلم وجهه فقد ولاه إلى الجهة التي شرعها الله له أن يوليها، وفيه إثبات صفة الوجه لله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وفي الأحاديث الصحيحة يقول ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ**»[(١)].

فدل ذلك على تفسير الوجه بالوجه المعروف صحيح، وتفسيره بالجهة؛ يعني: ثَمَّ الجهة التي شرعها الله، وثَم الجانب الذي شرعه الله، هذا صحيح أيضًا، فالمصلي يصلي إلى وجه الله، ويصلي إلى الجهة التي شرعها الله أينما كان. ولهذا، أهل الشرق يصلون إلى الغرب، وأهل الغرب يصلون إلى الشرق، وأهل الشمال يصلون إلى الجنوب، وأهل الجنوب يصلون إلى الشمال بالنسبة إلى الكعبة، والمسافر في الصحراء يجتهد ويتحرى جهة القبلة فيصلي؛ فإذا أصاب فالحمد لله، وإذا أخطأ فصلاته صحيحة؛ لأنه قد صلَّى إلى وجه الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. لأنه في الحقيقة إنما يصلي امتثالًا لأمر الله، فأينما وجَّهه الله توجَّه.

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد برقم (٤٠٦)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها برقم (٥٤٧).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال مجاهدٌ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلةٌ تستقبلونها الكعبة.

وقال ابن أبي حاتم بعد رواية الأثر المتقدّم عن ابن عبّاسٍ في نسخ القبلة عن عطاءٍ عنه: وروي عن أبي العالية والحسن وعطاءٍ الخراسانيّ وعكرمة وقتادة والسّدّيّ وزيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال ابن جريرٍ: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التّوجّه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيّه ﷺ وأصحابه، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنّهم لا يوجّهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحيةً، إلّا كان جلّ ثناؤه في ذلك الوجه وتلك النّاحية؛ لأنّ له تعالى المشارق والمغارب، وأنّه لا يخلو منه مكانٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المُجادلة: ٧]، قالوا: ثمّ نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التّوجّه إلى المسجد الحرام، هكذا قال.

وفي قوله وإنّه تعالى لا يخلو منه مكانٌ؛ إن أراد علمه تعالى فصحيحٌ، فإنّ علمه تعالى محيطٌ بجميع المعلومات، وأمّا ذاته تعالى فلا تكون محصورةً في شيءٍ من خلقه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهي عبارة قبيحة، عبارة خبيثة، ولكن ابن جرير من أهل السُّنَّة والجماعة، فيحمل كلامه على أن المراد، يعني: لا يخلو منه مكان؛ يعني: علمه واستقبال وجهه وإن كان فوق العرش سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه العبارة تقع للجهمية وتقع للمعتزلة وتقع لأتباعهم الذين يقولون بالحلول، وأنه في كل مكان، وهذا من أبطل الباطل ومن أضل الضلال، ومن الكفر، نعوذ بالله؛ فهو فوق العرش جَلَّ وَعَلَا، فوق جميع خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلمه في كل مكان؛ فأينما يولي المصلي فقد تولى إلى

جهة الله التي شرع، وإلى وجهه ﷻ الذي بيَّنه الرسول ﷺ؛ فالعباد أينما تولوا فقد استقبلوا وجهه ﷻ، فإنه ليس مثل خلقه، ولا يقاس على خلقه ﷻ، وصفاته تليق به، ولا يشبه خلقه في كل شيء ﷻ؛ فهو فوق العرش، فوق جميع الخلق والعباد، إذا تولوا إلى الصلاة وتوجهوا إلى الصلاة فقد تولوا إلى وجهه واستقبلوا وجهه ﷻ أينما كانوا، فهو ﷻ ليس مثل خلقه ولا يحيط به مكان من خلقه؛ بل هو فوق العرش، فوق جميع الخلق، خارج عنهم. ولهذا، يقول السلف: نعرف ربنا بأنه فوق سماواته، على عرشه، بائن من خلقه؛ فإنه منفصل من خلقه، وهو فوقهم وفوق جميع خلقه ﷻ.

فالحاصل: أن الآية الكريمة مدنية، والبقرة كلها مدنية، والظاهر من السياق أنها نزلت في قصة استقبالهم بيت المقدس، فإنه عظم عليهم، ويرغبون أن يصلوا إلى الكعبة؛ فبين الله لهم أنه لا فرق في ذلك، أنتم ممتثلون أمر الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ فأنتم لا شيء عليكم ولا حرج في امتثال أمره واستقبال الوجه الذي يأمركم به؛ لأنكم عبيد مأمورون، فإذا وجَّهكم إلى بيت المقدس فعليكم التوجه إلى بيت المقدس، وإذا وجَّهكم إلى الكعبة فعليكم ذلك؛ فهو تسلية للمؤمن، ورد على اليهود أشباههم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن جريرٍ: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذنًا من الله أن يصلي المتطوع، حيث توجّه من شرقٍ أو غربٍ، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف.

حدثنا أبو كريب، أخبرنا ابن إدريس، حدّثنا عبد الملك هو ابن أبي سليمان، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عمر، أنّه كان يصلّي حيث توجّهت به راحلته، ويذكر أنّ رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأوّل هذه

الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. ورواه مسلمٌ[١] والتّرمذيّ والنّسائيّ وابن أبي حاتمٍ وابن مردويه، من طرقٍ عن عبد الملك بن أبي سليمان به، وأصله في الصّحيحين؛ من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والآية عامة تعم ذلك أيضًا، تعم ما ينسخ من القبلة، وتعم ما يقع للمجتهد في استقبال القبلة، وتعم المسافر، فإنه في النافلة يصلي إلى حيث كان وجهه؛ كما فعله النبي ﷺ، والآية عامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي «صحيح البخاريّ» من حديث نافع، عن ابن عمر، وأنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلّوا رجالًا قيامًا على أقدامهم وركبانًا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.

قال نافعٌ: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلّا عن النّبيّ ﷺ[٢].

[مسألةٌ]: ولم يفرّق الشّافعيّ في المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التّطوّع فيه على الرّاحلة، وهو قول أبي حنيفة خلافًا لمالكٍ وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيدٍ الإصطخريّ التّطوّع على الدّابّة في المصر، وحكاه أبو

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب من تطوع في السفر في غير دُبُر الصلوات وقبلها برقم (١١٠٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت برقم (٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب التفسير، باب برقم (٤٥٣٥).

يوسف عن أنس بن مالكٍ ﷺ، واختاره أبو جعفرٍ الطّبريّ، حتّى للماشي أيضًا.

قال ابن جريرٍ: وقال آخرون: بل نزلت الآية في قوم عُمِّيت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلّوا على أنحاء مختلفةٍ، فقال الله تعالى: لي المشارق والمغارب، فأنَّى ولَّيتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلتكم، فيعلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمشهور عن بعض العلماء، والذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة أنه يصلى على الدابة في السفر خاصة، أما في الحضر فبإمكان الإنسان النزول والصلاة في بيته أو في المساجد، أما في السفر فهو في حاجة إلى الصلاة عليها؛ لأنه سائر في طريقه؛ إن نزل قد يتأخر عن مهمته، فوسَّع الله ﷻ لعباده ويسَّر وشرع لهم الصلاة على الدابة. كان عليه الصلاة والسلام يصلي على دابته، ويوتر عليه في سفره عليه الصلاة والسلام، وهذا كله في النوافل، أما في الفرائض فلا؛ ينزل ويصلي على الأرض ويستقبل الكعبة ويركع ويسجد في جميع الصلوات الخمس، أما النافلة؛ صلى في الليل، صلى في النهار، لا بأس أن يصلي على الدابة ويومئ بالركوع والسجود توسعة من الله على عباده في أنواع التنفل وأنواع التقرب إليه ﷻ، ويستحب في النافلة أن يستقبل القبلة عند الإحرام؛ كما في حديث أنس أن النبي ﷺ كان يستقبلها عند الإحرام، ثم يصلي حيث كان وجه راحلته، هذا ثبت من حديث ابن عمر ومن حديث عامر بن ربيعة ومن حديث أنس وآخرين، كلها دالة أنه كان يتطوع عليه الصلاة والسلام في السفر على الدابة، لكن لو اضطر في الفريضة أثناء السفر كأن يكون خائفًا يخشى من الطلب الذي وراءه، أو يخشى من فوات العدو، كذلك إذا كان في حال المرض مربط على الدابة لا يستطاع إنزاله، لو أنزلهم لربما أدركهم العدو، أو كان في حال مطر والأرض من

تحته والماء من فوقه لا يستطيع النزول كذلك، الركوب في حال الضرورة لا بأس في الفريضة، أما في حال الرخاء والعافية، فلا بد ينزل إلى الأرض ويصلي عليها ويستقبل القبلة، وإذا صلى على الدابة في الفرض للضرورة وقف في الدابة أو وجَّهها إلى القبلة، لا يصلي إلى غير القبلة.

والسفر في القطارات والطائرات التي لا يمكن إيقافها على حسب الإنسان، وقد تحضر صلاة الفريضة، فإنه يصلي عليها صلاة الفريضة؛ فإن أمكن أن يصلي قائمًا أو راكعًا أو ساجدًا بحذوها صلى راكعًا وساجدًا كالذي على الأرض، مستقبلًا القبلة؛ فإن لم يستطع لوجود أمواج في البحر أو تحرك الطائرة وعدم تيسر الصلاة في الأرض أو في الطائرة أو في السفينة، فإنه يصلي إلى جهة سيره، فإنه يصلي وهي ماشية بالإيماء، لكن إلى جهة القبلة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، أخبرنا أبو أحمد الزبيري، أخبرنا أبو الرّبيع السّمّان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ، في ليلةٍ سوداء مظلمةٍ، فنزلنا منزلًا، فجعل الرّجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدًا يصلّي فيه، فلمّا أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله، لقد صلّينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية.

ثمّ رواه عن سفيان بن وكيعٍ، عن أبيه، عن أبي الرّبيع السّمّان، بنحوه.

ورواه التّرمذيّ عن محمود بن غيلان، عن وكيعٍ وابن ماجه، عن يحيى بن حكيمٍ، عن أبي داود، عن أبي الرّبيع السّمّان.

ورواه ابن أبي حاتمٍ عن الحسن بن محمّد بن الصّبّاح، عن

سعيد بن سليمان، عن أبي الرّبيع السّمّان، واسمه: أشعث بن سعيدٍ البصريّ، وهو ضعيف الحديث.

وقال التّرمذيّ: هذا حديث حسن، وليس إسناده بذاك، ولا نعرفه إلّا من حديث الأشعث السّمّان، وأشعث يضعّف في الحديث.

قلت: وشيخه عاصمٌ أيضًا ضعيفٌ.

قال البخاريّ: منكر الحديث. وقال ابن معينٍ: ضعيفٌ لا يحتجّ به. وقال ابن حبّان: متروكٌ، والله أعلم.

وقد روي من طريق آخر، عن جابر. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: أخبرنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا الحسن بن عليّ بن شبيبٍ، حدّثني أحمد بن عبد الله بن الحسن، قال: وجدت في كتاب أبي: أخبرنا عبد الملك العرزمي، عن عطاءٍ، عن جابرٍ، قال: بعث رسول الله ﷺ سريّةً كنت فيها فأصابتنا ظلمةٌ، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفةٌ منّا: قد عرفنا القبلة هي هاهنا قبل الشمال، فصلّوا وخطّوا خطوطًا، فلمّا أصبحوا وطلعت الشّمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلمّا قفلنا من سفرنا سألنا النّبيّ ﷺ، فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾. ثمّ رواه من حديث محمّد بن عبيد الله العرزمي، عن عطاءٍ، عن جابرٍ، به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعمدة في هذا الأحاديث الصحيحة غير هذا الحديث، وقوله جل وعلا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فمن اشتبهت عليه القبلة في الأسفار، اجتهد وتحرى في صلاة الفريضة وصلى إلى الجهة التي يعتقدها قبلة؛ فإن أصاب فالحمد لله، وإن أخطأ صحت صلاته وعفي عنه؛ لأنه بذل وسعه وأدى ما عليه، وأما في النافلة فمثلما تقدم، يصليها على حسب حاله على راحلته حيث كان وجهه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الدّارقطنيّ: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع: حدثكم داود بن عمرو، أخبرنا محمّد بن يزيد الواسطيّ، عن محمّد بن سالم، عن عطاءٍ، عن جابرٍ، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في مسيرٍ، فأصابنا غيمٌ، فتحيّرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منّا على حدةٍ، وجعل أحدنا يخطّ بين يديه لنعلم أمكنتنا، فذكرنا ذلك للنّبيّ ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: «**قَدْ أَجْزَأَتْ صَلَاتُكُمْ**».

ثمّ قال الدّارقطنيّ: كذا قال: عن محمّد بن سالمٍ، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: ابن سالم والعرزمي، كلاهما ضعيفان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ورواه ابن مردويه أيضًا من حديث الكلبيّ، عن أبي صالحٍ، عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول الله ﷺ بعث سريّةً، فأخذتهم ضبابةٌ، فلم يهتدوا إلى القبلة فصلّوا لغير القبلة، ثم استبان لهم بعد أن طلعت الشّمس أنّهم صلّوا لغير القبلة، فلمّا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾، وهذه الأسانيد فيها ضعفٌ، ولعلّه يشدّ بعضها بعضًا، وأمّا إعادة الصّلاة لمن تبيّن له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو الصواب؛ لأنهم اتقوا الله وأدوا ما عليهم، ومن اتقى الله ما استطاع فلا شيء عليه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن جريرٍ: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب

النّجاشيّ كما حدّثنا محمد بن بشار، أخبرنا معاذ بن هشام، حدّثني أبي، عن قتادة، أنّ النّبيّ ﷺ قال: إن أخًا لكم قد مات، فصلّوا عليه، قالوا: نصلّي على رجلٍ ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]؛ قال قتادة: فقالوا: إنه كان لا يصلّي إلى القبلة، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وهذا غريبٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا أيضًا مرسل، قتادة أرسله؛ فالأحاديث الصحيحة دالة على أنه رضي الله عنه ورحمه أسلم، ومعلوم إذا أسلم صلَّى إلى قبلة المسلمين، ولهذا، لما توفي أمر النبي ﷺ أن يصلي الناس عليه، خرج الناس وصلَّى بهم في الصحراء عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

(فائدة):

وقد قيل: إنّه كان يصلّي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه النّاسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبيّ عن قتادة.

وذكر القرطبيّ أنّه لمّا مات صلّى عليه رسول الله ﷺ، فأخذ بذلك من ذهب إلى الصّلاة على الغائب، قال: وهذا خاصٌّ عند أصحابنا من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه عليه السلام شاهده حين صلّى عليه طويت له الأرض.

الثّاني: أنّه لمّا لم يكن عنده من يصلّي عليه صلّى عليه، واختاره ابن العربيّ.

قال القرطبيّ: ويبعد أن يكون ملكٌ مسلمٌ ليس عنده أحدٌ من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربيّ عن هذا: لعلّهم لم يكن عندهم شرعيّة الصلاة على الميت. وهذا جوابٌ جيّدٌ.

الثّالث: أنّه عليه الصّلاة والسّلام إنّما صلّى عليه ليكون ذلك كالتّأليف لبقيّة الملوك، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كل هذه الأوجه ضعيفة، والصواب: أنه دليل على الصلاة على الغائب مطلقًا إذا كان ذا شأن، من له قدم في الإسلام ونفع للمسلمين كالنجاشي فإنه يصلى عليه، أما عامة الناس فلا؛ لأنه ﷺ صلى على النجاشي وما صلى على كل من مات غائبًا، فدل ذلك على أنه إنما صلى عليه لقدمه في الإسلام ونفعه المسلمين وحمايته للمهاجرين، وإحسانه للمهاجرين إلى بلده، أما قولهم: أنه كان ليس عنده أحد، أو ما صلي عليه، كل هذا ليس بشيء؛ فإن ملكًا مسلمًا لا يكون عنده أحد من جماعته، الناس على دين ملوكهم، لا بد أن يكون جماعة من أهل بيته قد أسلموا.

فالحاصل: أن هذا دليل على أن الغائب الذي له شأن وله قدم في الإسلام وله علو فيه يصلى عليه صلاة الغائب؛ إظهارًا لفضله وحثًّا لغيره على العمل بمثل عمله، وزيادة لمثوبة الله له تقريرًا لجهوده وأعماله الكبيرة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية، من حديث أبي معشرٍ، عن محمّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ**»، وله مناسبةٌ هاهنا.

وقد أخرجه التّرمذيّ وابن ماجه من حديث أبي معشرٍ، واسمه: نجيح بن عبد الرحمٰن السندي المدنيّ به: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**».

وقال التّرمذيّ: وقد روي من غير وجهٍ عن أبي هريرة، وتكلّم

بعض أهل العلم في أبي معشرٍ من قبل حفظه، ثمّ قال الترمذي: حدثني الحسن بن بكر المروزي، أخبرنا المعلى بن منصور، أخبرنا عبد الله بن جعفر المخرمي، عن عثمان بن محمد بن الأخنس، عن أبي سعيدٍ المقبريّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**»، ثمّ قال الترمذي: هذا صحيحٌ.

وحكى عن البخاريّ أنّه قال: هذا أقوى من حديث أبي معشرٍ وأصحّ، قال التّرمذيّ: وقد روي عن غير واحدٍ من الصّحابة: ما بين المشرق والمغرب قبلةٌ؛ منهم: عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس، رضي الله عنهم أجمعين.

وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلةٌ، إذا استقبلت القبلة.

ثمّ قال ابن مردويه: حدّثنا عليّ بن أحمد بن عبد الرّحمٰن، أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بني هاشم، أخبرنا شعيب بن أيوب، أخبرنا ابن نميرٍ عن عبيد الله بن عمر، عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**»، وقد رواه الدّارقطنيّ والبيهقيّ، وقال: المشهور عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنهما قوله.

قال ابن جريرٍ: ويحتمل: فأينما تولّوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم؛ كما حدثنا القاسم، أخبرنا الحسين حدّثني حجّاجٌ، قال: قال ابن جريجٍ: قال مجاهدٌ: لمّا نزلت: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾؛ قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأمّا قوله ﴿عَلِيمٞ﴾ فإنّه يعني: عليمٌ بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيءٌ ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا بالنسبة لأهل المدينة ونحوهم من أهل الشمال، وهكذا أهل الجنوب ما بين المشرق والمغرب قبلة، أما أهل الشرق والغرب فيقال فيهم: ما بين الجنوب والشمال قبلة، والميل اليسير لا يضر؛ يعني: الميل هاهنا وهاهنا لا يضر، ما دام إلى جهة القبلة.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦](١).

حدّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيبٌ، عن عبد الله بن أبي حسينٍ، حدّثنا نافع بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النّبيّ ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً، أَوْ وَلَدًا**»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يبيّن لنا أنّ الشّتم أوسع من اللّعن، وأنّ كلّ نقصٍ وعيبٍ شتمٌ؛ فالسّبّ والعيب والنّقص والطّعن كلّه يسمّى شتمًا، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ يعني: المذمومة، وذمّها الله وذكر أنّها طعام الأثيم.

فقول العبد: إنّ الله اتّخذ ولدًا شتمٌ لله، وإن كان بغير لفظ اللّعن

---

(١) من شرح سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ لكتاب التفسير من صحيح البخاري.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب التفسير، باب ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ برقم (٤٤٨٢).

والسّبّ، لكن معناه التّنقّص لله، إذا نسب إليه الولد أو الصّاحبة فقد تنقّصه وطعن فيه؛ فيكون سبًّا وشتمًا من هذه الحيثية، وتنقّصٌ لله الّذي يتنزّه ويتعالى ويتقدّس عن الصّاحبة والولد ﷻ.

وأمّا التكذيب ظاهر إنكار البعث والنشور تكذيب.

ولهذا قال العلماء: من تنقّص النّبيّ ﷺ بشيءٍ فقد سبّه وحلّ دمه وماله، وهكذا من تنقّص القرآن، من تنقّص الله، من تنقّص الشّريعة فهو سبٌّ يستحق به أن يكون مرتدًّا يقتل.

*

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧](١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرّدّ على النّصارى عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممّن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إنّ لله ولدًا، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾؛ أي: تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ، وهو المتصرّف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخّرهم ومسيّرهم ومصرّفهم كما يشاء، والجميع عبيدٌ له وملكٌ له، فكيف يكون له ولدٌ منهم، والولد إنّما يكون متولّدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظيرٌ ولا

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مشاركٌ في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له فكيف يكون له ولدٌ؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

فقرّر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنّه السّيّد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأنّ جميع الأشياء غيره مخلوقةٌ له مربوبةٌ، فكيف يكون له منها ولدٌ؟

ولهذا، قال البخاريّ في تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيبٌ عن عبد الله بن أبي الحسين، حدّثنا نافع بن جبيرٍ، هو ابن مطعم، عن ابن عبّاسٍ، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِك، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِك، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فزعم أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا**»(١)، انفرد به البخاريّ من هذا الوجه.

وقال ابن مردويه: حدّثنا أحمد بن كاملٍ، أخبرنا محمد بن إسماعيل الترمذي، أخبرنا محمد بن إسحاق بن محمد الفروي، أخبرنا مالكٌ، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ويقول الله تعالى: كذبني ابن آدم وما ينبغي له أن**

---

(١) سبق تخريجه في (ص٢٢٧).

يكذبني، وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

وفي الصّحيحين: عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ﷻ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[١].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

المقصود من هذا كله: بيان تنزيهه سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد؛ فالمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله؛ فالله ﷻ في كتابه العظيم نزَّه نفسه عن اتخاذ الولد؛ فإنه سبحانه الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فالولد إنما يكون بين شيئين متناسبين، وهو يدل على ضعف ونقص في المولود له، والله منزه عن النقص والعيب سبحانه وتعالى؛ فلا شريك له ولا شبيه له ولا كفو له ولا ند له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فلهذا، نزه نفسه عن ذلك في آيات كثيرات، وبين لعباده بطلان ما تقوله اليهود والنصارى والمشركون، وأنهم افتروا على الله الكذب، ولهذا، في هذا الحديث الصحيح يقول ﷻ: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: إني لن أعيده كما بدأته**»؛ هذا من أكذب الكذب وأبطل الباطل؛ فهو الذي خلقه وهو الذي يعيده سبحانه وتعالى، وهو الذي يبدأ

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب الصبر على الأذى برقم (٦٠٩٩)، ومسلم في كتاب الجنة والنار، باب «**لا أحد أصبر على أذى من الله** ﷻ» برقم (٢٨٠٤).

الخلق ثم يعيده، فالمقصود أن هذا من أبطل الباطل؛ ومن أكذب الكذب، وأما شتمه له فقوله: إنه اتخذ ولدًا؛ يعني: هذا نوع من السب والتنقص ولهذا سمي شتمًا، والقاعدة عند العرب: أن كل ذم يسمَّى شتمًا يسمَّى سبًّا. وقولهم: إن لله ولدًا، أو قول اليهود: أنه استراح في اليوم السابع، أو ما أشبه ذلك من هذه الأشياء، كله سب، والله منزه عنها سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، خلق كل شيء وبيده كل شيء، كل ما سواه مخلوق له، مربوب، عائد إليه جل وعلا، ومنته إليه سبحانه وتعالى، كلهم له قانتون.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: ما عندك؟ الفروي محمد بن إسحاق؟

الطالب: فيه إسحاق.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: هات إسحاق.

الطالب: إسحاق بن محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي فروة الفروي المدني الأموي مولاهم، صدوق، كُفَّ فساء حفظه، من العاشرة، مات سنة ست وعشرين البخاري وابن ماجه والترمذي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: هو هذا! محمد بن إسحاق، عكس.

حدثنا إسحاق بن محمد.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾؛ قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أسباطٌ، عن مطرّفٍ، عن عطيّة، عن ابن عبّاسٍ، قال: قانتين: مصلّين، وقال عكرمة وأبو مالكٍ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾: مقرّون له بالعبوديّة، وقال سعيد بن جبيرٍ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾؛ يقول: الإخلاص.

وقال الرّبيع بن أنسٍ: يقول: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: قائمٌ يوم القيامة، وقال السّدّيّ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: مطيعون يوم القيامة.

وقال خصيفٌ، عن مجاهدٍ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾؛ قال: مطيعون، كن إنسانًا فكان، وقال: كن حمارًا فكان.

وقال ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾: مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظلّه وهو كارهٌ، وهذا القول عن مجاهدٍ، وهو اختيار ابن جريرٍ، يجمع الأقوال كلّها، وهو أنّ القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله، وهو شرعي وقدري؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرّعد: ١٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المعنى في هذا كله: يعني: ذليلون منقادون تحت تصرفه جَلَّ وَعَلَا، وإن عصوه من جهة الأوامر، لكن كلهم تحت تصرفه من جهة الربوبية، فكلهم خاضع لأوامره من جهة الربوبية، هذا يموت وهذا يمرض وهذا يقتل، وهذا كذا، وهذا كذا، كلهم تحت قهره وسلطانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بخلاف طاعة الأوامر الشرعية، فهذه منقسمون فيها، لكن من جهة الربوبية وأنه ربهم وخالقهم والمتصرف فيهم وأنهم أذلاء منقادون لأمره العظيم وأمره الكوني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا يعمهم كلهم، فجميع الخلائق كلها مقهورة له ذليلة له، ليس لها قدرة على التخلص من تصرفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ورد حديثٌ فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به؛ كما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، حدّثنا ابن وهبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، أنّ درّاجًا أبا السّمح حدّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريّ، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**كُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ**»، وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، بإسناده مثله، ولكن في هذا الإسناد

ضعف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكرٌ، وقد يكون من كلام الصّحابيّ أو من دونه، والله أعلم..

وكثيرًا ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة، فلا يغترّ بها، فإنّ السّند ضعيفٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأن درَّاجًا أبا السمح عن أبي الهيثم مضعَّف، هذا السند بهذا اللفظ مضعَّف عند أهل العلم، وزاد في رواية أحمد: ضعف ابن ليهعة.

● **س: أبو الهيثم ما حاله؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: الظاهر أنه صدوق لا بأس به، العلة درَّاج عنه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما على غير مثالٍ سبق.

قال مجاهدٌ والسّدّيّ: وهو مقتضى اللّغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة؛ كما جاء في صحيح مسلم: «**فإن كل محدثة بدعة**»(١)، والبدعة على قسمين: تارةً تكون بدعةً شرعيّةً؛ كقوله: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وتارةً تكون بدعةً لغويّةً؛ كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إيّاهم على صلاة التّراويح واستمرارهم: (نعمت البدعة هذه)(٢).

وقال ابن جرير: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبدعهما، وإنّما هو «مفعلٌ»، فصرف إلى فعيلٍ، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة برقم (٨٦٧)، وأخرجه أبو داود من حديث العرباض بن سارية في كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة برقم (٤٦٠٧) باللفظ المذكور.

(٢) أخرجه مالك في المؤطأ (١/ ٣٢٥).

السّميع. ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث، ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحدٌ؛ قال: ولذلك سمّي المبتدع في الدّين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث قولًا أو فعلًا لم يتقدم فيه متقدّمٌ، فإنّ العرب تسمّيه مبتدعًا، ومن ذلك قول أعشى بني ثعلبة في مدح هوذة بن عليٍّ الحنفيّ:

يدعا إلى قول سادات الرّجال إذا أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أي: يحدث ما شاء.

قال ابن جريرٍ: فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانيّة، وتقرّ له بالطّاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها، من غير أصلٍ ولا مثالٍ احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده، أن مما يشهد له بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بنوّته، وإخبارٌ منه لهم، أنّ الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصلٍ، وعلى غير مثالٍ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والدٍ بقدرته، وهذا من ابن جريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ جيّدٌ وعبارةٌ صحيحةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾: يبيّن بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنّه إذا قدّر أمرًا وأراد كونه، فإنّما يقول له: كن، أي: مرّةً واحدةً، فيكون؛ أي: فيوجد، على وفق ما أراد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال الشاعر:

إذا ما أراد اللّه أمرًا فإنّما يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضًا، على أنّ خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل ما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليل ظاهر وحجة قاهرة في الرد على النصارى قاتلهم الله ولعنهم، فيما زعموه فيما يتعلق بعيسى وبأنه ولد الله، وهكذا رد على اليهود في قولهم عزير ابن الله، وهكذا رد على المشركين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، كل هذا من أبطل الباطل؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزه عن هذا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

والمقصود أنه جَلَّ وَعَلَا يخلق الأشياء بقدرته العظيمة، وعيسى من جملة ذلك قال له كن فكان، من أنثى بلا ذكر، وهو على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فخلقه من مريم الصديقة بالنفخة التي أمر الله بها جبرائيل وانتهى الأمر.

وهكذا آدم قال الله: كن، فكان، بلا أب ولا أم؛ بل من التراب والطين سبحانه، وهكذا حواء قال لها: كوني، فكانت من نفس آدم، وآدم من ذكر، كل ذلك من دلائل قدرته العظيمة، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يغلبه شيء ولا يمنعه شيء وهو القادر على كل شيء، فإذا قال للشيء: كن، كان (سبحانه) وما ذاك إلا لكمال قدرته وكمال علمه وكمال حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوجب على جميع المكلفين أن يؤمنوا بذلك وأن يعتقدوا ببطلان ما قالته النصارى في عيسى، وما قالته اليهود في عزير، وما قاله غيرهم في نسب الولد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو بمعنى (....) الإيمان بأنه الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه المستحق لأن يعبد ويطاع أمره وينتهى عن نهيه، وبذلك يستحق المكلف ثوابه وجزيل عطائه والفوز بكرامته.

• س: كيف قول عمر: نعمت البدعة هذه؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

بمعنى: أنها لم تكن على مثال سابق مستمر، وإن كان فعله النبي ﷺ عدة ليال، لكنه لم يستمر عليها، وعمر استمر، هذا أحسن ما قيل فيها، لا يقصد البدعة الشرعية؛ لأنها ليست بدعة؛ بل فعلها ﷺ وحث عليها ورغب فيها، وجاء أنها بدعة من حيث اللغة فقط وهكذا يقال للشيء الجديد بديع حتى الآن عند العرب، وعند الحضر القرية البديعة غير القرية القديمة، البديعة التي تظهر إنشاؤها، والقديمة العادية هي التي سبق إنشاؤها وجددت؛ فالشيء المبتدع مخترع جديد ليس له مثال سابق في أمور الدنيا، والدين. فالبدعة اللغوية من جنس أمور الدنيا وما ابتدعوا فيها من طائرات ومن مركبات فضائية ومن قاطرات وغير هذا مما أحدثه الناس، فهي بدعة دنيوية، بدعة من جنس ما يبتدعه الناس في صناعتهم وأعمالهم الدنيوية. وهذه لا تضر ولو سميت بدعة لا تضر، إنما البدعة بدعة الدين، وهي: إحداث شيء يتعبد به الناس ويتقربون به إلى الله ﷻ ليس لهم أصل في الشرع، هذا هو المنكر (. . . .) والذي أجمع عليه أهل السُّنَّة والجماعة على نهي النبي عنه وإنكاره.

وذهب بعض أهل العلم إلى تقسيم البدعة إلى أقسام خمسة: واجبة، ومستحبة، ومحرمة، ومكروهة، ومباحة، لكن الصواب أن هذا التقسيم ليس بشيء، وأنها من جهة الدين قسم واحد وهو ما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)، هذه قاعدة كلية جامعة لا يخرج عنها شيء.

وما سموه بدعة حسنة لأنه جاء به الشرع فليس من البدعة؛ كبناء

---

(١) سبق تخريجه في (ص٢٣٣).

المدارس وطباعة المصحف، هذا من أمر الله، مأمور به وليس من البدع في الدين؛ لأن الرسول ﷺ أمر بذلك.

* *

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمّد، إن كنت رسولًا من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتّى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

وقال مجاهد (في قوله): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

قال: النّصارى تقوله. وهو اختيار ابن جريرٍ؛ قال: لأنّ السّياق فيهم. وفي ذلك نظرٌ.

وحكى القرطبيّ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد.

(قلت): وهو ظاهر السياق، والله أعلم.

وقال أبو العالية والرّبيع بن أنسٍ وقتادة والسّدّيّ في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ قالوا: هم اليهود

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

والنّصارى. ويؤيّد هذا القول، وأنّ القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأَنْعَامِ: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإِسْرَاءِ: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [الْمُدَّثِّرِ: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدّالّة على كفر مشركي العرب وعتوّهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنّما هو الكفر والمعاندة؛ كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّسَاءِ: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۘ﴾؛ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدّمهم في الكفر والعناد والعتوّ؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾؛ أي: قد أوضحنا الدّلالات على صدق الرّسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤالٍ آخر وزيادةٍ أخرى لمن أيقن وصدّق واتّبع الرّسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى، وأمّا من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على

بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا المعنى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١٩﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، أخبرنا عبد الرحمٰن بن صالح، أخبرنا عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله الفزاريّ، عن شيبان النّحويّ، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «**أنزلت عليَّ**: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾؛ قال: «**بشيرًا بالجنة ونذيرًا من النار**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهكذا الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم أُرسلوا مبشرين ومنذرين، أرسلهم الله يبشرون من أطاعهم واتَّبعهم بالجنة والسعادة وحسن العاقبة، وينذرون من خالفهم وتوقف عن قبول ما جاؤوا به أو نفر عنهم وصد عنهم بالعذاب الأليم والعواقب الوخيمة. نسأل الله العافية.

وهكذا أتباع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من العلماء والدعاة، هم هكذا يبشرون وينذرون، يبشرون من اتبع الرسل بالجنة والنصر والعاقبة الحميدة، وينذرون من خالف الرسل بالعواقب الوخيمة والعذاب الأليم يوم القيامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١٩﴾: قراءة أكثرهم: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ﴾ بضمّ التّاء، على الخبر، وفي قراءة أبيّ بن كعبٍ: (ومَا تُسْأَلُ)، وفي قراءة ابن مسعود: (ولن تُسأل عن أصحاب الجحيم)، نقلها ابن

جرير، أي: لا نسألك عن كُفر من كَفر بك كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرّعد: ٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] الآية، وكقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وأشباه ذلك مِن الآيات.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا من رحمة الله، أن الرسل وأتباعهم ليس عليهم خطر من ظلم من كفر أو ضلال من ضل، فليس عليهم من ذلك معتبة؛ لأنهم بلَّغوا، إنما عليهم البلاغ، فهم غير مسؤولين عمن كفر وعمن دخل النار؛ لأنهم بلَّغوهم، فالمسؤولية عليهم والإثم عليهم، أما الرسل وأتباعهم فعليهم البلاغ والبيان. ولهذا، قال: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾؛ فالمعنى: نحن الذين نتولى عذابهم وجزاءهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقرأ آخرون: (وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) بفتح التّاء على النّهي؛ أي: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرّزّاق: أخبرنا الثّوريّ، عن موسى بن عبيدة، عن محمّد بن كعبٍ القرظيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ، لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ، لَيْتَ شِعْرِي ما فعل أبواي؟**» فنزلت: (وَلا تَسأل عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ)، فما ذكرهما حتّى توفّاه اللهُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

هذا ضعيف؛ لأن موسى بن عبيدة هذا ليس بشيء، فقد سأل ربه الاستغفار لأمه فلم يأذن له، وسأل ربه أن يزورها فأذن له.

وفي القراءة المتقدمة: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾؛ يعني: لست مسؤولًا عنهم، إنما عليك بلاغهم وليس عليكم هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ورواه ابن جريرٍ عن أبي كريبٍ، عن وكيعٍ، عن موسى بن عبيدة، وقد تكلّموا فيه عن محمّد بن كعبٍ بمثله، وقد حكاه القرطبيّ، عن ابن عبّاسٍ ومحمّد بن كعبٍ، قال القرطبيّ: وهذا كما يقال: لا تسأل عن فلانٍ، أي: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا في التّذكرة أنّ الله أحيا له أبويه حتى آمنا به، وأجبنا عن قوله: إنّ أبي وأباك في النّار.

(قلت): والحديث المرويّ في حياة أبويه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليس في شيءٍ من الكتب السّتّة ولا غيرها، وإسناده ضعيفٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

بل هو موضوع لا أساس له من الصحة؛ فلم يسلما، وليس هناك إسلام بعد الموت، والله المستعان.

ومثلما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ ماتوا على دين الجاهلية، ومن هذا في صحيح مسلم: «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»، وفي صحيح مسلم أيضًا في قصة استغفاره لأمه فنهي عن ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال ابن جرير: وحدثني القاسم، أخبرنا الحسين، حدّثني حجّاجٌ، عن ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم، به، أنّ النّبيّ ﷺ قال ذات يومٍ: «**أَيْنَ أَبَوَايَ؟**»، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾، وهذا مرسلٌ كالذي قبله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هو مرسل وضعيف أيضًا؛ لأن الحجاج هو ابن أرطأة، وهو ضعيف ومدلس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ردّ ابن جريرٍ هذا القول المرويّ، عن محمد بن كعب وغيره

في ذلك؛ لاستحالة الشّكّ من الرّسول ﷺ في أمر أبويه، واختار القراءة الأولى، وهذا الذي سلكه هاهنا فيه نظرٌ؛ لاحتمال أنّ هذا كان في حال استغفاره لأبويه، قبل أن يعلم أمرهما، فلمّا علم ذلك تبرّأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار؛ كما ثبت هذا في الصّحيح، ولهذا أشباهٌ كثيرةٌ ونظائر، ولا يلزم ما ذكر ابن جريرٍ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا موسى بن داود، حدّثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن عليٍّ، عن عطاء بن يسارٍ، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التّوراة، فقال: أجل والله، إنّه لموصوفٌ في التّوراة بصفته في القرآن: (يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وحرزًا للأمّيّين، وأنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، لا فظٌّ ولا غليظٌ ولا صخّابٌ في الأسواق، ولا يدفع بالسّيّئة السّيّئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتّى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلٰه إلّا الله، فيفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا). انفرد بإخراجه البخاريّ، فرواه في البيوع عن محمّد بن سنانٍ، عن فليحٍ، به، وقال: تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلالٍ، وقال سعيد بن هلالٍ: عن عطاءٍ، عن عبد الله بن سلامٍ، ورواه في التّفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلالٍ، عن عطاءٍ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به، فذكر نحوه؛ فعبد الله هذا هو ابن صالحٍ؛ كما صرّح به في كتاب «الأدب»، وزعم أبو مسعودٍ الدّمشقيّ أنّه عبد الله بن رجاءٍ، وقد رواه الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيّوب، عن محمّد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان، عن فليحٍ، به، وزاد: قال عطاءٌ: ثمّ لقيت كعب الأحبار فسألته، فما اختلفا في حرفٍ إلّا أنّ كعبًا قال بلغته: أعينًا عمومى، وآذانًا صمومى، وقلوبًا غلفًا.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢٠ ـ ١٢١][(١)].

قال ابن جرير: يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود ـ يا محمّد ـ ولا النّصارى براضيةٍ عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به مِن الحقّ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المعنى: أن الطمع في رضا اليهود والنصارى وأشباههم من الكفار عن المسلمين أمر مستحيل؛ لأن الدين مختلف؛ فهم على دين، والمسلمون على دين، ولهذا، رضاهم عن المسلمين أمر غير ممكن إلا إذا دخلوا في دين الله وعرفوا الحق وآثروه. ولهذا، قال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ، وإن جاملوا في بعض الأشياء أو داهنوا في بعض الأشياء وما أشبه ذلك، فليس ذلك عن رضا، وإنما لقصد لغرض، فينبغي لولاة الأمور وللمسلمين عمومًا وللدعاة إلى الله خصوصًا ألا يطمعوا في هذا، وأنهم يظهروا ما بعث الله به رسوله من الحق ويدعو الناس إليه من اليهود والنصارى وغيرهم، وأن يصبروا على الأذى في ذلك وليعلموا يقينًا أن رضاهم لا يحصل مهما كانت الأحوال، وإن جاملوا وإن أعطوا ما يعطون من التأليف فإنهم لن يرضوا عن المسلمين حتى يدع المسلمون دينهم وحتى يوافقوهم على دينهم الباطل، فالحزم كل الحزم والواجب المتعين هو الاستمرار في طاعة الله والسير على منهج الله الذي بعث الله به نبيه ﷺ في كل شيء، ومن جملة ذلك دعوتهم إلى الله وإرشادهم إلى الحق

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإن أجابوا فالحمد لله، وإن لم يجيبوا فالجزية عليهم أن يبذلوها؛ اليهود والنصارى والمجوس، عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا الدخول في الإسلام وأبوا دفع الجزية تعين قتالهم مع القدرة، وإن لم يتيسر القتال ورأى ولي الأمر المصالحة على مال أو على غير مال فلا بأس للمصلحة الإسلامية؛ كما صالح النبي ﷺ قريشًا وهم أهل وثن ليسوا أهل كتاب؛ بل عبَّاد أوثان، صالحهم على وضع الحرب عشر سنين؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، فصالحهم في ذي القعدة من عام ست من الهجرة، صالحهم على وضع الحرب من دون مال بذلوه، وعلى غضاضة من المسلمين، على نوع من الغضاضة؛ للمصلحة العامة، فإنهم شرطوا أن من جاءهم مسلمًا إلى النبي ﷺ يردونه إلى الكفار، ومن جاء مرتدًّا من المسلمين لا يرده الكفار. وارتضى النبي هذا الشرط للمصلحة العامة، وراجعه فيه عمر وبيّن الرسول ﷺ وجه ذلك، فأما من ذهب إليهم فأبعده الله، وأما من جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا، والمقصود: أن المصالحة والهدنة مع الكفار للمصلحة الإسلامية لا بأس بها، وأما الجزية فلا تكون إلا مع اليهود والنصارى والمجوس على أرجح أقوال أهل العلم؛ لأنها هي التي جاء بها النص.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: قل يا ـ محمّد ـ إنّ هدى الله الذي بعثني به هو الهدى؛ يعني: هو الدّين المستقيم الصّحيح الكامل الشّامل، قال قتادة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قال: خصومةٌ علّمها الله محمّدًا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضّلالة، قال قتادة: وبلغنا أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**لَا تزال طائفة من أمتي يقاتلون عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»[1].

---

(١) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب =

(**قلت**): هذا الحديث مخرّجٌ في الصّحيح عن عبد الله بنِ عمرٍو[١].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروي في هذا المعنى عدة أحاديث عن عبد الله بن عمرو، وعن معاوية، وعن غيرهم، فلا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وفي لفظ: «**حتى تقوم الساعة**»[٢]. والمعنى حتى توجد أشراطها العظام، ولهذا في اللفظ الآخر: «**حتى يأتي أمر الله**»، وأمر الله هنا جاء مفسرًا في الحديث الآخر الذي رواه مسلم في الصحيح وغيره أنه ريح طيبة يرسلها الله ﷻ في آخر الزمان بعد طلوع الشمس من مغربها، وبعد الدابة، وبعد نزول عيسى، وبعد خروج يأجوج ومأجوج، بعد هذه الآيات العظام ريح طيبة ترسل على أهل الأرض فيقبض الله بها أرواح المؤمنين والمؤمنات، ولا يبقى بعد ذلك إلا الأشرار من الكفار فعليهم تقوم الساعة[٣].

والمقصود: أن هدى الله هو الهدى الذي يجب التزامه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: الهدى الكامل الذي يجب التزامه والثبات

= الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**» برقم (٧٣١١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» برقم (١٩٢٠).

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» برقم (١٩٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **لا تزال طائفة من أمتي...**» برقم (١٩٢٥).

(٣) أخرجه مسلم من حديث النواس بن سمعان في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفه وما معه برقم (٢٩٣٧).

عليه، وكما تقول للرجل: زيد هو الرجل، هو الشجاع، وفلان هو الإمام؛ يعني: الرجل الجيد المتأهل لهذا الأمر والمتصف بصفات الرجولة، وهكذا زيد هو الشجاع وهو المقدام. والمقصود: أن هذه صفة مبالغة في بيان أن هدى الله هو الهدى وهو الحق الذي لا ريب فيه، وليس هناك هدى سواه، وما عند اليهود ليس بهدى، وما عند النصارى ليس بهدى، وما عند الوثنيين ليس بهدى، وما عند الشيوعيين ليس بهدى، وما عند المجوس ليس بهدى، وهكذا كل طائفة من طوائف الكفر ليس عندهم هدى، فالهدى فيما بعث الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو دين الحق وهو الهدى إلى طريق السلامة وطريق السعادة وطريق الأخلاق الفاضلة؛ طريق التوحيد، طريق الإيمان، طريق مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال؛ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾. وهو الهدى الذي يجب التزامه، وليس هناك هدى غيره.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ للأمّة، عن اتّباع طرائق اليهود والنّصارى بعد ما علموا من القرآن والسّنّة، عياذًا بالله من ذلك، فإنّ الخطاب مع الرّسول والأمر لأمّته.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنما قال للأمة لأنه هو المقصود، والخطاب للنبي ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾؛ فصرف الحافظ الكلام للأمة لأن المقصود هو الأمة؛ لأن الله قد عصمه أن يتبع أهواءهم وحفظه بما فعله به، ولكنه يخاطبه بهذا لتحذير الأمة وتنبيههم أن الرسول ﷺ لو فعل وهو أفضل الخلق؛ لو اتبع أهواء الكفار لهلك، فكيف بحالكم أنتم؟ وهذا مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:

٦٥]، وهو يعلم سبحانه أنه لن يشرك وأن الله قد عصمه من هذا، وهو لتحذير الأمة من هذا الأمر العظيم. وفي هذا أنه ﷺ ولو كان أفضل الخلق، ولو كان سيد ولد آدم، ولو كان رسول الله ﷺ، لو فعل هذا لحبط عمله، فكيف بكم أنتم أيها الناس؟ احذروا هذا الأمر: الشرك واتباع أهواء الكفار، وأن من اتبع أهواءهم هلك وإن كان من كان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد استدلّ كثيرٌ من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ حيث أفرد الملّة، على أنّ الكفر كلّه ملّةٌ واحدةٌ؛ كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. فعلى هذا، لا يتوارث المسلمون والكفّار، وكلٌّ منهم يرث قرينه سواءٌ كان من أهل دينه أم لا؛ لأنّهم كلّهم ملّةٌ واحدةٌ، وهذا مذهب الشّافعيّ وأبي حنيفة وأحمد في روايةٍ عنه، وقال في الرّواية الأخرى كقول مالكٍ، إنّه لا يتوارث أهل ملّتين شتّى؛ كما جاء في الحديث، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه مسألة فرعية لها بحث خاص في المواريث؛ فالكفار من حيث أنهم كفار وأعداء لله وأنهم على باطل ملة واحدة من هذه الحيثية؛ لأنهم كفار ضلال، ملة باطلة، دينهم باطل، أعداء لله، فهذا صحيح، وهم ملة واحدة في هذا المعنى، ولكنهم ملل شتى من جهة اعتقاداتهم؛ فاعتقاد اليهود غير اعتقاد النصارى، واعتقاد النصارى غير المجوس، والمجوس غير الشيوعيين، والشيوعيون غير الوثنيين، فهم في اعتقاداتهم مختلفون، لكن يجمعهم الكفر، يجمعهم الضلال، يجمعهم العداء لدين الإسلام، فهم من هذه الحيثية ملة واحدة، وهم من حيث الاعتقادات المتنوعة ملل، ولهذا، جاء في الحديث الصحيح: «**لا توارث بين أهل ملتين**».

والصواب: أن كما أن المسلم لا يرث الكافر، ولا الكافر لا يرث المسلم، كذلك اليهودي لا يرث النصراني، ولا النصراني يرث اليهودي،

ولا يرث المجوسي؛ لأنهم مختلفون، هذا هو الصواب، فهم من جهة المواريث ملل، ومن جهة الكفر بالله وعدوان الدين وأنهم أعداء المسلمين وأعداء لله، فهم بهذا المعنى هم ملل، ولهذا، قال: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهم طائفتان: يهود ونصارى؛ فأفردها، قال: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أنه إذا أضيف المفرد إلى معرفة عم؛ يعم العدد.

والجواب الثاني: أنهم ملة واحدة من حيث الكفر والضلال لا من حيث الديانة هم ملة واحدة من حيث الكفر والضلال وإفساد العقيدة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ قال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة: هم اليهود والنّصارى، وهو قول عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جريرٍ.

وقال سعيدٌ، عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قال: أخبرنا يحيى بن يمانٍ، حدّثنا أسامة بن زيدٍ، عن أبيه، عن عمر بن الخطّاب: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ قال: إذا مرّ بذكر الجنّة سأل الله الجنّة، وإذا مرّ بذكر النّار تعوّذ بالله من النّار.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا ضعيف، وليس هذا هو المعنى؛ المعنى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والمراد به: المؤمنين من أهل الكتاب، الذين آمنوا وصدقوا موسى، وصدقوا عيسى، وصدقوا محمدًا ﷺ، وهكذا من كان مثلهم من أمة محمد ﷺ، فهي تعم جميع من كان بهذه المثابة. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يشمل اليهود والنصارى، وهكذا أصحاب محمد، فإنهم أوتوا الكتاب وهو القرآن، وكل من اتبعه حق الاتباع فهو مؤمن به على الحقيقة، ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ يعني:

يتبعونه حق اتباعه. فالمراد هنا: الاتباع والاستقامة على الطريق السليم، فهؤلاء هم المؤمنين حقًّا.

أما من قرأه ولكنه لا يتبعه فليس من أهله، وإنما أهل القرآن وأهل التوراة وأهل الإنجيل هم أتباعها المستقيمين عليها، هم الذين حلوا حلالها وحرموا حرامها وابتدروا أوامرها، هؤلاء هم أهلها المتبعون، ومن سواهم فهو ليس من أهلها وإن انتسب إليها؛ فاليهود الآن ليسوا من أهل الإنجيل، والنصارى ليسوا من أهل التوراة، والكفار من أمة محمد الذين عمَّتهم الدعوة ولم ينقادوا للقرآن ليسوا من الذين يتلونه حق تلاوته، وإنما يكون يتصف بهذه الصفة من كان متبعًا له مستقيمًا عليه؛ يُحل حلاله ويحرم حرامه وينقاد لأوامره ويقف عند حدوده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو العالية: قال ابن مسعودٍ: والذي نفسي بيده، إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئًا على غير تأويله.

وكذا رواه عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود.

قال السّدّيّ، عن أبي مالكٍ، عن ابن عبّاسٍ في هذه الآية؛ قال: يحلّون حلاله ويحرّمون حرامه ولا يحرّفونه عن مواضعه.

قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن ابن مسعودٍ نحو ذلك.

وقال الحسن البصريّ: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو زرعة، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هندٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يتّبعونه حقّ اتّباعه، ثمّ قرأ:

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشّمس: ٢]؛ يقول: اتّبعها قال: وروي عن عكرمة وعطاءٍ ومجاهدٍ وأبي رزينٍ وإبراهيم النّخعيّ نحو ذلك.

وقال سفيان الثّوريّ: أخبرنا زبيدٌ، عن مرّة، عن عبد الله بن مسعودٍ، في قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يتّبعونه حقّ اتّباعه.

قال القرطبيّ: وروى نصر بن عيسى، عن مالكٍ، عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن النّبيّ ﷺ في قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ قال: «**يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ**»، ثمّ قال في إسناده غير واحدٍ من المجهولين فيما ذكره الخطيب، إلّا أنّ معناه صحيحٌ.

وقال أبو موسى الأشهريّ: من يتّبع القرآن يهبط به على رياض الجنة.

وعن عمر بن الخطاب: هم الّذين إذا مرّوا بآية رحمةٍ سألوها من الله، وإذا مرّوا بآية عذابٍ استعاذوا منها؛ قال: وقد روي هذا المعنى عن النّبيّ ﷺ أنّه كان إذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرّ بآية عذابٍ تعوّذ.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ خبرٌ عن الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته، أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزّلة على الأنبياء المتقدّمين حقّ إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمّد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [المائدة: ٦٨]؛ أي: إذا أقمتموها حقّ الإقامة وآمنتم بها حقّ الإيمان وصدّقتم ما فيها من الأخبار؛ بمبعث محمّدٍ ﷺ ونعته وصفته والأمر باتّباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحقّ واتّباع الخير في الدّنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، أي: إن كان ما وعدنا به من

شأن محمّدٍ ﷺ لواقعًا، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القَصَص: ٥٢ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. ولهذا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وفي الصّحيح: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يؤمن بي إلا دخل النار**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا يعم الكتاب ويعم محمدًا ﷺ، فالسياق في أهل الكتاب، والمقصود به أهل الكتاب: القرآن، ولكن الذي جاء به القرآن كذلك من باب أولى من كفر به فهو خاسر، هكذا قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هُود: ١٧]؛ قيل: القرآن، وقيل: محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنى صحيح، وكلاهما متلازمان؛ فمن كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد فقد كفر بالقرآن، ومن كفر بواحد منهما فهو خاسر في الدنيا والآخرة؛ فإنما الناجح والرابح والسعيد من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به من الهدى، هذا هو الرابح والسعيد، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا الكتاب العظيم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ كاليهود والنصارى وأشباههم؛ فمن حاد عن القرآن وحاد عن اتباعه، وهكذا حاد عن تصديق نبينا محمد ﷺ وعن اتباعه.

*

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملَّته برقم (١٥٣).

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قد تقدّم نظير هذه الآية في صدر السّورة، وكرّرت هاهنا للتّأكيد والحثّ على اتّباع الرّسول النّبيّ الأمّيّ الذي يجدون صفته في كتبهم: نعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم؛ من النّعم الدّنيويّة والدّينيّة، ولا يحسدوا بني عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرّسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك على الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

تقدم أن نعم الله على بني إسرائيل كثيرة، قد عددها في أول السورة؛ منها: إنجاؤهم من فرعون، وانفلاق البحر لهم، وتأييدهم على أعدائهم. . . . . . . الكتاب العظيم التوراة، إلى غير هذا مما أنعم الله عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفضلهم على العالمين؛ يعني: على عالمي زمانهم. فالواجب أن يشكروا نعم الله، ومِن شُكرها: الإيمان بالنبي الجديد الذي بعثه الله فيهم وجعله خاتمًا للأنبياء؛ لأن بالإيمان به تثبت لهم تلك النعم وقاعدتها وثمرتها، وبكفرهم به تكون عليهم وبالًا وحجة عليهم، وتكون لهم النار، نعوذ بالله، ولا تنفعهم مع ذلك شفاعة ولا فدية لكفرهم وضلالهم، فالكافر لا حيلة فيه، ليس له إلا النار، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فهكذا الأمة المحمدية يجب عليها أن تنتبه وأن تغتنم هذه النعمة العظيمة، وأن تقبل ما

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

جاء به نبيها عليه الصلاة والسلام، وأن تستقيم عليه حتى لا يصيبها ما أصاب غيرها من النقمات والعقوبات؛ فذكر النعم التي أعطاها الله بني إسرائيل وتأييدهم تذكير لنا ووعيد لنا أيضًا كما قال أهل العلم، كما أن فيه تذكيرًا لبقية بني إسرائيل الذين هم اليهود، وهو أيضًا تذكير للأمة كلها ووعيد لها إذا انحرفت عن الهدى.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤][1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى منبّهًا على شرف إبراهيم خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنّ الله تعالى جعله إمامًا للنّاس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلّفه الله تعالى به من الأوامر والنّواهي، ولهذا، قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمّد ـ لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الّذين ينتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنّما الذي هو عليها مستقيمٌ فأنت والّذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم؛ أي: اختباره له بما كلّفه به من الأوامر والنّواهي، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ أي: قام بهنّ كلّهنّ كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النّجم: ٣٧]؛ أي: وفّى جميع ما شرع له فعمل به صلوات اللهِ عليهِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ أي: بشرائع وأوامر ونواهٍ، فإنّ الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة؛ كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التّحريم: ١٢]، وتطلق، ويراد بها الشّرعيّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: كلماته الشّرعيّة، وهي إمّا خبر صدقٍ، وإمّا طلب عدلٍ إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ أي: قام بهنّ. قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: جزاء على ما فعل، لما قام بالأوامر وترك الزّواجر جعله الله للنّاس قدوةً، وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

كذلك من سار على نهجه؛ كهذا النبي محمد ﷺ ومن تبعه، فله السعادة، ومن حاد عن ذلك فله الخيبة والندامة، والله يبتلي عباده بالسراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، والنعمة والحاجة والفقر، كما يبتليهم بالأوامر والنواهي؛ فمن وفى ما عليه فله السعادة والعاقبة الحميدة، ومن حاد عن الطريق فله الخيبة والندامة، ومن هذا ما جرى لإبراهيم؛ ابتلاه واختبره وامتحنه بما أوحى إليه من الشرائع، فأتم ذلك وكمل ذلك، فصار إمامًا يقتدى به وصار أفضل الأنبياء وأكملهم قبل بعثة محمد ﷺ، ثم بعث الله حفيده محمدًا عليه الصلاة والسلام، فكان أكمل الناس وخير الأنبياء، ويليه في الفضل جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هذا كله من نعم الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]؛ الله يبتلي عباده بالضراء والسراء، والخير والشر، كما يبتليهم بالأوامر

والنواهي؛ فالشرائع ابتلاء وامتحان واختبار، فيها سعادة المجتمع إن أخذوا بها، وفيها هلاكهم إن ضيعوها.

وهكذا الأمراض، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحروب والسلم، إلى غير ذلك، كلها اختبارات وابتلاءات؛ فمن فعل ما فيها، ما يجب عليه، صارت له السعادة، ومن حاد فيها عن السبيل باء بالإثم والخيبة والندامة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فروي عن ابن عبّاسٍ في ذلك رواياتٍ؛ فقال عبد الرّزّاق، عن معمرٍ، عن قتادة، قال ابن عبّاسٍ: ابتلاه الله بالمناسك، وكذا رواه أبو إسحاق السّبيعيّ، عن التّميميّ، عن ابن عبّاسٍ.

وقال عبد الرّزّاق أيضًا: أخبرنا معمرٌ، عن ابن طاوسٍ، عن أبيه، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾؛ قال: ابتلاه بالطّهارة؛ خمسٌ في الرّأس وخمسٌ في الجسد؛ في الرّأس: قصّ الشّارب والمضمضة والاستنشاق والسّواك وفرق الرّأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن المسيّب ومجاهدٍ والشّعبيّ والنّخعيّ وأبي صالحٍ وأبي الجَلد نحو ذلك.

(**قلت**): وقريبٌ من هذا ما ثبت في «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء**»[(١)]، ونسيت العاشرة إلّا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء؛ يعني: الاستنجاء.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة برقم (٢٦١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كل هذه وأشباهها متلقاة عن بني إسرائيل، فلا يعتمد عليها، فليس لها أساس يعتمد، وإنما المعتمد في هذا ما ثبت عن الله وعن الرسول عليه الصلاة والسلام. ولكن أبهمها ربنا لتشمل كل ما أمره الله به ونهاه عنه، فلم يفرط في شيء عليه الصلاة والسلام. ﴿كلمات﴾: كلمة منكَّرة تشمل كل ما يوحى إليه، فيدخل فيها ما ذكره (.......) ما ذكره المفسرون مما وقع له به، ويدخل فيها غير ذلك مما شرع له.

فالحاصل أن (الكلمات) الله نكَّرها لتعم، ولسنا بحاجة إلى أن ننقب عنها، يكفينا أن نؤمن بأنه كمَّل عليه الصلاة والسلام، وأن ما شرعه الله له كمَّله وأتمه في جميع ما شرع له من قول أو فعل أو اعتقاد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الِاخْتِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ وَنَتْفُ الإِبْطِ**».

ولفظه لمسلمٍ(١).

وقال ابن أبي حاتمٍ: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءةً، أخبرنا ابن وهبٍ، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن حنش بن عبد الله الصّنعانيّ، عن ابن عباس، أنه كان يقول في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾؛ قال: عشرٌ؛ ستٌّ في الإنسان، وأربعٌ في المشاعر؛ فأمّا التي في الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط والختان ـ وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثّلاثة واحدةٌ ـ وتقليم الأظفار، وقصّ الشّارب،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب قص الشارب برقم (٥٨٨٩)، ومسلم في كتاب الطهارة باب خصال الفطرة برقم (٢٥٧).

والسّواك، وغُسل يوم الجمعة، والأربعة التي في المشاعر: الطّواف، والسّعي بين الصّفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

وقال داود بن أبي هندٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ أنّه قال: ما ابتلي بهذا الدّين أحدٌ فقام به كلّه إلّا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهنّ فأتمهنّ؟ قال: الإسلام ثلاثون سهمًا؛ منها: عشر آياتٍ في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر آياتٍ في أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وعشر آياتٍ في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية فأتمهنّ كلّهنّ فكتبت له براءةٌ، قال الله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النّجم: ٣٧].

هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جريرٍ وأبو محمّد بن أبي حاتمٍ بأسانيدهم إلى داود بن أبي هند، وهذا لفظ ابن أبي حاتمٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا إن صحَّ عن ابن عباس، فمُراده قبل محمد ﷺ، وإنما محمد كمَّل أيضًا ما عليه وأتم ما عليه عليه الصلاة والسلام، وهكذا من وفقه الله من الأمة، فإن صح عن ابن عباس فمعناه من الأنبياء الماضين والأمة الماضية، مهما أتم ذلك على تمام الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم هذا فيه نظر أيضًا، فإن ابن عباس قد يكون تلقاه عن بعض بني إسرائيل ولم يذكره عن النبي عليه الصلاة والسلام، لكن المعنى في الجملة صحيح؛ لأن إبراهيم هو أفضل الخلق قبل محمد ﷺ أفضلهم وأكملهم إيمانًا وأتقاهم لله، وليس بعده في التمام والكمال سوى حفيده محمد عليه الصلاة والسلام، فهو أكمل الناس، وهو الذي أتم ما أمره الله

به أكمل إتمام ولهذا كان أفضل الخلق، ثم يليه في الفضل والمنزلة جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: الكلمات التي ابتلى الله بهنّ إبراهيم فأتمّهنّ، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجّته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه، وصبره على قذفه إيّاه في النّار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضّيافة والصّبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلمّا مضى على ذلك من الله كلّه وأخلصه للبلاء، قال الله له: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، على ما كان من خلاف النّاس وفراقهم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الرب عَزَّ وَجَلَّ أبهم الكلمات ولم يوضحها، قال سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وهو جَلَّ وَعَلَا أبهم تلك الكلمات لتعم جميع ما أمره الله وشرعه الله له، وهو أتم ذلك، وأكمله عليه الصلاة والسلام في كل شيء؛ في نصيحة قومه، وفي البراءة من الكفار، وفي ذبحه لابنه، وفي غير هذا من الشؤون التي أمره الله بها ووفى بكل شيء عليه الصلاة والسلام وأتم ما أمره الله به، ولهذا، جعله الله إمام الحنفاء، وسيد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو أكمل الخلق وأفضلهم بعد حفيده خاتم المرسلين عليهما الصلاة والسلام جميعًا، فما ذكره المفسرون فكثير منه بعض ما أراده الله، وبعض ما قد

يكون لا دليل عليه، فالحاصل أنه وفّى ما أمره الله به وتمَّم ما أمره الله به ولم يقصر في ذلك؛ بل اجتهد حتى أتم أمر الله وكمل ما أمره الله به، ووصفه الله بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيدٍ الأشجّ، أخبرنا إسماعيل بن عليّة، عن أبي رجاءٍ، عن الحسن؛ يعني: البصريّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ قال: ابتلاه بالكوكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشّمس فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالختان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه.

وقال ابن جرير: أخبرنا بشر بن معاذ، أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيدٌ، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: أي والله، لقد ابتلاه بأمرٍ فصبر عليه؛ ابتلاه بالكوكب والشّمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أنّ ربّه دائمٌ لا يزول، فوجّه وجهه للّذي فطر السموات والأرض حنيفًا، وما كان من المشركين، ثمّ ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتّى لحق بالشّام مهاجرًا إلى الله، ثمّ ابتلاه بالنّار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه والختان، فصبر على ذلك.

قال عبد الرّزّاق: أخبرنا معمرٌ، عمّن سمع الحسن يقول في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ قال: ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والشّمس والقمر.

وقال أبو جعفر بن جريرٍ: أخبرنا ابن بشار، أخبرنا سلم بن قتيبة، أخبرنا أبو هلالٍ، عن الحسن: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ قال: ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر، فوجده صابرًا.

وقال العوفيّ في تفسيره، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ فمنهن: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهنّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، ومنهنّ الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم والرّزق الذي رزق ساكنو البيت، ومحمّدٌ بعث في دينهما.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهدٍ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: قال الله لإبراهيم: إنّي مبتليك بأمرٍ فما هو؟ قال: تجعلني للنّاس إمامًا؟ قال: نعم، قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؟ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، قال: تجعل البيت مثابةً للنّاس؟ قال: نعم، قال: وأمنًا؟ قال: نعم، قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّةً مسلمةً لك؟ قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله؟ قال: نعم.

قال ابن نجيح: سمعته عن عكرمة، فعرضته على مجاهدٍ فلم ينكره، وهكذا رواه ابن جريرٍ من غير وجهٍ، عن ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ.

وقال سفيان الثّوريّ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهدٍ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ قال: ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: الكلماتُ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٥] الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية؛ قال: فذلك كلّه من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم.

وقال السّدّيّ: الكلمات التي ابتلى بهنّ إبراهيم ربّه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وقال القرطبيّ: وفي الموطّأ وغيره، عن يحيى بن سعيدٍ، أنّه سمع سعيد بن المسيّب يقول: إبراهيم عليه السلام أوّل من اختتن، وأول من ضاف الضيف، وأوّل من قلّم أظفاره، وأوّل من قصّ الشّارب، وأوّل من شاب فلمّا رأى الشّيب، قال: ما هذا؟ قال: وقارٌ، قال: يا ربّ زدني وقارًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

كل هذه الأشياء متلقَّاة عن بني إسرائيل، أو من تلقَّى عن بني إسرائيل؛ فإبراهيم مثلما تقدم أن الله جل وعلا ابتلاه بكلمات شرعها له وأمره بها، وجعلها هدى له فكمَّلها وأتمها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَأَوَّلُ مَنْ شَابَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْبَ، قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: وَقَارٌ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

كل هذا فيه نظر، أنه أول من حف الشارب، وأول من شاب، كل هذا محل نظر، قد مضى قبله نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا، فهل يكون نوح ما شاب؟ المقصود: هذا محل نظر، المقصود: أن بعض الناس يتلقى عن بني إسرائيل ما هب ودب، ما يميز بين الأمور التي لها أهمية، وسعيد وإن كان إمامًا رحمه الله لكن ينقل مثلما ينقل الناس.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وذكر ابن أبي شيبة، عن سعيد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: أوّل من خطب على المنابر إبراهيم عليه السلام، قال غيره: وأوّل من ثرّد الثريد،

وأوّل من ضرب بالسّيف، وأوّل من استاك، وأوّل من استنجى بالماء، وأوّل من لبس السّراويل. وروي عن معاذ بن جبلٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنْ أَتَّخِذِ الْمِنْبَرَ فَقَدِ اتَّخَذَهُ أَبِي إِبْرَاهِيمُ، وَإِنْ أَتَّخِذِ الْعَصَا فَقَدِ اتَّخَذَهَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ**».

(**قلت**): هذا حديثٌ لا يثبت، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: كل هذا فيه نظر أيضًا، فقبله هود وصالح ونوح، كلهم وعظوا قومهم وأنذروهم وبلغوا الرسالات.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ شرع القرطبيّ يتكلّم على ما يتعلّق بهذه الأشياء من الأحكام الشّرعيّة.

قال أبو جعفر بن جريرٍ ما حاصله: أنّه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائزٌ أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيءٍ منها أنّه المراد على التّعيين إلّا بحديثٍ أو إجماعٍ؛ قال: ولم يصحّ في ذلك خبرٌ بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة الذي يجبُ التّسليم له.

قال: غير أنّه قد روي عن النّبيّ ﷺ في نظير معنى ذلك خبران:

أحدهما: ما حدثنا به أبو كريب، أخبرنا رشدين بن سعدٍ، حدّثني زبّان بن فائدٍ عن سهل بن معاذ بن أنسٍ، قال: كان النّبيّ ﷺ يقول: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّى اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ، الَّذِي وَفَّى؟ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَكُلَّمَا أَمْسَى**: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] إلى آخر الآية»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا ضعيف؛ لأن زبان ضعيف. والمقام يقتضي خلاف ذلك؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٩).

لأنه قال كلمات عظيمة وفَّى بها وأتم؛ لأن كلمة: فسبحان الله حين تصبحون وحين تمسون ليس فيها كلفة ولا مشقة على أحد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: والآخر: ما حدّثنا به أبو كريبٍ، أخبرنا الحسن، عن عطيّة، أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزّبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؛ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا وَفَّى؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**وَفَّى عَمَلَ يَوْمِهِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ**».

ورواه آدم في تفسيره عن حمّاد بن سلمة، وعبد بن حميدٍ عن يونس بن محمّدٍ عن حمّاد بن سلمة، عن جعفر بن الزّبير، به، ثمّ شرع ابن جريرٍ يضعّف هذين الحديثين، وهو كما قال: فإنه لا يجوز روايتهما إلّا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوهٍ عديدةٍ؛ فإنّ كلًّا من السّندين مشتملٌ على غير واحدٍ من الضّعفاء، مع ما في متن الحديث ممّا يدلّ على ضعفه، والله أعلم.

ثمّ قال ابن جريرٍ: ولو قال قائلٌ: إنّ الذي قاله مجاهدٌ وأبو صالح والرّبيع بن أنسٍ أولى بالصّواب من القول الذي قاله غيرهم، كان مذهبًا لأن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنّه ابتلى بهنّ إبراهيم.

(قلت): والذي قاله أوّلًا من أنّ الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جوّزه من قول مجاهدٍ ومن قال مثله؛ لأنّ السّياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

حتى بعض ما قالوه فيه نظر، والصواب أن يقال: الله أعلم

بمراده ﷻ، فإبراهيم مثلما قال فيما تقدم: ليس هناك خبر صحيح ولا إجماع يبيِّن هذه الكلمات، فوجب أن نكِلَ أمرها إلى الله، وأنها شرائع وأوامر ونواهٍ ابتلاه الله بها فكملها، أما تعيينها وأنها كذا وكذا فيحتاج إلى نص أو إجماع، لكن من المعلوم والمقطوع به أنها أشياء أمر بها وكلف بها عليه الصلاة والسلام، فوفى بها وأداها كما أمر عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾: لـمّـا جعل الله إبراهيم إمامًا، سأل الله أن تكون الأئمّة من بعده من ذرّيّته، فأجيب إلى ذلك وأخبر أنّه سيكون من ذرّيّته ظالمون وأنّه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمّةً فلا يقتدى بهم، والدّليل على أنّه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكلّ نبيٍّ أرسله الله، وكلّ كتابٍ أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذرّيّته صلوات الله وسلامه عليه.

وأمّا قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، فقد اختلفوا في ذلك. فقال خصيفٌ عن مجاهدٍ في قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: إنّه سيكون في ذرّيّتك ظالمون، وقال ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: لا يكون لي إمام ظالم، وفي روايةٍ: لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويدل على هذا المعنى قوله في سورة الصافات ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣] فيهم هذا وفيهم هذا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال سفيان، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾؛ قال: لا يكون إمامٌ ظالمٌ يقتدى به.

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا مالك بن إسماعيل، أخبرنا شريكٌ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾؛ قال: أمّا من كان منهم صالحًا فأجعله إمامًا يقتدى به، وأمّا من كان ظالمًا فلا ولا نعمة عينٍ.

وقال سعيد بن جبيرٍ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾: المراد به: المشرك، لا يكون إمامٌ ظالمٌ؛ يقول: لا يكون إمامٌ مشركٌ، وقال ابن جريجٍ، عن عطاءٍ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾، فأبى أن يجعل من ذرّيّته إمامًا ظالمًا، قلت لعطاءٍ: ما عهده؟ قال: أمره.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لأن الظلم إذا أطلق فهو الشرك؛ فالمشركون ليسوا أئمة وإن كانوا من ذرية إبراهيم، وهكذا الظلمة الفاسقون، ليسوا قدوة فيما هم فيه من الظلم والفسق، وإن كان قدوة فيما فيهم من الخير، فقد جعل في ذريته العدل والفاسق والكافر؛ فالكافر ليس بإمام ولو بلغ ما بلغ فلا يقتدى به، والفاسق لا يقتدى به فيما أخطأ فيه وفيما ضل فيه، وإنما يقتدى به في الخير والهدى وما وافق الحق.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا عمرو بن ثور القيساري فيما كتب إليّ، أخبرنا الفريابي، حدثنا إسماعيل، حدّثنا سماك بن حربٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾، فأبى أن يفعل، ثمّ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾.

وقال محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن أبي محمّدٍ، عن سعيدٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾، يخبره أنّه كائنٌ في ذرّيّته ظالمٌ لا ينال عهده ولا ينبغي أن يولّيه

شيئًا من أمره وإن كان من ذرّيّة خليله، ومحسنٌ ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له ما أراد من مسألته.

وقال العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: يعني: لا عهد لظالمٍ عليك في ظلمه أن تطيعه فيه.

وقال ابن جريرٍ: حدّثنا إسحاق، أخبرنا عبد الرّحمٰن بن عبد الله، عن إسرائيل، عن مسلمٍ الأعور، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته أنقضه. وروي عن مجاهدٍ وعطاءٍ ومقاتل بن حيّان نحو ذلك. وقال الثّوريّ، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: ليس لظالمٍ عهدٌ.

وقال عبد الرّزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظّالمين، فأمّا في الدّنيا فقد ناله الظّالم فأمن به وأكل وعاش، وكذا قال إبراهيم النخعي وعطاء وعكرمة.

وقال الرّبيع بن أنسٍ: عهد الله الذي عهد إلى عباده دينه؛ يقول: لا ينال دينه الظّالمين، ألا ترى أنّه قال: وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ [الصافات: ١١٣]؛ يقول: ليس كلّ ذرّيّتك يا إبراهيم على الحقّ، وكذا روي عن أبي العالية وعطاءٍ ومقاتل بن حيّان.

وقال جويبرٌ، عن الضّحّاك: لا ينال طاعتي عدوٌّ لي يعصيني، ولا أنحلها إلّا وليًّا يطيعني.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا عبد الرحمٰن بن محمد بن حامد، أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سعيدٍ الأسديّ، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، أخبرنا وكيعٌ، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرّحمٰن السّلميّ، عن عليّ بن أبي طالبٍ، عن النّبيّ ﷺ قال: ﴿لَا

يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ قال: «**لَا طَاعَةَ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ**»[1]، وقال السّدّيّ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ يقول: عهدي: نبوّتي.

فهذه أقوال مفسّري السّلف في هذه الآية، على ما نقله ابن جريرٍ وابن أبي حاتمٍ رحمهما الله تعالى، واختار ابن جريرٍ أنّ هذه الآية وإن كانت ظاهرةً في الخبر، أنّه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا، ففيها إعلامٌ من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنّه سيوجد من ذرّيّتك من هو ظالمٌ لنفسه كما تقدّم عن مجاهد وغيره. والله أعلم.

وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكمًا ولا مفتيًا ولا شاهدًا ولا راويًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا المعنى توجيه من الله إلى الناس ألا يتولى عهده وإمامته ومصالح المسلمين الظالمون، وهم المشركون؛ لأن الظلم إذا أطلق فهو الشرك، فلا يتولى أمر المسلمين إلا مسلم، وعليهم طاعته برًّا كان أو فاجرًا، والجهاد معه برًّا كان أو فاجرًا؛ أما المشرك فلا يتولى إمامة المسلمين، وهكذا دائمًا إذا أطلق الظلم فهو الشرك؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].، وهكذا، فالأئمة يجب أن يكونوا من خيار الناس، ولا مانع أن يكون فيهم من المعاصي؛ فإن المعاصي تقع منهم ومن غيرهم، ولا تزول بهذا ولايتهم إلا إذا صدر منهم كفر بواح، ولهذا، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾؛ يعني: المشركين الذين لا يؤمنون في القيام بأمر الناس وإصلاح أمورهم

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية برقم (٧١٤٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية برقم (١٨٤٠).

وتوجيههم إلى الخير وجهاد أعدائهم، هذا ليس للظالم والمشرك وإنما هو للمسلم، فهو خبر معناه النهي، معناه ألا يتولى أمر المسلمين إلا المسلمون ولا يتولى الظلمة المشركون؛ لأنهم لا يؤمنون على المسلمين وهم أعداؤهم، فلا يكونوا أئمة لهم، لا إمامة كبرى ولا صغرى.

● **س: (ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه)؟**

○ **الجواب**: هذا ليس على إطلاقه، إن صح لا يدل على إطلاقه، وقد عاهد النبي ﷺ من هم أظلم الناس وهم كفار قريش فأعطاهم عهدًا.

❊

❏ **تفسير قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥][1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال العوفيّ، عن ابن عبّاسٍ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ يقول: لا يقضون فيه وطرًا، يأتونه ثمّ يرجعون إلى أهليهم ثمّ يعودون إليه.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ يقول: يثوبون، رواهما ابن جريرٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو الواقع، أن الله جعله مثابة للناس وأمنًا، يثوبون إليه من أقطار الدنيا معتمرين وحاجّين ولا يقضون أوطارهم، فكلما فرغ يسأل ربَّه أن يعيده إليه ويرغب أن يعود إليه مرة أخرى لما فيه من الخير العظيم

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والفضل الكبير والوعد بالجنة والمغفرة والعتق من النار. فلهذا، كلُّ مسلم يأتيه ويثوب إليه، كلٌّ يحب أن يرجع إليه مرة أخرى، وهو أمن أيضًا للناس، جعله الله أمنًا للناس يأتمنون فيه على دماءهم وأموالهم ليؤدوا شعائرهم مطمئنين، والمعنى: أن هذا فرض على المسلمين أن يعتبروا هذا البلد آمنًا وأن يكفوا عن القتال فيه والأذى حتى يرتاح المسلمون في أداء مناسكهم؛ فهو خبر معناه الإلزام بذلك، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ يعني: وجب أن يؤمن، يجب أن يعطى الأمان، وإن كان مشركًا، حتى يَخرج منه أو يُخرج منه ليقام عليه ما يستحق، وهكذا ممنوع أن تسفك فيه الدماء، ولم يحل إلا للنبي عليه الصلاة والسلام إلا ساعة من نهار، إلا من فتك به وأقدم على المنكر فإنه يؤخذ بالحق، ومن قتل فيه اقتص منه، ومن سرق فيه قطع، ومن ارتد فيه قتل؛ لأنه أحدث الجريمة فيه، فلا بأس بإقامة الحد عليه، أما من جاء من خارج فدخل فيه إلى حج أو عمرة أو لاجئًا فإنه يؤمن حتى يخرج منه، حتى يخرج أو يطرد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الله بن رجاءٍ، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ قال: يثوبون إليه ثمّ يرجعون، قال: وروي عن أبي العالية وسعيد بن جبيرٍ في روايةٍ، وعطاءٍ ومجاهدٍ والحسن وعطيّة والرّبيع بن أنسٍ والضّحّاك نحو ذلك.

وقال ابن جريرٍ: حدّثني عبد الكريم بن أبي عميرٍ، حدّثني الوليد بن مسلمٍ، قال: قال أبو عمرٍو؛ يعني: الأوزاعيّ، حدّثني عبدة بن أبي لبابةً، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ قال: لا ينصرف عنه منصرفٌ وهو يرى أنّه قد قضى منه وطرًا.

وحدّثني يونس، عن ابن وهبٍ، قال: قال ابن زيدٍ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه من البلدان كلّها ويأتونه.

وما أحسن ما قاله الشاعر في هذا المعنى، أورده القرطبي:

جعل البيت مثابًا لهم ... ليس منه الدّهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبيرٍ في الرّواية الأخرى، وعكرمة وقتادة وعطاءٌ الخراسانيّ: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مجمعًا ﴿وَأَمْنًا﴾؛ قال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ: أي: أمنًا للنّاس.

وقال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ، عن أبي العالية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ يقول: وأمنًا من العدوّ وأن يحمل فيه السّلاح، وقد كانوا في الجاهليّة يتخطّف النّاس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَون.

وروي عن مجاهدٍ وعطاءٍ والسّدّيّ وقتادة والرّبيع بن أنسٍ، قالوا: من دخله كان آمنًا.

ومضمون ما فسّر به هؤلاء الأئمّة هذه الآية أنّ الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا، من كونه ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: جعله محلًّا تشتاق إليه الأرواح، وتحنّ إليه، ولا تقضي منه وطرًا ولو تردّدت إليه كلّ عام؛ استجابةً من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. ويصفه تعالى بأنّه جعله أمنًا، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثمّ دخله كان آمنًا.

وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: كان الرّجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له؛ كما وصف في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]؛ أي: يدفع عنهم بسبب تعظيمها السّوء؛ كما قال ابن عبّاسٍ: لو لم يحجّ النّاس هذا

البيت، لأطبق الله السّماء على الأرض، وما هذا الشّرف إلّا لشرف بانيه أوّلًا، وهو خليل الرّحمٰن؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحجّ: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي هذه الآية الكريمة، نبّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصّلاة عنده، فقال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾.

وقد اختلف المفسّرون في المراد بالمقام ما هو؟

فقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمر بن شبّة النّميريّ، حدّثنا أبو خلفٍ؛ يعني: عبد الله بن عيسى، أخبرنا داود بن أبي هندٍ، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾؛ قال: مقام إبراهيم الحرم كلّه. وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وقال أيضًا: أخبرنا الحسن بن محمّد بن الصّبّاح، حدّثنا حجّاجٌ عن ابن جريجٍ، قال: سألت عطاءً عن: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾؛ فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكر هاهنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد، ثم قال: ومقام إبراهيم يعدّ كثيرٌ مقام إبراهيم الحجّ كلّه، ثمّ فسّره لي عطاءٌ فقال: التّعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنًى، ورمي الجمار، والطّواف بين الصّفا والمروة، فقلت: أفسّره ابن عبّاسٍ؟ قال: لا، ولكن قال مقام إبراهيم الحجّ كلّه. قلت: أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال: نعم سمعته منه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا سند جيد عن ابن عباس، ويدل على أن مقام إبراهيم الذي ذكر الله فيه الصلاة هو المقام المعروف الذي صلى خلفه النبي ﷺ، وهو الحجر المعروف، ويطلق مقام إبراهيم على جميع الحرم كله، وعلى

مشاعر الحج؛ لأنه قام عليه عليه الصلاة والسلام، وأمرنا أن نسير على نهجه عليه الصلاة والسلام، وإذا صلى في أي بقعة في الحرم فقد صلَّى في مقام إبراهيم؛ لكن مقامه الخاص هو هذا الحجر المعروف الذي كان يقوم عليه حين البناء، وكان ملصقًا بالكعبة ثم أخَّره عمر إلى مكانه المعروف، والنبي صلَّى خلفه لما طاف عليه الصلاة والسلام، والحرم كله من مقام إبراهيم؛ فمقام إبراهيم مفرد مضاف فيعم، ولكن يخص منه بصفة خاصة هذا الحجر الذي خلَّفه النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا صلَّى في المسجد أو في أي بقعة من الحرم فقد صلَّى في مقام إبراهيم، وهكذا المشاعر كلها؛ عرفات ومزدلفة ونحو ذلك، كلها مقامات؛ لأنه وقف فيها حين أدى المشاعر عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال سفيان الثّوريّ، عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبيرٍ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾؛ قال: الحجر مقام إبراهيم نبيّ الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجار، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه.

وقال السّدّيّ: المقام: الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتّى غسلت رأسه، حكاه القرطبيّ وضعّفه ورجّحه غيره، وحكاه الرّازيّ في تفسيره عن الحسن البصريّ وقتادة والرّبيع بن أنسٍ.

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا عبد الوهّاب بن عطاءٍ عن ابن جريجٍ، عن جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه، سمع جابرًا يحدّث عن حجّة النّبيّ ﷺ، قال: لمّا طاف النّبيّ ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: أفلا نتّخذه مصلًّى؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريّا، عن أبي

إسحاق، عن أبي ميسرة، قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليل ربّنا؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: أفلا نتّخذه مصلًّى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من المواضع التي وافقه فيها ربه، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن مردويه: أخبرنا دعلج بن أحمد، أخبرنا غيلان بن عبد الصمد، أخبرنا مسروق بن المرزبان، أخبرنا زكريّا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمونٍ، عن عمر بن الخطّاب، أنّه مرّ بمقام إبراهيم فقال: يا رسول الله، أليس نقوم بمقام خليل ربّنا؟ قال: «**بلى**»، قال: أفلا نتّخذه مصلًّى؟ فلم يلبث إلّا يسيرًا حتّى نزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾.

وقال ابن مردويه: أخبرنا علي بن أحمد بن محمد القزويني، أخبرنا علي بن الحسين، حدثنا الجنيد، أخبرنا هشام بن خالد، أخبرنا الوليد، عن مالك بن أنسٍ، عن جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه، عن جابر، قال: لمّا وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذي قال الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال الوليد: قلت لمالكٍ: هكذا حدّثك: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾؟ قال: نعم، هكذا وقع في هذه الرّواية، وهو غريبٌ، وقد روى النّسائيّ من حديث الوليد بن مسلم نحوه.

وقال البخاريّ: باب قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾، مثابةً يثوبون يرجعون.

حدثنا مسدد، أخبرنا يحيى، عن حميدٍ، عن أنس بن مالكٍ، قال: قال عمر بن الخطّاب: وافقت ربّي في ثلاثٍ، أو وافقني ربّي في ثلاثٍ، قلت: يا رسول الله، لو اتّخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النّبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهنّ فقلت: إن انتهيتنّ أو ليبدّلنّ الله رسوله خيرًا منكنّ حتّى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتّى تعظهنّ أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التّحريم: ٥].

وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيّوب، حدّثني حميدٌ، قال: سمعت أنسًا، عن عمر رضي الله عنهما، هكذا ساقه البخاريّ هاهنا، وعلّق الطّريق الثّانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري، وقد تفرد عنه بالرواية البخاريّ من بين أصحاب الكتب السّتّة، وروى عنه الباقون بواسطةٍ، وغرضه من تعليق هذا الطّريق ليبيّن فيه اتّصال إسناد الحديث، وإنّما لم يسنده لأن يحيى بن أيّوب الغافقيّ فيه شيءٌ، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيء الحفظ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا هشيم، أخبرنا حميدٌ، عن أنسٍ، قال: قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربّي عز وجل في ثلاثٍ، قلت: يا رسول الله، لو اتّخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة، فقلت لهنّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التّحريم: ٥]، فنزلت كذلك، ثمّ رواه أحمد عن يحيى، وابن أبي عديٍّ؛ كلاهما عن حميدٍ، عن أنسٍ، عن عمر، أنّه قال: وافقت ربّي في ثلاثٍ، أو وافقني ربّي في ثلاث، فذكره.

وقد رواه البخاري عن عمرو بن عونٍ، والتّرمذيّ عن أحمد بن منيع، والنّسائيّ عن يعقوب بن إبراهيم الدّورقيّ، وابن ماجه عن محمّد بن الصّبّاح؛ كلّهم عن هشيم بن بشير، به. ورواه التّرمذيّ أيضًا عن عبد بن

حميدٍ، عن حجّاج بن منهالٍ، عن حمّاد بن سلمة، والنّسائيّ عن هنّادٍ، عن يحيى بن أبي زائدة؛ كلاهما عن حميدٍ، وهو ابن تيرويه الطّويل، به.

وقال التّرمذيّ: حسنٌ صحيحٌ. ورواه علي المديني بن زريعٍ، عن حميدٍ، به، وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصريٌّ.

ورواه الإمام مسلم بن حجاج في صحيحه بسندٍ آخر ولفظٍ آخر، فقال: أخبرنا عقبة بن مكرمٍ، أخبرنا سعيد بن عامرٍ، عن جويرية بن أسماء، عن نافعٍ، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنهما قال: **وافقت ربّي في ثلاثٍ: في الحجاب، وفي أسارى بدرٍ، وفي مقام إبراهيم**[1].

وقال أبو حاتم الرازي: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرنا حميدٌ الطّويل، عن أنس بن مالكٍ، قال: قال عمر بن الخطّاب: وافقني ربّي في ثلاث، أو وافقت ربّي في ثلاثٍ، قلت: يا رسول الله، لو اتّخذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النّساء، فنزلت آية الحجاب، والثّالثة: لمّا مات عبد الله بن أبيٍّ، جاء رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، قلت: يا رسول الله، تصلّي على هذا الكافر المنافق؟ فقال: «**إيهًا عَنْكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ**»، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ﴾ [التّوبة: ٨٤]، وهذا إسنادٌ صحيحٌ أيضًا، ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكلّ صحيحٌ، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوقٌ قدّم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جريج: أخبرني جعفر، عن محمّدٍ، عن أبيه، عن جابرٍ: أنّ رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواطٍ ومشى أربعًا، حتّى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين، ثمّ قرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر برقم (٢٣٩٩)، وأخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه في كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة.. برقم (٤٠٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سلمان، أخبرنا حاتم بن إسماعيل، أخبرنا جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه، عن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الرّكن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ثمّ نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلّى ركعتين. وهذا قطعةٌ من الحديث الطّويل الذي رواه مسلمٌ في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل(١).

وروى البخاريّ بسنده عن عمرو بن دينارٍ، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعًا وصلّى خلف المقام ركعتين(٢).

فهذا كلّه ممّا يدلّ على أنّ المراد بالمقام إنّما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لمّا ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمّل ناحيةً انتقل إلى النّاحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقفٌ عليه، كلّما فرغ من جدارٍ نقله إلى النّاحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصّة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عبّاسٍ عند البخاريّ، وكانت آثار قدميه ظاهرةً فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليّتها، ولهذا، قال أبو طالبٍ في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصّخر رطبةٌ ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه؛ كما قال عبد الله بن وهبٍ: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهابٍ: أنّ أنس بن مالكٍ حدّثهم، قال: رأيت

---

(١) انظر حديث جابر في مسلم برقم (١٢١٨).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري برقم (٣٩٥)، ومسلم برقم (١٢٣٤).

المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه، غير أنّه أذهبه مسح النّاس بأيديهم.

وقال ابن جرير: حدّثنا بشر بن معاذٍ، أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيدٌ، عن قتادة ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: إنّما أمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، وقد تكلّفت هذه الأمّة شيئًا ما تكلّفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمّة يمسحونه حتّى اخلولق وانمحى.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

والسُّنَّة إنما هو جعل قبلة للناس لا يتمسح به، التمسح به منكر وبدعة لا أصل له، وإنما تكلف هذه الأمة وابتداع الكثير منها حصل ما حصل، وإنما المشروع أن يجعلوه قبلة لهم يصلون خلفه، وهكذا استلام الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود، كل هذا شرعه الله لعباده فعليهم التأسي وما سوى ذلك لا يشرع، لا تمسح الجدران ولا الأركان الأخرى؛ لأن هذا لم يشرع، والناس عليهم الاتباع وليسوا عليهم الابتداع. ولهذا، لما مسح معاوية ركنين آخرين اجتهادًا منه، قال له ابن عباس: إن النبي ﷺ لم يمسحهما، فقال معاوية: ليس من البيت شيء مهجور، فقال ابن عباس: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فقال: صدقت.

فالمقصود أن الواجب على الأمة الاتباع فقط، وليس لها الزيادة؛ كما قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فليس لها أن تبتدع شيئًا أو تخترع شيئًا من العبادة، لا، عليها أن تقف مع النصوص ولا تبتدع شيئًا؛ فما فعله الرسول ﷺ أو أمر به فعل وما ترك ترك، وهكذا مسألة البيت، الطواف بالبيت سبعًا، فلو قال إنسان: لا، أنا أفضل أن أطوف ثمانًا، قلنا: غلط، الزيادة الثمان غلط وليس بمشروع،

وكذلك، لو قال: أكتفي بست، قلنا: غلط، سبع لا تزيد ولا تنقص، هكذا الرمل الثلاث الأشواط الأول يكون لطواف القدوم، ولا يرمل بالأربعة الباقية، وهكذا في الطواف الأخير طواف الإفاضة وطواف الوداع ما في رمل، يمشي مشيًا بالسبع كلها اتباعًا للنبي ﷺ، وهكذا يقبل الحجر الأسود ويمسحه ويستلمه، والركن اليماني يستلمه ولا يقبله، والبقية لا يستلم ولا يقبل، كل هذا من الاتباع: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولما قبَّل عمر الحجر الأسود واستلمه قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك»، فأراد بهذا أن يبين للأمة أن الواجب الاتباع والاقتداء لا الزيادة، هكذا السعي سبعة لا يزاد ولا ينقص، لا يسعى ست ولا يسعى ثمان، سبع، فقط بين الصفا والمروة، فمن زاد فقد ابتدع إذا تعبد بهذا، ومن نقص فقد ابتدع إذا تعبد بهذا، وعليه إثمه، وهكذا ما يتعلق بالصلاة والصيام والحج وسائر أمور الدين، كلها يجب فيها الاتباع، ليس لأحد أن يزيد أو ينقص، فلو قال إنسان: أنا الحمد لله أحب الزيادة في الخير، أنا أصلي الظهر ست أو سبع، والعصر كذلك، والعشاء كذلك، والمغرب ما تكفيني الثلاث أصلي خمس أو سبع، غلط ومنكر، ما يجوز لك هذا، الصلاة باطلة إذا زدتها عمدًا، ليس لك أن تزيد ولا تنقص لا في صلاة ولا في غيرها من العبادة، المقصود في من هذا كما قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومثلما قال الصحابة: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قلت): وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروفٌ اليوم إلى جانب الباب ممّا يلي الحجر يمنة الدّاخل من الباب في البقعة المستقلّة هناك، وكان الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنّه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا، والله

أعلم، أمر بالصّلاة هناك عند الفراغ من الطّواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنّما أخّره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أحد الأئمّة المهديّين والخلفاء الرّاشدين الّذين أمرنا باتّباعهم، وهو أحد الرّجلين اللّذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اقْتَدَوْا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[(١)]، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصّلاة عنده، ولهذا، لم ينكر ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وأخَّره توسعة للمطاف، وكان ملصقًا وربما عثر فيه بعض الناس عند الازدحام، فأخَّره عمر رضي الله عنه ليتسع محل الناس في الطواف، هذا هو السبب، كان ملصقًا بالكعبة؛ يعني: الحجر، ثم أخَّره فصار الناس يصلون خلفه كما صلَّى النبي صلى الله عليه وسلم خلفه، والحكمة في تأخيره للتوسعة على الطائفين.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قال عبد الرّزّاق، عن ابن جريج: حدّثني عطاءٌ وغيره من أصحابنا، قال: أول ما نقله عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وقال عبد الرّزّاق أيضًا، عن معمرٍ، عن حميدٍ الأعرج، عن مجاهدٍ، قال: أوّل من أخّر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطّان، أخبرنا القاضي أبو بكرٍ أحمد بن كاملٍ، حدّثنا أبو إسماعيل محمّد بن إسماعيل السّلميّ، حدّثنا أبو ثابتٍ، حدّثنا الدّراورديّ، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أن المقام

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما برقم (٣٦٦٢)، والإمام أحمد (٥/ ٣٨٢).

كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقًا بالبيت، ثمّ أخّره عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وهذا إسنادٌ صحيحٌ مع ما تقدم.

وقال ابن أبي حاتمٍ: أخبرنا أبي، أخبرنا ابن أبي عمر العدنيّ، قال: قال سفيان؛ يعني: ابن عيينة وهو إمام المكّيّين في زمانه: كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوّله عمر إلى مكانه بعد النّبيّ ﷺ وبعد قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾؛ قال: ذهب السّيل به بعد تحويل عمر إيّاه من موضعه هذا، فردّه عمر إليه.

وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله، وقال سفيان: لا أدري أكان لاصقًا بها أم لا؟

فهذه الآثار متعاضدةٌ على ما ذكرناه، والله علم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم، أخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن أبي تمام، أخبرنا آدم هو ابن أبي إياس في تفسيره، أخبرنا شريك، عن إبراهيم بن المهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، لو صلّينا خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فكان المقام عند البيت، فحوّله رسول الله ﷺ على موضعه هذا. قال مجاهد: وكان عمر يرى الرّأي فينزل به القرآن.

هذا مرسلٌ عن مجاهدٍ، وهو مخالفٌ لما تقدّم من رواية عبد الرّزّاق عن معمرٍ، عن حميدٍ الأعرج، عن مجاهدٍ: أنّ أوّل من أخّر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وهذا أصحّ من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

ومعنى المرسل: أي: المنقطع، قد يستعمل المرسل فيما يرويه

التابعي عن النبي ﷺ، وقد يستعمل المرسل بأنه المنقطع؛ لأن مجاهدًا ما أدرك عمر، ولهذا قال: مرسل؛ يعني: منقطع..

* *

☐ تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [١٢٥][1].

﴿مَثَابَةً﴾ [١٢٥] يثوبون: يرجعون.

حدّثنا مسدّدٌ، عن يحيى بن سعيدٍ، عن حميدٍ، عن أنسٍ قال: قال عمر: «وافقت الله في ثلاثٍ ـ أو وافقني ربّي في ثلاثٍ ـ قلت: يا رسول الله، لو اتّخذت مقام إبراهيم مصلًّى، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النّبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهنّ قلت: إن انتهيتنّ، أو ليبدّلنّ الله رسوله ﷺ خيرًا منكنّ، حتّى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتّى تعظهنّ أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ﴾ الآيَةَ» [التحريم: ٥]، وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيّوب، حدّثني حميدٌ سمعت أنسًا عن عمر»[2].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الله أكبر، اللّهمّ ارض عنه، وهذا ممّا أعطاه الله من الفقه، والفهم والإصابة للحقّ رضي الله عنه وأرضاه، الله أكبر.

---

(١) من شرح سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ لصحيح البخاري كتاب التفسير.

(٢) متفق عليه من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ برقم (٤٤٨٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم (٢٣٩٩).

وهذا من إظهار الله أيضًا فضله وكمال إيمان هذا الرّجل، وعظم فراسته، وتوفيق الله له في إصابة الحقّ، اللّهمّ ارض عنه.

وهذا يدلّ على أنّه رضي الله عنه كان موفقًا، يجري الله الحقّ على لسانه وقلبه، ولذلك ما أشار به أنزل الله به القرآن: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وأنزل آية الحجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وأنزل الله في النّساء لما تظاهرن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾.

ومواقفه عظيمةٌ رضي الله عنه، وقوته في الحقّ مشهورةٌ، ومع ذلك فهو غير معصومٍ، مثل غيره قد يخطئ ويصيب رضي الله عن الجميع.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ **[البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٨]**(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قال الحسن البصريّ: قوله: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾؛ قال: أمرهما الله أن يطهّراه من الأذى والنّجس، ولا يصيبه من ذلك شيءٌ.

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وقال ابن جريجٍ: قلت لعطاءٍ: ما عهده؟ قال: أمره..

وقال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ أي: أمرناه كذا، قال: والظّاهر أنّ هذا الحرف إنّما عدّي بإلى؛ لأنّه في معنى: تقدّمنا وأوحينا.

وقال سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ: قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾؛ قال: من الأوثان.

وقال مجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾: إنّ ذلك من الأوثان والرّفث وقول الزّور والرّجس.

قال ابن أبي حاتمٍ، وروي عن عبيد بن عميرٍ وأبي العالية وسعيد بن جبيرٍ ومجاهدٍ وعطاءٍ وقتادة: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾: أي: بلا إلٰه إلّا الله من الشّرك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الآية عامة، تعم تطهيره من النجاسات، وتطهيره من الشرك والأوثان، وتطهيره من كل ما يؤذي الطائفين والمصلين، فالآيات عامة، والله أوحى إليهما: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾؛ فالتطهير يكون بإصابة المحل سليمًا بعيدًا من النجاسات والأذى عن محل الطواف والمصلين، وأعظم من ذلك وأكبر تطهيره من الشرك والأوثان والأصنام. ولهذا، لما فتح الله على رسوله عليه الصلاة والسلام مكة بعث بكسر الأصنام وإزالتها وتحطيمها؛ لأنها ضد التوحيد، وضد ما بعث الله به الرسل، فهي أعظم المنكر وأقبح المنكر وأقبح الرجس، ولهذا، قال سبحانه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ فهي أعظم الرجس وأخبث الرجس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أمّا قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ فالطّواف بالبيت معروفٌ. وعن سعيد بن جبيرٍ أنّه قال في قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ يعني: من أتاه

من غربةٍ ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة والرّبيع بن أنسٍ، أنّهما فسّرا العاكفين بأهله المقيمين فيه؛ كما قال سعيد بن جبيرٍ.

وقال يحيى القطّان، عن عبد الملك هو ابن أبي سليمان، عن عطاءٍ في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾؛ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده، وقال لنا ونحن مجاورون: أنتم من العاكفين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعاكف: هو القائم، هو المقيم فيه؛ كما في الآية الأخرى آية الحج: ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]؛ فالطائف قد يكون مقيمًا وقد يكون مسافرًا، إنما جاء للحج أو العمرة، والعاكف والقائم هو المقيم فيه سواء؛ كان من أصله أو كان قدم إليه وأقام به، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾: هم المصلون، والمقصود: طهروه للجميع ممن ينتاب هذا البيت من طائف وراكع وساجد ومقيم فيه، حتى لا يكون فيه مكان للجاهلية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال وكيعٌ، عن أبي بكرٍ الهذليّ، عن عطاءٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: إذا كان جالسًا فهو من العاكفين.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا موسى بن إسماعيل، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابتٌ، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عميرٍ: ما أراني إلّا مكلّمٌ الأمير أن أمنع الّذين ينامون في المسجد الحرام، فإنّهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإنّ ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون.

ورواه عبد بن حميدٍ، عن سليمان بن حربٍ، عن حمّاد بن سلمة، به.

(قلت): وقد ثبت في الصّحيح أنّ ابن عمر كان ينام في مسجد

الرّسول ﷺ وهو عزبٌ[1]، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾؛ فقال وكيعٌ، عن أبي بكرٍ الهذليّ، عن عطاءٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾؛ قال: إذا كان مصلّيًا فهو من الرّكّع السّجود، وكذا قال عطاءٌ وقتادة.

قال ابن جريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمعنى الآية، وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطّائفين، والتّطهير الذي أمرهما الله به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشّرك، ثمّ أورد سؤالًا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيءٌ من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بجوابين:

[أحدهما]: أنّه أمرهما بتطهيره ممّا كان يعبد عنده زمان قوم نوحٍ من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنّةً لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به؛ كما قال عبد الرّحمٰن بن زيدٍ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾؛ قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظّمونها.

(قلت): وهذا الجواب مفرّعٌ على أنّه كان يعبد عنده أصنامٌ قبل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليلٍ عن المعصوم محمّدٍ ﷺ.

[الجواب الثّاني]: أنّه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهّرًا من الشّرك والرّيب؛ كما قال جلّ ثناؤه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التّوبة: ١٠٩]؛ قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾؛ أي: ابنياه على طهرٍ من الشّرك بي والرّيب؛ كما قال السّدّيّ ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾.

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب تقدم الرجال في المسجد برقم (٤٤٠)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر برقم (٢٤٧٩).

وملخّص هذا الجواب: أنّ الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطّائفين به، والعاكفين عنده، والمصلّين إليه من الرّكّع السّجود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقد اختلف الفقهاء: أيهما أفضل: الصلاة عند البيت أو الطواف به؟

فقال مالك رحمه الله: الطواف به لأهل الأمصار أفضل. وَقَالَ الْجُمْهُورُ: الصَّلَاةُ أَفْضَلُ مُطْلَقًا، وَتَوْجِيهُ كُلٍّ مِنْهُمَا يُذْكَرُ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

ووجه من قال أن الطواف أفضل؛ لأن الطواف لا يوجد إلا في مكة، ليس هناك شيء يطاف به في الدنيا إلا الكعبة، ولهذا، قال مالك وجماعة أن الإكثار من الطواف أفضل في حق الغرباء الذين يأتون ثم يذهبون؛ لأنهم لا يتمكنون من هذا دائمًا، بخلاف المقيمين في مكة، فهؤلاء الصلاة أفضل لهم؛ يعني: جنس الصلاة أفضل من جنس الطواف؛ لما فيها من الفضل العظيم، فالإكثار هنا أولى في حقهم من الإكثار من الطواف، والمشروع للمؤمن أن يكثر من هذا وهذا؛ سواء كان غريبًا أو مقيمًا، المشروع له أن يستكثر من الطواف والصلاة؛ لما في ذلك من المضاعفة العظيمة والخير الكثير، لكن الغريب ينبغي له أن يكون حظه من الطواف أكثر؛ لكونه لا يدرك ذلك في المستقبل، بخلاف المقيم فإنه يدرك هذا وهذا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

والمراد من ذلك: الرّدّ على المشركين الّذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسّس على عبادته وحده لا شريك له، ثمّ مع ذلك يصدّون أهله المؤمنين عنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحجّ: ٢٥].

ثمّ ذكر أنّ البيت إنّما أسّس لمن يعبد الله وحده لا شريك له؛ إمّا بطوافٍ أو صلاةٍ، فذكر في سورة الحجّ أجزاءها الثّلاثة: قيامها وركوعها وسجودها، ولم يذكر العاكفين؛ لأنّه تقدّم ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾. وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الرّكوع والسّجود عن القيام؛ لأنّه قد علم أنّه لا يكون ركوعٌ ولا سجودٌ إلّا بعد قيام، وفي ذلك أيضًا ردٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنّصارى؛ لأنّهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنّه بنى هذا البيت للطّواف في الحجّ والعمرة وغير ذلك، وللاعتكاف والصّلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حجّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النّجم: ٤].

وتقدير الكلام إذًا: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾؛ أي: تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل، ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾؛ أي: طهّراه من الشّرك والرّيب، وابنياه خالصًا لله معقلًا للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود، وتطهير المساجد مأخوذٌ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ومن السّنّة من أحاديث كثيرةٍ من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنّجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا، قال ﷺ: «**إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**»[١]. وقد جمعت في ذلك جزءًا على حدةٍ، ولله الحمد والمنّة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد برقم (٥٦٩).

وقد اختلف النّاس في أوّل من بنى الكعبة:

فقيل: الملائكة قبل آدم، روي هذا عن أبي جعفرٍ الباقر محمّد بن عليّ بن الحسين، ذكره القرطبيّ وحكى لفظه، وفيه غرابةٌ.

وقيل: آدم عليه السلام، رواه عبد الرّزّاق عن ابن جريجٍ، عن عطاءٍ وسعيد بن المسيّب وغيرهم: أنّ آدم بناه من خمسة أجبلٍ: من حراءٍ وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجوديّ، وهذا غريبٌ أيضًا.

وروي عن ابن عبّاسٍ وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبّهٍ: أنّ أوّل من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذه إنّما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي ممّا لا يصدّق ولا يكذّب ولا يعتمد عليها بمجرّدها، وأمّا إذا صحّ حديثٌ في ذلك فعلى الرّأس والعين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

والمعلوم أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام وابنه إسماعيل، هذا المعروف، وقد نص عليه القرآن الكريم، وبيَّنه الله في كتابه وبيَّنه رسوله عليه الصلاة والسلام. أما ما يروى أنه ملك من الملائكة، أو آدم، أو شيث، فهذا ليس عليه دليل يعتمد ولا يعول عليه؛ لأنه من أخبار بني إسرائيل التي قال فيها النبي ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ؛ فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ**»(١)؛ لأنه قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا، فلا يصدق من كلام أهل الكتاب مما ينقل عن الأمم الماضية، لا يصدق منه إلا ما جاء به النص من القرآن ومن السُّنَّة الصحيحة، هذا هو الذي يعتمد، أما ما ينقل عمن مضى من الأمم فلا يعتمد عليه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه (٤/ ١٣٦).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: أخبرنا ابن بشار، قال: أخبرنا عبد الرحمٰن بن مهدي، أخبرنا سفيان، عن أبي الزّبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا**»، وهكذا رواه النّسائيّ عن محمّد بن بشّارٍ بندارٍ، به.

وأخرجه مسلمٌ عن أبي بكر بن أبي شيبة وعمرو بن النّاقد؛ كلاهما عن أبي أحمد الزّبيريّ، عن سفيان الثوري[١].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا سند جيد (. . . . .)، وهذا مشهور في الصحاح أنه حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهكذا نبينا محمد ﷺ حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن جرير أيضًا: أخبرنا أبو كريبٍ وأبو السّائب، قالا: حدّثنا ابن إدريس، وأخبرنا أبو كريب، أخبرنا عبد الرّحيم الرّازيّ، قالا جميعًا: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إِبْرَاهِيمَ كَانَ عبد اللهِ وَخَلِيلَهُ، وَإِنِّي عبد اللهِ وَرَسُولُهُ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا: عِضَاهَهَا وَصَيْدَهَا، لَا يُحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا يُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلَفِ بَعِيرٍ**».

وهذه الطّريق غريبةٌ ليست في شيءٍ من الكتب السّتّة، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» من وجهٍ آخر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال كان النّاس إذا رأوا أوّل الثّمر جاؤوا به إلى النّبيّ ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة. . . برقم (١٣٦٢).

وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ». ثمّ يدعو أصغر وليدٍ له فيعطيه ذلك الثّمر، وفي لفظٍ: «**بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ**»، ثمّ يعطيه أصغر من يحضره من الولدان ـ لفظ مسلمٍ[(١)].

ثمّ قال ابن جريرٍ: حدّثنا أبو كريبٍ، حدثنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا بكر بن مضرٍ، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمّدٍ، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا**»[(٢)]، انفرد بإخراجه مسلمٌ، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضرٍ، به، ولفظه كلفظه سواءٌ.

وفي الصّحيحين عن أنس بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «**الْتَمِسْ لِي غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدِمُنِي**»، فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلّما نزل، وقال في الحديث: ثمّ أقبل حتّى إذا بدا له أحدٌ قال: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»، فلمّا أشرف على المدينة قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا مِثْلَمَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ**»[(٣)]. وفي لفظٍ لهما: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مِكْيَالِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ**»[(٤)]، زاد البخاريّ: يعني: أهل المدينة.

ولهما أيضًا عن أنسٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها برقم (١٣٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها برقم (١٣٦١).

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه برقم (٤٠٨٤)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي فيها... برقم (١٣٦٥).

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي ﷺ ومده برقم (٢١٣٠)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل المدية.... برقم (١٣٦٨).

بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَهُ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ»(١).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا، وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ لِمَكَّةَ**» رواه البخاريّ وهذا لفظه(٢).

ومسلمٌ ولفظه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلَهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ لَهَا فِي صاعها ومُدِّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة**».

وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَامًا، وَإِنِّي حرَّمت المدينة حرامًا ما بين مأزِميها، أن لَا يَهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا يُخْبَطُ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلَفٍ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بِرْكَتَيْنِ**»، الحديث، رواه مسلمٌ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: عندكم: «مثل»؟

الطالب: نعم. أحسن الله إليك!

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: أو مثلي؟

الطالب: لا، مثل.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: جاء هذا وهذا، والمقصود: أنه ثبت أنه ﷺ دعا لأهل المدينة بمثلي ما دعا به إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ يعني: بركة مع بركة، وهي ضعفين قال فيه جل وعلا: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب برقم (١٨٨٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة... برقم (١٣٦٩).

(٢) سبق تخريجه في (ص٢٨٩).

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى أن إبراهيم حرَّم مكة؛ يعني: أظهر تحريمها وبيَّنه للناس، وإلا، فهي محرَّمة من حين خلق الله السماوات والأرض، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**»، وبعث الله إبراهيم فأظهر ذلك وبيَّنه للناس، هذا معنى تحريم إبراهيم، أنه بينه للناس ونشره للناس حتى علموا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرةٌ، وإنّما أوردنا منها ما هو متعلّقٌ بتحريم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمكّة؛ لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة. وتمسّك بها من ذهب إلى أنّ تحريم مكّة إنّما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنّها محرّمةٌ منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى، والله يعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا هو الصواب؛ لأن الأحاديث الصحيحة دالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض كما تقدم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد وردت أحاديث أُخَر تدلّ على أنّ الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض؛ كما جاء في الصّحيحين، عن عبد الله بن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة: «**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا**»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر؟ فإنه لقَيْنِهم ولبيوتهم، فقال: «**إِلَّا الْإِذْخِرَ**»، وهذا لفظ مسلم، ولهما عن أبي هريرة نحوٌ من ذلك.

ثم قال البخاري بعد ذلك: وقال أبان بن صالح، عن الحسن بن

مسلم، عن صفيّة بنت شيبة: سمعت النّبيّ ﷺ مثله، وهذا الذي علّقه البخاريّ رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه، عن محمّد بن عبد الله بن نميرٍ، عن يونس بن بكيرٍ، عن محمّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن ينّاقٍ، عن صفيّة بنت شيبة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السموات وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يَأخذ لُقَطَتَهَا إِلَّا مُنْشِدٌ**»، فقال العبّاس: إلّا الإذخر؟ فإنّه للبيوت والقبور، فقال رسول الله ﷺ: «**إِلَّا الْإِذْخِرَ**»[١].

وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكّة: ائذن لي أيها الأمير أن أحادثك قولًا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلّم به ـ إنّه حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «**إن مكة حرَّمها الله ولم يحرِّمها النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائب**». فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريحٍ، إنّ الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًّا بدمٍ ولا فارًّا بخربةٍ، رواه البخاريّ ومسلمٌ، وهذا لفظه[٢].

فإذا علم هذا، فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدّالّة على أنّ الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب من شهد الفتح برقم (٤٣١٣).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب برقم (١٠٤)، ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام برقم (١٣٥٤).

حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبيَّن الأحاديث الدّالّة على أنّ إبراهيم عليه السلام حرّمها؛ لأنّ إبراهيم بلّغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إيّاها، وأنّها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنّه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النّبيّين، وإنّ آدم لمنجدلٌ في طينته، ومع هذا، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره. ولهذا، جاء في الحديث أنّهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال: «**دعوة أبي إبراهيم عليه السلام، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمّي كأنّه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشّام**»؛ أي: أخبرنا عن بدء ظهور أمرك؛ كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.

وأمّا مسألة تفضيل مكّة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكّة كما هو مذهب مالكٍ وأتباعه، فتذكر في موضعٍ آخر بأدلّتها إن شاء الله، وبه الثّقة.

وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنّه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: من الخوف؛ أي: لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه.

وفي «صحيح مسلم» عن جابرٍ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ**»(١). وقال في هذه السّورة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنّه قبل بناء الكعبة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة برقم (١٣٥٦).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمعنى في هذا: أن الله أمن أهله؛ يعني: أوجب على الناس أن يؤمنوه، وأوجب عليهم فيما بينهم أن يؤمن بعضهم بعضًا، وقد وقع ذلك شرعًا كما وقع قدرًا بالنسبة إلى الغارم؛ فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمون ذلك، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو قاتل أخيه فلا يؤذيه ما دام في الحرم.

وليس معنى ذلك أنه لا يقع فيه شيء من الحدث والباطل والعدوان، يقع، لكن الله أوجب عليهم ألا يقع، وأن يحترموا هذا البلد، وأن يحذروا إخافة أهله. ولهذا، قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ يعني: من دخله وجب أن يؤمن، وجب ألا يعتدى عليه، وإلا، فقد يقع منهم ومن غيرهم الشر والفساد، يقع في الحرم فيجتمع عليهم من ذلك عصيان الله في الجملة ومخالفة أمره في تأمين البلد والحذر من إخافة أهلها، فيجتمع لهم مضاعفة الإثم.

وقد وقع في عهد الصحابة ما وقع من إخافة أهله، فقد أرسل إليهم يزيد بجيوش لقتال ابن الزبير، فحوصر البلد، وكذلك بعد ذلك في مجيء الحجاج إليه حتى قتل ابن الزبير وهو في مكة، وقتل معه أناس كثير، وتقع حوادث؛ يُخالف فيها أمر الله.

فالحاصل: أنه خبر معناه الأمر، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؛ يعني: من دخله فأمِّنوه ولا تعدوا عليه، ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ يعني: يجب أن يكون كذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالى في سورة إبْراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وناسب هذا هناك؛ لأنّه ـ والله أعْلم ـ كأنّه وقع دعاء مرة ثانية بعْد بناء الْبيْت واسْتقْرار أهْله به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأنه قال: ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ بالتعريف في سورة إبراهيم، بعدما استقر في

بلده وبنيت الكعبة وبني البيت، وفي سورة البقرة: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ بالتنكير، فالمؤلف يقول: لعل الدعوة الأولى كانت قبل البناء، والدعوة الأخيرة التي فيها الأمن للبلد بعدما حصل البناء واستقر في البلد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنةٍ، ولهذا، قال في آخر الدّعاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾؛ قال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعبٍ، قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾؛ قال: هو قول الله تعالى، وهذا قول مجاهدٍ وعكرمة، وهو الذي صوبه ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال: وقرأ آخرون: قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَمَتِّعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم؛ كما رواه أبو جعفرٍ، عن الرّبيع، عن أبي العالية، قال: كان ابن عبّاسٍ يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربّه أنّ من كفر فأمتعه قليلًا.

وقال أبو جعفرٍ، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهدٍ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فمتعه قَلِيلًا﴾؛ يقول: ومن كفر فارزقه قليلًا، أيضًا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾..

قال محمد بن إسحاق: لما عنزل إبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية ـ انقطاعًا إلى الله ومحبّته، وفراقًا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذرّيّته، حين عرف أنّه كائن منهم ظالم لا يناله عهده

بخبر الله له بذلك، قال الله تعالى: ومن كفر فإنّي أرزق البرّ والفاجر وأمتّعه قليلًا.

وقال حاتم بن إسْماعيل، عنْ حميْدٍ الْخرّاط، عنْ عمّارٍ الدّهْنيّ، عنْ سعيد بْن جبيْرٍ، عن ابْن عبّاسٍ في قوْله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؛ قال ابْن عبّاسٍ: كان إبْراهيم يحْجرها على الْمؤْمنين دون النّاس، فأنْزل الله: ومنْ كفر أيْضًا أرْزقهمْ كما أرْزق الْمؤْمنين، أأخْلق خلْقًا لا أرْزقهمْ؟ أمتّعهمْ قليلًا ثمّ أضْطرّهمْ إلى عذاب النّار وبئْس الْمصير، ثمّ قرأ ابْن عبّاسٍ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، رواه ابن مردويه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا هو الواقع، فإنه خلقهم ورزقهم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، يعم الكافر والمؤمن، كلٌّ رزقه على الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، لكن الكافر يرزق استدراجًا وإمهالًا ثم تكون عاقبته وخيمة؛ لأنه لم يمتثل الأوامر ولم يستعن بالرزق على طاعة الرزاق سبحانه، فتكون عليه العاقبة وخيمة، والمؤمن يرزق ويستعين بالرزق على طاعة الله فتكون له العاقبة حميدة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروي عن عكرمة ومجاهدٍ نحو ذلك أيضًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ

غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤] وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والدنيا كلها قليلة، ولو مُتِّعوا آلاف الأعوام، كلها قليلة، فمتاع الدنيا قليل، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]. فالدنيا كلها قليلة بالنسبة إلى الآخرة؛ لأن الآخرة دائمة لا تنتهي والدنيا منتهية، مهما طال عمر الإنسان ومهما طالت نعمته وحياته فهو منتهٍ وداره منتهية كلها. والله المستعان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾؛ أي: ثمّ ألجئه بعد متاعه في الدّنيا وبسطنا عليه من ظلّها إلى عذاب النّار وبئس المصير، ومعناه: أنّ الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثمّ يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحجّ: ٤٨]، وفي الصّحيحين: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**»(١)، وفي الصّحيح أيضًا: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، ثُمّ قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](٢).

وقرأ بعضهم: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ الآية، جعله من تمام دعاء

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٠).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ برقم (٤٦٨٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٨٣).

إبراهيم وهي قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة، وتركيب السياق يأبى معناها، والله أعلم، فإن الضمير في قالَ راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في قالَ عائدًا على إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العلام.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الآية وأشباهها فيها الحذر من الغرور بالدنيا وزينتها ونعيمها وما أعد الله لأهلها فيها وأنها دار زائلة لا ينبغي للعاقل أن يغتر بها مهما بلغ فيها ومهما أعطي فيها من مال ورياسة وحياة وغير ذلك؛ فإنها دار الغرور، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، يغتر بها الأكثرون، ثم يرجعون إلى غاية العذاب والبؤس نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ فالقواعد جمع قاعدةٍ، وهي السّارية والأساس، يقول تعالى: واذكر ـ يا محمّد ـ لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ البيت ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، وحكى القرطبي وغيره عن أبي وابن مسعود أنهما كانا يقرآن: (وإِذْ يرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليم).

(قلت): ويدل على هذا قولهما بعده: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الآية، فهما في عملٍ صالحٍ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبّل منهما؛ كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمّد بن يزيد بن خنيسٍ المكّيّ، عن وهيب بن الورد، أنّه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، ثمّ يبكي ويقول: يا خليل الرّحمٰن، ترفع قوائم بيت الرّحمٰن وأنت مشفقٌ أن لا يتقبّل منك. وهذا كما

حكى الله تعالى عَن حَال المؤمنين الخلص في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: يعطون ما أعطوا من الصّدقات والنّفقات والقربات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: خائفة أن لّا يتقبّل منهم؛ كما جاء به الحديث الصّحيح عن عائشة، عن رسول الله ﷺ؛ كما سيأتي في موضعه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا المعنى يقول السلف: من كان بالله أعرف كان منه أخوف! فإبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد ومع ذلك يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، وهما نبيَّان يسألان الله جَلَّ أن يتقبَّل منهما، فالعبد في حاجة إلى أن يسأل ربه القَبول والمغفرة وإن كان نبيًّا، وإن كان رسولًا، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(١)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ يعني: الخشية الكاملة، وعلى رأس العلماء هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذه الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: يعطون ما يعطون وينفقون ما ينفقون ويعملون ما يعملون، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ يعني: خائفة مشفقة ألا يتقبل منها وأنهم إلى ربهم راجعون قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر؟ قال: «**لا، وَلَكِنَّهُ الذي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وهو يخَافُ الله** عَزَّ وَجَلَّ»(٢)؛ يعني: يعمل وهو خائف وليس بآمن، يعمل ويجتهد في طاعة ربه وهو خائف ألا يقبل منه؛ لتقصير يقع منه، لتساهل، لغير هذا من أنواع الشر؛ من الرياء، من غير ذلك، فالعبد عرضة لأسباب الخطر. فلهذا، يشرع له أن يسأل ربه دائمًا أن يتقبل منه، وأن يعيذه من شر نفسه وهواه، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٥٩).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال بعض المفسّرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والدّاعي إسماعيل، والصّحيح أنّهما كانا يرفعان ويقولان؛ كما سيأتي بيانه.

وقد روى البخاريّ هاهنا حديثًا سنورده ثمّ نتبعه بآثارٍ متعلّقةٍ بذلك، قال البخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حدّثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الرّزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن أيّوب السّختيانيّ وكثير بن كثير بن المطّلب بن أبي وداعة ـ يزيد أحدهما على الآخر ـ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أوّل ما اتّخذ النّساء المِنطق من قبل أمّ إسماعيل، اتّخذت منطقًا لتعفّي أثرها على سارّة، ثمّ جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكّة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أمّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس؟ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيّعنا. ثمّ رجعت. فانطلق إبراهيم حتّى إذا كان عند الثّنيّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وجعلت أمّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السّقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى ـ أو قال: يتلبّط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه ثمّ استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصّفا حتّى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها ثمّ سعت سعي الإنسان المجهود حتّى جاوزت الوادي، ثمّ أتت

المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرّاتٍ، قال ابن عبّاسٍ: قال النّبيّ ﷺ: «**فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا**»[(١)]، فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت «صهٍ» ـ تريد نفسها ـ ثمّ تسمّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتّى ظهر الماء، فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عبّاسٍ: قال النّبيّ ﷺ: «**يرحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ** أَوْ قَالَ: **لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ ـ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»[(٢)].

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضّيعة، فإنّ هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرّابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتّى مرّت بهم رفقةٌ من جرهم أو أهل بيتٍ من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكّة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنّ هذا الطّائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جريًّا أو جريّين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأمّ إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم.

قال ابن عبّاسٍ: قال النّبيّ ﷺ: «**فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه برقم (٢٣٦٨).

حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً منهم، وماتت أم إسماعيل فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ لِيُطَالِعَ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

تركته؛ يعني: متروكه؛ يعني: إسماعيل وأمه، وما هو بالتركة المال هنا. تركته: متروكه، فاعل بمعنى مفعول لينظر ماذا فعل إسماعيل وأمه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثمّ سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغيّر عتبة بابه، فلمّا جاء إسماعيل، كأنّه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهدٍ وشدّةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السّلام، ويقول غيّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوّج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثمّ أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

معنى يبتغي لنا: يكتسب الرزق بالصيد ونحوه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ، وأثنت على الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللّحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء.

قال: اللّهمّ بارك لهم في اللّحم والماء، قال النّبيّ ﷺ: **«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ»** قال: فهما لا يخلو عليهما

أحدٌ بغير مكّة إلّا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه **يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جاء إسماعيل قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مَنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رآه قام إليه، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد»**.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: **يعني**: تعانقا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ قال: يا إسماعيل، إنّ الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإنّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتّى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾؛ قال: فجعلا يبنيان حتّى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، ورواه عبد بن حميدٍ، عن عبد الرزاق، به، مطوّلًا، ورواه ابن أبي حاتمٍ عن أبي عبد الله بن حماد الطهراني، وابن جريرٍ عن أحمد بن ثابتٍ الرّازيّ؛ كلاهما عن عبد الرّزّاق، به، مختصرًا.

وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا بشر بن موسى، أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي، أخبرنا مسلم بن خالدٍ الزّنجيّ، عن عبد الملك بن جريجٍ، عن كثير بن كثيرٍ، قال: كنت

أنا وعثمان بن أبي سليمان وعبد الله بن عبد الرّحمٰن بن أبي حسينٍ في ناسٍ مع سعيد بن جبيرٍ في أعلى المسجد ليلًا، فقال سعيد بن جبيرٍ: سلوني قبل أن لا تروني، فسألوه عن المقام، فأنشأ يحدّثهم عن ابن عبّاسٍ، فذكر الحديث بطوله.

ثمّ قال البخاريّ: حدّثنا عبد الله بن محمّدٍ، أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، أخبرنا إبراهيم بن نافعٍ، عن كثير بن كثيرٍ، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ ﵄، قال: لمّا كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأمّ إسماعيل ومعهم شنّةٌ فيها ماءٌ، فجعلت أمّ إسماعيل تشرب من الشّنّة فيدرّ لبنها على صبيّها، حتّى قدم مكة، فوضعهما تحت دوحةٍ ثمّ رجع إبراهيم إلى أهله، فاتّبعته أمّ إسماعيل حتّى بلغوا كداء، نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشّنّة ويدرّ لبنها على صبيّها، حتّى لمّا فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلّي أحس أحدًا، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت هل تحسّ أحدًا، فلم تحسّ أحدًا، فلمّا بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة، وفعلت ذلك أشواطًا حتّى أتمّت سبعًا، ثمّ قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصّبيّ، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنّه ينشغ للموت، فلم تقرّها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلّي أحس أحدًا، فذهبت فصعدت الصّفا، فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا حتى أتمت سبعًا ثم فعلت ثمّ قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوتٍ فقالت: أغث إن كان عندك خيرٌ، فإذا جبريل ﵇، قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، فانبثق الماء، فدهشت أمّ إسماعيل، فجعلت تحفر، قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «**لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا**».

قال: فجعلت تشرب من الماء ويدرّ لبنها على صبيّها.

قال: فمرّ ناسٌ من جرهم ببطن الوادي، فإذا هم بطيرٍ، كأنّهم

أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطّير إلّا على ماءٍ، فبعثوا رسولهم، فنظر فإذا هو بالماء، فأتاهم فأخبرهم، فأتوا إليها، فقالوا: يا أمّ إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأةً، قال: ثمّ إنّه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إنّي مطّلعٌ تركَتي، قال: فجاء فسلّم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء: غيّر عتبة بابك، فلما أخبرته، قال: أنتِ ذاك فاذهبي إلى أهلك، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم فقال: إنّي مطّلعٌ ترِكتي، قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ فقال: ما طعامكم، وما شرابكم؟ فقالت: طعامنا اللّحم، وشرابنا الماء، قال: اللّهمّ بارك لهم في طعامهم وشرابهم.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ «**بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ**».

قال: ثمّ إنّه بدا لإبراهيم ﷺ: فقال لأهله: إنّي مطّلعٌ تركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلًا له، فقال: يا إسماعيل، إنّ ربّك ﷻ أمرني أن أبني له بيتًا: فقال: أطع ربّك ﷻ، قال: إنّه قد أمرني أن تعينني عليه، فقال: إذن أفعل ـ أو كما قال ـ، قال: فقام فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ قال: حتّى ارتفع البناء وضعف الشّيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾.

هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء.

والعجب أنّ الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرك عن أبي العبّاس الأصمّ، عن محمّد بن سنانٍ القزّاز، عن أبي عليٍّ عبيد الله بن عبد المجيد الحنفيّ، عن إبراهيم بن نافعٍ، به، وقال:

صحيحٌ على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه، كذا قال، وقد رواه البخاريّ كما ترى من حديث إبراهيم بن نافعٍ، وكأن فيه اختصارًا، فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح، وقال: جاء في الصّحيح أنّ قرني الكبش كانا معلّقين بالكعبة، وقد جاء أنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يزور أهله بمكّة على البراق سريعًا ثمّ يعود إلى أهله بالبلاد المقدّسة، والله أعلم، والحديث ـ والله ـ أعلم إنّما فيه مرفوعٌ أماكن صرّح بها ابن عبّاسٍ عن النّبيّ ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ في هذا السّياق ما يخالف بعض هذا؛ كما قال ابن جريرٍ:

حدّثنا محمّد بن بشّارٍ ومحمّد بن المثنى، قالا: أخبرنا مؤمل، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرّبٍ، عن عليّ بن أبي طالبٍ، قال: لمّا أمر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر، قال: فلمّا قدم مكّة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم، ابن على ظلّي، أو قال: على قدري، ولا تزد ولا تنقص، فلمّا بنى خرج وخلّف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: انطلق فإنّه لا يضيّعنا، قال: فعطش إسماعيل عطشًا شديدًا، قال: فصعدت هاجر إلى الصّفا، فنظرت فلم تر شيئًا، حتّى أتت المروة فلم تر شيئًا، ثمّ رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئًا، ففعلت ذلك سبع مرّاتٍ، فقالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك، فأتته وهو يفحص برجله من العطش، فناداها جبريل، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أمّ ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ، قال: ففحص الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم، فجعلت تحبس الماء، فقال: دعيه فإنّها رواءٌ.

ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل أنه

كان محفوظًا أن يكون أوّلًا وضع له حوطًا وتحجيرًا لا أنّه بناه إلى أعلاه، حتّى كبر إسماعيل فبنياه معًا كما قال الله تعالى.

ثمّ قال ابن جريرٍ: أخبرنا هنّاد بن السّريّ، حدّثنا أبو الأحوص، عن سماكٍ، عن خالد بن عرعرة: أنّ رجلًا قام إلى عليٍّ رضي الله عنه، فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أوّل بيتٍ وضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنّه أوّل بيت وضع في البركة مقام إبراهيم، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾، وإن شئت أنبأتك كيف بني: إنّ الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتًا في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعًا، فأرسل الله السّكينة وهي ريحٌ خجوجٌ ولها رأسان، فأتبع أحدهما صاحبه حتّى انتهت إلى مكّة، فتطوّت على موضع البيت كطيّ الحجفة، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقرّ السكينة، فبنى إبراهيم وبقي الحجر، فذهب الغلام يبغي شيئًا، فقال إبراهيم: أبغني حجرًا كما آمرك، قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجرًا، فأتاه به، فوجده قد ركّب الحجر الأسود في مكانه، قال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ قال: أتاني به من لم يتّكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام من السّماء فأتمّاه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

يعني: أول بيت وضع للعبادة والطاعة، لا أنه أول بيت وضع للناس للسكنى، فقَبْله نوح وقبله أمم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن يزيد المُقري، أخبرنا سفيان، عن بشرٍ بن عاصمٍ، عن سعيد بن المسيّب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غثاءةً على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عامًا، ومنه دحيت الأرض.

قال سعيدٌ: وحدّثنا عليّ بن أبي طالبٍ: أن إبراهيم أقبل من أرض

أرمينيّة ومعه السّكينة تدلّه على تبوُّء البيت كما تتبوّأ العنكبوت بيتًا، قال: فكشفت عن أحجارٍ لا يطيق الحجر إلّا ثلاثون رجلًا، فقلت: يا أبا محمّدٍ، فإنّ الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ قال: كان ذلك بعد.

وقال السّدّيّ: إنّ الله ﷻ أمر إبراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل، ابنيا بيتي للطّائفين والعاكفين والركع والسجود. فانطلق إبراهيم حتّى أتى مكّة، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحًا يقال لها: الريح الخجوج، لها جناحان ورأسٌ في صورة حيّةٍ، فكشفت لهما حول الكعبة عن أساس البيت الأوّل، واتّبعاها بالمعاول يحفران حتّى وضعا الأساس، فذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فلمّا بنيا القواعد فبلغا مكان الرّكن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنيّ، اطلب لي حجرًا حسنًا أضعه هاهنا. قال: يا أبت إنّي كسلان لغب.

قال: عليّ بذلك، فانطلق يطلب له حجرًا فجاءه بحجرٍ فلم يرضه، فقال: ائتني بحجرٍ أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجرًا، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتةً بيضاء مثل الثّغامة، وكان آدم هبط به من الجنّة، فاسودّ من خطايا النّاس، فجاءه إسماعيل بحجرٍ فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك، فبينا هما يدعوان الكلمات التي ابتلى إبراهيم ربّه، فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾.

وفي هذا السّياق ما يدلّ على أنّ قواعد البيت كانت مبنيّةً قبل إبراهيم، وإنّما هدي إبراهيم إليها وبوّئ لها، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون؛ كما قال الإمام عبد الرّزّاق: أخبرنا معمر، عن أيّوب، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك.

وقال عبد الرّزّاق أيضًا: أخبرنا هشام بن حسّان، عن سوّارٍ ختن عطاءٍ، عن عطاء بن أبي رباحٍ، قال: لمّا أهبط الله آدم من الجنّة كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السّماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس إليهم، فهابت الملائكة حتّى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها، فخفضه الله تعالى إلى الأرض، فلمّا فقد ما كان يسمع منهم استوحش، حتّى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته، فوجّه إلى مكّة فكان موضع قدميه قريةً، وخطوه مفازةً، حتّى انتهى إلى مكّة وأنزل الله ياقوتةً من ياقوت الجنّة، فكانت على موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به حتّى أنزل الله الطّوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتّى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال عبد الرّزّاق: أخبرنا ابن جريجٍ، عن عطاءٍ، قال: قال آدم: إنّي لا أسمع أصوات الملائكة، فقال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتًا ثمّ احفف به كما رأيت الملائكة تحفّ ببيتي الذي في السّماء، فيزعم النّاس أنّه بناه من خمسة أجبلٍ: من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجوديّ، وكان ربضه من حراء، فكان هذا بناء آدم حتّى بناه إبراهيم عليه السلام بعد، وهذا صحيحٌ إلى عطاءٍ، ولكن في بعضه نكارةٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

كل هذه الأخبار، كلها أخبار إسرائيلية، ليس لها ثبات، وإنما العمدة على ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو جاء به القرآن الكريم، فسائر هذه الأخبار عن عطاء وعن كعب وسعيد بن جبير وعن غيرهم، كلها مما يتلقى عن بني إسرائيل وأحاديثهم ليست معتمدة مثلما قال عليه الصلاة والسلام: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، وقال: «**لا تصدقوهم ولا تكذبوهم**»، وإنما العمدة ما دل عليه كتاب الله، وأن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد البيت وهما اللذان قاما ببنائه،

ولم يثبت أنه بني قبل ذلك لا في عهد آدم ولا بعده، وإنما أرضه معروفة بوأها الله لإبراهيم وكان معروفًا من حين خلق الله السماوات والأرض؛ كما ثبت في الحديث الصحيح أنه حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض ولم يحرمها الناس، ولكن البناء إنما ثبت من جهة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وهما اللذان قاما ببناء الكعبة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال عبد الرّزّاق أيضًا: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السّماء ورجلاه في الأرض. فكانت الملائكة تهابه، فنقص إلى ستّين ذراعًا، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله ﷻ، فقال الله: يا آدم، إني أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلّي عنده كما يصلّى عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومدّ له في خطوه، فكان بين كلّ خطوتين مفازةٌ، فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كل هذا خرافة، وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**خَلَقَ آدَمَ حين خَلَقَه طوله سِتُّون ذِرَاعًا في السَّمَاء، فلم يَزَل الخَلقُ يَنقُصُ حَتّى الآن**»(١). ولم يكن أزود من ستين ذراعًا يوم خلق، أما قوله: كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فهذه من خرافات بني إسرائيل ولا أصل لها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن جرير: أخبرنا ابن حميد، أخبرنا يعقوب القمي، عن

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته برقم (٣٣٢٦)، ومسلم في كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام... برقم (٢٨٤١).

حفص بن حميدٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركانٍ قبل أن تخلق الدّنيا بألفي عامٍ، ثمّ دحيت الأرض من تحت البيت.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا ليس بشيء؛ لأن ابن حميد متهم بالكذب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال محمّد بن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ وغيره من أهل العلم: أنّ الله لمّا بوّأ إبراهيم مكان البيت، خرج إليه من الشام، وخرج معه إسماعيل وأمه هاجر، وإسماعيل طفلٌ صغيرٌ يرضع، وحملوا فيما حدّثني على البراق، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت ومعالم الحرم، فخرج وخرج معه جبريل، فكان لا يمرّ بقريةٍ إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه، حتّى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه وسلم وسمرٍ، وبها أناسٌ يقال لهم: العماليق خارج مكّة وما حولها، والبيت يومئذٍ ربوةٌ حمراء مدرة، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أمّ إسماعيل أن تتّخذ فيه عريشًا، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال عبد الرّزّاق: أخبرنا هشام بن حسّان، أخبرني حميدٌ، عن مجاهدٍ، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا بألفي سنةٍ، وأركانه في الأرض السّابعة.

وكذا قال ليث بن أبي سليمٍ، عن مجاهدٍ: القواعد في الأرض السّابعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، أخبرنا عمرو بن رافعٍ، أخبرنا

عبد الوهّاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالدٍ، عن علباء بن أحمر: أنّ ذا القرنين قدم مكّة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال: ما لكما ولأرضي؟ فقال: نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا البينة على ما تدّعيان. فقامت خمسة أكبشٍ فقلن: نحن نشهد أنّ إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلّمت، ثمّ مضى.

وذكر الأزرقيّ في تاريخ مكّة: أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبيت، وهذا يدلّ على تقدّم زمانه، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

هذا من خبر بني إسرائيل، ليس له قيمة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال البخاريّ رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ الآية: القواعد: أساسه، واحدها قاعدةٌ. والقواعد من النّساء: واحدتها قاعدٌ.

حدّثنا إسماعيل، حدّثني مالكٌ، عن ابن شهابٍ، عن سالم بن عبد الله: أنّ عبد الله بن محمّد بن أبي بكرٍ أخبر عبد الله بن عمر، عن عائشة زوج النّبيّ ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الْبَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟**»، فقلت: يا رسول الله، ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ**». فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الرّكنين اللّذين يليان الحجر إلّا أنّ البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم.

وقد رواه في الحجّ عن القعنبيّ، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن

يوسف، ومسلمٌ عن يحيى بن يحيى، ومن حديث ابن وهبٍ، والنّسائيّ من حديث عبد الرّحمٰن بن القاسم؛ كلّهم عن مالكٍ، به.

ورواه مسلمٌ أيضًا من حديث نافعٍ، قال: سمعت عبد الله بن أبي بكر بن أبي قحافة يحدّث عبد الله بن عمر، عن عائشة، عن النّبيّ ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنْ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ** ـ أو قال: **بِكُفْرٍ** ـ **لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا يبين أنه يجوز لولي الأمر أن يعودوا إلى أو يدعم قولًا إذا كان في ذلك مصلحة كبرى وترك أسباب الفتنة، ولهذا، ترك إرجاع البيت على قواعد إبراهيم تأليفًا لقلوبهم لئلا يعود إلى الكفر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقال البخاري: أخبرنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابن الزّبير: كانت عائشة تسرّ إليك حديثًا كثيرًا، فما حدّثتك في الكعبة؟ قال: قلت: قالت لي: قال النّبيّ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ**» ـ فقال ابن الزّبير: ـ بكفرٍ ـ **لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابًا يخرجون منه**»، ففعله ابن الزّبير، انفرد بإخراجه البخاريّ، فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه.

وقال مسلمٌ في صحيحه: حدّثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**ولولا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتِ البيت استقصرت، ولجعلت لها**

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها برقم (١٣٣٣).

خلفًا». قال: وحدثناه أبو بكر بن أبي شيبة، وأبو كريبٍ، قالا: أخبرنا ابن نميرٍ عن هشامٍ بهذا الإسناد، انفرد به مسلمٌ، قال: وحدّثني محمّد بن حاتمٍ، حدثني ابنُ مهدي، أخبرنا سليم بن حيّان، عن سعيدٍ؛ يعني: ابن ميناءٍ، قال: سمعت عبد الله بن الزّبير يقول: حدّثتني خالتي؛ يعني: عائشة رضي الله عنها، قالت: قال النبيّ ﷺ: «**يَا عائشة، لولا قومك حديثو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَلَجَعَلْتُ لها بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ**» انفرد به أيضًا.

ذكر بناء قريشٍ الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدةٍ طويلةٍ، وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين، وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمسٌ وثلاثون سنةً، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدّين.

قال محمّد بن إسحاق بن يسارٍ في السّيرة:

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنةً، اجتمعت قريشٌ لبنيان الكعبة، وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنّما كانت رضمًا فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أنّ نفرًا سرقوا كنز الكعبة، وإنّما كان يكون في بئرٍ في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز دويكٌ مولى بني مليح بن عمرٍو من خزاعة، فقطعت قريشٌ يده، ويزعم النّاس أنّ الّذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رمى بسفينةٍ إلى جُدّة لرجلٍ من تجّار الرّوم، فتحطّمت، فأخذوا خشبها فأعدّوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدي لها كل يوم تتشرّق على جدار الكعبة، وكانت ممّا يهابون، وذلك أنّه كان لا يدنو منها أحدٌ إلّا احزألّت وكشّت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينا هي يومًا تتشرّق على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها

طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريشٌ: إنّا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عاملٌ رفيقٌ، وعندنا خشبٌ، وقد كفانا الله الحيّة، فلمّا أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزومٍ، فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتّى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريشٍ، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلّا طيّبًا، لا يدخل فيها مهر بغيٍّ، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحدٍ من النّاس، قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزومٍ.

قال: ثمّ إنّ قريشًا تجزّأت الكعبة، فكان شقّ الباب لبني عبد منافٍ وزهرة، وكان ما بين الرّكن الأسود والرّكن اليمانيّ لبني مخزومٍ وقبائل من قريشٍ انضمّوا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمحٍ وسهمٍ، وكان شقّ الحجر لبني عبد الدّار بن قصيٍّ ولبني أسد بن عبد العزّى بن قصيٍّ ولبني عديّ بن كعب بن لؤيٍّ وهو الحطيم، ثمّ إنّ النّاس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول ثمّ قام عليها وهو يقول: اللّهمّ لم ترع، اللّهمّ إنّا لا نريد إلّا الخير، ثمّ هدم من ناحية الرّكنين، فتربّص النّاس تلك اللّيلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيءٌ فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله، فهدم وهدم النّاس معه، حتّى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارةٍ خضرٍ كالأسنّة آخذٌ بعضها بعضًا، قال: فحدّثني بعض من يروي الحديث: أنّ رجلًا من قريشٍ ممّن كان يهدمها، أدخل عتلةً بين حجرين منها ليقلع بها أيضًا أحدهما، فلمّا تحرّك الحجر تنقّضت مكّة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال ابن إسحاق: ثمّ إنّ القبائل من قريشٍ جمعت الحجارة لبنائها، كلّ قبيلةٍ تجمع على حدةٍ، ثمّ بنوها حتّى بلغ البنيان موضع الرّكن؛ يعني: الحجر الأسود، فاختصموا فيه كلّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه

دون الأخرى، حتّى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدّار جفنةً مملوءةً دمًا، ثمّ تعاقدوا هم وبنو عديّ بن كعب بن لؤيٍّ على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدّم في تلك الجفنة فسمّوا «لعقة الدّم»، فمكثت قريشٌ على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثمّ إنّهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرّواية أنّ أبا أمّيّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزومٍ، وكان عامئذٍ أسنّ قريشٍ كلّهم، قال: يا معشر قريشٍ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أوّل داخلٍ رسول الله ﷺ، فلمّا رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمّدٌ. فلمّا انتهى إليهم وأخبروه الخبر. قال ﷺ: «**هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا**»، فأتي به فأخذ الرّكن؛ يعني: الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثمّ قال: «**لِتَأْخُذْ كُلُّ قبيلة بناحية من الثوب ثم ارْفَعُوهُ جَمِيعًا**»، ففعلوا حتّى إذا بلغوا به موضعه. وضعه هو بيده ﷺ ثمّ بنى عليه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يدل على أن قريشًا وغيرهم قد تقرر عندهم خبث الربا وتحريم الربا وتحريم مهر البغي وجميع المكاسب الخبيثة، ولكن يحملهم على تعاطيها التساهل وعدم الإيمان وعدم البصيرة والهدى، حتى بعث الله نبيه عليه الصلاة والسلام فبين لهم ما حرم الله عليهم من الربا والزنا والقمار وغير هذا من مكاسبهم الخبيثة التي يتعاطونها؛ فلما أرادوا بناء البيت تواصوا بأن لا يكون ذلك إلا بشيء طيب المكسب، الطيب في بنائها، ولهذا، لما قلَّت عليهم النفقة قصروا الحجر ولم يكملوا، قال النبي ﷺ: «**قصر فيهم النفقة، النفقة الطيبة**»؛ يعني: النفقة الحلال وإنما أرادوا أن يبنوها بكسب طيب الذي كسبوه، وأن يجنبوها الأكساب الخبيثة من الربا ومهور البغي والقمار والمظالم التي أخذوها من الناس إلى غير ذلك، فلهذا، قصرت عليهم النفقة الطيبة، فرأوا إخراج الحجر وهو من الكعبة، وهو عند المنحنى. ولهذا، قال النبي ﷺ لعائشة:

«**صلِّي في الحِجر فإنه من البيت**»؛ فإن قريشًا قصرت فيهم النفقة فأخرجوه من البيت، وفي هذا دلالة على أنه ينبغي لأهل الإيمان من باب أولى، إذا كان الكفار يتحرَّجون من المكاسب الخبيثة، فأهل الإيمان أولى بأن يبتعدوا عن المكاسب الخبيثة وأن يحذروها وألا يستعملوا في أكلهم وشربهم وملابسهم وبيوتهم وغير ذلك إلا ما أباح الله وأحله من المكاسب الطيبة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]. والطيبات: هي التي كسبت عن الطريق الحلال، وصح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري عن المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أكل أحد طعامًا أفضل من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده عليه الصلاة والسلام**»، وسئل أيضًا عليه الصلاة والسلام: أي الكسب أطيب؟ قال: «**عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور**»، فالعمل باليد؛ كالزراعة والنجارة والحدادة والكتابة ونحو ذلك، كل المكاسب الطيبة إذا نصح صاحبها وأدى الأمانة، وهكذا البيوع الطيبة المبرورة السليمة من الكذب والسالمة من الخيانة هي أيضًا من الكسب الطيب؛ كما قال النبي ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يفترقا؛ فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما**»(١).

وكانت عمارة الكعبة قبل البعثة بخمس سنين، قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ بخمس سنين عليه الصلاة والسلام، وكان شاركهم في البناء وعمره خمس وثلاثون سنة عليه الصلاة والسلام، فلما مضى بعد

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب إذا تبين البيعان ولم يكتما ونصحا برقم (٢٠٧٩)، ومسلم في كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان برقم (١٥٣٢).

ذلك خمس سنين بعد التعمير، جاء الوحي من الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام على رأس الأربعين.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا كان قبل أن يوحى إليه؛ لأن قومه سموه الأمين؛ لما معه من الأمانة العظيمة وصدقه وأخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام، قبل أن يوحى إليه بخمس سنين.

وهذا من (. . . . .)[1] الذي وفقه الله له، فإنه هو الذي أخذه بيده ووضعه بالثوب، ثم قال للقبائل: كل قبيلة منكم تأخذ طرفًا من الثوب، فرفعوه جميعًا وانتهى النزاع.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكانت قريشٌ تسمّي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحي: الأمين، فلمّا فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزّبير بن عبد المطّلب، فيما كان من أمر الحيّة التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لمّا تصوّبت العقاب ... إلى الثّعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيشٌ ... وأحيانًا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التّأسيس شدّت ... تهيّبنا البناء وقد تهاب
فلمّا إن خشينا الرجز جاءت ... عقابٌ تتلئبّ لها انصباب
فضمّتها إليها ثمّ خلّت ... لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتّراب
غداة نرفّع التّأسيس منه ... وليس على مساوينا ثياب
أعزّ به المليك بني لؤيٍّ ... فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عديٍّ ... ومرّة قد تقدّمها كلاب
فبوّأنا المليك بذاك عزًّا ... وعند اللّه يلتمس الثّواب

---

(١) بياض في الأصل.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

الزبير هذا أحد أعمام النبي ﷺ، ولم يولد له فيما نعلم إلا بنت، وهي ضباعة بنت الزبير امرأة المقداد بن الأسود، وهي بنته التي حجَّت الفريضة، قال لها النبي ﷺ: «**حجِّي واشترطي أن محلِّي حيث حبستني**».

وهم كرهوا أن يقتلوها، خافوا أن يكون في قتلها شيء، وإلا قتلها سهل، لكنهم كأنهم كرهوا قتلها وخافوا أن يكون قتلها غير مرضي لله، وأنها وجدت حماية لهذا البيت، فلهذا، هابوها وكرهوا قتلها؛ حتى أرسل الله عليها هذا العقاب الطير فشالها، وربك حكيم عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: هذا في الجاهلية شرف عظيم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النّبيّ ﷺ ثماني عشر ذراعًا، وكانت تكسى القباطيّ، ثمّ كسيت بعد البرود، وأوّل من كساها الدّيباج الحجّاج بن يوسف.

(قلت): ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أوّل إمارة عبد الله بن الزّبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لمّا حاصروا ابن الزّبير، فحينئذٍ نقضها ابن الزّبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، ولم تزل كذلك مدّة إمارته حتّى قتله الحجّاج، فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك؛ كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه:

أخبرنا هناد بن السري، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن أبي سليمان، عن عطاءٍ، قال: لمّا احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشّام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزّبير حتى قدم الناس الموسم، يريد أن يحزبهم أو يجرئهم على أهل الشّام.

فلمّا صدر النّاس قال: يا أيّها النّاس، أشيروا عليّ في الكعبة، أنقضها ثمّ أبني بناءها، أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عبّاسٍ: فإنّي قد فرق لي رأيٌ فيها، أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتًا أسلم النّاس عليه، وأحجارًا أسلم النّاس عليها، وبُعث عليها ﷺ، فقال ابن الزّبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتّى يجدّده، فكيف بيت ربّكم ﷻ؟ إنّي مستخيرٌ ربّي ثلاثًا، ثمّ عازمٌ على أمري، فلمّا مضت ثلاثٌ، أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماها النّاس أن ينزل بأوّل النّاس يصعد فيه أمرٌ من السّماء، حتّى صعده رجلٌ فألقى منه حجارةً، فلمّا لم يره النّاس أصابه شيءٌ تتابعوا فنقضوه حتّى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزّبير أعمدةً يستر عليها السّتور حتّى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزّبير: إنّي سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إنّ النّبيّ ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّينِي عَلَى بِنَائِهِ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**»(١)؛ قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف النّاس، قال: فزاد فيه خمسة أذرعٍ من الحجر حتّى أبدى له أسا، فنظر النّاس إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، فلمّا زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشرة أذرعٍ، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه.

فلمّا قتل ابن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أنّ ابن الزّبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكّة، فكتب إليه عبد الملك: إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزّبير في شيءٍ، أمّا

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها برقم (١٥٨٦)، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها برقم (١٣٣٣).

ما زاده في طوله فأقرّه، وأمّا ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسدّ الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه.

وقد رواه النّسائيّ في سننه عن هنّادٍ، عن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاءٍ، عن ابن الزّبير عن عائشة بالمرفوع منه، ولم يذكر القصّة وقد كانت السّنّة إقرار ما فعله عبد الله بن الزّبير، رضي الله عنهما؛ لأنّه هو الذي ودّه رسول الله ﷺ، ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض النّاس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السّنّة على عبد الملك بن مروان، ولهذا، لمّا تحقّق ذلك عن عائشة أنّها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال: «**وددنا أن تَرَكْنَاهُ وَمَا تَوَلَّى**»؛ كما قال مسلمٌ:

حدّثني محمّد بن حاتمٍ، حدّثنا محمّد بن بكرٍ، أخبرنا ابن جريجٍ: سمعت عبد الله بن عبيد بن عميرٍ والوليد بن عطاءٍ يحدّثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيدٍ: وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظنّ أبا خبيبٍ؛ يعني: ابن الزّبير، سمع من عائشة ما كان يزعم أنّه سمعه منها، قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ، فهلمّي لأريك ما تركوه مِنْهُ**»، فأراها قريبًا من سبعة أذرعٍ.

هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عميرٍ، وزاد عليه الوليد بن عطاءٍ: قال النّبيّ ﷺ: «**وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا، وَهَلْ تَدْرِينَ لم كان قومك رفعوا بابها؟**» قالت: لا، قال: «**تعززًا أن لا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدَعُونَهُ حَتَّى يَرْتَقِيَ، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ**». قال عبد الملك: فقلت

للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فنكت ساعةً بعصاه، ثم قال: وددت أني تركته وما تحمّل.

قال مسلمٌ: وحدّثناه محمّد بن عمرو بن جبلة، حدّثنا أبو عاصمٍ (ح)، وحدّثنا عبد بن حميدٍ، أخبرنا عبد الرّزّاق؛ كلاهما عن ابن جريجٍ بهذا الإسناد مثل حديث أبي بكر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ابن أبي بكر مثل ما تقدم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وحدثنا محمّد بن حاتم، حدّثنا عبد الله بن بكرٍ السّهميّ، حدّثنا حاتم بن أبي صغيرة، عن أبي قزعة: أنّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزّبير حيث يكذب على أمّ المؤمنين، يقول سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرُوا فِي الْبِنَاءِ**». فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أمّ المؤمنين تحدّث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزّبير.

فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة؛ لأنّه قد روي عنها من طرقٍ صحيحةٍ متعدّدةٍ عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن الزّبير وعبد الله بن محمّد بن أبي بكر وعروة بن الزّبير، فدلّ هذا على صواب ما فعله ابن الزّبير، فلو ترك لكان جيّدًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقول عبد الملك: قاتل الله ابن الزبير، هذا من أغلاط عبد الملك ومن خطئه عفا الله عنهم جميعًا، فعبد الله بن الزبير صحابي جليل، وهو أفضل من عبد الملك وأصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه، هو اجتهد في ذلك، ولكن الإمرة

والخلافة لها أثر عظيم في الكلام والعقائد وفي كل شيء. نسأل الله السلامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغيّر عن حاله؛ كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرّشيد أو أبيه المهديّ أنّه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزّبير. فقال له مالكٌ: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبةً للملوك، لا يشاء أحدٌ أن يهدمها إلّا هدمها، فترك ذلك الخليفة.

نقله عياض والنووي، ولا تزال ـ والله أعلم ـ هكذا إلى آخر الزّمان، إلى أن يخرّبها ذو السّويقتين من الحبشة؛ كما ثبت ذلك في الصّحيحين، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ من الحبشة**»، أخرجاه[1].

وعن ابن عبّاسٍ، عن النّبيّ ﷺ: «**كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**»، رواه البخاريّ[2].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا الذي قاله مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلقته الأمة بالقَبول؛ لأن الناس إذا فُسح لهم في الهدم، هذا يهدم وهذا يبني، حصل التلاعب ولم تستقر الكعبة على حال. ولهذا، منع مالك من فعل ذلك وأمر الأمير بهدمها وآخر بتركها، وكان اجتهادًا منه وهو في محله، لكن لما غيرها عبد الملك وردها إلى حالها الأولى، رأى العلماء ترك ذلك وأنها لا تغير حتى لا يتلاعب الناس هذا يهدم وهذا يبني؛ لأن الملوك فيما بينهم يحصل

---

(١) أخرجه في كتاب الحج، باب هدم الكعبة برقم (١٥٩٥).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب هدم الكعبة برقم (١٥٩٦)، ومسلم في كتاب الفتن، باب لا تقدم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجلُ فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء برقم (٢٩٠٩).

بينهم من التغاير والمقاتلة والحسد ومحبة العلو ما لا يحصره إلا الله ﷻ؛ ولهذا، تركت على حالها بعد بناء عبد الملك إلى يومنا هذا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا السند يعضده السند الذي قبله؛ لأنه ضعيف؛ لأنه من عنعنة ابن إسحاق، لكنه يعضده ما تقدم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد بن حنبلٍ في مسنده: أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحراني، أخبرنا محمّد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا، وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كُسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ**» ـ الفدع: زيغٌ بين القدم وعظم السّاق ـ.

وهذا، والله أعلم، إنّما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج. لما جاء في «صحيح البخاريّ» عن أبي سعيدٍ الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ «**لَيُحجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوج يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**»[1].

وقوله تعالى حكايةً لدعاء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾؛ قال ابن جريرٍ: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، ولا نشرك معك في الطّاعة أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحصني القرشيّ، أخبرنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريمِ:

---

(١) أخرجه في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] برقم (١٥٩٣).

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ قال: مخلصين لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ قال: مخلصةً، وقال أيضًا: أخبرنا علي بن الحسين، أخبرنا المقدمي، أخبرنا سعيد بن عامرٍ، عن سلّام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ قال: كانا مسلمين، ولكنّهما سألاه الثّبات.

وقال عكرمة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ قال الله: قد فعلت، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ قال الله: قد فعلت.

وقال السّدّيّ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ يعنيان: العرب.

قال ابن جريرٍ: والصّواب أنّه يعمّ العرب وغيرهم؛ لأنّ من ذرّيّة إبراهيم بني إسرائيل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

(**قُلتُ**): وهذا الذي قاله ابن جريرٍ لا ينفيه السّدّيّ، فإنّ تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسّياق إنما هو العرب، ولهذا، قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، والمراد بذلك محمّدٌ ﷺ، وقد بعث فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. ومع هذا، لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلّة القاطعة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والإسلام لله: يعني: الانقياد له والخضوع لعظمته بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، وهما يطلبان أن يكونا على هذه الحال منقادين لأمر الله، مستقيمين على أمر الله ذليلين لأمر الله وهكذا من ذريتهما، وهكذا المؤمن، يسأل ربه دائمًا أن يثبته على الإيمان وأن يجعله مؤمنًا حقًّا، وهكذا المتقي يسأل ربه أن يثبته على التقوى وأن يعينه على تحقيقها ولهذا أمر بالعبد ذلك، اتقوا ربكم، اتقوا الله، آمنوا بالله ورسوله، وهم مؤمنون، بلى من أسلم وجهه له وهو محسن، والمعنى: إكمال ذلك

وإتمامه والثبات عليه، والأمر بالتقوى والأمر بالإيمان وبالإسلام معناه في حق المسلم، معناه الثبات على هذا الشيء والتأكد فيه والتحقق منه، والاستقامة فيه، والتفقه فيه حتى يجتمع له أنواعه كلها.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هو بعث للأميين والعرب في الأصالة، في الأساس بعث فيهم أولًا، هم الفاتحة وهو منهم، ورسالته عامة إلى جميع العرب والعجم والجن والإنس، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]؛ يعني: أساسًا وأصالة بعث فيهم، والناس في ذلك تبع لهم من سائر الأمم، هو مبعوث للجميع: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ كما هو إجماع أهل العلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الدّعاء من إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتّقين المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا القدر مرغوبٌ فيه شرعًا، فإنّ من تمام محبّة عبادة الله تعالى أن يحبّ أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لمّا قال الله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وهو قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ، أنّه قال: «**إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يدعو له**»[1].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ قال ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته برقم (١٦٣١).

أخرجها لنا، علّمناها، وقال مجاهد: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مذابحنا. وروي عن عطاءٍ أيضًا وقتادة نحو ذلك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

المناسك عامة، تعم جميع أنواع العبادة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: ٣٤]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فيعم مواضع الذبح ويعم أنواع العبادات، فيطلبان من ربهما أن يريهما العبادات التي يأمرهم بها، وأن يريهم مواضع النسك؛ كعرفة ومزدلفة ونحو ذلك، وهما يطلبان جميع ما يتعلق بالنسك من العبادة؛ قولية أو فعلية أو مكانية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال سعيد بن منصور: أخبرنا عتّاب بن بشيرٍ، عن خصيفٍ، عن مجاهدٍ، قال: قال إبراهيم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، فأراه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتمّ البنيان، ثمّ أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصّفا، قال: هذا من شعائر الله، ثمّ انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثمّ انطلق به نحو منًى، فلمّا كان من العقبة إذا إبليس قائمٌ عند الشّجرة، فقال: كبّر وارمه، فكبّر ورماه، ثمّ انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلمّا جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبّر وارمه، فكبّر ورماه، فذهب الخبيث إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحجّ شيئًا، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتّى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتّى أتى به عرفاتٍ، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات، قال: نعم.

وروي عن أبي مجلزٍ وقتادة نحو ذلك، وقال أبو داود الطيالسي: أخبرنا حمّاد بن سلمة، عن أبي العاصم الغنويّ، عن أبي الطّفيل، عن ابن عبّاسٍ، قال: إنّ إبراهيم لمّا أري أوامر المناسك، عرض له الشّيطان

عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثمّ انطلق به جبريل حتّى أتى به منًى، قال: هذا مناخ الناس، فلمّا انتهى إلى جمرة العقبة تعرّض له الشّيطان، فرماه بسبع حصياتٍ حتّى ذهب، ثمّ أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشّيطان، فرماه بسبع حصياتٍ حتّى ذهب فأتى به جمعًا، فقال: هذا المشعر، ثمّ أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا سند جيد، ويحتمل أن ابن عباس سمعه من بعض الصحابة أو من النبي ﷺ، والغالب أنه سمعه ممن ينقل عن بني إسرائيل؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ.

* *

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [١٢٧][(١)].

القواعد: أساسه، واحدتها قاعدةٌ، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٦٠]: واحدها قاعدٌ.

حدّثنا إسماعيل، قال: حدّثني مالكٌ، عن ابن شهابٍ، عن سالم بن عبد الله أنّ عبد الله بن محمّد بن أبي بكرٍ أخبر عبد الله بن عمر، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النّبيّ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ بَنَوا الْكَعْبَةَ وَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟**»، فقلت: يا رسول الله، ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لَولَا حِدْثَان قَوْمك بالْكفْر**» فقال

---

(١) من شرح سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ لصحيح البخاري كتاب التفسير.

عبد الله بن عمر: «لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الرّكنين اللّذين يليان الحجر إلّا أنّ البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم»[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

في هذا من الفوائد: ترك ما هو أحسن إذا خيفت المفسدة، فالعالم ووليّ الأمر قد يدع ما هو حقٌّ وصوابٌ إذا كانت قلوب النّاس لا تتحمّله، ويخشى منه مفسدةٌ أكبر، هذه قاعدةٌ: «أنه لا يُزال الشّيء الواقع بما يخشى منه شرٌّ أكبر من مصلحته، ولا يُزال شرٌّ بما هو أشرّ منه». لا بدّ من مراعاة الأصول والقواعد، فلا يُزال الشّر بما هو أشرّ، ولكن يُزال الشّرّ بشرٍّ أقل منه أو بحصول مصلحةٍ بعده.

ولمّا كانت قريش بنت الكعبة وقصّرت ولم تكمل البناء على قواعد إبراهيم ﷺ، وأخرجوا الحِجر من الكعبة، وأسباب ذلك أنّهم قصرت بهم النّفقة جمعوا مالًا لبناء الكعبة، سنة خمسٍ وثلاثين من مولد النّبيّ ﷺ، قبل أن يوحى إليه بخمس سنين، كان بناؤهم الكعبة قبل أن يوحى إليه ﷺ بخمس سنين سنة خمسٍ وثلاثين، وكان ممّن ساعدهم في ذلك عليه الصّلاة والسّلام.

وكانوا جمعوا أموالًا لبناء الكعبة من الأموال الطّيّبة الّتي ليس فيها ربًا، وليس فيه شيءٌ من مهور البغايا، وليس فيه شيءٌ من مال الخمور، جمعوها من الكسب الطّيّب، وقصرت فأخرجوا الحجر؛ فقال ﷺ: «**لولَا أن قَومَك حَدِيْثُ عهدٍ بكفرٍ لنقضْتُ الكَعْبَةَ وأدخلتُ فِيْهَا كَذَا وَكَذَا من**

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾... إلخ برقم (٤٤٨٤)، ومسلم في كتاب الحج، باب جدر الكعبة وما بها برقم (١٣٣٣).

الحِجرِ»[١]. «**لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيْثو عَهْدِهِمْ** ـ قال ابن الزّبير ـ **بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاس وَبَابٌ يَخْرُجُونَ**». ففعله ابن الزّبير.

ولكن خشي أنّ قلوبهم لا تتحمّل فترك ذلك، وكان معظم الحجر من البيت من عند المنحنى، نحو سبعة أذرعٍ، فلمّا تولّى ابن الزّبير أدخله، هدم الكعبة من جهة الحجر، وأدخل الحجر في إمرته سنة أربعٍ وستّين وما بعدها.

فلمّا قتل رضي الله عنه وتولّى عبد الملك بن مروان أعاد الحجر على حاله إلى يومنا هذا، وأفتى أهل العلم بأنّه يترك على حاله؛ لئلّا يكون ملعبةً للملوك والأمراء، سئل مالكٌ عن ذلك وغيره فرأوا بقاءه على حاله؛ خشيةً من المفسدة الّتي أشار إليها النّبيّ ﷺ.

والمقصود: القاعدة: أنّ ولاة الأمور والهيئات والدّعاة إلى الله عليهم أن يراعوا في دعوتهم وأمرهم ونهيهم وغير ذلك، المصالح العامّة، والحذر من إيجاد مفاسد تربوا على المصالح الّتي يريدونها، وأن يكون الأمر والنّهي والإنكار والدّعوة على القواعد والأسس الّتي سار عليها النّبيّ ﷺ، وسار عليها الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام؛ وبذلك يصلح أمر النّاس ويستقيم أمرهم.

ومن هذا الباب قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. نهي المسلمون أن يسبّوا آلهة المشركين عند المشركين؛ لئلّا يسبّوا الله من باب الانتقام، من باب المقابلة، ولكن ينصحون ويوجّهون إلى الخير، ويدعون إلى الخير، يبيّن لهم ما في الشّرك من الفساد والباطل، من غير سبٍّ يسبب المعاكسة.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن الزبير رضي الله عنهما في كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر... برقم (١٢٦).

• س: في بعض البلاد من تقتيلٍ وضربٍ وتفجيرٍ هل هذا من الإسلام؟ ما يحدث في بعض البلاد الآن من تقتيلٍ وتفجيرٍ وغيره هل هذا من الإسلام؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا، ما يصلح هذا، غلطٌ، الواجب الدّعوة بالحكمة والكلام الطّيّب، لا بالتّفجير، ولا بالاغتيالات، ولا بالمضاربات، ولا بعصيان ولاة الأمور، ولكن بالحسنى يتعاون مع ولاة الأمور، وإن كانوا كفارًا، يتعاون معهم في الحقّ والخير والمصلحة العامّة، وينصح ويوجّه إلى الخير، أمّا ما يفعله كثيرٌ من النّاس الآن في كثيرٍ من البلدان: في الجزائر، والصّومال ومصر وغيرها من الاغتيالات وقتل بعض النّاس، وقتل بعض النّساء هذا شرٌّ، هذا بلاءٌ، هذا جهلٌ، جهلٌ.

الواجب الدّعوة إلى الله ـ قال الله، قال رسوله ـ مع العلم، مع الكلام الطّيّب، والأسلوب الحسن، كما سار النّبيّ ﷺ وأصحابه في مكّة قبل أن يهاجر؛ لأنّه لا يستطيع سوى ذلك، وهكذا لمّا هاجر في أوّل الأمر ما كان هناك قتالٌ، ثمّ شرع الله القتال على الوجه الشّرعيّ.

فلا بدّ من مراعاة تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال في حقّ أهل الكتاب: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود والنّصارى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦] إلّا الظّلمة الّذين يكابرون، هذا لهم علاجٌ آخر.

• س: المعاصي...؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعاصي يجب أن تعالج بالدّعوة، تعالج بالدّعوة ما هو بالفتن، تعالج بالدّعوة إلى الله، والأمر

بالمعروف والنّهي عن المنكر، لا بالاغتيالات وسوء التّصرّف، تعالج بالدّعوة إلى الله كما عالجها النّبيّ ﷺ والصّحابة.

• **س: أحسن الله إليك: إذا قلنا لهم مثلًا مثل قولك يكفرونا يا شيخ؟ هؤلاء يكفّرون النّاس إذا قالوا لهم مثلًا ادعوا بالتي هي أحسن؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: ولو، ولو هذا من جهلهم هذا من الجهل.

• **س: أحسن الله إليك: هل يجوز لمسؤولي الدولة أن يتعاملوا مع غير المسلمين؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: على الحاكم أن يتقي الله، إذا كان مسلمًا عليه أن يتقي الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، عليه أن يتقي الله ويأمر بالحقّ وينهى عن الباطل، وعلى أهل العلم والأخيار أن يساعدوه، وأن لا يشقّوا العصا؛ بل عليهم أن يساعدوه في الخير.

* *

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩][(١)].

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم؛ أي: من ذرّيّة إبراهيم، وقد وافقت هذه الدّعوة المستجابة قدر الله السّابق في تعيين محمّدٍ صلوات الله وسلامه عليه رسولًا في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجنّ؛ كما قال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرّحمٰن بن مهديٍّ، عن معاوية بن صالحٍ، عن سعيد بن سويدٍ الكلبيّ، عن عبد الأعلى بن هلالٍ السّلميّ، عن العرباض بن

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

سارية، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني عبد اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنْبِئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ»**[1].

وكذلك رواه ابن وهبٍ واللّيث وكاتبه عبد الله بن صالحٍ، عن معاوية بن صالحٍ، وتابعه أبو بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سويدٍ، به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ماذا قال عن سعيد بن سويد؟

الطالب: يقول: سعيد بن سويد الكلبي، قال الحافظ في «تعجيل المنفعة» روى عن العرباض بن سارية، وربما أدخل بينهما عبد الأعلى بن هلال، إلى أن قال: وروى عنه معاوية بن صالح وأبو بكر بن أبي مريم، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري: لم يصح حديثه؛ يعني: الذي رواه معاوية عنه مرفوعًا، وذكر هذا الحديث إلى أن قال: وخالفه؛ أي: البخاري وابن حبان والحاكم؛ يقول: وأنت خبير بأن ابن حبان والحاكم متساهلان في التصحيح فلا يُسلَّم تصحيحهما الحديث معارضًا لقول البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا.

وأما عبد الأعلى بن هلال السلمي، فلم يترجم له الحافظ في «تعجيل المنفعة»، وقد قال ابن أبي حاتم: روى عن العرباض بن سارية وأبي أمامة الباهلي، وروى عنه سويد بن سعيد، سمعت أبي يقول ذلك، فعلى هذا، يكون مجهول العين ويكون حديثه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: على هذا، أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين وهو رسول رب العالمين قبل آدم وقبل خلق آدم قبل خلق آدم، بخمسين ألف سنة؛ بل أكثر من ذلك؛ لأن في الحديث الصحيح: **«إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٧).

وكان عرشه على الماء قبل» آدم وقبل خلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة، هذا يشكل على الحديث ولكن من باب التقدير التفصيلي لو صح، كما أن الرسول ﷺ خاتم الأنبياء في القدر السابق، فهو أيضًا كذلك حين وجود آدم، وهو أيضًا كذلك حين بعث الله الأنبياء، وهكذا؛ لأنه قدره سابق على الجميع، فيكون من باب التفصيل؛ مثل: قدر الجنين في بطن أمه، وهكذا التقدير في ليلة القدر، تفصيل للقدر السابق لا منافاة، لو صح.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد أيضًا: أخبرنا أبو النضر، أخبرنا الفرج، أخبرنا لقمان بن عامر، قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أوّل بدء أمرك؟ قال: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى بِي. وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»(١).

والمراد: أنّ أوّل من نوّه بذكره وشهره في النّاس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يزل ذكره في النّاس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتّى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصّفّ: ٦]، ولهذا قال في هذا الحديث: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى**» ابن مريم.

وقوله: «**وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»؛ قيل: كان منامًا رأته حين حلمت به، وقصّته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئةً، وتخصيص الشّام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشّام، ولهذا، تكون الشّام في آخر الزّمان معقلًا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم؛ إذ نزل بدمشق بالمنارة الشّرقيّة البيضاء منها، ولهذا، جاء في الصّحيحين: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ**

---

(١) أخرجه (٥/ ٢٦٢).

أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(١)، وفي «صحيح البخاريّ»: «**وَهُمْ بِالشَّامِ**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يحتاج مراجعة، الذي أذكر أن تعيين الشام أنها خارج الصحيحين، والمعنى في وقت ما ما هو بدائم، فالصواب: أن هذه الطائفة ليس لها مقر معين؛ فقد تكون في الشام، وقد تكون في غير الشام، قد تكون في أفريقيا، قد تكون في الشرق، وقد تكون في الغرب، المقصود: أنها طائفة لا تجتمع على الباطل، وهذا من فضل الله ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تكون أقسامًا؛ بعضها في الشام، وبعضها في نجد، وبعضها في أفريقيا، نعم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنسٍ، عن أبي العالية، في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ يعني: أمّة محمّدٍ ﷺ، فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائنٌ في آخر الزّمان، وكذا قال السّدّيّ وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ يعني: القرآن، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ يعني: السّنّة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيّان وأبو مالكٍ وغيرهم، وقيل: الفهم في الدّين ولا منافاة، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾؛ قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: طاعة الله. وقال محمّد بن إسحاق: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ قال: الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾؛ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيءٌ، وهو قادرٌ على كلّ شيءٍ، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.

الطالب: تكلم على زيادة في الشام.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٤).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

نعم ماذا قال عليها؟

الطالب: في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة في أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**»، فقام مالك بن أنس فقال: سمعت معاذ بن جبل: وهم في الشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن أنس يذكر أنه سمع معاذًا يقول: هم في الشام..... وهذا الذي في الصحيحين من حديث معاوية، وفيهما أيضًا من حديث المغيرة بن شعبة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال من أمتي أمة ظاهرة على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**».

*

❏ **تفسير قوله تعالى**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢](١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تبارك وتعالى ردًّا على الكفّار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشّرك بالله، المخالف لملّة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنّه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عينٍ، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتّى تبرّأ من أبيه؛ فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢١، ١٢٢].

ولهذا وأمثاله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحقّ إلى الضّلال؛ حيث خالف طريق من اصطفي في الدّنيا للهداية والرّشاد من حداثة سنّه إلى أن اتّخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طريق الضّلالة والغيّ، فأيّ سفهٍ أعظم من هذا؟ أم أيّ ظلمٍ أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المقصود من هذا: بيان أن ملة إبراهيم هي الملة التي ارتضاها الله عَزَّوَجَلَّ، وهي ملة الرسل جميعًا، وهي دينهم الذي بعثهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهو إخلاص العبادة لله وحده والبراءة من كل معبود سوى الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]: هذا قول إبراهيم، وقول الأنبياء جميعًا والرسل، وهذا دينهم البراءة من عبادة غير الله، والبراءة من المعبودين من دون الله وإخلاص العبادة لله وحده. فإبراهيم هو سيد الحنفاء وإمام الحنفاء وأبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعده، هذا دينه، وهو دين الرسل من قبله وبعده، قبله نوح، وقبله هود، وقبله صالح، وبعده من لا يحصيهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ من الأنبياء والرسل، وهو قائدهم وإمامهم وأبوهم في هذا الباب العظيم، ثم بعث الله أحد أحفاده وهو خاتم الأنبياء، وهو محمد عليه الصلاة والسلام،

وهو حفيده ومن ذريته، يدعو لهذا الدين العظيم وإلى إخلاص العبادة لله، وإلى ترك عبادة من سواه، وهي البراءة من كل معبود سوى الله ﷻ، هكذا بعث الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام، وقال له: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. أوحى الله إليه أن يتبع ملة أبيه إبراهيم، وأن يسير على نهجه في إخلاص العبادة لله وحده، والبراءة من جميع معبود من دون الله، فهذا هو دين الرسل جميعًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ فالذي يختار غير هذا الدين ويرغب عنه هو الظالم لنفسه، هو الجاهل السفيه الظالم لنفسه، الذي ترك سبيل الهدى وسبيل الحق واختار سبيل الردى والضلالة وما فيه الهلاك في العاجل والآجل، فلا يفعل هذا ولا يختاره إلا من سفه نفسه، وجهل حقيقتها وظلمها، وألقاها في طريق الهلاك، وحاد بها عن الحق والصواب، فصار سفيهًا لها وظالمًا لها ومُعتدٍ عليها. نسأل الله العافية..

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحّة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعنى: الرد على اليهود والنصارى، حيث ادَّعوا أنهم على ملة إبراهيم، وقد كذبوا، فملَّة إبراهيم هي توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به، واتباع ما بعث به أنبياءه من الهدى ودين الحق، أما اليهود

فقد حادوا عن ذلك واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وزعموا أن عُزيرًا ابن الله، والنصارى حادوا عن ذلك أيضًا، وتابعوا اليهود في اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وزعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله أو ثالث ثالثة، فضلَّ الجميع، ضلوا كلهم عن سواء السبيل، وهدى الله أمة محمد ﷺ الذين اتبعوه وساروا على نهجه، فهم أولى الناس بإبراهيم؛ أولى الناس بإبراهيم من اتبعه من جن وإنس وعرب وعجم، ومن حاد عن سبيله ولو كان من أولاده فهو الهالك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾؛ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلِك شرعًا وقدرًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن هذا سُمي المسلمون، المسلمون لماذا سُموا مسلمون؟ لأنهم انقادوا للشرع، استسلموا لشرع الله وانقادوا له، ومن أسلم فقد انقاد للحق، ومن أبى فقد استكبر ولم يستسلم؛ فالمسلمون سموا مسلمين لهذا الأمر، يقال: أسلم؛ يعني: انقاد للحق وذل له وتابعه؛ فالمسلمون هم أتباع الحق الذين انقادوا له وعظموه وذلوا له وحكَّموه في أهوائهم وفي كل شيء، هؤلاء هم المسلمون. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢]، فالمسلم هو الذي ينقاد لأمر الله ويعظم حرمات الله ويقف عند حدود الله ويخالف هواه في طاعة مولاه، هذا هو المسلم، وإذا أبى فقد عاند واستكبر وصار مع الضالين ومع الكافرين الذين عاندوا الحق ولم ينقادوا له، ودين الرسل جميعًا هو الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ يعني: الانقياد لله وإخلاص العبادة له وتوحيده وإفراده بالعبادة، والانقياد لأحكامه والوقوف عند حدوده وعدم الخروج على ذلك، فهذا هو دين

الرسل جميعًا، وكلهم مسلمون ودينهم هو الإسلام، من أولهم آدم إلى آخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ أي: وصّى بهذه الملّة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضّمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ لحرصهم عليها ومحبّتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصّوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزّخرف: ٢٨]. وقد قرأ بعض السّلف (ويعقوب) بالنّصب، عطفًا على بنيه، كأنّ إبراهيم وصّى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، وكان حاضرًا ذلك، وقد ادّعى القشيريّ فيما حكاه القرطبيّ عنه أنّ يعقوب إنّما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليلٍ صحيحٍ. والظّاهر، والله أعلم، أنّ إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارّة؛ لأنّ البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هودٍ: ٧١]. وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرّيّة إسحاق كبير فائدةٍ، وأيضًا، فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]. وهذا يقتضي أنّه وجد في حياته، وأيضًا، فإنّه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدّمة.

وثبت في الصّحيحين من حديث أبي ذرٍّ: قلت: يا رسول الله، أيّ مسجدٍ وضع أوّل؟ قال: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**»، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: «**بَيْتُ الْمَقْدِسِ**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أَرْبَعُونَ سَنَةً**»، الحديث(١)، فزعم ابن حبّان أنّ بين سليمان الذي اعتقد أنّه باني بيت المقدس ـ وإنّما كان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب برقم (٣٣٦٦).

جدّده بعد خرابه وزَخْرَفه ـ وبين إبراهيم أربعين سنةً، وهذا ممّا أنكر على ابن حبّان، فإنّ المدّة بينهما تزيد على ألوف السنين، والله أعلم، وأيضًا، فإن وصيّة يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدلّ على أنّه هاهنا من جملة الموصين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والذي بنى مسجد القدس هو يعقوب حفيد إبراهيم، أما سليمان فقد جاء متأخرًا، وإنما سليمان عمّره وجدده عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾؛ أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإنّ المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفّق له ويسّر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصّحيح: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**». وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا باعٌ أو ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها؛ لأنّه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**ليعمل بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَيَعْمَلُ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمعنى: أن من اجتهد في الخير وحرص عليه وأخلص لله وقصد الهدى، فالغالب أن من سنة الله ﷻ أن مثل هذا لا يكون إلا مؤمنًا ويوفق حتى يموت على الإسلام، وهكذا العكس. ولهذا، قال ﷻ:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، لكن بعض الناس قد يعمل بعمل أهل الجنة، وهو في الباطن في قلبه من الفساد والشر والنفاق ما فيه، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار الذي استقام عليه قلبه واطمأن إليه قلبه فيموت على ذلك، نعوذ بالله، وهكذا العكس، قد يعمل بعمل أهل النار، وعنده من محبة الله، وعنده من الرغبة في الخير ما عنده، فيسبق عليه ما في قلبه من الهدى الذي سبق في علم الله، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وقد تكون هناك أسباب أخرى يختم له بها بخاتمة السوء وإن أظهر الخير قبل ذلك، لكن سنة الله الغالبة في عباده أن من أظهر الخير صادقًا ومخلصًا لله أن الله يميته عليه.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [١٣٢، ١٣٣][(١)].

هذه الآيات الكريمات فيها الحث على توصية المؤمن لأخيه عند فراقه له، وعند لقائه له، وعند توديعه له في سفر، ونحوه، وعند الموت وتذكيره بالآخرة، فالمؤمن، وهكذا المؤمنة فالمشروع لهما جميعًا التذكير بالله والوصية بتقوى الله ولا سيما عند اللقاء من السفر، أو عند الوداع أو عند المرض، أو عند خوف الموت، يوصي المؤمن أخاه بكل ما ينفعه.
قال تعالى في إبراهيم وذريته: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ يعقوب: هو ابن إسحاق بن إبراهيم ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

(١) انظر: شرح كتاب رياض الصالحين لسماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ٥٣).

وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أوصاهم بالثبات على الحق والاستقامة عليه، كان النبي ﷺ إذا ودَّع إنسانًا قال: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»(١). فالمؤمن من شأنه حب الخير لأخيه والعطف على أخيه والحرص على أسباب السعادة، كما قال النبي ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

ولما قفل النبي ﷺ من حجة الوداع في آخر حياته كان يقول للناس في مناسك الحج: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا عني مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»(٣) خطبهم في الطريق. قال: «**أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ**»؛ يعني: شخص من بني آدم مكتوب عليه الموت «**يُوشِكُ**»؛ يعني: يقرب «**أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي**» رَسُولُ رَبِّي؛ يعني: ملك الموت «**فَأُجِيبَ**» وهذا تمهيد لما يقوله بعد هذا من الوصية.

قال بعدها: «**وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ**»؛ يعني: شيئين عظيمين «**أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». **فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ**؛ لأنه طريق النجاة وسبيل السعادة، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الجهاد، باب الدعاء عند الوداع برقم (٢٦٠٠)، والترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ، باب ما يقول إذا ودَّع إنسانًا برقم (٣٤٤٢) و(٣٤٤٣)، وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب تشييع الغزاة ووداعهم برقم (٢٨٢٦) وسيأتي برقم (٧١٥).

(٢) متفقٌ عَلَيْهِ. من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه برقم (١٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير برقم (٤٥).

(٣) أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا... برقم (١٢٩٧).

[ص: ٢٩]. قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، (ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي**»؛ يعني: زوجاته وأقاربه «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»)؛ يعني: استوصوا بهم خيرًا؛ يعني: أحسنوا إليهم وكفوا الأذى عنهم، فأوصى بأهل بيته والإحسان إليهم وعدم الأذى لهم، وهم أزواجه وقراباته من بني هاشم، هم أقرب الأقربين إليه العباس عمه، وعلي بن أبي طالب وأولاده، وأولاد أبي طالب عقيل، وغيرهم ممن ينتسب إلى هاشم وهم أقرب الناس إليه، فإن بطنه الأدنى هو بنو هاشم عليهم الصلاة والسلام، فهذا فيه الوصية بتقوى الله، وما ينفع العبد من التمسك بكتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام، والوصية بأقاربه كأن يوصي أباه وإخوته بأقاربه والإحسان إليهم، هذا من النصح لله ولعباده، النصح لله ولعباده، الوصية بما ينفع العبد في دينه ودنياه.

هكذا قصة عمر لما أراد العمرة استأذن النبي ﷺ فَأذِنَ، وقال: «**لَا تَنْسَنا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**». وقال: «**أَشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ**»[(١)]، هذا من باب التواصي بالخير وأنه لا بأس أن يقول المؤمن لأخيه: ادع لي يا أخي أو أشركني في دعائك ولا تنسني من دعائك، لا بأس بهذا، قد يستجاب من المؤمن لأخيه، كما في الحديث الصحيح: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ**»[(٢)].

وفي الحديث: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلَّا قَالَ**

(١) أخرجه أبو داود من حديث عمر رضي الله عنه في كتاب الصلاة، باب الدعاء برقم (١٤٩٨)، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج برقم (٢٨٩٤)، والإمام أحمد (١/ ٢٩).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أم الدرداء في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب برقم (٢٧٣٣).

المَلَكُ: آمين وَلَكَ بِمِثْلٍ»[١]. فالتواصي بالخير والتناصح والتعاون على البر والتقوى أمر مطلوب.

وفي الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال للصحابة: إنه يقدُم عليكم وفود اليمن وفيهم رجل يقال له: أويس، بَرٌّ بأُمه أصابه برص فبرئ منه فمن لقيه منكم فليطلب منه الاستغفار، فلما قدم المدينة طلب منه عمر الاستغفار[٢].

ومن وافقهم من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، هذا يدل على أن الإنسان المتقي لله لا سيما البار لوالديه ترجى إجابة دعوته لإيمانه وتقواه وبره.

كذلك حديث مالك بن الحويرث الليثي لما قدم هو وأصحابه للنبي ﷺ وافدين وكانوا شَبَبَةً مُتَقَارِبِينَ نحو عشرين فعلَّمهم وأوصاهم عليه الصلاة والسلام فلما رآهم قد اشتاقوا لأهليهم قال: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُم وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِيْنِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا في حِيْنِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**». فعلَّمهم ما يحتاجون عليه الصلاة والسلام قال: «**أَكْبَرُكُمْ**» لأنهم متقاربون؛ ولهذا قال: أكبركم، فإذا كانوا كلهم قراء متقاربين فالأولى بهم الأكبر، أما إذا كانوا مختلفين فالأولى أن يقدم أقرؤهم لكتاب الله، هكذا جاءت السُّنَّة، الأقرأ ثم الأعلم بالسُّنَّة ثم الأقدم هجرة ثم الأكبر سنًا، فيه أنه ينبغي للمؤمن أن يعتني بأهله وأن يعلمهم ويأمرهم وينهاهم ويبصرهم بما يلزم؛ يعني: يعلّمهم ما علَّمه الله: من زوجة وأم وأب وإخوة وأخوات وغير ذلك، يعلّمهم ما علَّمه الله،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أم الدرداء في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب برقم (٢٧٣٣).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أسير بن جابر ﷺ في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أويس القرني برقم (٢٥٤٢).

ولا سيما عند الحاجة إلى ذلك؛ لأنهم ليسوا من أهل العلم، وهو عنده علم يعلمهم، ويوجههم، وهذا من باب التواصي بالحق، والله يقول في أهل الإيمان، وأهل الصلاح: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ومن النصيحة «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٣، ١٣٤](٢)

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى محتجًّا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفّار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ـ بأنّ يعقوب لمّا حضرته الوفاة، وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وهذا من باب التّغليب؛ لأنّ إسماعيل عمّه، قال النّحّاس: والعرب تسمّي العمّ أبًا، نقله القرطبيّ.

وقد استدلّ بهذه الآية الكريمة من جعل الجدّ أبًا، وحجب به الإخوة؛ كما هو قول الصّديق، حكاه البخاريّ عنه من طريق ابن عبّاسٍ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم (٥٥).

(٢) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

وابن الزّبير، ثمّ قال البخاريّ: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أمّ المؤمنين، وبه يقول الحسن البصريّ وطاوسٌ وعطاءٌ، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السّلف والخلف، وقال مالكٌ والشّافعيّ وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعليٍّ وابن مسعودٍ وزيد بن ثابتٍ وجماعةٍ من السّلف والخلف، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمّد بن الحسن، ولتقريرها موضعٌ آخر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا الذي وصى به يعقوب عليه الصلاة والسلام، بنيه هو الذي أوصى به أيضًا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال فيما نقل الله عنه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ فإبراهيم أوصى بنيه، ويعقوب حفيده كذلك أوصى، فإن يعقوب هو حفيد إبراهيم، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو إسرائيل، يسمى إسرائيل وهو عبد الله فكلاهما أوصى بنيه بأن يعبدوا الله وحده وأن يسلموا لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن ينقادوا لأوامره ونواهيه. ولهذا، قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾، يذكرهم بتوحيد الله والإخلاص له، ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ﴾، وهو الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾. وهذه وصية الأنبياء جميعًا، فالأنبياء كلهم يوصون بتوحيد الله والإخلاص له؛ لأنهم بعثوا بهذا الأمر: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. فالله عَزَّ وَجَلَّ بعث الرسل جميعًا إلى الخلق من الجن والإنس ليعبدوا الله وحده بدعائهم وخوفهم ورجائهم وصلاتهم وصومهم، وإلى آخر عباداتهم، وكان آدم عليه الصلاة والسلام وذريته على ذلك، على توحيد الله والإخلاص له عشرة قرون كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا،

حتى وقع الشرك في قوم نوح وغلوهم بالصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فلما وقع الشرك في قوم نوح، أرسل الله إليهم نوحًا عليه الصلاة والسلام، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك وقبله آدم نبي، وجاء في بعض الروايات: أنه نبي رسول ومكلم ومأمور ومنهي وله شريعة سارت ذريته عليها، والنبي يسمى رسولًا أيضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢]؛ فالنبي والرسول كلاهما مرسل إليه، والتحديد بالرسول والنبي والفرق بينهما أن الرسول هو المستقل؛ كموسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ومحمد ونحوهم، والنبي هو الذي جاء بشريعة غيره؛ كعيسى وأنبياء بني إسرائيل جاؤوا بشريعتهم ويسمى النبي رسولًا أيضًا.

وقال آخرون: إن الرسول هو الذي يوحى إليه بالشرع ويؤمر بالتبليغ، والنبي يوحى إليه بالشرع ولكن لا يؤمر بالتبليغ، هذا هو المشهور عند الفقهاء، والأول أظهر: أن الرسول هو المستقل، وهو نبي أيضًا؛ كنوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والنبي: هو الذي يوحى إليه بشرع غيره، ويكون تابعًا؛ كأنبياء بني إسرائيل، فإنهم تبع لمن قبلهم، تبعًا لشريعة التوراة، فالواحد منهم يسمى نبيًّا ويسمى رسولًا، ولهذا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فجعل النبي والرسول كلاهما مرسل إليه.

وفي قوله سبحانه: ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ دلالة على أن العم قد يسمى أبًا تغليبًا؛ لأنه قرين الأب، وفي منزلة الأب، فيطلق عليه الأب، يقول له ابن أخيه: يا أبي، من باب التكريم والاحترام.

وأما الجد فهو أب بنص القرآن الكريم في مواضع كثيرة: يا بني آدم، يا بني إسرائيل، وآدم وإسرائيل ليسا آباءهم. . ولكنهم جدهم، جد بني إسرائيل

وهو يعقوب، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف: ٣٨]؛ فيوسف حفيدٌ لإسحاق وحفيدٌ لإبراهيم، والصواب أن الجد أب؛ كما هو قول الصديق رضي الله عنه وعائشة وابن عباس وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ، كلهم قالوا بأنه أب يسقط الإخوة، وهو مذهب أبي حنيفة، وفي بعض الروايات عن أحمد رحمه الله، وهو الصواب، وهو الحق الذي لا ريب فيه، وقد ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «الإعلام» من عشرين وجهًا، والمقصود أن هذا هو الحق، وأن الصواب أن الأب جد يسقط الإخوة؛ لأن الله سمَّاه أبًا، وجاءت السُّنَّة بتسميته أبًا، ولأنه بمنزلته عند فقده ويرث ميراثه، فيعطى السدس مع الفرع الوارث، ويرث عصبًا عند عدم الفرع الوارث، ويقوم مقامه في النكاح، وغير هذا من المسائل الكثيرة التي يقوم مقامه فيها، وهكذا هو في محله أيضًا في إسقاط الإخوة وعدم إرثهم معه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾؛ أي: نوحّده بالألوهيّة ولا نشرك به شيئًا غيره، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾؛ أي: مطيعون خاضعون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. والإسلام هو ملّة الأنبياء قاطبةً، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والآيات في هذا كثيرةٌ والأحاديث فمنها قوله ﷺ: «**نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

ومعنى «**أولاد علات**»: يعني: ضرائر، الأولاد من زوجات شتى وأبوهم واحد، وهكذا الأنبياء والرسل لكل منهم شريعة، ودينهم واحد،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ برقم (٣٤٤٣).

وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان به، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالجنة والنار إلى غير ذلك؛ لكن الشرائع متنوعة، فهذا قد يشرع له كذا ويأمر بكذا وينهى عن كذا. . . .، وقد تأتي أوامر أخرى في الشرائع الأخرى كما في شريعة التوراة. . . . . شريعة عيسى، فإن الله خفف عن بني إسرائيل من بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، وأحل لهم بعض ما حرم عليهم.

وهكذا شريعة محمد، كانت أخف مما جاءت به شريعة التوراة وأيسر، ووضع الله عن هذه الأمة الآصار والأغلال. ولهذا، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فالشرائع متنوعة والدين واحد، وهو توحيد والإخلاص له. . . .، وكلهم دينهم الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، والجهاد في الله والطاعة لله والتعبد لله. . . . . . .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: إنّ السّلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم، فإنّ لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال أبو العالية والرّبيع وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، ولهذا، جاء في الأثر: «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الأثر حديث صحيح، رواه مسلم: «**من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه**»؛ يعني: تلك الأمم التي مضت من الأنبياء والمرسلين لهم أعمالهم ولكم أنتم أعمالكم فلا ينفعوكم إذا لم تتبعوهم ولو كنتم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٢٦٩٩).

أولادهم، وإن كنتم من أولاد الأنبياء لا تنفعكم أعمالهم وما قدموا من خير ذلك لهم فهؤلاء لهم ما كسبوا ولكم أنتم ما كسبتم، ولا ينبغي لعاقل أن يعتمد على أبيه أو جده أو قبيلته وكأن عملهم ينفعه، لا، حتى يعمل هو ويتبعهم في الحق ويسير على نهجهم.

فهذا إبراهيم أبوه آزر، فما أغنى عنه شيئًا؛ لأن آزر مات على الكفر وصار إلى النار، وهكذا محمد ﷺ أبوه عبد الله وأمه آمنة ليسا على دينه، وفي الحديث: «**إن أبي وأباك في النار**»، رواه مسلم في الصحيح، وأمه استأذن أن يستغفر لها فلم يؤذن له، وعمه أبو لهب يتلى في كتاب الله أنه من أهل النار ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وهكذا أبو طالب لم تنفعه نصرته وحدبه على رسول الله ﷺ في النجاة من النار وإنقاذه من النار؛ لأنه مات على دين قومه، وإن كان نفعه بعض الشيء؛ وهو أنه كان في غمرات النار فأخذه الله إلى ضحضاح من النار بسبب أعماله مع محمد ﷺ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل عن ذلك، قال: «**كان في غمرات من النار.... حتى خرج إلى ضحضاح من النار يغلي منها دماغه**»(١).

❊

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥](٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال محمّد بن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ، حدّثني

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب برقم (٣٨٨٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه برقم (٢١٠).

(٢) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سعيد بن جبيرٍ أو عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: قال عبد الله بن صوريّا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلّا ما نحن عليه، فاتّبعنا يا محمّد تهتد، وقالت النّصارى مثل ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

وقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهوديّة والنّصرانيّة؛ بل نتّبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مستقيمًا، قاله محمّد بن كعبٍ القرظيّ وعيسى بن جارية، وقال خصيفٌ، عن مجاهدٍ: مخلصًا، وروى عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاسٍ: حاجًّا، وكذا روي عن الحسن والضّحّاك وعطيّة والسّدّيّ.

وقال أبو العالية: الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أنّ حجّه عليه إن استطاع إليه سبيلًا.

وقال مجاهدٌ والرّبيع بن أنسٍ: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: متّبعًا. وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرّسل كلّهم من أوّلهم إلى آخرهم.

وقال قتادة: الحنيفيّة: شهادة أن لا إله إلّا الله، يدخل فيها تحريم الأمّهات والبنات والخالات والعمّات وما حرّم الله ﷻ والختان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب في معنى الحنيف مثل ما تقدم: الحنيف: هو الذي أقبل على توحيد الله والإخلاص له وترك عبادة ما سواه، متبعًا الأنبياء مستقيمًا على الشرع، هذا هو الحنيف، من الحنف وهو الميل، الحنيف: هو الذي مال عن الأديان الباطلة وأعرض عنها واستقام على توحيد الله واتباع شريعته وإن خالفه الناس كلهم؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فالحنيف: هو الموحِّد المخلِص المتَّبع للحق المائل عن الباطل، ويدخل في ذلك توحيد الله والإخلاص له، ويدخل في ذلك الإيمان بالرسل، ويدخل في ذلك استقبال القبلة، ويدخل في ذلك الحج مع الاستطاعة، ويدخل في

ذلك كل ما شرعه الله، الحنيف هو المقبل على الله، المستقيم على دينه، المعظِّم لحُرماته، التارك لما خالف ذلك.

*

❐ تفسير قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [١٣٦][١].

حدّثنا محمّد بن بشّارٍ، حدّثنا عثمان بن عمر، أخبرنا عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التّوراة بالعبرانيّة، ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ الآيَةَ»[٢].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وما ذاك إلّا لأنّ أهل الكتاب يكذبون ويدّعون أشياء باطلةً، وهم اليهود والنّصارى، فإذا خبّروا عن شيءٍ يقول ﷺ: «**لا تُصدِّقُوهم ولا تُكذِّبُوهُم**» فقد يكون حقًّا فتكذّبوه، وقد يكون ما قالوه باطلًا فتصدّقوه، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾. إلّا ما دلّ عليه الدليل من كتابنا وسنّة نبيّنا ﷺ أنّه حقٌّ فيقبل، وما دلّ الدليل على أنّه باطل يردّ، وما لم يدلّ عليه دليلٌ يكون موقوفًا لا يصدّقون فيه ولا يكذّبون، بل يجب الحذر منهم؛ لأنّهم متّهمون.

• س: بارك الله فيك يا شيخ: من أراد أن يجمع التّوراة والإنجيل والقرآن في دفتي كتابٍ واحدٍ؟

---

(١) من شرح سماحته رحمه الله لصحيح البخاري كتاب التفسير.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب التفسير، باب ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ برقم (٤٤٨٥).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا منكرٌ، هذا أعلن عن الحسين بن...[(١)] هذا منكرٌ لا يصلح، الإنجيل والتّوراة لا يجوز مطالعتهما، ولا النّظر فيهما؛ قد نسخ ما فيهما بالقرآن العظيم، فلا يجوز لأحدٍ النّظر فيهما إلّا إنسانًا يريد الردّ على أهل الباطل من أهل العلم والبصيرة، إذا دعت الحاجة ليردّ عليهم من كتبهم مع ما في القرآن والسّنّة.

يروى عن النّبيّ ﷺ أنّه لمّا رأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظر في شيءٍ منها غضب وأنكر ذلك عليه الصّلاة والسّلام.

• **س: أحسن الله إليك: إنشاء معهدٍ مثلًا لتعليم التّوراة والإنجيل للردّ عليهم، تعليم أبناء المسلمين؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: كلّ هذا ما له أصلٌ، هذا قد يوقعهم في الشّبه، إنّما أهل العلم خاصّة، الّذين قد يحتاجون إلى هذا، مثل ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمة وغيره من العلماء، قد يحتاج إلى مراجعة التّوراة والإنجيل؛ للردّ عليهم في بعض المسائل، أمّا أن يجعله دراسةً، أو معهدًا للدراسةٍ هذا غلطٌ قد يفتح باب شبهٍ وشرٍّ.

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦][(٢)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمّدٍ ﷺ مفصّلًا، وما أنزل على الأنبياء المتقدّمين مجملًا، ونصّ على أعيانٍ من الرّسل، وأجمل ذكر بقيّة الأنبياء، وأن لا يفرّقوا بين أحدٍ

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

منهم؛ بل يؤمنوا بهم كلّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النّساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال البخاريّ: حدّثنا محمّد بن بشار، أخبرنا عثمان بن عمر، أخبرنا عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن أبي سلمة بن عبد الرّحمٰن، عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التّوراة بالعبرانيّة ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾»[(١)].

وقد روى مسلمٌ وأبو داود والنّسائيّ من حديث عثمان بن حكيمٍ، عن سعيد بن يسارٍ، عن ابن عبّاسٍ، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلّي الرّكعتين اللّتين قبل الفجر بـ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا ثابت عنه عليه الصلاة والسلام فإنه تارة يقرأ هاتين الآيتين وتارة يقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في سنة الفجر، الآية الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ آية البقرة، والآية الثانية آية آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وفيهما جميعًا بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل والرد على المشركين والبراءة منهم في هاتين الآيتين، وفي السورة الكريمة وهما آية التوحيد وسورتا التوحيد والإخلاص فيبدأ نهاره بهاتين السورتين أو بهاتين الآيتين في سنة الفجر، ويبدأ ليله في سنة المغرب بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ وهما سورتا الإخلاص والتوحيد والإيمان والبراءة من أهل الشرك.

---

(١) سبق تخريجه في (ص٣٥٤).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال أبو العالية والرّبيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا، ولد كلّ رجلٍ منهم أمة من النّاس، فسمّوا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، وقال الزّمخشريّ في «الكشّاف»: الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه وقرره ولم يعارضه، وقال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أنّ المراد بالأسباط هاهنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٠٦]؛ قال القرطبيّ: وسمّوا الأسباط، من السّبط، وهو التّتابع، فهم جماعة، وقيل: أصله من السّبط، بالتّحريك، وهو الشّجر؛ أي: في الكثرة بمنزلة الشّجر، الواحدة: سبطةٌ.

قال الزجاج: ويبين لك هذا ما حدّثنا محمّد بن جعفرٍ الأنباريّ، حدّثنا أبو نجيدٍ الدّقّاق، حدّثنا الأسود بن عامرٍ، حدّثنا إسرائيل، عن سماكٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ، قال: كلّ الأنبياء من بني إسرائيل إلّا عشرةً: نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمّدٌ عليهم الصّلاة والسّلام، قال القرطبيّ: والسّبط: الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحدٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا منافاة؛ سواء قيل شعوب بني إسرائيل، أو قيل: أولاد يعقوب وذرياته. المقصود أنهم جماعات كثيرة مثل قبائل العرب، بعث فيهم

أنبياء إقامة للحجة وقطعًا للمعذرة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فالله ﷻ جعل فيهم أنبياء وجعل فيهم رسلًا يدعون الناس إلى توحيد الله ويعلمونهم شرائع الله ويحذِّرونهم مما حرَّم الله على عباده. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، ويبيِّن السياق أن الأسباط أشخاصٌ أوحي إليهم، وصاروا بسبب كثرة نسلهم أو كثرة؛ أتباعهم جماعات كثيرة فكل سبط جم غفير.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدّقوا بكتبه كلّها وبرسله.

وقال سليمان بن حبيبٍ: إنّما أمرنا أن نؤمن بالتّوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، أخبرنا مؤمل، أخبرنا عبيد الله بن أبي حميدٍ، عن أبي المليح، عن معقل بن يسارٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**آمِنُوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسعكم القرآن**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا حق، فهذه الأمة أمرت بالإيمان بالرسل جميعًا، وبما أنزل الله عليهم من الكتب إيمانًا مجملًا فيما لم يسم، وإيمانًا مفصلًا فيما قد سمي كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف موسى وإبراهيم، أما العمل، فعليهم أن يعملوا بشريعة محمد التي كلِّفوا بها؛ لأنه رسولهم الخاص، وقد أمروا بأن يتبعوه، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فهم مأمورون باتباع هذا الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام، الذي أرسل إليهم وإلى غيرهم من

سائر البشر ومن سائر الجن، فهو رسول الله إلى الجميع، فعليهم الإيمان به واتباع شريعته، وما أقره الله في الشرائع السابقة في هذه الشريعة صار تبعًا لشريعة محمد ﷺ؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلى آخره [المائدة: ٤٥]، فصار في شريعة محمد ﷺ؛ لأنه أقر فيها وجاء فيها، وما لم يأت في شريعة محمد ﷺ فهم غير مأمورين باتباعه والأخذ به، وإنما هم مأمورون بالإيمان بما جاء به، أما الاتباع والعمل فعليهم بالشريعة التي اختصوا بها على يد محمد عليه الصلاة والسلام.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٧، ١٣٨][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾؛ يعني: الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا أيّها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرِّقوا بين أحدٍ مِنهم، ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾؛ أي: فقد أصابوا الحقّ وأرشدوا إليه، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: عن الحقّ إلى الباطل بعد قيام الحجّة عليهم، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه بشارة من الله للنبي ﷺ والمؤمنين؛ كما قال للناس: ﴿قُولُوٓا۟

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]: هذه العقيدة الصحيحة، أن يكون العبد مؤمنًا بالله وبملائكته وكتبه وجميع الأنبياء جميعًا، مسلمٌ لذلك؛ أي: منقاد لهذا الأمر، عابد ربه بذلك، موحد له بذلك، يرجو رحمته ويخشى عقابه، فهو بهذا دخل في الإسلام، واستقام على الطريق السوي، والآخرون المدعون من قريش ومن غيرهم ومن اليهود ومن غيرهم إن قبلوا هذا وآمنوا بما آمنتم به ودخلوا بما دخلتم فيه ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ يعني: أعرضوا عما أنتم عليه ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾؛ أي: فإنما هم مشاقون لكم معادون ومخاصمون.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾، فهذا وعد من الله أن الله يكفي نبيه ﷺ والمؤمنين شر أولئك المعاندين المخالفين المشاقين، فهذه إشارة تطمين لأهل الإيمان بأن الله يعينهم على عدوهم إذا صدقوا واستقاموا وصبروا على دينهم، فالله يعينهم على من شاقهم وخالفهم، وإنما يؤتى المسلمون من جهة ذنوبهم وتقصيرهم، إنما يؤتى الناس من جهة ما يفعلونه هم، فإذا استقاموا فالأمر بحمد الله واضح، فلا يضرهم عدوهم كما قال ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والصبر من التقوى؛ ونبَّه عليه لعظم شأنه، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]؛ فالنصر مشروط بهذه الأمور: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف؛ يعني: الاستقامة، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٠]: إن تصبروا على أذاهم وعلى جهادهم وتتقوا الله فيما أمركم به، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، فكيدهم يرجع إليهم ويحيط بهم. وهنا يقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾؛ هو السميع لأقوالهم وهو العليم بأحوالهم، لا تخفى عليه خافية، يسمع ما يقولون ويعلم ما يسرون وهو القادر على دفع شرهم وعلى نصر المؤمنين عليهم، وهذا يوجب الثقة بالله والتوكل عليه والإيمان به سبحانه والثقة بنصره إذا استقام المسلمون على ما أمرهم به.

ومما يفسر هذا المعنى ويوضحه قصة بدر؛ استقام المسلمون فيها وتوحَّدت كلمتهم ونصروا دينهم فلم يختلفوا، فنصرهم الله مع أنهم قليل وعدوهم كثير. وفي يوم أحد، لما أخل الرماة بما أمروا به وفشلوا وتنازعوا؛ حصل ما حصل من الهزيمة والجراحات والقتل في المسلمين؛ مع أنهم أكثر من يوم بدر؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ تقتلونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ يعني: سلطوا عليكم وحصل ما حصل من الهزيمة، هذا يوجب لأهل الإيمان ألا يتكاسلوا وألا يكلوا وألا يضعفوا وألا يذلوا بإيمانهم من غير القيام بالأسباب، ولو أن أحدًا ينصر بمجرد إيمانه في نفسه لنصر الرسول ﷺ يوم أحد ولم يضره فشل الرماة وفشل من معه، لكن لما كان الجيش واحدًا واختل بعضه وحصل ما حصل من الاضطراب والاختلاف ضرت المعصية الجميع، وفي الحديث: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقابه**». فالأسباب التي رتب الله عليها النصر لا بدّ من الأخذ بها والعناية بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ولا يقول الغازي ورئيس الجند أو الجند: نحن كذا ونحن كذا، لا، لا بدّ من الأخذ بالأسباب، والرسول قد أخذ بالأسباب ولبس اللأامة ولبس درعين يوم أحد، وهكذا الصحابة أمروا بالسلاح: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] في

السلاح وأخذ الحذر والامتناع والصدق والصبر والتقوى، كلها أسباب، أما التنازع والفشل والاختلاف، كل هذا هو الضرر العظيم، وهو من أعظم أسباب الخذلان؛ كما قال في الآية الأخرى في سورة الأنفال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ فلا بدّ من الصدق وطاعة الله ورسوله، ولا بدّ من جمع الكلمة وعدم التنازع وعدم الفشل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن أبي حاتم: قرأ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا زياد بن يونس، حدّثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إليّ بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفّان ليصلحه، قال زيادٌ: فقلت له: إن الناس ليقولون: إنّ مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدّم على: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾؛ فقال نافعٌ: بصرت عيني بالدّم على هذه الآية، وقد قدم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا سند جيد، يدل على أنه قتل والمصحف بين يديه كما في الرواية الأخرى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه حتى سقط الدم على هذه الآية الكريمة ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾، ولعلها من العبرة التي حصلت لأنهم عذبوا بسبب هذا القتل وجرى عليهم من المحن ما لا يحصيه إلا الله جَلَّ وَعَلَا بسبب عدوانهم، ولم يزالوا يذلون ويقبحون على عملهم إلى يوم القيامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾؛ قال الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ: دين الله، وكذا روي عن مجاهدٍ وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضّحّاك وعبد الله بن كثيرٍ وعطيّة العوفيّ والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ نحو ذلك. وانتِصاب ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾: إما على الإغراء؛ كقوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾

[الروم: ٣٠]؛ أي: الزموا ذلك، عليكموه، وقال بعضهم: بدلًا من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقال سيبويه: هو مصدرٌ مؤكّدٌ انتصب عَن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢٢].

وقد ورد في حديثٍ رواه ابن أبي حاتمٍ وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحاق عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباس، أنّ نبيّ الله ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل قالوا: يا رسول الله، هَلْ يَصْبُغُ رَبُّك؟ فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا مُوسَى، سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: نَعَمْ، أَنَا أَصْبُغُ الْأَلْوَانَ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْأَلْوَانُ كُلُّهَا مِنْ صَبْغِي**»، وأنزل الله على نبيّه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعًا، وهو في رواية ابن أبي حاتمٍ موقوفٌ، وهو أشبه إن صح إسناده، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

مثل ما قال المؤلف، يحتمل مرفوع ويحتمل موقوف، والموقوف أشبه؛ لأنه مما رواه ابن عباس عن أخبار بني إسرائيل، ولم يذكر المؤلف من قبل أشعث؛ فإن سند ابن أبي حاتم وابن مردويه قوي، وبين أشعث وبين أبي حاتم واحد أو اثنان.

ولا ريب أن هذا، أن كل ما وجد هو من خلقه سبحانه؛ فهو الذي خلق الأسود والأحمر والأبيض وغير ذلك جل وعلا، منه خلقه وإيجاده سبحانه وتعالى، جميع الألوان، والمراد هنا صبغة الله دين الله؛ يعني: الزموا، مفعول لفعل محذوف، هذا أحسن ما قيل؛ يعني: الزموا دين الله الذي صبغ العباد به؛ هذا كافر وهذا مسلم، وهذا تقي وهذا مجرم.... جاء بهذه الأديان؛ فمنهم من يوفق وتكون صبغته كاملة ويكون كامل الإيمان كامل التقوى، ومنهم من يخل بشيء من ذلك فتكون صبغته ناقصة لعدم استكماله ما أمره الله به، الإيمان، التقوى، البر، من استكمل الإيمان فهو مؤمن كامل واصطبغ بصبغة الله صبغة كاملة، ومن أخل بشيء من

ذلك اختل من هذا الوصف وصار إيمانه ناقصًا وصبغته ناقصة؛ وإسلامه ناقصًا وبره ناقصًا.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: ١٣٩ ـ ١٤١][1]

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول الله تعالى مرشدًا نبيّه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتّباع أوامره وترك زواجره، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرِّف فينا وفيكم، المستحقّ لإخلاص الإلهيّة له وحده لا شريك له، ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ أي: نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منّا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى:

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾؛ أي: نحن براء منكم كما أنتم براءٌ منّا، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾؛ أي: في العبادة والتّوجّه. ثمّ أنكر تعالى عليهم في دعواهم أنّ إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط، كانوا على ملّتهم إمّا اليهوديّة وإمّا النّصرانيّة، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؛ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنّهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] الآية والتي بعدها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذه الآية تشمل جميع طوائف الكفر؛ فإن الله ﷻ أمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]، يشمل اليهود ويشمل النصارى ويشمل الوثنيين ويشمل غيرهم، فإن حجتهم داحضة جميعًا، فكيف يليق بهم وكيف يسوغ لهم أن يخاصموا في الله وفي إنكار العبادة له وحده والخضوع له والإسلام له والإخلاص له، وكيف يليق بهم أن يبدوا هذه المخاصمة وهذه المحاجة وهو رب الجميع وإله الجميع وخالق الجميع ورازق العباد جميعًا؟ كلهم مقرون بهذا، هو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم وغذاهم بالنعم وخلق من قبلهم، كيف يحاجون في عبادته وتصديق رسله واتباع ما جاءت به الرسل؟ ولهذا قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾؛ كما أنه رب الجميع فهو الإله الحق الذي يجب أن تكون له العبادة وحده ولا يدعى معه إلٰه آخر ولا يطلب الرزق إلا منه والشفاء إلا منه، وهكذا كل العبادات يجب أن تكون له خالصة ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾؛ فيخلصون له العبادة، فأي حجة لكم علينا ونحن قد فعلنا ما تقتضيه الأدلة الحسية التي قرر الله عليها العباد فضلًا عن الأدلة النقلية؟ وفي الآية الأخرى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ أي: منقادون له، ذليلون لأوامره، منتهون عن نواهيه، خاضعون لحكمه، ذليلون لأمره، هذا هو الإخلاص، وقال في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]؛ هذا توحيد الله والإخلاص له، فأقل شيء أن تكفوا شركم وألا تهاجموا من خالفكم وألا تشبهوا عليه، وألا تقاتلوه وألا تمنعوه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

ثم شرع الله قتالهم وأمر بقتالهم حتى يخضعوا لهذا الأمر، كان هذا في أول الأمر، كما قال في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، وكما في قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] في أحد القولين، ثم أنزل الله ﷻ الأمر بقتالهم وألا يتركوا؛ بل يجب أن يقاتلوا حتى يخلصوا العبادة لله وحده سبحانه؛ كما قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥]، فدل على أنه لا يخلى سبيلهم إلا إذا دخلوا في دين الله، إلا من استثناه الله من أهل الكتاب؛ فأهل الكتاب والمجوس هؤلاء إذا أدوا الجزية كف عنهم وتركوا حتى يدخلوا في دين الله أو يستمروا في أداء الجزية وهم صاغرون، وهذا هو القول الثاني في معنى قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، أنها خاصة في أهل الكتاب والمجوس، لا إكراه عليهم، إذا أدوا الجزية قبل منهم، والقول الأول أنها عامة ولكنها نسخت في آية السيف وما في معناها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إنّ الدّين الإسلام، وإنّ محمّدًا رسول الله، وإنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ؛ أي: أنّ علمه محيطٌ بعلمكم وسيجزيكم عليه.

ثمّ قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعةٍ منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتّباع رسله الّذين بعثوا مبشّرين ومنذرين. فإنّه من كفر بنبيٍّ واحدٍ، فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيّد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول ربّ العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلّفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين [أبدًا دائمًا إلى يوم الدين، ورضي الله عن أصحابه المتبعين إلى يوم الحشر واليقين].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليهود والنصارى عندهم شهادة من الله بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام فكتموها، فلا أظلم منهم حين كتموا الشهادة التي عندهم من الله على صحة ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنهم حسدوا وكتموا الحق وآثروا الدنيا على الآخرة، فخابوا وخسروا، نعوذ بالله، ولن ينفعهم انتسابهم من الأنبياء الماضين، وأنهم من ذرياتهم، لا ينفعهم: «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فكون الإنسان من

ذرية الأنبياء أو من ذرية الصالحين لا ينفعه إذا لم يعمل بعقيدتهم وأعمالهم ولم يسِر على نهجهم، فهذا ولد نوح غرق مع الناس وهلك لما لم يتبع والده نوح عليه الصلاة والسلام، وهكذا والد إبراهيم لما لم يستجب لابنه إبراهيم ولم يصدقه هلك مع الهالكين وصار إلى النار؛ ولم تنفعه أبوته، وهكذا والد نبينا محمد ﷺ وأمه أخبر عنه رسول الله ﷺ أن أباه في النار لأنه مات على دين قومه الكفر بالله، وأمه كذلك استأذن ربه أن يستغفر لها فلم يؤذن له أن يستغفر لها وهي أمه، وهذا عمه أبو طالب وعمه أبو لهب ماتا على دين الجاهلية فلم تنفعهما هذه القرابة. فالقرابة إنما تنفع إذا استقام القريب على دين الله، أما إذا انحرف فلا تنفعه قرابته من أبيه ولا من غير أبيه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾. وكما أنك لا تُسأل عن أعمالهم وأخطائهم وأغلاطهم، فأنت أيضًا لا تنفعك أعمالهم الصالحة إذا لم تعمل بها أنت، فلا تضرك أعمالهم ولا تنفعك أعمالهم، وإنما يضرك عملك وينفعك عملك، هذا هو الأمر الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٣][(١)].

قيل: المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب، قاله الزّجّاج.

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقيل أحبار يهود، قاله مجاهدٌ.

وقيل: المنافقون، قاله السّدّيّ.

والآية عامّةٌ في هؤلاء كلّهم، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهي مثل ما قال المؤلف أنها عامة، فيكون السفهاء من الناس تعمُّ ما يقول هذا من المشركين ومن اليهود ومن المنافقين، فمن استنكر تحويل الله نبيه إلى الكعبة واحتج على تكذيب الرسول ﷺ بذلك فهو من السفهاء، ومن آمن وتابع الحق فهو من أهل الإيمان والهدى، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ يقولون ذلك احتجاجًا واستنكارًا ومعارضة للحق وتكذيبًا للصدق، ولهذا ذمَّهم الله وعابهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال البخاريّ: أخبرنا أبو نعيم، سمع زهيرًا عن أبي إسحاق، عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنّه صلّى أوّل صلاةٍ صلاها صلاة العصر، وصلّى معه قومٌ فخرج رجلٌ ممّن كان يصلّي معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صلّيت مع النّبيّ ﷺ قِبل مكّة، فداروا كما هم قِبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ انفرد به البخاريّ من هذا الوجه، ورواه مسلمٌ من وجهٍ آخر[(١)]

---

(١) أخرجه في كتاب التفسير، باب ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ (٤٤٨٦)، وأخرجه مسلم برقم (٥٢٥) مختصرًا باختلاف.

وقال محمّد بن إسحاق: حدّثني إسماعيل بن أبي خالدٍ عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس، ويكثر النّظر إلى السّماء ينتظر أمرَ الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منّا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾.

وقال السّفهاء من النّاس، وهم أهل الكتاب: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾، فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.... إلى آخر الآية.

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا الحسن بن عطيّة، حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ قد صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أن يوجّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ قال: فوجّه نحو الكعبة، وقال السّفهاء من النّاس وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ: إنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحبّ قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السّماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرةٌ، وحاصل الأمر أنّه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصّخرة من بيت المقدس، فكان بمكّة يصلّي بين الرّكنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبلٌ صخرة بيت المقدس، فلمّا هاجر إلى المدينة تعذّر الجمع بينهما، فأمره الله بالتّوجّه إلى بيت المقدس.

قال ابن عبّاسٍ والجمهور: ثمّ اختلف هؤلاء، هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؟ على قولين.

وحكى القرطبيّ في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصريّ: أنّ التّوجّه إلى بيت المقدس كان باجتهاده ﵇.

والمقصود: أنّ التّوجّه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا وكان يكثر الدّعاء والابتهال أن يوجّه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم ﵇، فأجيب إلى ذلك؛ وأمر بالتّوجّه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ النّاس فأعلمهم بذلك، وكان أوّل صلاةٍ صلّاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصّحيحين من رواية البراء.

ووقع عند النّسائيّ من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر، وقال: كنت أنا وصاحبي أول من صلّى إلى الكعبة(١)

وذكر غير واحدٍ من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلّى ركعتين من الظهر، وذلك في مسجد بني سلمة، فسمّي مسجد القبلتين، وفي حديث نويلة بنت مسلم: أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، ذكره الشّيخ أبو عمر بن عبد البرّ النّمريّ، وأمّا أهل قباء

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى برقم (١٠٩٣٧).

فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثّاني، كما جاء في الصّحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّه قال: بينما النّاس بقباء في صلاة الصّبح، إذ جاءهم آتٍ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه اللّيلة قرآنٌ وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشّام فاستداروا إلى الكعبة[١].

وفي هذا دليلٌ على أنّ النّاسخ لا يلزم حكمه إلّا بعد العلم به، وإن تقدّم نزوله وإبلاغه؛ لأنّهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولمّا وقع هذا، حصل لبعض النّاس من أهل النّفاق والرّيب والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزيغٌ عن الهدى وتخبيطٌ وشكٌّ، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾؛ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارةً يستقبلون كذا وتارةً يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ أي: الْحُكْمُ والتّصرُّفُ والأمر كله لله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: الشّأن كلّه في امتثال أوامر الله، فحيثما وجّهنا توجّهنا.

فالطّاعة في امتثال أمره ولو وجّهنا في كلّ يومٍ مرّاتٍ إلى جهاتٍ متعددة، فنحن عبيده وفي تصرفه، وخدّامه حيثما وجّهنا توجّهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمّدٍ صلوات الله وسلامه عليه وأمّته عنايةٌ عظيمةٌ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرّحمٰن، وجعل توجّههم إلى الكعبة

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.... برقم (٤٤٨٨)، ومسلم في كتاب المساجد، باب تحويل القبلة برقم (٥٢٦).

المبنيّة على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

والمعنى في هذا أن الواجب على الأمة امتثال الأوامر وترك النواهي والتوجه حيث وجِّهوا، وليس لهم الاختيار بأن يفعلوا ما يشاؤون؛ وإنما هم عبيد مأمورون فحيثما وجِّهوا توجَّهوا، وليس لأحد أن يعترض على الله في حكمه وشرعه. فالسفهاء حين اعترضوا لم يعقلوا هذا الأمر ولم يفهموا هذا الأمر ولهذا اعترضوا، قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، فردَّ الله عليهم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾، وهو المتصرف في عباده كيف يشاء يولِّهم شرقًا أو غربًا أو جنوبًا أو شمالًا إلى الكعبة أو غيرها. له الأمر سبحانه وتعالى، والواجب على العباد الامتثال والطاعة حيث أمروا ائتمروا، وحيث نُهوا انتهوا، عرفوا الحكمة أم لم يعرفوها، وإن عرفوا الحكمة والعلة فهذا علم ونور على نور وخير وهدى، فإن لم يعرفوا فالهدف والواجب والمقصود هو الامتثال.

وقول المؤلف فيما تقدم أنهم أمروا أن يتوجهوا إلى الصخرة فهذا محل نظر وليس في النصوص شيء يتعلق بالصخرة، ولا يعرف لها فضل خاص، وإنما أُمر المسلمون أن يتوجهوا إلى بيت المقدس إلى مسجد الأنبياء وهو القدس، التوجه إلى جهة الشام لأن فيها المسجد العظيم وهو مسجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالتوجه إلى هناك لما في ذلك المسجد من الفضل، ولما فيه من البركة، ثم نسخ الله ذلك وجعل القبلة إلى بيته الحرام، فله الحكمة البالغة في الأول والآخر سبحانه وتعالى.

أما ذِكر الصخرة فلا أعلم لها فيما أعلم ذِكر في النصوص، وإنما عظَّمها النصارى فقط فلا ينبغي أن ينسب إليها شيء من الأحكام أو الفضل إلا بدليل، وإنما القبلة جهة الشام لما فيها من معقل الأنبياء وأول بيت وضع للناس بعد الكعبة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد روى الإمام أحمد عن عليّ بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمٰن، عن عمرو بن قيسٍ، عن محمّد بن الأشعث، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ؛ يعني في أهل الكتاب: «**إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمْعَةِ التِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِين**»[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا فيه علي بن عاصم فيضعَّف، وكان من جهته، ولكن هذا المعنى صحيح، فإن اليهود حسدوا المسلمين، والله المستعان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

انظر في التقريب علي بن عاصم؟

الطالب: علي بن عاصم بن صهيب الواسطي التيمي مولاهم، صدوق يخطىء ويصر ورُمي بالتشيع، من التاسعة. مات سنة إحدى ومائتين وقد جاوز التسعين، أخرج له أبو داود والترمذي وابن ماجه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، يقول تعالى: إنّما حوّلناكم إلى قبلة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٦/ ١٣٤).

إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأنّ الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا الخيار والأجود كما يقال: قريشٌ أوسط العرب نسبًا ودارًا؛ أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه؛ أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصّلاة الوسطى التي هي أفضل الصّلوات وهي العصر، كما ثبت في الصّحاح وغيرها.

ولمّا جعل الله هذه الأمّة وسطًا، خصّها بأكمل الشّرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحجّ: ٧٨].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا من فضل الله عز وجل وكرمه جل وعلا أن جعل هذه الأمة خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل وجعلها وسطًا؛ يعني: عدلًا خيارًا تُقبل شهادتها على الناس يوم القيامة، تشهد هذه الأمة لجميع الرسل الذين قد بلغوا رسالات ربهم وبلَّغوا أممهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ يعني: عدلًا خيارًا تُقبل شهادتهم على الناس، ويعرف الناس فضلكم، ولهذا قال: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]؛ أي: اصطفاكم واختاركم، فجدير بهذه الأمة أن تحقق الصفات التي اختيرت لأجلها وأن تكون مثالًا عاليًا، مثالًا جميلًا، مثالًا طيبًا في الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة حتى تكون من جملة هؤلاء الشهداء ومنزلة هؤلاء الأخيار كما قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فليست خير أمة من جهة النسب ولا من جهة المال، ولكن من جهة العمل، من جهة الإيمان والتقوى

واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي الحديث: أنتم توفون سبعون أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله، وكل مؤمن جدير به أن يتخلَّق بالأخلاق العظيمة التي بها يكون لَبِنة من لَبنات هذه الأمة، وفردًا من أفرادها، وشهيدًا من شهدائها في إبلاغ الرسل ما أُرسلوا به، وقيامهم بما فرض الله عليهم وفي قيامه بما شرع الله له وما جاء به نبيه عليه الصلاة والسلام من أخلاق وأعمال.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقال الإمام أحمد: حدّثنا وكيعٌ عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، قَالَ فَذَلِكَ قوله**: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ **قال: والوسط الْعَدْلُ، فَتُدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ** » ثمّ أشهد عليكم. رواه البخاريّ والترمذيّ والنّسائيّ وابن ماجه من طرقٍ عن الأعمش[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدّثنا أبو معاوية، حدّثنا الأعمش عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ الخدريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فيقال: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ لَهُ: هل بلَّغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُدْعَى محمد وَأُمَّتِهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نبينا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ** ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ برقم (٤٤٨٧).

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من باب إظهار الحجة، ومن باب قطع الخصم وبيان بطلان إنكاره على رؤوس الأشهاد؛ فإنه سبحانه يعلم أن الرسل بلغوا، والرسل صادقون مقبولون على أممهم وليسوا مكذبين، ولكن من باب إعلان بطلان هذه الدعوى ومن باب إعلان فضيحتهم على رؤوس الأشهاد حيث قالوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فيدعى محمد وأمته فيشهدون أن الرسل قد بلَّغوا وإنما شهدوا لأن القرآن جاء بذلك، وقد أُنزل على محمد وفيه أن الرسل بلّغوا، والنبي بيَّن ذلك، فالأمة مع نبيِّها عليه الصلاة والسلام تشهد بذلك على خبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والله أخبر محمدًا وأمته أن الرسل قد بلَّغوا وجعلهم يوم القيامة شهداء على الناس يشهدون بأن الرسل قد بلَّغت حين ينكرون، حين تنكر الأمم تقوم هذه الأمة مع نبيها يشهدون بأن الرسل قد بلَّغوا، نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وغيرهم من الرسل إلى آخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال أحمد أيضًا: حدّثنا أبو معاوية، حدّثنا الأعمش عن أبي صالحٍ عن أبي سعيدٍ الخدريّ عن النّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلًا.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتمٍ، من حديث عبد الواحد بن زيادٍ عن أبي مالكٍ الأشجعيّ عن المغيرة بن عتيبة بن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٥٨).

نهّاسٍ، حدّثني مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النّبيّ ﷺ قال: «**أَنَا وَأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْخَلَائِقِ، مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا وَدَّ أَنَّهُ مِنَّا، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ إِلَّا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ** عَزَّ وَجَلَّ».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وفي رواية أخرى على حلٍّ؛ يعني: على محل مرتفع، ولكن السند هذا ضعيف لأن مكتِّب هذا أو مكاتب مجهول. لكن الأحاديث السابقة كافية في أن هذا النبي وأمته هم الشهداء على الناس كما هو نص القرآن.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضًا، واللّفظ له من حديث مصعب بن ثابتٍ عن محمّد بن كعبٍ القرظيّ عن جابر بن عبد الله قال: شهد رسول الله ﷺ جنازةً في بني سلمة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان.. وأثنوا عليه خيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **أَنْت بِمَا تقول**، فقال الرجل: الله أعلم بالسّرائر، فأمّا الذي بدا لنا منه فذاك، فقال النّبيّ ﷺ: **وَجَبَتْ وَجَبَتْ**، ثمّ شهد جنازةً في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله بئس المرء كان، إن كان لفَظًّا غليظًا فأثنوا عليه شرًّا، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: **أَنْتَ بِالذِي تَقُولُ**، فقال الرّجل: الله أعلم بالسّرائر، فأمّا الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: **وَجَبَتْ**.

قال مصعب بن ثابتٍ: فقال لنا عند ذلك محمّد بن كعبٍ: صدق رسول الله ﷺ ثمّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾، ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه[١].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معنى أنت بالذي تقول؛ يعني: أنت مأخوذ به مسؤول عنه يوم القيامة، هل أنت صادق أم كاذب!

وهذا جاء معناه في عدة أحاديث صحيحة وفيها: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**» مرّوا بجنازةٍ فأثنوا عليها خيرًا، فقال النّبيّ ﷺ: «**وَجَبَتْ**». ثمّ مرّوا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وَجَبَتْ**». فقال عمر بن الخطّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما وجبت؟ قال: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»، «**أَنْتُم شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»[٢]

فالواجب التثبت في الأمور والحذر، فمن شهد له الأخيار بالخير فهو من علامات أنه من أهل الجنة، ومن شهد له الأخيار بالشر فهو من علامات أنه من أهل النار، أنتم شهداء الله في أرضه، نسأل الله العافية.

وهذا مما احتُجَّ به على أن المعلن لا غيبة له، ولهذا ما أنكر عليهم حين شهدوا عليه بالشر، فمن أعلن الشر والفساد فلا مانع من الشهادة عليه بذلك، ولهذا يطلب من المدَّعين تزكية الشهود ومن المعارضين الجرح، فالجرح للشهود وللرواة أمر مطلوب فيما ظهر من أعمالهم وأحوالهم وليس من الغيبة، الغيبة ذكرك أخاك بما يكره بما هو

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه (٢/ ٢٢١) برقم (١٤١٣).

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت برقم (١٣٦٧)، ومسلم في كتاب الجنائز **باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى** برقم (٩٤٩).

غير معلِن، مما اطلعت عليه أنت وليس مما أعلنه للناس، فمن أعلن للناس خبثه وشره وتَرْكه للصلاة أو شربه للخمور أو غير هذا من الفواحش الظاهرة والمنكرات الظاهرة فيُشهد عليه بذلك عند الحاجة إلى التجريح عند الحاجة إلى الشهادة عند الحاجة إلى الرواية، وليس ذلك من الغيبة في شيء، فهذا من النصح لله ولعباده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يونس بن محمّدٍ، حدّثنا داود بن أبي الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبي الأسود أنّه قال: أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرضٌ فهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلى عمر بن الخطّاب فمرّت به جنازة فأثني على صاحبها خيرًا، فقال: وجبت، ثمّ مرّ بأخرى فأثني عليها شرًّا، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**، قال: فقلنا وثلاثة؟ قال: فقال: **وَثَلَاثَةٌ**، قال: فقلنا واثْنان: قال: **وَاثْنَانِ**. ثمّ لم نسأله عن الواحد». وكذا رواه البخاريّ والتّرمذيّ والنّسائيّ من حديث داود بن أبي الفرات به(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا الحذر من إظهار الشر والحرص على الاستتار بما يبتلى به الإنسان، وأن يتقي الله ويحذر، فإذا كان ولا بدّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله وليعلن توبته ويظهر عمله الصالح حتى لا يفضح على رؤوس الأشهاد لا في الدنيا ولا في الآخرة، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت برقم (١٣٦٨)، والإمام أحمد (١/ ٢٦ و٣٠ و٤٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن مردويه، حدّثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدّثنا أبو قلابة الرّقاشيّ، حدّثني أبو الوليد، حدّثنا نافع بن عمر، حدّثني أميّة بن صفوان عن أبي بكر بن أبي زهير الثّقفيّ عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنّباوة يقول: «**يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ**» قالوا: بم يا رسول الله؟ قَالَ: «**بِالثَّنَاءِ الحسن والثناء السيء، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**»، ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون، ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمر وشريحٍ عن نافعٍ عن ابن عمر به[(١)].

الطالب: فيه خطأ أيضًا أن يزيد بن هارون لم يكن شيخًا لأحمد في هذا الحديث أبدًا.... من المسند ليس فيها يزيد بن هارون على الإطلاق، وعبد الملك هو ابن عمرو أبو عامر العقدي شيخ أحمد فيه، وشريح خطأ وهو سَريج بن يونس، وكذلك عن نافع عن ابن عمر خطأ أيضًا عن نافع بن عمر وهو الجمحي.

ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

صلِّحها، عبد الملك بن عمرو بالواو.

وهذا مثل ما تقدم في قوله: وجبت وجبت جبت، أنتم شهداء الله في الأرض. فالأخيار يُعرفون بالثناء الحسن من أهل الخير والذكر الحسن من أهل الخير، والأشرار يعرفون بالثناء السوء وبالذم من أهل الخير لهم؛ ولهذا يُعرف هؤلاء من هؤلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الثناء الحسن برقم (٤٢٢١)، والإمام أحمد (٣/ ٤١٦)، والحاكم كلهم من طريق نافع عن ابن عمر به، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٢٠)، وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٣٠١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون، ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمرو وسريج عن نافعٍ بن عمر به.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣][(١)].

يقول تعالى: إنّما شرعنا لك يا محمّد التّوجّه أوّلًا إلى بيت المقدس، ثمّ صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتّبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجّهت ممن ينقلب على عقبه؛ أي: مرتدًّا عن دينه.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾؛ أي: هذه الفعلة وهو صرف التّوجّه عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النّفوس إلّا على الّذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرّسول، وأنّ كلّ ما جاء به فهو الحقّ الذي لا مرية فيه، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويُحكِم ما يريد، فله أن يكلّف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التّامّة والحجّة البالغة في جميع ذلك بخلاف الّذين في قلوبهم مرضٌ، فإنّه كلما حدث أمرٌ أحدث لهم شكًّا كما يحصل للّذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٤ ـ ١٢٥]، وقال تعالى ﴿قُلْ

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من حكمة الله ﷻ ومن عدله في عباده وفضله على أوليائه. فالآيات كلما زادت زاد إيمان المؤمنين وسُرُّوا بذلك وانشرحت صدورهم، وهكذا إذا نسخ الله شيئًا بشيء انشرحت صدورهم وقبلوا الحق وانقادوا له، بخلاف أصحاب القلوب المريضة؛ فإنهم يزدادون شكًّا إلى شكهم، وشرًّا إلى شرِّهم، وبلاء إلى بلائهم كما قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالاستعانة بالصبر والصلاة وأداء الصلاة والاستقامة على الأعمال الصالحات؛ شاق على أكثر الخلق؛ ولكنه ميسَّر لأولياء الله وأهل طاعته الذين هداهم الله، فهم يستحضرون أوامر الله بالانشراح والنشاط والقَبول والمحبة والتلذذ بذلك، ولهذا قال هنا في نفس القبلة: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: شاقة عظيمة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] من شرح الله صدره قبلها بانشراح ومحبة ومزيد إيمان، لأن الله يفعل ما يشاء، ويصرِّف ما يشاء، ويوجِّه عباده إلى ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا القرآن العظيم ينفع الله به المؤمنين إلى كل خير، ومع هذا لا يزيد الظالمين إلا خسارًا! نعوذ بالله، واستكبار وتكذيب، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ يعني: ثقل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] كأنهم لا يسمعونه ولا يعقلونه ولا يبصرونه، نعوذ بالله من هذه الحال.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرّسول ﷺ واتّباعه في ذلك وتوجّه حيث أمره الله من غير شكٍّ ولا ريبٍ من سادات الصّحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا إلى القبلتين.

وقال البخاريّ في تفسير هذه الآية: حدّثنا مسدّدٌ، حدّثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينارٍ عن ابن عمر قال: بينا النّاس يصلّون الصّبح في مسجد قباء إذ جاء رجلٌ فقال: قد أنزل على النّبيّ ﷺ قرآنٌ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجّهوا إلى الكعبة.

وقد رواه مسلمٌ من وجهٍ آخر عن ابن عمر، ورواه التّرمذيّ من حديث سفيان الثّوريّ وعنده: أنّهم كانوا ركوعًا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوعٌ، وكذا رواه مسلمٌ من حديث حمّاد بن سلمة عن ثابتٍ عن أنسٍ مثله.

وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله ﷻ، رضي الله عنهم أجمعين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني أنهم بادروا إلى قبول النسخ والاستدارة إلى الكعبة ولم يكن في صدورهم حرج ولا توقف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، ما كان يضيع ثوابها عند الله. وفي الصّحيح من حديث أبي إسحاق السّبيعيّ عن البراء قال: مات قومٌ كانوا يصلّون نحو بيت المقدس، فقال النّاس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، ورواه التّرمذيّ عن ابن عبّاسٍ وصحّحه(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وسمّى هذه الصلاة إيمانًا؛ لأنهم فعلوها عن إيمان وتصديق، ولهذا قال أهل السّنّة والجماعة: الإيمان قول وعمل وعقيدة يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وهو سبحانه لا يضيع إيمانهم في القبلة التي كانوا عليها إلى الشام، ولا يضيع صلاتهم إليها، بل لهم أجورهم كاملة لأنهم امتثلوا أمر الله، ثم جاء النسخ بعدهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن إسحاق: حدّثني محمّد بن أبي محمّدٍ عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيّكم واتّباعه إلى القبلة الأخرى؛ أي: ليعطيكم أجرهما جميعًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

وقال الحسن البصريّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: ما كان الله ليضيع محمّدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

وفي الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ رأى امرأةً من السّبي قد فرّق بينها وبين ولدها فجعلت كلّما وجدت صبيًّا من السّبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمّته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: **«أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أن لا تَطْرَحَهُ؟»** قالوا: لا يا رسول الله. قال: **«لَلّه أرحَمُ بِعِبَادِهِ مِن هَذِه بوَلَدِهَا»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كتاب التفسير عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة البقرة (٢٩٦٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته برقم (٥٩٩٩)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم (٢٧٥٤).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هو الرؤوف الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الرحمٰن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الخاصة لعباده أهل الإيمان و(**ترون**) يحتمل الضم والفتح، ترون: تعلمون ـ تعتقدون، وترون........

❋

□ **تفسير قوله تعالى**: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤][(١)].

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان يحبّ قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السّماء فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمريّ عن عمّه عبيد الله بن عمر عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عبّاسٍ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السّماء، فأنزل الله:

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يؤمّ به جبرائيل عليه السلام.

وروى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاءٍ عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرٍو جالسًا في المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية: فلنولّينّك قبلةً ترضاها، قال: نحو ميزاب الكعبة. ثمّ قال: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه. ورواه ابن أبي حاتمٍ عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاءٍ به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله : ماذا؟

الطالب: قمطة، قاف ميم طاء.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه: إنّ الغرض إصابة عين الكعبة.

والقول الآخر وعليه الأكثرون: أنّ المراد المواجهة، كما رواه الحاكم من حديث محمّد بن إسحاق عن عمير بن زياد الكندي عن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: شطره: قبله، ثمّ قال: صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه[(١)].

وهذا قول أبي العالية ومجاهدٍ وعكرمة وسعيد بن جبيرٍ وقتادة والرّبيع بن أنسٍ وغيرهم. وكما تقدّم في الحديث الآخر: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب مواقيت الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة برقم (٣٤٢)، وابن ماجه في كتاب الصلاة، باب القبلة برقم (١٠١١)، والنسائي في كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على أبي صالح في هذا الحديث برقم (٢٢٤٣).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا هو نص القرآن، المقصود الجهة جهة الكعبة، ولكن قبلة النبي ﷺ أصابت عين الكعبة لأنها القبلة، ولهذا قال جمع من أهل العلم أنها أصابت عين الكعبة وهو في المدينة، باستقبال الجهة كله هو الجهة حيث قال: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، والمدينة معلوم أنها جهة الشام شمال فتكون قبلتها الجنوب ما يقابل الميزاب من الجدار الشمالي ويكون في حق جميع الناس شطر إلا من كان قريبًا منها يراها فإنه يستقبل عينها، ومن كان بعيدًا عنها لا يراها يستقبل الجهة وكفى، ولهذا قال: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: انظر: عمير بن زياد.

الطالب: يا شيخ عمير بن زياد هذا ما له ترجمة، ووجدت صوابه: عميرة بن زياد الكندي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

راجعت الحاكم؟

الطالب: راجعت الحاكم مكتوب فيه عمير بن زياد، لكن تعبت فيه وما لقيت إلا عميرة بن زياد، والثاني: عميرة بن سعد. وهو من رجال الكتب الستة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

انظر التقريب.

الطالب: قال في التهذيب: عميرة بن سعد الهمداني اليماني، أبو السكن الكوفي، روى عن علي وأبي هريرة في بضع عشر رجلًا من الصحابة، وأبي سعيد وأنس روى عنه الزبير بن عدي وطلحة بن مصرف وعرار بن عبد الله بن سعيد اليمامي. قال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد القطان: لم يكن ممن يُعتمد عليه، وذكره ابن حبان في الثقات. قلت: ذكر البخاري أن بعضهم سمَّاه عميرًا، قال: ولا يصح. وقال في التقريب: مقبول من الثالثة، روى له النسائي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر أن بعضهم سمَّاه عميرًا؟

الطالب: نعم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال القرطبيّ: روى ابن جريج عن عطاءٍ عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ قال: «**البيت قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَسْجِدِ، وَالْمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْحَرَمِ، وَالْحَرَمُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي**».

وقال أبو نعيم الفضل بن دكينٍ: حدّثنا زهيرٌ عن أبي إسحاق عن البراء أنّ النّبيّ ﷺ صلّى قبل بيت المقدس ستّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه قبلته قبل البيت، وأنّه صلّى صلاة العصر وصلّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممّن كان يصلّي معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صلّيت مع رسول الله ﷺ قبل مكّة، فداروا كما هم قِبل البيت.

وقال عبد الرّزّاق: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحبّ أن يحوّل نحو الكعبة، فنزلت: قد نرى تقلّب وجهك في السّماء، فصرف إلى الكعبة.

وروى النّسائيّ عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنّا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلّي فيه، فمررنا يومًا ورسول الله ﷺ قاعدٌ على المنبر، فقلت: لقد حدث أمرٌ فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: قد نرى تقلّب وجهك في السّماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها حتّى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أوّل من صلّى، فتوارينا فصلّيناهما. ثمّ نزل النّبيّ ﷺ وصلّى للنّاس الظّهر يومئذٍ[١].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى برقم (١٠٩٣٧)، والطبراني في الكبير.

وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر: أنّ أوّل صلاةٍ صلّاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظّهر، وأنّها الصّلاة الوسطى[١].

والمشهور أنّ أوّل صلاةٍ صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخّر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا الحسين بن إسحاق التّستريّ، حدّثنا رجاء بن محمّدٍ السّقطيّ، حدّثنا إسحاق بن إدريس، حدّثنا إبراهيم بن جعفرٍ، حدّثني أبي عن جدّته أمّ أبيه نويلة بنت مسلمٍ قالت: صلّينا الظّهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياءً فصلّينا ركعتين، ثمّ جاء من يحدّثنا أنّ رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحوّل النّساء مكان الرّجال والرّجال مكان النّساء، فصلّينا السّجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فحدّثني رجلٌ من بني حارثة أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**أُولَئِكَ رِجَالٌ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**».

وقال ابن مردويه أيضًا: حدّثنا محمّد بن عليّ بن دحيم، حدّثنا أحمد بن حازمٍ، حدّثنا مالك بن إسماعيل النّهديّ، حدّثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوسٍ قال: بينما نحن في الصّلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوعٌ إذ نادى منادٍ بالباب: أنّ القبلة قد حوّلت إلى الكعبة، قال: فأشهد على إمامنا أنّه انحرف فتحوّل هو والرّجال والصّبيان وهم ركوعٌ نحو الكعبة[٢].

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ولا يستثنى من هذا شيءٌ سوى النّافلة في

---

(١) هذه الرواية مخالفة لما في الصحيح كما سيأتي.

(٢) أخرجه إبن أبي شيبة من طريق قيس به (المصنف ١/ ٣٣٥).

حال السّفر فإنّه يصلّيها حيثما توجّه قالبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلّي على كلّ حالٍ. وكذا من جهل جهة القبلة يصلّي باجتهاده وإن كان مخطئًا في نفس الأمر؛ لأنّ الله تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويلحق بهذا حال رابعة وهي: ما إذا كان عاجزًا عن القبلة كالمصلوب والمريض الذي ليس عنده من يوجهه إلى القبلة فإنه يصلي على حسب حاله؛ لقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، هذه الأحوال الأربع يصلي فيها الإنسان إلى غير القبلة.

الحالة الأولى: المسافر إذا تنفَّل يصلِّي إلى جهة الطريق، يصلي على راحلته إلى جهة طريقه كما فعل النبي ﷺ.

الحالة الثانية: عند شدة القتال والمسايفة، يصلِّي حيثما كان وجهه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

الحالة الثالثة: إذا اشتبهت عليه القبلة واجتهد وتحرَّى، ثم بان أنه مخطئ وأنه صلَّى إلى غير القبلة فصلاته صحيحة لاجتهاده، كما أنه لما صلوا أول الصلاة إلى الشام ثم تحولت القبلة فصحت صلاتهم؛ لأنهم لم يعلموا إلا في أثناء صلاتهم.

الحالة الرابعة: من عجز عن القبلة كالمربوط الأسير الذي رُبط على خشبة أو على غيرها إلى غير القبلة، لا يستطيع أن يصلي إلى القبلة، أو مريض على سريره عاجز على سريره ليس عنده من يوجهه إلى القبلة؛ فإنه يصلي على حسب حاله، ولا يترك الصلاة بل يصلِّيها في الوقت على حسب حاله، لأن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ**

فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[**مسألةٌ**] وقد استدلّ المالكيّة بهذه الآية على أنّ المصلّي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشّافعيّ وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلّف ذلك بنوعٍ من الانحناء وهو ينافي كمال القيام، وقال بعضهم: ينظر المصلّي في قيامه إلى صدره.

وقال شريكٌ القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة؛ لأنّه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع، وقد ورد به الحديث. وأمّا في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه، وفي حال قعوده إلى حجره.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الذي قاله المؤلف في موضع النظر حال القيام هو الذي عليه الجمهور أنه ينظر في مكان سجوده، وليس في الآية حجة على أنه ينظر أمامه، المقصود؛ الاستقبال هذا المقصود ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] معناها استقبلوا الجهة التي فيها الكعبة وليس المراد أن يكون نظره إلى الجهة التي أمامه، بل السُّنَّة أن يكون نظره إلى موضع السجود؛ لأنه أقرب إلى الخشوع وأجمع للقلب.

وأما قوله: وفي حال الركوع إلى موضع قدميه، فهذا فيه نظر! لأن حال الركوع مثل حال القيام ينظر إلى موضع سجوده لا إلى موضع قدميه؛ لأنه إذا نظر إلى موضع قدميه صار غير مستو مع ظهره، والسُّنَّة أن يكون

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم (٧٢٨٨)، ومسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر برقم (١٣٣٧).

رأسه حيال ظهره.... موضع سجوده حتى في حال الركوع، ولا نعلم أصلًا لهذا القول أنه ينظر إلى موضع قدميه حال الركوع الراكع كالقائم ينظر إلى موضع سجوده، والجالس ينظر إلى موضع إشارته؛ يعني: يديه.

الحاصل أنه في حال الركوع والقيام ينظر إلى موضع سجوده، وفي حال السجود على كل حال ينظر موضع سجوده، وفي حال جلوسه ينظر إلى إشارته موضع يديه.

وكل هذا أقرب إلى الخشوع وليس واجبًا، لكنه من باب الحماية والعناية بالخشوع.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أنّ الله تعالى سيوجّهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النّعت والصّفة لرسول الله ﷺ وأمّته، وما خصّه الله تعالى به وشرّفه من الشّريعة الكاملة العظيمة، ولكنّ أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا، ولهذا تهدّدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

* *

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥](١).

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

رسول الله ﷺ، وأنّه لو أقام عليهم كلّ دليلٍ على صحّة ما جاءهم به لما اتّبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا لشدة عنادهم وخبثهم وأنهم والعياذ بالله طبعهم اتباع الهوى والعناد للحق وإيثار باطلهم على عند ما غيرهم من الحق ليحفظوا بزعمهم لأنفسهم رئاستهم ومآكلهم واستقلالهم، وهذا هو هلاكهم، وعين هلاكهم ونعوذ بالله حَمَلهم البغي والهوى والتكبر واتباع الهوى وإيثار الدنيا على الآخرة، هذا العناد للرسل ومخالفة الرسل ولا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قلَّ أن تجد يهوديًّا أن يُسلِم، من أندر النادر إسلام اليهودي؛ لما في قلوبهم من الحقد والخبث والشر والفساد وكراهة الحق والعناد له، أما النصارى فكثير منهم ألين قلوبًا وأقرب إلى الحق كما بيَّن الله ﷻ في كتابه الكريم ذلك: قال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]

فالمقصود أن النصارى أقرب والمسلمون فيهم أكثر، ولهذا قلَّ يوم وقلَّ شهر وقلَّ عام إلا ويُسلم فيه جم غفير، والآن في هذه البلاد لا نحصي من أسلم من النصارى في الغالب كل يوم يأتي من يسلم من النصارى من الفلبين ومن لبنان ومن أمريكا ومن سائر أنواع النصارى، أما اليهود فلا، فلذلك هم أبعد الناس عن الحق، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ إخبارٌ عن شدّة متابعة الرّسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنّه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسكٌ بأمر الله وطاعته واتّباع مرضاته، وأنّه لا يتّبع أهواءهم في جميع أحواله ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنّما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذّر تعالى عن مخالفة الحقّ الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإنّ العالم الحجّة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال تعالى مخاطبًا للرّسول والمراد به الأمة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا يدل أن اتباع الهوى هلاك صاحبه معدود من الظلمة لاتباعه الباطل وإيثاره على الحق فصار ظالمًا أن وضع في غير مواضعها نسأل الله العافية، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]، المعنى: لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، وفي هذا التحذير من اتباع الهوى وإيثاره على الحق، وأن الواجب على المؤمن أن يخالف هواه لطاعة ربه وأن يقدم الحق ويؤثر الحق وإيثاره على هواه وهوى أبيه وهوى أمه وهوى زوجته وهوى أقربائه وهوى أصدقائه، الحق مقدم على الجميع، هذا هو الواجب على كل مكلف إذا عرف الحق وجب عليه إيثاره والأخذ به، وترك ما خالفه، وإن قال به من قال من الناس، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، ففي هذا تحذير وتنفير من الباطل ومن اتباع الهوى؛ ولو قال به من قال به من العظماء والفضلاء والأقارب وغيرهم، نسأل الله السلامة والعافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٦ ـ ١٤٧](١).

يخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب، يعرفون صحّة ما جاءهم به الرّسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحّة الشّيء بهذا، كما جاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ معه صغِيرٌ: **ابْنُكَ هَذَا؟** قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «**أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ**»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني الإنسان لا يجني على ولده ولا ولده يجني عليه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فإذا عصى الوالد فإثمه عليه، وإذا عصى الولد إثمه، ومن قتل والده إثمه عليه، ومن قتل ولده إثمه عليه، فلا يؤخذ الوالد بولده ولا ولد بوالده، لا في المعصية التي لله، ولا في المعصية التي للمخلوقين، كل ذنبه عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القرطبي: ويروى عن عمر أنه قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَام: أَتَعْرِفُ مُحَمَّدًا كما تعرف ولدك؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَكْثَرَ، نَزَلَ الْأَمِينُ مِنَ السَّمَاءِ على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه.

(قلت) وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين أبناء

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي رمثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب الديات، باب لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه أو أخيه برقم (٤٤٩٥)، والإمام أحمد (٢/ ٢٢٦و٢٢٧ و٤/ ١٦٣).

الناس كلهم، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبْناء النّاس كلّهم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

اليهود كفروا عن بصيرة لا عن جهل، كفروا وكذبوا عن بصيرة وعن علم لا عن جهل، لذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فهم يكتمون الحق عن علم وعن حسد وعن بغي.

وهكذا من شابههم من علماء السوء في هذه الأمة وقبلها من الأمم هو من جنس اليهود، من كتم العلم بهوى أو برشوة أو غير هذا صار مشابهًا لليهود وعمل عملهم، نسأل الله الهداية، ومن تشبه بقوم فهو منهم، فالواجب على من لديه علم أن يعمل بعلمه وأن يتقي الله بذلك، وأن لا يؤثر الحق العاجل برشوة أو قرابة أو عداوة أو غير ذلك على حق الله وحكمه سبحانه وتعالى، فاليهود من هذا الصنف، ممن آثر الدنيا على الآخرة وممن آثر الهوى على الحق، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثمّ أخبر تعالى أنّهم مع هذا التّحقّق والإتقان العلميّ ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ليكتمون النّاس ما في كتبهم من صفة النّبيّ ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، ثم ثبّت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأنّ ما جاء به الرّسول ﷺ هو الحقّ الذي لا مرية فيه ولا شكّ، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

الحقّ من ربّك، الحق خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الحق؛ يعني: هذا الذي جئت به من دعوة الناس لتوحيد الله واتباع رسوله وتصديق الرسل والإيمان بالآخرة إلى غير هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ولا شك فيه فلا تكوننّ من الممترين، لا تكونن أنت وهكذا الأمة كلها لمن تعلم هذا وألا تمتري فيه، وما جاء به من توحيد الله وطاعته وما شرع من الأحكام فرضًا أو تحريمًا أو غير ذلك من الأحكام كله

الحق من الله ﷻ، فالواجب التصديق والتيقن والثبات وعدم الريب.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ **[البقرة: ١٤٨]**(١).

قال العوفيّ عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبيلة قبلةٌ يرضونها ووجهة الله حيث توجّه المؤمنون.

وقال أبو العالية: لليهوديّ وجهةٌ هو مولّيها، وللنّصرانيّ وجهةٌ هو مولّيها، وهداكم أنتم أيّتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة.

وروي عن مجاهدٍ وعطاءٍ والضّحّاك والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ نحو هذا.

وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن: أمر كلّ قومٍ أن يصلّوا إلى الكعبة.

وقرأ ابن عبّاسٍ وأبو جعفرٍ الباقر وابن عامر: ولكلّ وجهة هو مولاها، وهذه الآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال هاهنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾؛ أي: هو قادرٌ على جمعكم من الأرض وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وظاهر الآية العموم وأن كل إنسان أو كل طائفة لها وجهة طائفة في حق واتباع الرسل ووجهتهم ما جاءت به الرسل، وطائفة وجهتهم اتباع أهوائهم، وكل له وجهة لكن من رزقه الله الهدى ومَنَّ عليه بالتوفيق

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

صارت وجهته في الحق أينما دار الحق فهو يدور معه، ومن حُرم صارت وجهته اتباع هواه أينما دار هواه دار معه في حق أو باطل كما قال بعدها: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾؛ يعني: إن علمتم أن كل واحد له وجهة وكل قرية لها وجهة....... فاستبقوا الخيرات، ومتى علمتم بشرع الله الذي أنزله على هذا النبي العظيم فاستبقوا؛ أي: سارعوا إليها، واحرصوا على اغتنامها، والله يجمعكم يوم القيامة أينما كنتم ولن يفلت منه أحد، وهو ﷻ محيط بهم وقادر عليهم، فبيده تصريف شؤونهم ﷻ، فالله ﷻ يجمعهم أينما كانوا ويجازيهم بأعمالهم أينما كانوا فلا يظن أحد أنه يفلت من الله، وأنه ينسى فهو معروف ويحصى عليه عمله، ولا بدّ أن يحشر مع الناس ولا بدّ أن يجازى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن هذا أو ينسى هذا! بل يجب أن يكون على باله وأن يعد له عدته.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٠﴾ **[البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٠]**(١).

هذا أمرٌ ثالثٌ من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض.

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وقد اختلفوا في حكمة هذا التّكرار ثلاث مرّاتٍ، فقيل، تأكيدٌ؛ لأنّه أوّل ناسخٍ وقع في الإسلام على ما نصّ فيه ابن عبّاسٍ وغيره.

وقيل: بل هو منزّلٌ على أحوال، فالأمر الأوّل لمن هو مشاهدٌ الكعبة، والثّاني: لمن هو في مكّة غائبًا عنها، والثّالث: لمن هو في بقيّة البلدان، هكذا وجّهه فخر الدّين الرّازيّ.

وقال القرطبيّ: الأوّل لمن هو بمكّة، والثّاني: لمن هو في بقيّة الأمصار، والثّالث: لمن خرج في الأسفار، ورجّح هذا الجواب القرطبيّ.

وقيل: إنّما ذكر ذلك لتعلّقه بما قبله أو بعده من السّياق، فقال **أوّلًا**: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤]، فذكر في هذا المقام إجابتهُ إلى طلبته وأمره بالقبلة التي كان يودُّ التّوجّه إليها ويرضاها.

وقال في **الأمر الثّاني**: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ فذكر أنه الحق من الله وارتقاءه المقام الأوّل، حيث كان موافقًا لرضا الرّسول ﷺ، فبيّن أنّه الحقّ أيضًا من الله يحبّه ويرتضيه. وذكر في **الأمر الثّالث**: حكمة قطع حجّة المخالف من اليهود الّذين كانوا يتحجّجون باستقبال الرّسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنّه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجّتهم لمّا صرف الرّسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظّمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها.

وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها الرازي وغيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: أهل الكتاب فإنّهم يعلمون من صفة هذه الأمّة التّوجّه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربّما احتجّوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجّوا بموافقة المسلمين إيّاهم في التّوجّه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمّدٌ إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرّجل إلى بيت أبيه ودين قومه، وكان حجّتهم على النّبيّ ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا، سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن مجاهدٍ وعطاءٍ والضّحّاك والرّبيع بن أنسٍ وقتادة والسّدّيّ نحو هذا، وقال هؤلاء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: مشركي قريشٍ.

ووجّه بعضهم حجّة الظّلمة وهي داحضةٌ، أن قالوا: إنّ هذا الرّجل يزعم أنّه على دين إبراهيم، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه.

والجواب: أنّ الله تعالى اختار له التّوجّه إلى بيت المقدس أوّلًا لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربّه تعالى في ذلك ثمّ صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضًا، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيعٌ لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفة عينٍ وأمّته تبعٌ له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾؛ أي: لا تخشوا شبه الظّلمة المتعنّتين وأفردوا الخشية لي، فإنّه تعالى هو أهلٌ أن يخشى منه، وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: لأتم نعمتي عليكُم فيما شرعتُ لكُم من استقبال الكعبة، لتكمُل لكُمُ الشّريعةُ من جميع

وُجُوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾؛ أي: إلى ما ضلّت عنهُ الأُممُ هديناكُم إليه وخصصناكُم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢](١).

يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرّسول محمّدٍ ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبيّناتٍ، ويزكّيهم؛ أي: يطهّرهم من رذائل الأخلاق ودنس النّفوس وأفعال الجاهليّة، ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور ويعلّمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السّنّة، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهليّة الجهلاء يسفهون بالعقول الفرى.

فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء. فصاروا أعمق النّاس علمًا، وأبرّهم قلوبًا، وأقلّهم تكلّفًا، وأصدقهم لهجةً. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وذمّ من لم يعرف قدر هذه النّعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]

قال ابن عبّاسٍ: يعني بنعمة الله محمّدًا ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النّعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه من نعم الله العظيمة أنَّ الله أرسل محمدًا ﷺ لهذه الأمة، أنقذها من الجهالة والضلالة إلى الهداية يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم بدعوتهم إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والخصال الحميدة، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن العظيم، والحكمة وهي سنته وأحاديثه عليه الصلاة والسلام، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون من أحكام الله وشرع الله ودينه، وما جاءت به الرسل الماضون وما دعوا إليه........ وغير هذا مما جاء به عليه الصلاة والسلام كل ذلك فيه الهداية والتزكية والدعوة إلى الخير كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فهذه من نعم الله العظيمة.

وأخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»(١).

قال الحافظ في الفتح رواه البزار من هذا الوجه بلفظ: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق والله بعثه ليتمم مكارم الأخلاق وصالح الأخلاق بأقواله وأعماله بأعمال القلوب وأعمال الجوارح حتى يسير العباد على غاية من الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والصفات الحميدة التي يرضاها الله منهم ويحصل بها لهم الخير والاستقامة وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فهكذا بيَّن لهم ودعاهم ووضَّح لهم عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى كل خير ونهاهم عن كل شر، وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٨١).

عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، فتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مُهلكتي، ثم تجيء فتنة فيقول: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت الناس ما يحب أن يؤتى إليه»؛ يعني: يستقيم على الإيمان بالله واليوم والآخر وليتقي الله ويعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به من النصح والصدق وإيصال الخير وكف الشر، هكذا يجب على المؤمن أن يجمع بين الأمرين بين الإيمان بالله واليوم الآخر وأداء حقه سبحانه وبين النصح للعباد حتى يعاملهم كما يحب أن يعاملوه بالصدق وأداء الأمانة والحرص على كل خير وترك كل شر، هكذا يجب على أهل الإيمان أداء حق الله وأداء حق عباده، فهؤلاء هم الصالحون هم عباد الله الصالحون الذين أدوا حق الله وأدوا حق عباده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قال مجاهدٌ، في قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، قال عبد الله بن وهبٍ: عن هشام بن سعدٍ عن زيد بن أسلم أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: يا ربّ كيف أشكرك؟ قال له ربّه: «**تَذْكُرُنِي وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي، وإذا نسيتني فقد كفرتني**».

قال الحسن البصريّ وأبو العالية والسّدّيّ والرّبيع بن أنسٍ: إنّ الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذّب من كفره.

وقال بعض السّلف في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: هو (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر)(١).

---

(١) أورده ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد (٨/ ١٦٣ برقم ٣٨)، والحاكم في المستدرك في التفسير ومن تفسير سورة آل عمران (٤/ ١٤٢ برقم ٣١٩٧) هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا ثابت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢] قال: أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يُكفَر، لعله رواه مرفوعًا إلى النبي ﷺ كما في...... من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا هو الواجب على أهل الإيمان أن يطيعوه فلا يعصوه وأن يذكروه فلا ينسوه وأن يشكروا نعمه ولا يكفروها، وقد أنعم عليهم ببعث الرسل وإنزال الكتب وأنعم عليهم بالتوفيق للإيمان والهداية؛ فوجب أن يشكروه بطاعته وترك معصيته والإكثار من ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]، فهذا هو الواجب على أهل الإيمان أن يذكروه في القلوب والألسنة والأعمال لا باللسان فقط، بالقلب واللسان والعمل، ذكر الشاكر، ذكر المنيب، ذكر الصادق، ذكر المخلص لله الذي يرجو رحمته ويخشى عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الحديث يقول الرب جَلَّ وَعَلَا: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتم، حدّثنا الحسن بن محمّد بن الصّبّاح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرناً عمارة الصيدلاني، أخبرنا مكحولٌ الأزديّ، قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النّفس وشارب الخمر والسّارق والزّاني يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتّى يسكت.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

عمارة الصيدلاني قال عنه شيء؟

الطالب: قال: عمارة ابن زاذان الصيدلاني أبو سلمة البصري صدوق كثير الخطأ من السابعة، أخرج له البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

(هذا الخبر) فيه نظر، والآية عامة، وقد يذكر الله ويمن الله عليه بالتوبة لأسباب الذكر وإن كان عاصيًا، فإذا أكثر من ذكر الله قد يكون من ثواب الله له أن يمن عليه بالتوبة وأن يذكره فيهديه ويصلح قلبه ويغرس في قلبه تعظيم الله وخوفه، وهذا لا يصح عن ابن عمر ولا يليق عن ابن عمر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قَالَ: اذْكُرُونِي فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكُمْ أَذْكُرْكُمْ فِيمَا أَوْجَبْتُ لَكُمْ عَلَى نَفْسِي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر الله من جميع الناس العاصي والمؤمن، ينبغي للجميع أن يذكروا الله، ولكن من المؤمن أكثر لأن منَّة الله عليه أكبر، فينبغي أن تكون أذكاره لله أكثر من غيره؛ لأن الله هداه بمنته العظيمة، وأما العصاة فيجب عليهم أن يتوبوا إلى الله وأن ينوبوا ويشرع لهم الإكثار من ذكر الله لعل الله يمن عليهم بالهداية.....

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن سعيد بن جبيرٍ: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي روايةٍ: برحمتي.

وعن ابن عبّاسٍ في قوله: فاذكروني أذكركم، قال: ذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه.

وفي الحديث الصّحيح: يقول الله تعالى: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ**

فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ مِنَ النَّاسِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ»[١].

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرّزّاق، أخبرنا معمرٌ عن قتادة عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ أُهَرْوِلُ**» صحيح الإسناد أخرجه البخاريّ من حديث قتادة[٢]، وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرّحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: ٧]، وقال الإمام أحمد: حدّثنا روحٌ، حدّثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة ـ رجلٍ من قيسٍ ـ حدّثنا أبو رجاءٍ العطارديّ، قال: خرج علينا عمران بن حصينٍ وعليه مطرفٌ من خزٍّ لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَنْعَمَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ**». **وقال روحٌ مرة: على عبده**[٣].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

اللباس الحسن الذي لا يكون من الحرير مباح، فالثوب أحواله ثلاثة:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله ويحذركم الله نفسه برقم (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري من حديث قتادة في كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه برقم (٧٥٣٦)، والإمام أحمد (٣/ ١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده برقم (٢٨١٩)، والإمام أحمد من حديث عمران بن حصين (٤/ ٤٣٨).

١ ـ ثوب من الحرير يحرم على الرجال.

٢ ـ وثوب من حرير ناعم يقال له.. [(١)].

٣ ـ وثوب مخلوط بالحرير.

فإذا كان الحرير قليلًا أربعة أصابع فأقل فلا بأس.

وفي هذا الدلالة على أن الله ﷻ هو المنعم وأنه يحب أن يرى من عباده إذا أنعم عليهم أن ترى آثارهم فيهم....

الطالب: فضيل بن فضالة القيسي البصري من السادسة، روى له النسائي، قال ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، روى له النسائي حديث صلاة الضحى، وقال عنه علي بن المديني: لا نعرف أحدًا روى عن هذا الشيخ إلا شعبة، وقال... [(٢)] في ثقاته: هو ثقة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يظهر نعم الله عليه في مأكله ومشربه وملبسه مع شكر الله ومع الحذر من الإسراف والتبذير... بعض الأحيان فلا بأس المقصود أن الواجب على المسلم إظهار نعم الله في سائر أحواله.

*

□ **تفسير قوله تعالى**: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ **[البقرة: ١٥٢ ـ ١٥٤]** [(٣)].

لـمّا فرغ تعالى من بيان الأمر بالشّكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصّبر والصّلاة، فإنّ العبد إمّا أن يكون في نعمةٍ

(١) بياض في الأصل. (٢) لعله ابن حبان.

(٣) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

فيشكر عليها، أو في نقمةٍ فيصبر عليها كما جاء في الحديث: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا ريب أن العبد بين نِعَم تترى عليه، وبين مصائب تنزل به، وهناك أيضًا أمر ثالث وهو الذنوب التي تحل به وهي من المصائب، فالواجب عليه عند النعم من صحة والرزق الحسن وزوجة وولد وأمن وغير ذلك أن يشكر الله ﷻ وأن يكثر من ذكره سبحانه، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾، فأمر بذكره وشكره على نعمه سبحانه وتعالى. . . . بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾؛ أي: استعينوا بالصبر على أداء الواجب وعلى تحمل المشاق فإن الصبر يحتاج إليه، في السرَّاء والضرَّاء، في السراء على أداء الواجب وفي الضراء على تحمل المصائب، ولهذا أعقب ذكر النعم أن أمر بشكرها، وأعقب ذلك بقوله: اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، استعينوا بالصبر على أداء الواجبات والإكثار من ذكر الله وأداء الحقوق والتعاون على البر والتقوى إلى غير هذا، هذا يحتاج إلى صبر حتى تؤدَّى الواجبات حتى تؤدَّى الأوامر، حتى تؤدَّى الحقوق، كذلك المعاصي والشرور تنزل بالإنسان والمصائب فيحتاج إلى صبر أيضًا على تحمل المصائب من مرض وفقر وتسليط عدو وموت قريب إلى غير هذا، يحتاج إلى صبر حتى لا يجزع ولا يفعل ما لا ينبغي.

وهكذا يحتاج إلى الصبر عن المعاصي والصبر على التوبة منها، فلا بدّ على صبر من ترك المعاصي وكف للنفس وجهاد لها، وتحمُّل للمشاق التي تعتريه في ذلك يرجو ما عند الله ويخشى عقابه.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه في كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير برقم (٢٩٩٩).

والمؤمن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، هذه الأمور الثلاثة عنوان السعادة ودليل السعادة الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والتوبة والاستغفار عند الذنب، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾. هذه من فضل الله ﷻ أنه مع الصابرين بتوفيقه وتسديده وإعانته ﷻ، فهو مع الصابرين على شكره ومع الصابرين على المصائب وعلى ترك المعائب، فإن أخلصوا له وصدقوا فهو معهم بنصره وإعانته وتأييده وتسهيل أداء الحقوق عليهم، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» خرَّجه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه، هكذا المؤمن يحاسب نفسه وهذه علامة الإيمان المؤمن الصادق صبور عند البلاء شكور عند الرخاء ليس بجزوع عند البلاء، وليس بصاحب بطر وتكبر عند الرخاء، ولكن يعالج نفسه ويجاهدها، فعند البلاء صبور متحمل ثابت على الحق، وعند النعم والخيرات والسراء شكور متواضع بعيد عن التكبر والخيلاء والظلم للناس، والله المستعان.

وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصّبر والصّلاة كما تقدّم في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ صلّى(١).

والصّبر صبران: فصبرٌ على ترك المحارم والمآثم، وصبرٌ على فعل الطّاعات والقربات، والثّاني أكثر ثوابًا؛ لأنّه المقصود. وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرّحمٰن بن زيد بن أسلم: الصّبر

(١) أخرجه أبو داود من حديث حذيفة رضي الله عنه في كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل برقم (١٣١٩)، والإمام أحمد (٥/ ٣٨٨).

في بابين: الصّبر لله بما أحبّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصّبر لله عمّا كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصّابرين الّذين يسلّم عليهم إن شاء الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال عليّ بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصّابرون ليدخلوا الجنّة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنقٌ من النّاس فتتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصّابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتّى توفّانا الله، قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**قلت**) ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزّمر: ١٠]

وقال سعيد بن جبيرٍ: الصّبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرّجل وهو متجلّدٌ لا يرى منه إلّا الصّبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، يخبر تعالى أنّ الشّهداء في برزخهم أحياءٌ يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ**

حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

لما يرون من ثواب الشّهادة ـ فيقول الرّبّ ﷻ: إنّي كتبت أنّهم إليها لا يرجعون[١].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشّافعيّ عن الإمام مالكٍ عن الزّهريّ عن عبد الرّحمٰن بن كعب بن مالكٍ عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**[٢].

ففيه دلالةٌ لعموم المؤمنين أيضًا وإن كان الشّهداء قد خصّصوا بالذّكر في القرآن تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وجاء في آية آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، مثل هذا الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، لا تقولوا هم أموات ولكنهم أحياء، الأموات أجسادهم في الأرض، لكن المقصود أن الله ﷻ أكرم الشهداء فإن الإنسان روح والجسد قالب حامل لهذه الروح، فالإنسان هو الروح التي جعلها الله فيه فهذه الروح، تكرم يوم القيامة وتكرم في البرزخ تكون في أجواف طير خضر بدل أجسامها تسرح

---

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى برقم (٤٢٧١)، والنسائي في كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين برقم (٢٠٧٣)، والإمام أحمد (٣/٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠).

في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديل معلقة تحت العرش تأوي إليها، فاطلع عليها ربها اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: أي شيء نريد يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك! ثم يُسألون مرة أخرى فلما رأوا أنهم لا يتركون قالوا: نريد أن نرجع إلى الدنيا حتى نقتل فيك مرة أخرى لما رأوا من فضل الشهادة والكرامة، فيقول الله ﷻ: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون، من مات لا يرجع إلى الدنيا إنما يبعث يوم القيامة، فأرواح الشهداء تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى تلك القناديل وهي في أجواف طير خضر تحملها هذه الطيور وتسرح في الجنة حيث شاءت.

أما أرواح المؤمنين فإنها نفسها تسرح في الجنة أيضًا لكن ليس في جوف طير بل هي في نفسها تكون طائرة، وفي هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُبْعَثُ**»(١).

في الجنة ليأكل من ثمارها هذه نسمته في البرزخ إلى أن ترد إلى جسدها فنفسها تكون طائرة يعلق بها في الجنة، وأما أرواح الشهداء فتكون في جوف طير أخضر، وأما غير الشهداء من المؤمنين فأنفسهم وأرواحهم تكون طيرًا تسرح في الجنة حيث شاءت ويردها الله إلى أجسادها حيث شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا السند عظيم مسلسل بالأئمة إسناد جيد معروف صحيح، رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الإمام الزهري

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى برقم (٤٢٧١)، والنسائي في كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين برقم (٢٠٧٣)، والإمام أحمد (٣/ ٤٥٥، و٤٥٦، و٤٦٠).

الحافظ الكبير عن عبد الرحمٰن بن كعب الحافظ التابعي الجليل عن أبيه كعب بن مالك.

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧][١].

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده؛ أي: يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فتارةً بالسّرّاء وتارةً بالضّرّاء من خوفٍ وجوعٍ كما قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النّحل: ١١٢]، فإنّ الجائع والخائف كلٌّ منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وقال هاهنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ أي: بقليلٍ من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾؛ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: لا تغلّ الحدائق والمزارع كعادتها، كما قال بعض السّلف: فكانت بعض النّخيل لا تثمر غير واحدةٍ[٢].

وكلّ هذا وأمثاله ممّا يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الدار دار الابتلاء وامتحان، والآخرة هي دار الجزاء على ما

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن رجاء بن حيوة.

قدَّم العبد وأسلف في هذه الدار، وبالابتلاء والامتحان يتميز الناس ويتبين الصادق من الكاذب والمحسن من المسيئ ويتبين أهل السعادة وأهل الصبر والاستقامة من أهل النفاق والريب والشك؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ يعني: لعلهم يرجعون إلى الهدى والصواب، بالحسنات جميعًا والخيرات والسيئات، والسيئات هي المصائب نسأل الله السلامة، قال الله ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فتنة؛ يعني: اختبار وامتحان ليرجع من أراد الله له الهداية فينتبه ويتوب ويستقيم ولتقوم الحجة على من أبى ذلك وسار على طريق الهوى والشيطان.

ولهذا يقول ﷻ في كتابه العظيم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] لم يقل أكثر عملًا بل قال أحسن؛ يعني: باعتبار الكيفية لا بالكمية والكثرة، من كان عمله أخلص وأصدق هذا هو الذي له الفضل العظيم، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وما على الأرض مراكب ومآكل ومشارب وسرر وأشجار وغير هذا فهو ابتلاء وامتحان ليبلو الله المكلفين من جن وإنس أيهم أحسن عملًا، أيهم أخلص لله، أيهم أصدق في عمله وجهاده، أيهم أبعد عن الريب والمعاصي والشرور وعلى حسب ذلك يكون الجزاء، وفي آية البقرة هذه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ يعني: يا أيها الناس بشيء من الخوف والجوع كما قد وقع في بلدان كثيرة في أفريقيا وغيرها، وكما قد يقع في هذه البلاد في هذه الجزيرة في قرون مضت في أول القرن الماضي وفي أواخر القرن الذي قبله الثالث عشر، وفي قرون كثيرة.

ونقصٍ مِنَ الأموال والأنفس والثّمرات، الأموال: الزروع والمواشي تبتلى فقد يكون في الزروع الآفات الكثيرة وفي النخيل وفي المواشي الآفات الكثيرة حتى تموت إلى غير ذلك.

وَالْأَنْفُسِ موت الأقارب والأولاد والأصحاب وغير ذلك.

وَالثَّمَرَاتِ كذلك قد توجد الثمرة ثم يصيبها آفة فتفسد، وقد لا توجد بالكلية ولا تحمل الشجرة، الله يبتلي بهذا وهذا بالسراء والضراء.

لكن المؤمن صبور عند البلاء شكور عند الرخاء، فهو يعطي كل مقام ما يناسبه عند البلاء والفتنة والامتحان، يصبر ويستقيم ويحافظ على ما أمر الله به ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قدَّر الله وما شاء فعل. وعند النعم يشكر الله ويسارع إلى مراضيه ويتباعد عن مناهيه ويدعو إلى ذلك.

وفي الصحيح عن صهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]. هذا للمؤمن.... الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والبصيرة بأمر الله وبحقه سبحانه وتعالى، هذا يحتاج إلى علم بصيرة وهدى حتى يتوفر الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقد حكى بعض المفسّرين أنّ المراد من الخوف هاهنا خوف الله، وبالجوع صيام رمضان، وبنقص الأموال الزّكاة، والأنفس الأمراض، والثّمرات الأولاد، وفي هذا نظرٌ، والله أعلم.

ثمّ بيّن تعالى من الصابرين الذين شكرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾؛ أي: تسلّوا بقولهم هذا عمّا أصابهم وعلموا أنّهم ملكٌ للّه يتصرّف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنّه لا يضيع لديه مثقال ذرّةٍ يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنّهم عبيده

---

(١) سبق تخريجه في (ص٤٠٩).

وأنّهم إليه راجعون في الدّار الآخرة؛ ولهذا أخبر تعالى عمّا أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبيرٍ؛ أي: أمنةٌ من العذاب.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب: نِعْمَ العِدلان ونعمت العلاوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادةٌ في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، إنا لله؛ يعني: مِلك لله عبيده، ومن كمال حكمته وعلمه وعدله وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل العباد ملك لله، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]، ما فيهن يشمل الملائكة والجن والإنس وغير ذلك مما في هذه السماوات والأرض كلهم ملك لله عَزَّ وَجَلَّ. والآية الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: ١٧]؛ أي: ما بين السماوات والأرض.

وإليه نرجع، وإنا إليه راجعون، يرجعون؛ يعني: يرجعون إليه ويحشرون إليه فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

هكذا يجب على المؤمن أن يكون حذرًا معترف بهذا الأمر، وهذا الاعتراف يحتاج إلى كلمات. . . . . . الاعتراف اعتراف بأنه مِلك الله وأنه إلى الله يرجع يجب عليه الإعداد لهذا؛ والإعداد هو الرجوع إليه يوم القيامة حتى تستحق من ربك الذي خلقك، فإذا كنت عبدًا جيدًا عبدًا صالحًا كنت عبدًا موفقًا أعددت العدة وشكرت هذا المنعم وقمت بحقه حتى إذا رجعت إليه رجعت إلى من يجازيك أحسن الجزاء.

وأما عبد السوء الذي لا يقابل نعم الله بشكر ولا البلاء بالصبر، وهو عبد لهواه عبد للشيطان، فإن هذا إذا رجع إلى الله رجع إلى شر الحال، رجع إلى دار الهوان إلى دار السجن، سجن المجرمين وهي النار، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ عند المصائب أحاديث كثيرةٌ. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدّثنا يونس بن محمد حدّثنا ليثٌ؛ يعني: ابن سعدٍ عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرٍو، عن المطّلب عن أمّ سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولًا سررت به. قال: لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبةٌ فيسترجع عند مصيبته ثمّ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»[1]، إلّا فعل ذلك به.

قالت أمّ سلمة: فحفظت ذلك منه، فلمّا توفّي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللّهمّ اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، ثمّ رجعت إلى نفسي، فقلت: من أين لي خيرٌ من أبي سلمة؟ فلمّا انقضت عدّتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدمٍ حشوها ليفٌ فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلمّا فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة، لكني امرأةٌ فيّ غيرةٌ شديدةٌ فأخاف أن ترى منّي شيئًا يعذّبني الله به، وأنا امرأةٌ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة برقم (٩١٨)، والإمام أحمد (٤/ ٢٧ و٦/ ٣٠٩).

قد دخلت في السّنّ وأنا ذات عيالٍ، فقال: «**أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللهُ ﷻ عَنْكِ، وَأَمَّا مَا ذكرت من السن قد أَصَابَنِي مِثْلُ الذِي أَصَابَكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكِ عِيَالِي**».

قالت: فقد سلّمت لرسول الله ﷺ، فتزوّجها رسول الله ﷺ، فقالت أمّ سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه؛ رسول الله ﷺ.

وفي صحيح مسلم عنها أنّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»، قالت: فلمّا توفّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يثني عليهم ويمدحهم ورحمته لهم بإدخالهم الجنة والنجاة من النار وتكفير سيئاتهم وحط الخطايا.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾؛ يعني: الذين اهتدوا إلى الصواب وساروا على الطريق هؤلاء هم المهتدون عند البلاء، كما أنهم شُكر عند الرخاء. يدل على أنه ينبغي للمؤمن عند المصيبة أن يأتي بهذا الدعاء بعد أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون يقول: اللَّهُمَّ آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ فقد وعده الله بأن يؤجره في مصيبته وأن يخلفه خيرًا منها كما قال ﷻ، هذا الدعاء يقال عند المصائب، وإنا لله وإنا إليه راجعون قدَّر الله وما شاء فعل، لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمًّى، اللَّهُمَّ آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، ولما بعثت إليه إحدى بناته ﷺ ليحضر شهود المرض عند قرب أجل ابنها قال للرسول: قل لها تصبر ولتحتسب؛ فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى. هكذا عند المصائب يتذكر الإنسان أن الجميع لله

وأنه ﷻ له الحكمة البالغة، وأنه سبحانه قد حدَّ الحدود وأجَّل الآجال، فلله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمًّى، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، يقول: اللَّهُمَّ آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يزيد وعبّاد بن عبّادٍ قالا: حدّثنا هشام بن أبي هشامٍ، حدّثنا عبّاد بن زيادٍ عن أمّه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن عليٍّ عن النّبيّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا** ـ قال عبّادٌ: قدمً عهْدها ـ **فَيُحْدِثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا إِلَّا جَدَّدَ اللهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ بِهَا**»(١).

ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيعٍ عن هشام بن زيادٍ عن أمّه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الصواب عن ابن زياد.

الطالب: تعليق: وهذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده هشام بن زياد وهو ضعيف جدًّا؛ بل قال النسائي: ليس بثقة، وقوله: حدثنا عباد بن زياد لعله وهم من الناسخين، فإن الإمام أحمد جعل العباد شيخه شيخ العبَّاد بن عبَّاد وهو ابن عبَّاد، قال: أما هشام فهو ابن زياد كما في التقريب.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا كلام ليس بجيد.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٠١)، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة برقم (١٦٠٠).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

أعد السند؟

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يزيد وعبّاد بن عبّادٍ قالا: حدّثنا هشام بن أبي هشامٍ، حدّثنا عبّاد بن زيادٍ عن أمّه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن عليٍّ عن النّبيّ ﷺ قال: **«ما مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا** ـ وقال عبّادٌ: قدُم عهْدُها ـ **فَيُحْدِثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا إلا جدد الله له عن ذَلِك فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ»**. ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيعٍ عن هشام بن زيادٍ. عن أمّه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها.

وقد رواه إسماعيل بن عليّة ويزيد بن هارون عن هشام بن زيادٍ عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يحيى بن إسحاق السّيلحينيّ قال: حدّثنا حمّاد بن سلمة عن أبي سنانٍ قال: دفنت ابنًا لي وإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة؛ يعني: الخولانيّ فأخرجني وقال لي: ألا أبشّرك؟ قلت: بلى. قال: حدّثني الضّحّاك بن عبد الرّحمٰن بن عرزبٍ عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ اللهُ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ قَبَضْتَ وَلَدَ عَبْدِي؟ قَبَضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا قَالَ؟ قَالَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، قال: ابنوا لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»**[1].

ثمّ رواه عن عليّ بن إسحاق عن عبد الله بن المبارك فذكره. وهكذا رواه التّرمذيّ عن سويد بن نصرٍ عن ابن المبارك به، وقال: حسنٌ غريبٌ، واسم أبي سنان: عيسى بن سنان.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي موسى الاشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب فضل المصيبة اذا احتسب برقم (١٠٢١)، والإمام أحمد (٤/ ٤١٥).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ضع عليه إشارة.

الطالب: السيلحيني يقال فيها الاثنين: السيلحيني والسلاحيني، فبعد السين ياء ممالة، وقد تسجل ألف لينة كما...

الطالب: ابن عرزب شيخنا، راجعته في المسند وعند الترمذي بهذا الإسناد عرزب، ويقال فيه: عرزم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في التقريب؟

الطالب: الضحاك بن عبد الرحمٰن بن عرزب، ويقال: عرزم، أبو عبد الرحمٰن أبو زرعة الطبراني، ثقة من الثالثة، مات سنة خمس ومائة، أخرج له أبو داود في القدر والترمذي وابن ماجه....

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عندك أبي سنان؟

الطالب: نعم، أبو سنان عيسى بن سنان الحنفي القسملي الفلسطيني نزيل البصرة، ضعفه أحمد وابن معين، وقال جماعة عن ابن معين: ضعيف، وقال أبو زرعة: مخلط ضعيف الحديث وهو شامي قدم البصرة، وقال أبو حاتم: ليس بقوي في الحديث، وقال الأزدي: لا بأس به، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن خراش: صدوق، وقال مرة: في حديثه نظر، وذكره ابن حبان في الثقات وقال.. عن أبي حازم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وذكره.... الضعفاء... أبوه سلمان؛ أي: بدل سنان.

وقال الحافظ في التقريب: لين الحديث من السادسة، أخرج له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود في القدر والترمذي وابن ماجه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

أبو طلحة الخولاني؟

الطالب: أبو طلحة الخولاني مقبول من الثالثة، وحديثه عن النبي ﷺ مرسل، وقد قيل: اسمه سفيان بن عبد الله، أخرج له الترمذي.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحديث يصلح في الشواهد والترغيب، وفيه الحث على حمد الله عند المصائب والاسترجاع، وأن هذا من أسباب الفوز بالجنة والفلاح.

*

❑ **تفسير قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨][(١)].

قال الإمام أحمد: حدّثنا سليمان بن داود الهاشميّ، أخبرنا إبراهيم بن سعدٍ عن الزّهريّ عن عروة بن الزبير عن عائشة، قال: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

قلت: فوالله ما على أحدٍ جناحٌ أن لا يطّوّف بهما، فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي، إنّها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت فلا جناح أن عليه لا يطّوف بهما، ولكنّها إنّما أنزلت أنّ الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطّاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، وكان من أهلّ لها يتحرّج أن يطّوّف بالصّفا والمروة، فسألوا عن ذلك

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنّا كنّا نتحرّج أن نطّوّف بالصّفا والمروة في الجاهليّة. فأنزل الله ﷻ: إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما، قالت عائشة: ثمّ قد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بهما فليس لأحدٍ أن يدع الطّواف بهما. أخرجاه في الصّحيحين(١).

وفي روايةٍ عن الزّهريّ أنّه قال: فحدّثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرّحمٰن بن الحارث بن هشام فقال: إنّ هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالًا من أهل العلم يقولون: إنّ النّاس إلّا من ذكرت عائشة كانوا يقولون: إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهليّة. وقال آخرون من الأنصار: إنّما أمرنا بالطّواف بالبيت، ولم نؤمر بالطّواف بين الصّفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرّحمٰن: فلعلّها نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

ورواه البخاريّ من حديث مالكٍ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدّم. ثمّ قال البخاريّ: حدّثنا محمّد بن يوسف، حدّثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنسًا عن الصّفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وذكر القرطبيّ في تفسيره عن ابن عبّاسٍ قال: كانت الشّياطين تفرّق

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ برقم (٤٤٩٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن برقم (١٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العمرة، باب يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج برقم (١٧٩٠).

بين الصّفا والمروة اللّيل كلّه وكانت بينهما آلهةٌ، فلمّا جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطّواف بينهما، فنزلت هذه الآية.

وقال الشّعبيّ: كان إسافٌ على الصّفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فتحرّجوا بعد الإسلام من الطّواف بينهما فنزلت هذه الآية.

(قلت) ذكر محمّد بن إسحاق في كتاب السّيرة أنّ إسافًا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمُسخا حجرين فنصبتهما قريشٌ تجاه الكعبة ليعتبر بهما النّاس، فلمّا طال عهدهما عُبِدا، ثمّ حوّلا إلى الصّفا والمروة، فنُصِبا هنالك فكان من طاف بالصّفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالبٍ في قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم … لمَفضى السّيول من إساف ونائل

[وفعله النبي ﷺ وأمر به عليه الصلاة والسلام، فدل ذلك على وجوب السعي وفرضيته كفرضية الطواف وأنه لا حرج على المؤمنين أن يفعلوه في الإسلام كما فعلوه في الجاهلية؛ لأن أمور الجاهلية قسمان:

قسم أقرَّه الإسلام، وقسم نهى عنه الإسلام، فالسعي مما أقر به الإسلام ونفى الحرج عمن يتعاطاه][1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح مسلمٍ من حديث جابرٍ الطّويل، وفيه أنّ رسول الله ﷺ لمّا فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الرّكن فاستلمه، ثمّ خرج من باب الصّفا وهو يقول: إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله، ثمّ قال: «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**»[2].

وفي رواية النّسائيّ: «**ابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**».

---

(١) ما بين المعقوفتين لم أجده في تفسير الحافظ في النسخة التي بين يدي، ولعله من كلام شيخنا فليراجع.

(٢) أخرجه في كتاب الحج، باب صفة حج النبي ﷺ برقم (١٢١٨).

وقال الإمام أحمد: حدّثنا شريحٌ، حدّثنا عبد الله بن المؤمّل عن عطاء بن أبي رباحٍ عن صفيّة بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجراة.

قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصّفا والمروة والنّاس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتّى أرى ركبتيه من شدّة السّعي يدور به إزاره وهو يقول: «**اسْعَوْا فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ**»(١)

ثمّ رواه الإمام أحمد عن عبد الرّزّاق: أخبرنا معمرٌ عن واصلٍ مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفيّة بنت شيبة، أنّ امرأةً أخبرتها أنّها سمعت النّبيّ ﷺ بين الصّفا والمروة يقول: «**كُتِبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيُ فَاسْعَوْا**»(٢).

وقد استدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أنّ السّعي بين الصّفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشّافعيّ ومن وافقه، وروايةً عن أحمد، وهو المشهور عن مالكٍ. وقيل إنّه واجبٌ وليس بركنٍ، فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدمٍ، وهو روايةٌ عن أحمد وبه يقول طائفةٌ، وقيل: بل مستحبٌّ، وإليه ذهب أبو حنيفة والثّوريّ والشّعبيّ وابن سيرين، وروي عن أنسٍ وابن عمر وابن عبّاسٍ، وحكي عن مالكٍ في العتبيّة.

قال القرطبيّ: واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾. والقول الأوّل أرجح؛ لأنّه عليه السلام طاف بينهما، وقال: **لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**، فكلّ ما فعله في حجّته تلك واجبٌ لا بدّ من فعله في الحجّ، إلّا ما خرج بدليلٍ، والله أعلم.

وقد تقدّم قوله عليه السلام: «**اسْعَوْا فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ**»، فقد بيّن الله تعالى أنّ الطّواف بين الصّفا والمروة من شعائر الله؛ أي: ممّا شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحجّ، وقد تقدّم في حديث ابن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٢١). (٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٣٧).

عبّاسٍ، أنّ أصل ذلك مأخوذٌ من طواف هاجر وتردادها بين الصّفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرّفة بين الصّفا والمروة، متذلّلةً خائفةً وجلةً مضطرّةً فقيرةً إلى الله عز وجل، حتّى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرّج شدّتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالسّاعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلّه وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النّقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصّراط المستقيم، وأن يثبّته عليه إلى مماته وأن يحوّله من حاله الذي هو عليه من الذّنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسّداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن بطوافه وفي سعيه وفي أعماله أن يتذكر حال النبي ﷺ، ويتذكر ما فعلته هاجر، ليكسبه ذلك ذلًّا وخضوعًا لله ومسكنة وافتقارًا... إليه سبحانه وتعالى وعناية بأمره... إلى غير ذلك مما... الذنوب وحط الخطايا..

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب، ثامنةً وتاسعةً ونحو ذلك، وقيل: خيرًا يطوف بينهما في حجّة تطوّعٍ أو عمرة تطوّعٍ، وقيل: المراد تطوّع خيرًا في سائر العبادات، حكى ذلك الرّازيّ، وعزى الثّالث إلى الحسن البصريّ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

أما السعي ليس فيه تطوع النبي ﷺ ما سعى إلا سعي الإسلام فقط وليس بتطوع، وإنما التطوع في زيادة الذكر والطواف في البيت.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ۝١٥٨﴾؛ أي: يثيب على القليل بالكثير، عليمٌ بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه، ولا يظلم مثقال ذرّةٍ ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

*

□ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝١٦٢﴾ **[البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٢]**[(١)].

هذا وعيدٌ شديدٌ لمن كتم ما جاء به الرّسل من الدّلالات البيّنة على المقاصد الصّحيحة، والهدى النّافع للقلوب من بعد ما بيّنه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله.

قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمّدٍ ﷺ، ثمّ أخبر أنّهم يلعنهم كلّ شيءٍ على صنيعهم ذلك، فكما أنّ العالم يستغفر له كلّ شيءٍ حتّى الحوت في الماء، والطّير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشدّ بعضها بعضًا عن أبي هريرة وغيره أنّ رسول الله ﷺ، قال: **«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»**[(٢)]. والذي في

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب العلم، باب كراهية منع العلم برقم (٣٦٥٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه برقم (٢٦٤)، والإمام أحمد (٢/ ٢٦٣و ٣٠٥).

الصّحيح عن أبي هريرة أنّه قال: لولا آيةٌ في كتاب الله، ما حدّثت أحدًا شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية[1].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في هذه الآية الكريمة حث للعلماء وترغيبهم في نشر العلم للناس وبيان ما أنزل الله في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام من العلم والهدى والأحكام والشرائع حتى يعلمها الناس، وحتى يعملوا بها، وحتى يأخذوا بها، فإن العلم إنما ينتفع به الناس إذا نشر وبيِّن لهم، أما إذا كتم ولم يبين للناس فقد يبقى الناس في جهالة وضلالة وصار الإثم في ذلك على من كتمه وأخفاه، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، وما ذاك إلا بسبب إخفائهم الحق وكتمانهم العلم الذي الناس بحاجة إليه.

وإن قيل: أنها نزلت في اليهود؛ فهي عامة تعمُّ اليهود وتعمُّ غيرهم ممن كتم العلم... فاليهود لهم في هذا الشيء العظيم من القبح والشر والهلكة والذم؛ لأنهم كتموا الحق وكتموا ما عندهم من صفة محمد عليه الصلاة والسلام ودلائل رسالته، بغيًا وعدوانًا وحسدًا؛ فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وغضب الله عليهم بسبب ذلك، وهكذا مَن شابههم من بعدهم، هكذا من شابههم في كتمان العلم وعدم إظهاره حسدًا وبغيًا أو شحًّا برئاسته أو مأكلته أو غير هذا من مقاصده الدنيوية التي كتم العلم من أجلها؛ فهو ملعون على ذلك، ومذموم على ذلك، وله الوعيد العظيم على ذلك، نسأل الله العافية.

ولهذا في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف وأنه جاء من طرق كثيرة يشد بعضها بعضًا يقول ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي هريرة برقم (٢٤٩٢).

بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ». فالعلماء يبلغون عن الله ويرشدون إليه ويستغفر لهم كل شيءٍ حتى الحيتان في جوف الماء، والكافرون عليهم لعنة اللَّاعنين نعوذ بالله، وفي هذا الحذر من كتمان العلم والدعوة إلى نشره وبيانه عن بصيرة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالواجب نشره على بصيرة لا عن كذب ولا عن ظن، ولكن على بصيرة يدعو إلى الله على علم وعلى بصيرة لا يكذب ولا يتكلم على جهالة، ولكن يتعلم ويتفقه ثم يعلِّم وينشر العلم بأدلته من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال أبو هريرة ﷺ: «لولا آية في كتاب الله لما حدثتكم»، ثم تلا هذه الآية، لما أكثروا عليه تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فالواجب بيان العلم في أحكام الدين فيما حرَّم الله على العباد وفي كل ما جاء به الرسول ﷺ من واجبات ومحرمات ومشروعات حتى ينتشر العلم حتى يعلمه من لا يعلمه وحتى تعم الرسالة ويعم البلاغ، ولهذا يقول ﷺ لأصحابه كلما خطبهم وكلما ذكَّرهم: **ليبلغ الشاهد الغائب**، ويقول: «**بلِّغوا عني ولو آية**». فالمقصود نشر العلم وإبلاغه للناس عن طريق الكتاب والسُّنَّة كما بلَّغته الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا الحسن بن عرفة، حدّثنا عمّار بن محمّدٍ عن ليث بن أبي سليمٍ عن المنهال بن عمرو، عن زاذان بن عمرو، عن البراء بن عازبٍ، قال: كنّا مع النّبيّ ﷺ في جنازةٍ، فقال: **إِنَّ الْكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ، يسمعها كل دَابَّةٍ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى**: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾؛ يعني: دوابّ الأرض. ورواه ابن ماجه عن محمّد بن الصّبّاح، عن عامر بن محمّدٍ به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا السند ضعيف؛ لأجل ليث بن أبي سليم، والآية ليست في هذا، الآية في بيان خبث كاتمين العلم ليس في بيان عاقبة الكفار، عقوبة الكفار لها آيات كثيرة، وما يحصل لهم من أنواع العقوبة، لكن هذه الآية فيما يتعلق بكتمان العلم، ولهذا ذكر المؤلف ما تقدم من حديث: من سئل عن علم فكتمه.. فالآية تعم من كتم العلم وأخفاه لغرض من الأغراض.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال عطاء بن أبي رباحٍ: كلّ دابّةٍ والجنّ والإنس.

وقال مجاهدٌ: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم.

وقال أبو العالية والرّبيع بن أنسٍ وقتادة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾؛ يعني: تلعنهم الملائكة والمؤمنون.

وقد جاء في الحديث: «**إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْبَحْرِ**»[1].

وجاء في هذه الآية أنّ كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والنّاس أجمعون واللّاعنون أيضًا، وهم كلّ فصيحٍ وأعجميٍّ، إمّا بلسان المقال، أو الحال، أو لو كان له عقلٌ ويوم القيامة، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

بلسان المقال: من ينطق، ولسان الحال: من لا ينطق من شجر وجبل ونحوها، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء في كتاب العلم، باب فضل العلم برقم (٣٦٤١)، وابن ماجه في المقدمة، باب ثواب معلم الناس الخير برقم (٢٣٩).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾؛ أي: رجعوا عمّا كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾، وفي هذا دلالةٌ على أنّ الدّاعية إلى كفرٍ، أو بدعةٍ، إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التّوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكنّ هذا من شريعة نبيّ التّوبة ونبيّ الرّحمة صلوات الله وسلامه عليه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمن توبته أن يبين للناس غلطه وخطأه ورجوعه عن الباطل، وليس مجرد التوبة من دون بيان للناس، الّذين تابُوا وأصلحُوا وبيّنُوا فلا بدّ من بيان خطئه ورجوعه عنه بأنه كان على خطأ وظهر له الحق والصواب حتى يعلم أتباعه والمقلدون له والسائرون على منهجه أنه رجع عن هذا الباطل، الّذين تابُوا وأصلحُوا وبيّنُوا، فلا بد من ندم وتوبة صادقة وإصلاح الحال، وإصلاح أعمالهم وأقوالهم حتى لا يبقى أتباعهم على الضلالة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ أخبر تعالى عمّن كفر به واستمرّ به الحال إلى مماته بأنّ ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ أي: في اللّعنة التّابعة لهم إلى يوم القيامة، ثمّ المصاحبة فهم في نار جهنّم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ أي: لا ينقص عمّا هم فيه، ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾؛ أي: لا يغيّر عنهم ساعةً واحدةً ولا يفتّر بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

قال أبو العالية وقتادة: إنّ الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثمّ تلعنه الملائكة، ثمّ يلعنه النّاس أجمعون.

[فصلٌ]

لا خلاف في جواز لعن الكفّار، وقد كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمّة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأمّا الكافر المعيّن، فقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنّه لا يلعن؛ لأنّا لا ندري بما يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾، وقالت طائفةٌ أخرى: بل يجوز لعن الكافر المُعيَّن، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربيّ المالكيّ ولكنّه احتجّ بحديثٍ فيه ضعفٌ، واستدلّ غيره بقوله عليه السلام في قصّة الذي كان يؤتى به سكران فيحدّه، فقال رجلٌ: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: **«لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»**(١).

فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

هذه المسألة مثل ما أشار إليها المؤلف في حُكم لعن المُعيَّن، والمعنى: أن الكفار يلعنون، لعن الله الكافرين، لعن الله الظالمين، ولعن الله الفاسقين، فلعن الكفار والفساق على سبيل العموم هذا محل وفاق...، ألا لعنة الله على الكافرين على الظالمين على الفاسقين على الكاذبين. وإنما الخلاف في المعيَّن من كافر أو عاصي هل يُلعَن أم لا؟

والصواب: أن الكافر المعيَّن لا يُلعن، ولهذا أنكر النبيُّ عليه الصلاة والسلام من لعن شارب الخمر المعيَّن قال: **لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله**.

فإذا كان شارب الخمر لا يُلعن لعنًا إذا كان معينًا لأنه يحب الله

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة برقم (٦٧٨٠).

ورسوله، ولأن عنده إيمان بالله ورسوله، ولأنه ليس بكافر ولكن غلبه الهوى والشيطان فهذا واقع في الفاسق المعيَّن.

أما الفاسق غير المعيَّن «لعن الله شارب الخمر» فهذا لا بأس به، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه لعن الخمر وشاربها وساقيها، ولعن السارق، قال: لعن الله السارق يسرق الحبل إلى آخره.......

وأما الكافر المعيَّن فهذا محل خلاف أيضًا هل يُلعن أو لا يُلعن؟ لا ندري ماذا يختم الله له!...

ومما يحتج به لهذا؛ يعني: الكافر المعيَّن، ما جاء في الصحيح من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة قال: «**اللَّهُمَّ العن الحَكَم بن هشام، اللَّهُمَّ العن صفوان بن أمية**» قبل أن يسلموا، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فهذا حجة صريحة في المعين، ولكن الأولى والأفضل ترك ذلك، وأنه يلعن على سبيل العموم، لعن الله الفاسقين، لعن الله الكافرين، لعن الله الظالمين، لعن الله السارق، لعن الله شارب الخمر من دون معيَّن.

❊

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣][1].

يخبر تعالى عن تفرّده بالإلٰهيّة، وأنّه لا شريك له ولا عديل له؛ بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي لا إلٰه إلّا هو، وأنّه الرّحمٰن الرّحيم. وقد تقدّم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السّكن عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، و﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢].

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلٰهية بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك ممّا ذرأ وبرأ من المخلوقات الدّالّة على وحدانيّته، فقال:

*

☐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ **[البقرة: ١٦٤]**[(١)].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتّساعها وكواكبها السّيّارة والثّوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف اللّيل والنّهار، هذا يجيء ثمّ يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخّر عنه لحظةً، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وتارةً يطول هذا ويقصر هذا، وتارةً يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]؛ أي: يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش النّاس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٦]

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كلّه ويرزقه، لا يخفى عليه شيءٌ منْ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشّرةً بين يدي السّحاب، وتارةً تسوقه، وتارةً تجمّعه، وتارةً تفرّقه، وتارةً تصرّفه، ثمّ تارةً تأتي من الجنوب وهي الشّاميّة، وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا، وهي الرقية التي تصدم وجه الكعبة وتارة دبورًا.

وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. وقد صنّف النّاس في الرّياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرةً فيما يتعلّق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول هاهنا، والله أعلم.

﴿ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سائرٌ بين السماء والأرض، مسخّر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما

يصرّفه تعالى ﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾؛ أي: في هذه الأشياء دلالاتٌ بيّنةٌ على وحدانيّة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدَّشْتَكِيّ، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمدًا ﷺ فقالوا: يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، فنشتري به الخيل والسلاح، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال: «**أوثقوا لي لئِنْ دعوتُ ربي فجعلَ لكم الصفا ذهبًا لتُؤْمنُنّ بي**» فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين. قال محمد ﷺ: «**ربّ لا بل دعني وقومي فلأدْعُهم يومًا بيوم**». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية.

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به. وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إلٰه واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾

فبهذا يعلمون أنه إلٰه واحد، وأنه إلٰه كل شيء وخالق كل شيء.

وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر وهو الرازي، عن سعيد بن مسروق والد سفيان عن أبي الضحى به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

يعني إنما ينتفع بهذه الآيات ويستفيد منها المؤمن، أما الكافر فإنه لا يستفيد من الآيات ولا تزيده إلا بُعدًا وضلالًا نسأل الله العافية. فالله سبحانه وتعالى بيَّن في هذه الآية أنه هو المستحق للعبادة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ فهو الإلٰه الحق لا إلٰه إلا هو، لا معبود بحق سواه سبحانه وتعالى، ثم بيَّن شيئًا.... فقال: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، فالرحمٰن لعباده والرحيم بهم هو المستحق أن يُعبَد ﷻ، وبيَّن في آيات تدل على أنه المستحق للعبادة... ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، هذه الأشياء آيات ودلائل وبراهين لمن يعقل على أن الله سبحانه هو رب الجميع، هو الإلٰه الحق وأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

وهذه آيات مشاهدة يراها كل أحد، خلق السماوات وارتفاعها وعظمتها، والأرض وما فيها من العجائب والغرائب، وجعل فيها ما

جعل من الجبال والبحار والدواب والمعادن والثمار والزروع، وغير هذا مما جعله الله ﷻ، كل هذا للعباد ومتاعًا للعباد.

*

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧](١).

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدّار الآخرة حيث جعلوا له أندادًا؛ أي: أمثالًا ونظراء، يعبدونهم معه ويحبّونهم كحبّه، وهو الله لا إله إلّا هو، ولا ضدّ له، ولا ندّ له، ولا شريك معه.

وفي الصّحيحين عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الذّنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وحال الكفار فإنهم يعلمون أن الله هو الخلاق الرزاق كما قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم

---

(١) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] برقم (٤٤٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب برقم (٨٦).

يعلمون أنه مدبِّر الأمور وأنه الرزاق وأنه الخلَّاق، ولكن ندَّدوا في العبادة، واتخذوا أندادًا في العبادة من الأمثال والنظراء، فهم اتخذوا معه أندادًا في العبادة معه يستغيثون بهم من دونه وينذرون لهم ويطلبونهم حاجاتهم.

وربما صار حبهم للأنداد أكبر من حب الله لغلوهم فيهم حتى صار بعضهم يحلف بالله كذبًا ولا يحلف بندِّه ومعبوده من دون الله إلا صادقًا، مع أن الحلف بغير الله شرك ولكنهم يعظمون أندادهم ومعبوديهم أعظم من الله تبارك وتعالى.

ولهذا قاتلهم الرسول ﷺ وحلَّت دماءهم وأموالهم حتى يعبدوا الله وحده، حتى يقولوا بأنه لا إلٰه إلا الله؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، ولهذا في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك! فأعظم الذنوب هو الشرك بالله عز وجل وهو أكبر الجرائم، أن تجعل لله ندًّا في العبادة صار أكبر وأعظم، فالذي يعتقد أن معبوده يتصرف بالكون ويدبر الأمور ويرزق ويخلق فهذا شرك أعظم، الشيوعيون والملاحدة فهذا كفره أعظم وأكبر، نسأل الله العافية أكبر من كفر أبي جهل وأشباهه.

إلا بإخلاص العبادة له وحده، بالإيمان بالله وأنه رب الجميع وأنه المستحق أن يُعبد وأن العبادة حقه ليس لأحد فيها شيء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

والعبادة هي الذل والخضوع في طاعة الأوامر وترك النواهي دعاء الأموات والأشجار والأحجار والأصنام كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فسمَّاهم كفار بهذا بدعوتهم لغير الله.

وهكذا في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] فسمَّى دعوتهم شركًا، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. وإذا أطلق الظلم؛ يعني: الكفر والشرك نسأل الله العافية، فلا يتم للعبد الإخلاص ويصح له الإسلام إلا بالإخلاص لله وحده وكفره بما يُعبد من دون الله وإنكاره لذلك: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بدّ أن يتبرأ من عبادة غير الله ويعتقد بطلانها، ولا بدّ من إيمانه بالله وحده وأنه وحده المستحق للعبادة دون ما سواه.

وشركهم بالله وتوعُّدهم بالنار: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ نسأل الله العافية.

ومن المصائب العظيمة أن هذا الشرك العظيم وهو أعظم الذنوب على كثير من الناس حتى ظنوه قربة وظنوه طاعة وأنكروا على من أنكره عليهم، وهذا من اختلاف القلوب وانقلاب الأمور حتى صار الحق باطلًا والباطل حقًّا، نسأل الله العافية بالنسبة إلى أكثر الخلق ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولهذا تجد كثيرًا ما تُعبَد من دون الله في أمصار كثيرة البدوي في مصر، والحسين في مصر، وعبد القادر الجيلاني في العراق، وابن عربي في الشام، ومن لا يحصى من المعبودين من الله الذين عبدهم الناس من دون الله واستغاثوا بهم وطافوا بقبورهم، وهذا الشرك أعظم وأكبر الذي لا ريب فيه الذي... على أكثر الخلق نسأل الله العافية.

فهذا هو أعظم الباطل وأعظم الذنب والشرك، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبّهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم، له، لا يشركون به شيئًا بل يعبدونه وحده، ويتوكّلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه. ثمّ توعّد تعالى المشركين به الظّالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أنّ القوّة لله جميعًا؛ أي: إنّ الحكم له وحده لا شريك له، وأنّ جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦]، يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحلّ بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عمّا هم فيه من الضّلال.

ثمّ أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرّي المتبوعين من التّابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾، تبرّأت منهم الملائكة الّذين كانوا يزعمون أنّهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فيقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]. والجنّ أيضًا تتبرّأ منهم، ويتنصّلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]، وقال

الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

..............[1] عذاب النار وغضبه عَزَّ وَجَلَّ، وعذاب تبرؤ معبوديهم منهم، وأنهم ما رضوا بعبادتهم ولا أقرُّوهم عليها ولا دعوهم إليها، نسأل الله العافية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾؛ أي: عاينوا عذاب الله وتقطّعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النّار معدلًا ولا مصرفًا. قال عطاءٌ عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

---

(١) بياض في الأصل.

ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ قال: المودّة، وكذا قال مجاهدٌ في رواية ابن أبي نجيحٍ.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾؛ أي: لو أنّ لنا عودةً إلى الدّار الدّنيا حتّى نتبرّأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحّد الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ أي: تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [النّور: ٣٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا مثل ما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أو صدقات أو غيرها أو صلة رحم أو بر أو أعمال يعملوها لآلهتهم أو لله مع شركهم كله يذهب سدى ويذهب باطلًا ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، لأن الشرك ما ينفع معه عمل ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]. . . فما كان منها حسن يجازى عليها في الدنيا وما سواها فليس لهم في الآخرة إلا النار نسأل الله العافية! . . «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لا يجد شيئًا» نسأل الله العافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما بيَّن تعالى أنه لا إلٰه إلا هو وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا؛ أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان؛ وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ**

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ ـ قَالَ ـ وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ»[1].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللَّهُمَّ صلِّ على نبيِّنا محمد. ومن هذه الآية الكريمة ـ وما جاء في معناها ـ أخذ أهل العلم الدلالة على أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة، في المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك؛ لأن الله أحل لهم ما في الأرض، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ في الأرض، وجعله حلالًا وجعله طيبًا، إلا ما خصَّه الدليل وبيَّن خبثه وتحريمه. وهكذا قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فأخبر أنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا؛ يعني: لينتفعوا به، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فالأصل في الأمور الحل والإباحة إلا ما حرَّمه الشرع، وقد بيَّن سبحانه ما حظر على عباده من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والميتة ولحم الخنزير.. إلى غير هذا مما بيَّن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبيَّنه رسوله عليه الصلاة والسلام، فالأصل الحل والإباحة، رزقًا من الله لعباده وتيسيرًا عليهم، إلا ما دلت الأدلة على حظره ومنعه. ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ يعني: مسالكه وطرقه وما يدعو إليه؛ لأنه عدو مبين، لا يدعو إلا إلى الباطل والشر والفساد، فالواجب الحذر من خطواته ومسالكه لأنه عدو، والعدو معلوم

(١) أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي في كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار برقم (٢٨٦٥).

حاله، إنما يدعو للهلاك والدمار، وفي هذا تحذير لهم من المعاصي كلها؛ لأنها من خطوات الشيطان، وتحذير لهم مما حرم الله عليهم؛ لأنه من خطوات الشيطان. وقد بيَّن الرسول أيضًا عليه الصلاة والسلام عن الله ﷻ قال: «**كل... عبادي فهو لهم حل**»؛ يعني: ما لم تأت الشريعة بتحريمه، وهكذا قوله: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»؛ يعني: على الملة.. على التوحيد والإسلام «**أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ**»، «**وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»، «**وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»، وهذا من حديث عياض بن حمار المجاشعي مما رواه مسلم في الصحيح، وهذا يوافق حديث: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، وفي اللفظ الآخر: «**لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ**»، فالأصل أن الناس يولدون على هذا الدين.. على دين الإسلام، والأصل أن الله خلق لهم ما في الأرض حلالًا لهم ليستعينوا به على طاعته، والقيام بحقه، ولكن الشياطين من الإنس والجن هم دعاة النار لهؤلاء ولهؤلاء، دعاة النار لمن خلقوا على الفطرة حتى يوقعوهم في الشرك، وهم دعاة النار أيضًا للوقوع في المعاصي والمخالفات؛ لأنها طرق النار. فالمكلف يجب عليه أن يتثبت، وأن ينظر فيما يلقى إليه من الناس، وما يقع في ضميره مما يمليه الشيطان فيعرضه على الكتاب والسُّنَّة، عليه أن يعرضه على الأدلة الشرعية، فما وافق الأدلة أخذ به، وما خالفها تركه، هذا هو الواجب على كل مكلف من الرجال والنساء من الجن والإنس.

• **س: يا شيخ! الغلو في الدين من خطوات الشيطان؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

نعم! لا شك، من أعظمها، ومن أقبحها..

• **س: عفا الله عنك المولود يولد على الفطرة وإن كان من غير أبناء المسلمين؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن كان، نعم، «**فأبواه يهودانه**»، مثل ما في الحديث، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه، حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا عيسى بن شيبة المصري:

حدثنا الحسين بن عبد الرحمٰن الاحتياطي، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني رفيق إبراهيم بن أدهم قال: ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: (تليت هذه الآية عند النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فقام سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: **يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه**

---

(١) الآية تعم، الآية والحديث كلاهما عام، وأن الواجب على جميع الناس الحذر من إتباع الشيطان وخطواته، ولاسيما أهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النور: ٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ [البقرة: ١٦٨]، خطواته: طرائقه وما يدعو إليه من الباطل، الله أباح لعباده الطيبات؛ من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك رحمة منه لعباده، وحرم عليهم أن يتبعوا عدو الله الشيطان فيما يزينه للناس، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]. فالواجب الحذر من اتباع خطواته في تحريم السائبة والوصيلة والحام والبحيرة وغير ذلك، وفي كل ما حرم الله من الزنا، وشرب المسكرات وظلم الناس والغيبة والنميمة وغير هذا مما حرم الله، فالواجب الحذر من طاعة عدو الله، والواجب البدار والمسارعة إلى طاعة الله ورسوله، هذا هو طريق النجاة، . الله المستعان.

من السحت والربا؛ فالنار أولى به»[١].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

أما ما يتعلق بالمعنى فله شواهد، المتن له شواهد، أما السند مثلما ذكر عن الحسين: هذا، ولعل في بقية رجاله محل نظر، لكن المتن له شواهد، منها حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم: أن النبي ﷺ ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام؛ فأنَّى يستجاب لذلك!، رواه مسلم، نسأل الله العافية. ومن هذا الأحاديث الأخرى الكثيرة في: «**كل جسد نبت من سُحت فالنار أولى به**»، وتعاطي الحرام من أسباب عدم قبول الدعاء نسأل الله العافية، ومن أسباب غضب الله وعقابه، نسأل الله العافية.

• **س: أحسن الله إليك! حديث: «أيما لحم نبت من سُحت».. خاص بالآكل أم يشمل من تحت يده؟**

الشيخ: يعم من تعمد ذلك، وعلمه؟ نعم، نسأل الله العافية.

• **س: حال الحديث..؟**

الشيخ: لا بأس به، له طرق لكن إدخال اللفظ هذا: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**» محل... اللفظ هذا. وإلا فالمتن مشهور من طرق.

• **س: وأيما لحم نبت من سُحت؟**

الشيخ: المقصود هو، أما لفظ «أطب مطعمك تكون مستجاب الدعوة» فهو محل نظر، نعم، لكن معناه صحيح.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤/ ٢٦١). قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه، وضعفه المنذري في الترغيب (٢/ ٥٤٧).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، تنفير عنه وتحذير منها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا الحديث في سنده ضعف، لكن يغني عن هذا قوله ﷺ: «**إن الله تعالى طيب ولا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**»، رواه مسلم[(١)].

في الصحيح، يعني: بعيد أن يستجاب له وهو متلطخ بالحرام، فالمعنى: أن التلطخ بالحرام من أعظم أسباب حرمان الإجابة، فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يتحرى الطيب في مأكله ومشربه وملبسه وغير ذلك، يعني: أن يتعاطى الطرق التي أباحها الله في طلب الرزق، في البيع والشراء وغير ذلك، وأن يحذر ما حرم الله من الربا والخيانة والغش وغير ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال قتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. قال عكرمة: هي نزغات الشيطان. وقال مجاهد: خطؤه أو قال:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب **قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها** برقم (١٠١٥).

خطاياه. وقال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي. وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه؛ فأفتاه مسروق: بذبح كبش، وقال هذا من خطوات الشيطان. وقال أبو الضحى عن مسروق.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الآية عامة تعم جميع المعاصي؛ لأنها من خطوات الشيطان، وعادة السلف يفسرون الشيء ببعضه ونوعه؛ حتى يعلم المراد من غير استقصاء، ونذر الإنسان أنه يذبح ولده كذلك من خطوات الشيطان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال أبو الضحى عن مسروق: أتي عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريد، فقال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرَّمت أن آكل ضرعًا أبدًا؛ فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفِّر عن يمينك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضًا: حدثنا أبي قال: حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان التيمي عن أبي رافع...

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كأنه أراد بالضرع؛ يعني: إشارة إلى بهيمة الأنعام، من لحم الأنعام؛ كالغنم، والبقر، عبَّر عنها بالضرع؛ لأنها ذات ضرع.

الشيخ: وهذا هو الواجب إذا حرم أن يأكل ما أحل الله، أو نذر معصية؛ يترك هذا التحريم وهذا النذر ويكفر عن يمينه، الله المستعان.

- **س: أو المراد لبن، ما يحتمل أن المراد لبن؟ أتي بلبن؟**

الشيخ: الله أعلم، .. الملح، يضعه فيه، محل نظر.

- **س: ما يعني لحمة الضرع المعروفة؟**

الشيخ: الله أعلم، الظاهر والله أعلم أنه إشارة إلى حيوان؛ لأن

بعض الملاحدة البراهمة وأشباههم يحرمون لحم الحيوان، وهذا مشهور في براهمة الهند وآخرين أنهم إنما يأكلون ما تنبت الأرض، لعل هذا بلغه شيء... في الكوفة العراق، ونذر ألا يأكل ضرعًا؛ يعني: لحمًا من حيوان، ويحتمل أنه أراد مثلما قال:

الشيخ: ضرعًا؛ يعني: ما يكون في الضرع وهو اللبن، والله أعلم.

والخلاصة من هذا: أن كل من حرَّم ما أحلَّ الله له؛ هو من خطوات الشيطان؛ حرم لبنًا أو حرم غنمًا أو بقرًا أو إبلًا أو صيدًا أو غير ذلك؛ فعليه كفارة يمين، وليأكل، وليدع خطوات الشيطان، عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ١، ٢]، قال جماعة من أهل التفسير: نزلت في تحريمه العسل، وقال آخرون: في تحريمه مارية. فأباح الله له ما حرم على نفسه، وشرع له كفارة اليمين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أيضًا: حدثنا أبي قال: حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال: غضبت يومًا علي امرأتي فقالت: هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ علي امرأتي؟

- **س: نعم.**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أو سيدتي؟ ماذا عندكم؟

- **س: امرأتي.**

الشيخ: كلكم: امرأتي؟

- **س: أي نعم.**

الشيخ: نعم، علق عليها عندك؟

هذه بسطها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ والواقع أنها سيدته، سيدته التي غضبت عليه، تقول له: طلق امرأتك، ذكره ابن القيم في الإعلام وغيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كمِّل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فقالت: هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة. وأتيت عاصمًا. وابن عمر فقالا مثل ذلك.

الشيخ: يعني: كفارة يمين؛ الحكم حكم اليمين؛ لأن هذا من المعاصي، الله المستعان.

يراجع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنه بسط المقام في إعلام الموقعين على القصة هذه.

- **س: بعض النسخ يا شيخ فيها عبد الله بن عمر.**

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين».

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة؛ كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك؛ وهو القول على الله بلا علم..]. فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عندك واو، وهو.. واو عندكم.

مداخلة: نعم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: ويأمركم بأغلظ من ذلك وهو.. يعني: ويأمركم بأغلظ من ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال سنيد بن داود في تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلبي عن عاصم الأحول، عن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأته طالق، قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان][1].

الشيخ: من هذا علي كذا وكذا أن أضربك لولده، أو علي كذا وكذا أن، أو إن فعلت كذا فعبيدي أحرار، أو مالي كله لله، كل هذا من باب خطوات الشيطان، ، كفارة يمين.

*

❏ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠ ـ ١٧١][2].

يقول: تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضّلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ أي: وجدنا عليه آباءنا؛ أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة على بعض النسخ.

(٢) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ءَابَآؤُهُمْ﴾؛ أي: الّذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾؛ أي: ليس لهم فهمٌ ولا هدايةٌ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا رد على هذه الحجة الخبيثة الباطلة التي يحتج بها جميع أهل الباطل أنهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، وهؤلاء كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

والمقصود من هذا بيان أنه لا يجوز تقليد أحد في غير الحق لا من الآباء ولا من الأجداد ولا من الرؤساء ولا من غيرهم، بل يجب اتباع الحق أينما كان سواء كان عليه الآباء والأسلاف أو كان الآباء والأسلاف قد انحرفوا عنه، فالحق أحق بالاتباع وإن أخطأ زيد أو عمرو أو فلان وفلان فليس حجة على الشرع. والحق وطريقة أهل العلم والإيمان والتقوى هي اتباع الحق وإيثاره، وإن كان خلاف ما عليه الآباء والأجداد، وطريقة أهل الباطل كفعل كفار قريش وأشباههم طريقتهم هي تقليد الآباء والأسلاف على حق أو باطل، ولهذا أنكر الله عليهم ذلك وبيَّن بطلان ما هم عليه، فالواجب على أهل الإسلام وعلى كل من يحب نفسه ويعز عليه أن تبقى في الباطل ويجب عليه أن ينتبه لهذا وألا يغتر بما كان عليه قومه أو عمه أو جده أو قبيلته أو عموم بلاده أو جميع من يعظمهم، فالواجب أن يلتزم بالإيمان الشرعي وأن يعرض أعماله على الأدلة الشرعية إذا كان من أهل العلم، ويسأل عن ذلك أهل العلم حتى يكون عن بيِّنة وحتى لا يكون مثل هؤلاء الذين قيل لهم اتبعوا الحق واتبعوا ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام فأبوا وقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فهلكوا وهلك بهم من تابعهم وقلَّدهم، نسأل الله السلامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وروى ابن إسحاق عن محمّد بن أبي محمّدٍ، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ: أنّها نزلت في طائفةٍ من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فأنزل الله هذه الآية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

تعمّ اليهود وغيرهم، كما أنها نزلت في قريش لأنها آية مكية فهي تعم اليهود وتعم قريش وتعم غيرهم من العرب والعجم، تعمّ الجميع فالعبرة بالعمومات لا بالأسباب. والمعنى: أن هذا منهم منكر وباطل، فإنهم وآباؤهم جهلة، حتى ولو كان آباؤهم عندهم علم، متى خالفوا الشرع لم يجز لهم أن يتبعوا آباءهم ولا عظماءهم، بل يجب اتباع الحق، الحق مقدم على الجميع، الحق أحق أن يتبع، فمن خالفه وجب رفض قوله، سواء كان أباً أو جداً أو سلطاناً أو رئيس عشيرة أو غير ذلك، فالحق أحق أن يتبع، ولهذا أنكر عليه بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، هذه حال رؤساء الجاهلية وأئمة الجاهلية لا يعقلون ولا يفهمون، إنما هي تقاليد ساروا عليها، نسأل الله العافية.

مداخلة: الكفار من المشركين أحسن الله إليك؟

الشيخ: من المشركين نعم، وهكذا من غير المشركين من المسلمين إذا أسسوا أساس ليس له أصل في الشرع لا يتبع، سواء كان حنفياً أو مالكياً أو حنبلياً أو ظاهرياً أو غير ذلك، المقياس الشرع: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فالواجب رد ما يتنازع فيه الناس وما يختلف فيه الناس إلى الكتاب والسنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ ضرب لهم تعالى مثلًا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النّحل: ٦٠]: فقال ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغيّ والضّلال والجهل كالدّوابّ السّارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيًا؛ أي: دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنّما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عبّاسٍ وأبي العالية ومجاهدٍ وعكرمة وعطاءٍ والحسن وقتادة وعطاءٍ الخراسانيّ والرّبيع بن أنسٍ نحو هذا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هكذا أهل الباطل من المنافقين والكفار، الغالب هذا حالهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، لا يسمعون الحق ولا ينطقون به، ولا يبصرون عن الطريق، معرضون مثلما قال في الفرقان: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. يعني: أسوأ من الناقة والبقرة والشاة، أسوأ من هذا، فلا يفهمون ولا يعقلون، البقرة قد تفهم والبعير كذلك والغنم، ويقتدون بالراعي ويسمعونه، .الله المستعان. نسأل الله العافية. ،

وقيل: إنّما هذا مثلٌ ضُرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا، واختاره ابن جريرٍ.

والأوّل أولى؛ لأنّ الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا يطابق الآية الأخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ويؤيد هذا المعنى هنا. فضرب هذا المثل لما لا يفقه لما يسمع إلا دعاء ونداء وهو مثل البهائم تسمع صوت الراعي تذهب إلى الجهة التي يريدها راعيها ونحو ذلك، لكن لا تعي ولا تفهم الحقائق، هؤلاء كذلك إنما يسيرون على ما كان عليه أسلافهم وآباءهم ويسيرون عليه فقط سواء كان حقًّا أو باطلًا، وهم كذلك يسيرون بهؤلاء الذين ذكر الله عنهم أنهم كالبهائم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾؛ أي: صمٌّ عن سماع الحقّ، بكمٌ لا يتفوّهون به، عميٌ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾؛ أي: لا يعلمون شيئًا ولا يفهمونه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٢ ـ ١٧٣][(١)].

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيّبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سببٌ

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

لتقبّل الدّعاء والعبادة، كما أنّ الأكل من الحرام يمنع قبول الدّعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الّذي رواه الإمام أحمد: حدّثنا أبو النّضر، حدّثنا الفضيل بن مرزوقٍ عن عديّ بن ثابتٍ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»**. ورواه مسلمٌ في صحيحه[1]، والترمذي من ذلك حديث فضيل بن مرزوقٍ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يبيِّن للمؤمن وجوب العناية بالمكسب الطيب والحذر من المكاسب الخبيثة التي يحصِّلها من الطرق المحرمة كالسرقة والغصب والخيانة والربا والغش وغير هذا من وجوه الكسب الخبيث، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، فالطيبات هي الأشياء النافعة الحلال المباحة التي امتنَّ بها الله على عباده وأحلَّها لهم من المآكل والمشارب، وعليهم التقيد بما أباح ويحذروا ما حرَّم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم عليهم أن يستعينوا عليها بطاعته وشكره، ولهذا قال مع الرسل: واعملوا صالحًا، وقال مع المؤمنين: واشكروا لله؛ أي: يستعينوا بالنعم التي أباحها الله لكم وساقها إليكم وهي منًّا وإحسانًا، استعينوا بها على

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها برقم (١٠١٥).

أداء حقه وشكره سبحانه وامتثال الأوامر وترك النواهي والوقوف عند حدود الله والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر عليه، هذا هو الواجب على المؤمنين وعلى الرسل.

ثم ذكر هذا الحديث حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا**»، وهو طيب الذات طيب الأسماء ﷻ فله الأسماء الحسنى وله الصفات العلا، وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته لا شبيه له ولا كفو له ولا ند له ﷻ.

لا يقبل إلا طيبًا كما أنه طيب لا يقبل من أقوال الناس ولا من أعمالهم إلا ما طاب، وهو ما كان لله خالصًا وموافقًا لشريعته هذا الطيب؛ فالحرام ليس موافقًا لشريعته ولا يُقبل.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، أسبابٌ أشعث أغبر مسافر يمد يديه إلى السماء رافعًا يديه يسأل ربه يا رب يا رب، يلح في الدعاء، لكن هناك مانع منع الإجابة، فمطعمه حرام ونعوذ بالله، مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟! يعني: بعيد أن يستجاب لمن هذا وصفه ولمن هذا خُلقه، المتلبس بالحرام المتغذي بالحرام.

فيجب على المؤمن أن يكون على حذر في مكسبه أينما كان وأن لا يتساهل إذا تساهل الناس، وألا يحمله الطمع وحب الدنيا على التساهل في تعاطي ما حرَّم الله ﷻ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولمّا امتنّ تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيّبه، ذكر أنّه لم يحرّم عليهم من ذلك إلّا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكيةٍ، وسواءً كانت منخنقةً أو موقوذةً أو متردّيةً أو نطيحةً أو قد عدا عليها السّبع، وقد خصّص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي إن شاء الله،

وحديث العنبر في الصّحيح وفي المسند والموطّأ والسّنن، قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في البحر: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»(١).

وروى الشّافعيّ وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعًا: «**أُحِلَّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، السَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»(٢). وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة.

[**مسألة**] ولبن الميتة وبيضها المتّصل بها نجسٌ عند الشّافعيّ وغيره؛ لأنّه جزءٌ منها. وقال مالكٌ في روايةٍ: هو طاهرٌ إلّا أنّه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنّها نجسةٌ، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصّحابة من جبن المجوس، فقال القرطبيّ في التفسير: هاهنا يخالط اللبن منها يسير، ويعف عن قليل النّجاسة إذا خالط الكثير من المائع.

وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هارون عن سليمان التميمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سئل رسول الله ﷺ عن السّمن والجبن والفراء، فقال: «**الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ**»(٣). وكذلك حرّم عليهم لحم الخنزير سواء ذكّي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه إمّا تغليبًا أو أنّ اللّحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأي، وكذلك حرّم عليهم ما أهلّ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر برقم (٨٣)، والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر برقم (٦٩)، وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر برقم (٣٨٦)، والنسائي في كتاب الطهارة، باب ماء البحر برقم (٥٩)، والإمام أحمد (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٧٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. في كتاب اللباس عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في لبس الفراء (١٧٢٦)، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن برقم (٣٣٦٧) وقال سماحته الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا مرسل أبو عثمان تابعي.

من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك ممّا كانت الجاهليّة ينحرون له.

وذكر القرطبيّ عن ابن عطيّة أنّه نقل عن الحسن البصريّ: أنّه سئل عن امرأةٍ عملت عرسًا للعبها فنحرت فيه جزورًا، فقال: لا تؤكل؛ لأنّها ذبحت لصنم[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا ليس بجيد، لكنه إسراف من باب الإسراف، المقصود.. الضيافة لأصحاب العرس لكن أسرفوا في اللعب، وليس المقصود تعظيم العروس، لا! المقصود اجتهادهم في العرس وما جمعوا من البنات، ولكنه من باب الإسراف يُنهى عنه من باب الإسراف؛ لأن لعب البنات ما يتحمل هذا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأورد القرطبي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم[(٢)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه...:

١ ـ الأمر الأول: ذبائحهم، لأنهم ذبائحهم محرمة الفرس، وهم ليسوا أهل كتاب فذبائحهم محرَّمة.

٢ ـ وإن كانت لغير الله كالتقرب لأصنامهم اجتمع فيها مانعان: كونها مما أهلَّ به لغير الله، وكونها ذبحت لوثن، وهكذا المرتد إذا ذبح ذبيحة لغير الله اجتمع فيها مانعان: ذبيحة مرتد، وأنها ذبحت لغير الله.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٢٤). وقال سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا إن صح من باب الورع، وإلا مقصودها وليمة يعني: عرس، عرس اللعبة الذي على اللعبة، لعب البزور، وهو معناه من باب الوليمة، لا يحرم هذا وليمة العرس.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٢٤).

موانع كثيرة، وإنما أباح الله ذبيحة أهل الكتاب خاصة إذا كانت للأكل لا لغير الله بل للأكل أباح ذبيحتهم، أما إن ذبحوها لغير الله وسموا عليها غير الله؛ حرمت فإنها تدخل فيما أهلَّ به لغير الله، أما الأعاجم من الفرس وسائر أنواع الكفرة فذبائحهم كلها محرمة. وهكذا المرتدون، وهكذا إذا أهدي بها لغير الله، حرمت لأنها دخلت فيما أهل به لغير الله، وأما الخنزير فهو محرم كله لأن لحمه وشحمه وسائر أجزائه كله محرَّم.

• **س: قبول هدايا الكفار.**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يجوز قبول هداياهم ولا الإهداء إليهم لأنه تعظيم لعيدهم الباطل فلا يهدى إليهم ولا تقبل هداياهم.

• **س: الأكل من طعامهم؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كذلك لا يؤكل من طعامهم الذي أعدوه لأعيادهم بل يجب هجرهم والتخلص منه وعدم المشاركة فيما حرم الله.

• **س: الأكل من طعامهم؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا يباع عليهم شيء يستعملونه في عيدهم. وأبو العباس بسط في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم وبيَّن ما يقع من الشرور في هذه الأعياد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ أباح تعالى تناول ذلك عند الضّرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾؛ أي: في غير بغي ولا عدوانٍ، وهو مجاوزة الحدّ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾.

وقال مجاهدٌ: فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ، قاطعًا للسّبيل أو مفارقًا للأئمّة، أو خارجًا في معصية الله، فله الرّخصة، ومن خرج باغيًا

أو عاديًا أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطرّ إليه، وكذا روي عن سعيد، بن جبيرٍ.

وقال سعيدٌ في روايةٍ عنه ومقاتل بن حيّان: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ يعني: غير مستحلّه.

وقال السّدّيّ: غير باغٍ يبتغي فيه شهوته.

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراساني، عن أبيه، في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قال: لا يشوي من الميتة ليشتهيه، ولا يطبخه، ولا يأكل إلّا العلقة، ويحمل معه ما يبلّغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه، وهو قوله: ولا عادٍ، ويقول: لا يعدو به الحلال.

وعن ابن عبّاسٍ: لا يشبع منها.

وفسّره السّدّيّ بالعدوان.

وعن ابن عبّاسٍ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغٍ في الميتة ولا عادٍ في أكله، وقال قتادة: فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ قال: غير باغٍ في الميتة؛ أي: في أكله أن يتعدّى حلالًا إلى حرامٍ وهو يجد عنه مندوحةً.

وحكى القرطبيّ عن مجاهدٍ في قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾؛ أي: أكره على ذلك بغير اختياره.

[مسألة] ذكر القرطبي إذا وجد المضطرّ ميتةً وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذًى، فإنّه لا يحلّ له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلافٍ ـ كذا قال ـ ثمّ قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمن أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالكٍ، ثمّ أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبي إياسٍ جعفر بن أبي وحشيّة: سمعت عبّاد بن شراحيل العنزي قال: أصابتنا عامًا مخمصةٌ، فأتيت المدينة، فأتيت حائطًا، فأخذت سنبلًا ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرّجل: **مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كان جائعًا ولا ساغبًا، وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا،**

فأمره فردّ إليه ثوبه، فأمر له بوسقٍ من طعامٍ أو نصف وسقٍ[١].

إسنادٌ صحيحٌ قويٌّ جيّدٌ وله شواهد كثيرةٌ، من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدّه: سئل رسول الله ﷺ عن الثّمر المعلّق، فقال: **«مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ»** الحديث.

وقال مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ فيما أكل من اضطرارٍ، وبلغنا والله أعلم: أنّه لا يزاد على ثلاث لقمٍ.

وقال سعيد بن جبيرٍ: غفورٌ لما أكل من الحرام، رحيمٌ إذ أحلّ له الحرام في الاضطرار.

وقال وكيع: أخبرنا الأعمش عن أبي الضّحى، عن مسروقٍ، قال: من اضطرّ فلم يأكل ولم يشرب ثمّ مات، دخل النّار، [وهذا يقتضي أنّ أكل الميتة للمضطرّ عزيمةٌ لا رخصةٌ. قال أبو الحسن الطّبريّ المعروف بالكيا الهرّاسيّ رفيق الغزّاليّ في الاشتغال: وهذا هو الصّحيح عندنا، كالإفطار للمريض ونحو ذلك].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وفيها رخصة من جهة وفيها عزيمة من جهة، فأكل الميتة عند الضرورة يقال لها رخصة من جهة أنها حِلٌّ بعد حرام كما يقال في صلاة القاعد والمصلي على جنبه رخصة من جهة أن الله يسَّر له هذا الأمر، وواجب من جهة الوجوب، فهذه الأشياء وأشباهها رخصة من جهة وواجبة من جهة، فإذا جاءت العلة وجاءت المخمصة جاز له الأكل من الميتة وجاز له إذا كان مريضًا أن يصلي قاعدًا، ويجب عليه من جهة

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث عباد بن شرحبيل رضي الله عنه في كتاب التجارات، باب من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه برقم (٢٢٩٨).

أخرى لأنه واجب عليه، يجب عليه أن يصلي؛ فلا يترك الصلاة يصلي قاعدًا، ويجب عليه أن يأكل من الميتة حتى لا يموت إذا كان عليه خطر الموت فهي عزيمة من جهة ورخصة من جهة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: شيء لازم يعني.

• س:

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا مات بالجوع وهو عنده ميتة.. ولا أكل منها. هذا قاله مقاتل وهو قول قوي لأنه أعان على قتل نفسه بعدم الأكل.

• س:

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: مثل ما قال المؤلف... ويدل عليه حديث... أنه إذا مر على حائط وأكل منه من غير خبنة أكل تمر أكل.. وهو محتاج فلا بأس عليه لكن لا يحمل معه.

*

❑ **تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦][(١)].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ يعني: اليهود الّذين كتموا صفة محمّدٍ ﷺ في كتبهم التي بأيديهم ممّا

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

تشهد له بالرّسالة والنّبوّة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رئاستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتّحف على تعظيمهم إيّاهم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا جحدوا نبوة محمد ﷺ ورسالته حتى لا تذهب هذه الأطماع وهذه الهدايا وهذا التعظيم، فكتموا الحق من أجل ذلك نسأل الله العافية، وهذا ليس خاصًّا باليهود بل عام، فكل من فَعلَ فِعل اليهود فالآية تعمّه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يتّبعه النّاس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزرٌ يسيرٌ، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتّباع الحقّ وتصديق الرّسول والإيمان بما جاء عن الله، بذلك النّزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فإنّ الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظّاهرات والدّلائل القاطعات، فصدّقه الّذين كانوا يخافون أن يتّبعوه، وصاروا عونًا له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمّهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليكون عوضًا من هذا الكتمان نسأل الله العافية، مثل ما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]؛ يعني: يعتاض لهو الحديث عن سماع القرآن وسماع الذكر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو عرض الحياة الدّنيا ﴿قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ أي: إنّما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحقّ، نارًا تأجّج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]. وفي

الحديث الصّحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**»[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**». رواه مسلم[(٢)].

نسأل الله العافية، المقصود أن هذه المعاصي التي فعلوها طمعًا في الدنيا تكون عليهم وبالًا يوم القيامة ونارًا يوم القيامة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾؛ وذلك لأنّه تعالى غضبان عليهم لأنّهم كتموا وقد علموا، فاستحقّوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكّيهم؛ أي: يثني عليهم ويمدحهم بل يعذّبهم عذابًا أليمًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

المقصود كلام الرضا ونظر الرضا؛ وإلا فهو لا يخفى عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرى عباده كلهم، ويكلم كل إنسان يوم القيامة، لكن أولئك الكفرة يكلمهم كلام غضب وإذلال كما قال في الحديث الصحيح: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»، فمن غضب الله عليه صار كلامه له شرًّا عليه ونظره له شرًّا عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلاف نظره لأهل الإيمان وكلامه لأهل الإيمان فهو كلام رضا ونظر رضا ومحبة.

---

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب آنية الفضة برقم (٥٦٣٤)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب برقم (٢٠٦٥).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس برقم (١٤٠١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه، هاهنا حديث الأعمش عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ** ـ قال أبو معاوية: **وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ـ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»(١).

ثمّ قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرّسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتّباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم.

﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾؛ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾، يخبر تعالى أنّهم في عذابٍ شديدٍ عظيمٍ هائلٍ، يتعجّب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدّة ما هم فيه من العذاب والنّكال والأغلال، عياذًا بالله من ذلك، وقيل معنى قوله: فما أصبرهم على النّار؛ أي: فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ أي: إنّما استحقّوا هذا العذاب الشّديد؛ لأنّ الله تعالى أنزل على رسوله محمّدٍ ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحقّ وإبطال الباطل، وهؤلاء اتّخذوا آيات الله هزوًا، فكتابهم أمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذّبوه، وهذا الرّسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذّبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار برقم (١٧٢).

فاستهزأوا بآيات الله المنزّلة على رسله، فلهذا استحقّوا العذاب والنّكال، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآيات وأشباهها فيها العبرة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام والتنفير من أحوال المغضوب عليهم من اليهود وأشباههم ليحذر من جعل الله له في قلبه الهدى من أخلاقهم وصفاتهم، ومثل ما قال بعض السلف: «مضى القوم ولم يُعْنَ به سواكم»؛ يعني: مضى أولئك اليهود وأشباههم مضى فيهم ما مضى من حكم الله، لكن المقصود تحذيرنا وإنذارنا أن نعمل أعمالهم، فذل أهل الكتاب وذل لمن مضى على أعمالهم السيئة وكتمان الحق واتباع الباطل وإيثار الشقاوة كل ذلك مقصوده الحذر التحذير لنا أن نسلك مسلكهم، وأن نسير سيرتهم فنستحق ما استحقوه من العذاب نعوذ بالله.

• س:

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هو ظاهر، لشدة ما هم فيه من النار؛ يعني: لا مفر لهم،.. وإلا فهم لا حيلة لهم نعوذ بالله، فهم وقود النار وحُكم عليهم بها وليس لهم مفر منها، ولكن لشدة هوله... ولكن الله كتب عليهم أن لا يموتوا فإن أهل النار لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، هكذا حَكَم عليهم سبحانه، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ نسأل الله العافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧][(١)].

اشتملت هذه الآية على جملٍ عظيمةٍ وقواعد عميمةٍ، وعقيدةٍ مستقيمةٍ، كما قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبي، حدّثنا عبيد بن هشامٍ الحلبيّ، حدّثنا عبيد الله بن عمرٍو عن عامر بن شفيٍّ، عن عبد الكريم، عن مجاهدٍ، عن أبي ذرٍّ: أنّه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾... إلى آخر الآية، قال: ثمّ سأله أيضًا، فتلاها عليه، ثمّ سأله فقال: «**إِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً أَحَبَّهَا قَلْبُكَ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً أَبْغَضَهَا قَلْبُكَ**» وهذا منقطعٌ، فإنّ مجاهدًا لم يدرك أبا ذرٍّ، فإنّه مات قديمًا.

وقال المسعوديّ: حدّثنا القاسم بن عبد الرّحمٰن قال: جاء رجلٌ إلى أبي ذرٍّ، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتّى فرغ منها، فقال الرّجل: ليس عن البرّ سألتك، فقال أبو ذرٍّ: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فسأله عمّا سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده: **الْمُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً سَرَّتْهُ وَرَجَا ثَوَابَهَا، وَإِذَا عَمِلَ سيئة أحزنته وخاف عقابها**. ورواه ابن مردويه، وهذا أيضًا منقطعٌ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا ريب أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على كثير من خصال

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

الإيمان وشعب الإيمان وقواعده وأصوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ يعني: إذا أطلق هو الإيمان وهو الهدى وهو التقى، ولهذا أشكل على بعض الناس تفسير الإيمان بهذا، ولكنه واضح لمن تأمل بأن البر والإيمان والهدى والصلاح والإسلام كل ذلك إذا أطلق شمل الجميع من خصال الإيمان وشعب الإيمان، فالبر هو الهدى وهو الإيمان وهو الإسلام وهو أداء فرائض الله وترك محارم الله والاستقامة على أمر الله. فالبار هو الذي استقام على ذلك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالمتقون هم الأبرار وهم أهل الإيمان وهم أهل الإسلام وهم أهل الصلاح وهم أهل الهداية، فمن استقام على ما دلت عليه الآية فهو من الأبرار ومن أهل الإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ هذه أصول الإيمان الخمسة مع الأصل السادس المذكور في الآيات الأخرى وفي الأحاديث الصحيحة وهو الإيمان بالقدر.

ثم قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾؛ يعني: أنفق وتصدَّق من الزكاة وغيرها ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ يعني: جمعوا الخير كلهم، ولهذا أطلق عليهم في صيغة الحصر أنهم أهل الصدق وأهل التقوى، لأن من جمع هذه الخصال عن إيمان وعن صدق وإخلاص فقد جمع الإيمان كله وعد الإسلام كله.

فالواجب على المكلف أن يعنى بما فرض الله عليه، وأن يحذر ما حرم الله عليه، وأن يستقيم على ذلك على الإخلاص وإيمانًا بالله ورسوله ورغبة ورهبة، وبذلك يكون من المتقين ومن الأبرار.

ومن شأن المؤمن أنه إذا فعل الحسنة سرته وأحبها، وفرح بها، ورجا ثوابها، ومن شأن الكافر أنه لا يبالي، ما عنده بصيرة، ما عنده

إيمان، وإنما يعمل ما يرتضيه هواه، أما المؤمن فيعمل عن إيمان وعن بصيرة وعن رغبة بما عند الله فتسره حسنته وتسوؤه سيئته ويفرح بالحسنة ويُسَرّ بها وينشرح لها صدره، ويحزن عند السيئة ويبغضها ويحذرها ويندم على فعلها، لأن إيمانه يدعوه إلى ذلك ويؤنبه إذا فعل ما لا ينبغي.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأمّا الكلام على تفسير هذه الآية، فإنّ الله تعالى لمّا أمر المؤمنين أوّلًا بالتّوجّه إلى بيت المقدس ثمّ حوّلهم إلى الكعبة، شقّ ذلك على نفوس طائفةٍ من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أنّ المراد إنّما هو طاعة الله ﷻ، وامتثال أوامره، والتّوجّه حيثما وجّه واتّباع ما شرع، فهذا هو البرّ والتّقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعةٌ إن لم يكن عن أمر الله وشرعه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

في هذا تعزية وتسلية لأهل الإيمان، وردٌّ على اليهود المعاندين الذين أنكروا على المسلمين لما انحرفوا إلى الكعبة بأمر الله وأنكروا عليهم ذلك، وقالوا: تارة كذا وتارة كذا، فبيَّن الله ﷻ أنه ليس البر في استقبال جهة معينة من الشام أو الكعبة أو المشرق أو المغرب، ولكن البر في طاعة الله ورسوله والإيمان بالله ورسوله وفي امتثال أمر الله ورسوله، وأين ما وجِّه المؤمن يتوجه، وإذا أُمر امتثل، وإذا نُهي انتهى، هكذا المؤمن ليس له رغب في غير طاعة الله ورسوله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحيّ والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحجّ: ٣٧].

وقال العوفيّ عن ابن عبّاسٍ في هذه الآية: ليس البرّ أن تصلّوا ولا تعملوا، فهذا حين تحوّل من مكّة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها، وروي عن الضّحّاك ومقاتلٍ نحو ذلك، وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النّصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل.

وروي عن الحسن والرّبيع بن أنسٍ مثله.

وقال مجاهدٌ: ولكنّ البرّ ما ثبت في القلوب من طاعة الله ﷻ.

وقال الضّحّاك: ولكنّ البرّ والتّقوى أن تؤدّوا الفرائض على وجوهها.

وقال الثّوريّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾... الآية، قال: هذه أنواع البرّ كلّها.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنّ من اتّصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلّها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلّا هو، وصدّق بوجود الملائكة الّذين هم سفرةٌ بين الله ورسله.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنسٍ يشمل الكتب المنزّلة من السّماء على الأنبياء، حتّى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كلّ خيرٍ، واشتمل على كلّ سعادةٍ في الدّنيا والآخرة، ونسخ به كلّ ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلّهم من أوّلهم إلى خاتمهم محمّدٍ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويدخل في ذلك الأنبياء ويدخل في ذلك الرسل، لأن كل رسول فهو نبي فيعم ذلك، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فإذا كان خاتم النبيين فهو خاتم الرسل أيضًا؛ لأن كل رسول نبي ولا ينعكس على المشهور، فالحاصل أنه متى خُتم النبيين فقد

ختم الجميع يختم الرسل أيضًا، ومن آمن بالنبيين فقد آمن بهم جميعًا؛ لأن كل رسول نبي.

وفي الإيمان بالله الإيمان بأنه رب، والإيمان بأنه إلٰه، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته، فيدخل في الإيمان بالله جميع أنواع التوحيد: الإيمان بالله مالكًا ومدبرًا وخالقًا ورازقًا ومهيمنًا، وإيمان بالله إلهًا معبودًا بالحق لا تصلح العبادة إلا له وحده لا شريك له، والإيمان بأنه سبحانه هو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شبيه له ولا كفو له ولا ند له، هكذا الإيمان بالله يكون على هذا الوجه فلا يتم الإيمان بالله إلا على هذا الوجه من جميع الجهات الثلاث بأنه الرب الخالق المدبِّر، ومن جهة أنه الإلٰه الحق المعبود بالحق ﷻ وهو معنى لا إلٰه إلا الله، والإيمان بأنه الموصوف بالصفات العلا والمسمَّى بالأسماء الحسنى، له الأسماء الحسنى وله الصفات العلا لا شبيه له ولا كفو له ولا ندَّ له، فإذا آمن العبد على هذا الوجه فقد آمن بالله الإيمان الواجب الكامل.

ثم الإيمان بالملائكة على أصنافهم وأنواعهم وهم السفرة بين الله وبين رسله وهم القائمون بالأعمال يؤمرون بها.

ثم الإيمان بالكتب المنزلة من السماء التي أعظمها وأشهرها وخاتمها القرآن، وأطلق الكتاب كما قال المؤلف ليشمل الجنس فيعم جميع الكتب، فالمؤمن هكذا يؤمن بهذه كلها.

أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بالآخرة بما يكون هناك من حساب وجزاء وجنة ونار وغير ذلك، وهو البعث بعد الموت وبما يكون بعد ذلك من حساب وميزان ونشر صحف ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، كله داخل في الإيمان باليوم الآخر.

وقد تأتي النصوص ليس فيها إلا ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالملائكة وبالكتب وبالرسل داخل في الإيمان بالله، الإيمان بالله سبحانه والإيمان بما أخبر به عن نفسه وعن ملائكته وكتبه ورسله

فيدخل في الإيمان بالله، ثم يأتي الإيمان باليوم الآخر وهو ما يكون بعد الموت من الحساب والجزاء.

وبهذا يكمل الإيمان، ويدخل في الإيمان بالله الإسلام وأركانه وأعمال البر كلها، كلها داخلة في الإيمان عند الإطلاق كما في الحديث الصحيح: **الإيمان بضع وسبعون شعبة**، وفي اللفظ الآخر: «**بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، فإذا أطلق الإيمان دخل فيه الإسلام بأعماله كلها، وإذا أطلق الإسلام دخل فيه الإيمان بأعماله كلها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: أخرجه وهو محبٌّ له راغبٌ فيه، نصّ على ذلك ابن مسعودٍ وسعيد بن جبيرٍ وغيرهما من السّلف والخلف، كما ثبت في الصّحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعًا: أفْضل الصّدقة «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى**»[(١)].

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة والثّوريّ عن منصورٍ، عن زبيدٍ، عن مرّة، عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ أَنْ تُعْطِيَهُ وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وَتَخْشَى الْفَقْرَ**»، ثمّ قال: صحيحٌ على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه[(٢)].

(قلت) وقد رواه وكيعٌ عن الأعمش، وسفيان عن زبيدٍ، عن مرّة، عن ابن مسعودٍ موقوفًا، وهو أصحّ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا يدل على إيثارهم لما عند الله والرغبة فيما عند الله فيعطي المال وهو يحب المال ويريده لمصالحه، ولكن لإيمانه بالله ورغبته بما

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح برقم (١٤١٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب برقم (١٠٣٢).

(٢) المستدرك (٢/ ٢٩٩) ط. دار الكتب العلمية.

عند الله يقدمه مع حبه له وعلمه بأنه فيه مصالح وقضاء الحاجات، ولكن لرغبته بما عند الله يقدم مرضاة الله ومحبته وما يرجوه لديه على هوى نفسه وعلى ميله للمال كما في الآية الأخرى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. ومن طبيعة الإنسان حب المال، ولكن لحبه لله وإيمانه بالله ورغبته بما عند الله يقدم تلك الأشياء التي يرجوها عند ربه، يقدمها على هوى نفسه فيطعم المال وينفق المال في سبل الخير، ويرجو ما عند الله ﷻ من المثوبة والمنزلة والخلف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نمطٌ آخر أرفع من هذا، وهو أنّهم آثروا بما هم مضطرّون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبّون له.

وقوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم قرابات الرّجل وهم أولى من أعطى من الصّدقة كما ثبت في الحديث: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»(١)، فهم أولى النّاس بك وببرّك وإعطائك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضعٍ من كتابه العزيز.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المساكين بالجمع؟ الرواية المعروفة المسكين بالإفراد، لكن معناه صحيح.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ هم الّذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث سليمان بن عامر في كتاب الزكاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة برقم (٦٥٨)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب برقم (٢٥٨٢).

صغارٌ دون البلوغ والقدرة على التّكسّب، وقد قال عبد الرّزّاق: أنبأنا معمرٌ عن جويبرٍ، عن الضّحّاك عن النّزّال بن سبرة، عن عليٍّ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يُتمَ بَعْدَ حُلُمٍ**»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأيتام هم الذين لا أب لهم ولم يبلغوا الحلم فيُحْسَن إليهم إذا كانوا فقراء، أما إذا كانوا أغنياء في أموالهم فلا حق لهم في الزكاة وليسوا أهلًا للصدقة، ولكن لما كان الغالب على الأيتام الحاجة جاء إطلاقهم في النصوص، وهذه الرواية من رواية جويبر، جويبر ضعيف عند أهل العلم لكن الحديث معروف من طرق أخرى، فالحاصل أن الأيتام الذين يعطَون من الأموال ويُتصدق عليهم هم الفقراء والمحاويج، أما إذا كان لهم أموال تغنيهم فليسوا من أهل الزكاة، ولكن جاء إطلاقهم بالنظر إلى أنهم في الغالب محاويج.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم الّذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم، فيعطون ما تسدّ به حاجتهم وخلّتهم، وفي الصّحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحديث له بقية: ولا يقوم فيسأل الناس، ليس المسكين بهذا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتم برقم (٢٨٧٣) انظر: صحيح الجامع الصغير (٦/ ٦١٣).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب برقم (١٤٧٦)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى برقم (١٠٣٩).

الطوَّاف الذي تردُّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس؛ يعني: هذا الأحق باسم المسكنة وأولى بأن يراعى ويُحسَن إليه؛ لأنه متعفف ليس عنده غنى ولا يجرأ على سؤال الناس ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه، ومن عرف هذا النوع من الناس فهم أولى بأنه يحسن إليهم ويعطون من الزكاة ويواسون، وإن كان ذاك الذي يسأل الناس فقيرًا أيضًا يسمى مسكين، من يسأل الناس المحتاج الذي يسأل الناس مسكين، لكن أولى منه باسم المسكنة وأحق بهذا الوصف وأحق بالعناية هو الذي بيَّنه النبي ﷺ وهو المتعفف الذي لا يجد غنى يغنيه من كسب ولا مرتب ولا نحوه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه لأنه متعفف مجهول الحال ولا يقوم فيسأل الناس حتى يعطى، هذا هو أولى من غيره وهو الأحق باسم المسكنة، وهذا مثل ما قال ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(١)، يعني ليس من يصرع الناس ويطرح الناس أولى بهذا الاسم وهو الصُّرَعة، بل أولى منه بهذا الاسم الذي يقهر نفسه ويمنعها عند الغضب بما لا ينبغي فهو أولى بأن يسمى صُرَعة، وهكذا قوله ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ**»، قَالَ: قُلْنَا الَّذِي لَا يُولَدُ لَه»؛ يعني: عقيم. فقال: **ولكن الرقوب**؛ يعني: أولى بهذا الاسم من لم يقرِّب من ولده شيئًا، يعني من لم يمت له أطفال فهو أولى باسم الرقوب، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا**»(٢). قَالَ: «**فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ**». قال: قلنا الّذي لا يصرعه الرّجال.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب برقم (٦١١٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يمسك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب برقم (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب البر والصلة، باب فضل من يمسك نفسه عند الغضب برقم (٢٦٠٨).

قال: «**لَيْسَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**».

فمن قدَّم أطفالًا فهو في الحقيقة قد قدَّم خيرًا؛ لأن أطفاله من أسباب سلامته من النار إذا كان مسلمًا كما قال ﷺ: «**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ، فَقَالَ: «**وَاثْنَيْنِ**»(١)

ولهذا نظائر في شهر الاسم عمن هو ليس هو أولى به وإثباته لمن هو أولى به.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرًا في طاعةٍ فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضّيف، كما قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ أنّه قال: ابن السّبيل هو الضّيف الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ وأبو جعفرٍ الباقر والحسن وقتادة والضّحّاك والزّهريّ والرّبيع بن أنسٍ ومقاتل بن حيّان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ابن السبيل وهم من أصناف الزكاة ويعطى من الصدقة، وهو من أبناء السبيل، والسبيل هو الطريق، وأبناء السبيل هم الذين تنقطع منهم النفقة في بلد الغربة، جاء من بلاده لحاجة فانقطعت عنه النفقة، جاء من مصر من مكة إلى الرياض من الشام من مصر بعيد وغير ذلك إلى الرياض إلى مكة إلى المدينة، ثم قطعت وذهب نفقته فهذا يعطى ما يوصله إلى بلاده ويصدَّق إذا كان ما يكذبه، إذا كانت هناك قرائن تدل على صدقه وشهد له بذلك من يعرف حاله فيعطى من الزكاة ومن الصدقات ويسمَّى ابن السبيل.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم برقم (١٠١)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه برقم (٢٦٣٣).

ومن هذا الضيف وهو الذي نزل بك وأبدى حاجته وأنه ليس عنده ما يرده إلى بلاده، جاء ليطلب الرزق أو جاء لحاجة خصومة أو لطلب العلم أو لأسباب أخرى جاءت به، فهذا الضيف يُعد من أبناء السبيل كما قال علي رضي الله عنه، فيعطى من الصدقات ومن بيت المال ومن الزكوات ما يرده إلى بلاده.

س: هل الضيف يأخذ من الزكاة؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

لا، الضيف لا، لكن ما يرده إلى بلاده، أما إكرام الضيف فمن مال الإنسان حق من مال الإنسان، يقول النبي ﷺ: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه حق حسب طاقته.**

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ وهم الّذين يتعرّضون للطّلب فيعطون من الزّكوات والصّدقات، كما قال الإمام أحمد: حدّثنا وكيعٌ وعبد الرّحمٰن قالا: حدّثنا سفيان عن مصعب بن محمّدٍ، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها ـ قال عبد الرّحمٰن حسين بن عليٍّ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ**» رواه أَبو داود[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

والمعنى في هذا أن السائل يعطى من الزكاة ويعطى من الصدقات ولو جاء على بعير أو فرس أو غير ذلك ما دام ليس هناك ما يدل على غناه، **فالسائلون أقسام ثلاثة:**

السائل تعرف أنه محتاج وأنه فقير ولو كان عنده دابة يركبها أو سيارة لحاجاته لكنه فقير والسيارة عنده لا بدّ منها لحاجاته أو حمار أو بغل أو غير ذلك مما يركبه وقد تعرف أنه محتاج وفقير فيعطى.

والثاني: معروف أنه غني، وإنما هو حريص على المال جشع في

---

(١) أخرجه في كتاب الزكاة، باب حق السائل (١٦٦٥).

طلب المال وهو ليس بمستحق، فهذا لا يعطى من الزكاة ولا من غيرها بل يُنصح ويوبخ، ويقال له: لا يجوز لك هذا، ليس لك أن تسأل الناس وأنت في غنى، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر**. فأنت مخطئ ولا يجوز لك هذا العمل.

الصنف الثالث: مجهول ما يعرف حاله غريب يسأله، فهذا يعطى لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، ولقوله: وللسائلين وما جاء في معنى ذلك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الّذين لا يجدون ما يؤدّونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام على كثيرٍ من هذه الأصناف في آية الصّدقات من براءةٍ إن شاء الله تعالى.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقد قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبي، حدّثنا يحيى بن عبد الحميد، حدّثنا شريكٌ عن أبي حمزةً عن الشّعبيّ، حدّثتني فاطمة بنت قيسٍ، أنّها سألت رسول الله ﷺ: أفي المال حقٌّ سوى الزّكاة؟ قالت: فتلا عليّ: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن إياسٍ ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريكٍ عن أبي حمزة عن الشّعبيّ عن فاطمة بنت قيسٍ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فِي الْمَالِ حَقٌّ سوى الزكاة**»، ثم قرأ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾. وأخرجه ابن ماجه والتّرمذيّ، وضعّف أبا حمزة ميمونًا الأعور، وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالمٍ عن الشّعبيّ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

والأدلة كثيرة وإن ضعف الحديث من جهة أبي حمزة لكن الأدلة كثيرة على أن المال فيه حق سوى الزكاة، الزكاة حق مفروض سنوي، أو

على حسب. . . الزروع والثمار، ولكن في الأموال زكاة أخرى في حق الزوجة وحق القريب وحق الضيف في الحقوق، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦]، فالمال فيه حقوق غير الزكاة لها أسبابها.

• **س: الضرائب التي تأخذها الدول هل هذا حق؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

لا، هذه قد تكون مكوس لا تجوز، ولكن الإنسان يسلمها بغير اختياره، وقد يكون لها مسوغ شرعي عند بعض أهل العلم، فالضرائب تختلف عن هذا تختلف عن الزكاة.

• **س: حديث: «لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ»**(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

فيه ضعف من جهتين: من جهة أبي حمزة ومن جهة شريك بن عبد الله القاضي، ومن جهة أبي حمزة ميمون.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأتمّ أفعال الصّلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشّرعيّ المرضيّ.

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النّفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرّذيلة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشّمس: ٩ ـ ١٠]، وقول موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النّازعات: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته ليس بكنز برقم (١٧٨٩).

لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصّلت: ٦ ـ ٧]. ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبيرٍ ومقاتل بن حيّان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين. إنّما هو التّطوّع والبرّ والصّلة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذِكرها مع الصلاة يدل على أنها الزكاة المعروفة وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ، ذِكر هذا مع الصلاة يدل على أنه يراد بها الزكاة المالية لأنه ذكر قبلها وآتى المال على حبه ذوي القربى ذَكَر الصدقات المزكية للنفوس والأعمال الطيبة المزكية للنفوس، ثم ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فذكرها معها يدل على أن المراد بها الزكاة المعروفة كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]، «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**»[1]، فسياق الآية يدل على أن المراد به زكاة المال، وأما الزكوات الأخرى والصدقات الأخرى فذكرت في مواضع منها ما قبل هذا ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وأما زكاة النفس بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فتدخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وما جاء في معنى ذلك، فإن النفس إنما تزكو وتطهر بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، ومن جملة ذلك الصلاة والزكاة فتدسا وتفسد وتذم عند اعتناقها الأخلاق الذميمة والصفات الذميمة والأعمال السقيمة.

---

(١) سبق تخريجه في (١/ ٢٤٧).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا تقدّم في الحديث عن فاطمة بنت قيسٍ: «**ليْس فِي الْمالِ حقٌّ سِوى الزّكاةِ**»، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرّعد: ٢٠]، وعكس هذه الصّفة النّفاق كما صحّ في الحديث: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(١)، وفي الحديث الآخر: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(٢).

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ أي: في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو الضّرّاء، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء. وقاله ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وأبو العالية ومرّة الهمدانيّ ومجاهدٌ وسعيد بن جبيرٍ والحسن وقتادة والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ ومقاتل بن حيّان وأبو مالك والضحاك وغيرهم، وإنما نصب الصّابرين على المدح والحثّ على الصّبر في هذه الأحوال لشدّته وصعوبته والله أعلم، وهو المستعان وعليه التّكلان.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾؛ أي: هؤلاء الّذين اتّصفوا بهذه

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق برقم (٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق برقم (٥٩).

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو. أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق برقم (٣٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق برقم (٥٨).

الصّفات هم الّذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنّهم حقّقوا الإيمان القلبيّ بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الّذين صدقوا وأولئك هم المتّقون؛ لأنّهم اتّقوا المحارم وفعلوا الطّاعات. والله أعلم.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا وصف عظيم لمن أدى هذه الأمور أنه هو الصادق وهو المتقي، وهذه صيغة مبالغة تقبل الحصر، والمراد حصر الكمال أن هؤلاء هم أهل التقوى على الحقيقة والصدق على العقيدة والإيمان لأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، ثم عملوا هذه الأعمال العظيمة، فهذا يدل على صدقهم في إيمانهم وأنهم آمنوا حقًّا، قالوا وعملوا فما في القلوب فظهر في الأعمال والجوارح، فهكذا المؤمن يقول ويعمل، ولهذا قال أهل السُّنَّة والجماعة: الإيمان قول وعمل، قول بالقلب واللسان وهو عمل قلب والجوارح يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، هذا هو الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة قاطبة خلافًا لأهل البدع، فكلما زاد عمل العبد الصالح زاد إيمانه، وكلما اعتراه شيء من غفلة أو معصية نقص إيمانه كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]

فجدير بالمؤمن أن يكون دائمًا حريصًا على زيادة إيمانه وكمال إيمانه بتقوى الله والاستقامة على أمره والوقوف عند حدوده والحذر من محارمه والمبادرة إلى أوامره حتى يكون أبدًا في زيادة وفي قوة إيمان وليحذر من مجالس الغفلة وصحبة الغافلين وصحبة المخلطين فإنهم يجرُّونه إلى ما ينقص إيمانه ويضعف إيمانه، وقد يجرُّونه إلى ما يحبط إيمانه ويزيل إيمانه، نسأل الله السلامة والعافية.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨ ـ ١٧٩][(١)].

يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيّها المؤمنون، حرّكم بحرّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيّروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النّضير قد غزت قريظة في الجاهليّة وقهروهم، فكان إذا قتل النّضريّ القرظيّ لا يقتل به؛ بل يفادى بمائة وسقٍ من التّمر، وإذا قتل القرظيّ النّضريّ قتل، وإن فادوه فدوه بمائتي وسقٍ من التّمر ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتّبع سبيل المفسدين المحرّفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾.

وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمّد بن أبي حاتمٍ: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بكيرٍ، حدّثني عبد الله بن لهيعة، حدّثني عطاء بن دينارٍ عن سعيد بن جبيرٍ في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾؛ يعني: إذا كان عمدًا الحرّ بالحرّ، وذلك أنّ حيّين من العرب اقتتلوا في الجاهليّة قبل الإسلام بقليلٍ، فكان بينهم قتلٌ وجراحاتٌ حتّى قتلوا العبيد والنّساء، فلم يأخذ بعضهم من بعضٍ حتّى أسلموا، فكان أحد الحيّين يتطاول على الآخر في العدّة والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل العبد

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

منا الحر منهم، والمرأة منا الرجل منهم، فنزل فيهم: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ منها منسوخةٌ نسختها: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرّجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرّجل بالرّجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ [المائدة: ٤٥]، فجعل الأحرار في القصاص سواءً فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النّفس وفيما دون النّفس رجالهم ونساؤهم، وكذلك روي عن أبي مالكٍ أنّها منسوخةٌ بقوله: النّفس بالنّفس.

[مسألة] ذهب أبو حنيفة إلى أنّ الحرّ يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثّوريّ وابن أبي ليلى وداود، وهو مرويٌّ عن عليٍّ وابن مسعودٍ وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم، قال البخاريّ وعليّ بن المدينيّ وإبراهيم النّخعيّ والثّوريّ في روايةٍ عنه: ويقتل السّيّد بعبده، لعموم حديث الحسن عن سمرة: «**ومن قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن خصاه خصيناه**»، وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحرّ بالعبد؛ لأنّ العبد سلعةٌ لو قتل خطأً لم يجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الأولى، وذهب الجمهور إلى أنّ المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت في البخاريّ عن عليٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»(١)، ولا يصحّ حديثٌ ولا تأويلٌ يخالف هذا، وأمّا أبو حنيفة فذهب إلى أنّه يقتل به لعموم آية المائدة.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه في كتاب العلم، باب في كتابة العلم، برقم (١١١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا التخصيص تؤيده آية المائدة في قوله: والنفس بالنفس، فيدل على أن النفس إنما تكفى بمماثلها وبمكافئها فيقتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، ويقتل الذكر أيضًا بالأنثى كما جاءت به السُّنَّة، فهو مخصص أيضًا لهذه الآية الكريمة، وقد قتل النبي ﷺ الذي قتل الجارية وهي جارية رضَّ رأسه بين حجرين كما فعل، فالنصوص يقيد بعضها بعضًا ويخص بعضها بعضًا ولا يضرب بعضها ببعض.

والأصل هو عدم النسخ، والقاعدة أن الجمع يقدَّم على النسخ ولا يصرح إلا بشروط منها العلم التاريخي من تاريخ المتقدم والمتأخر ومنها تعذر الجمع، والجمع هنا غير متعذر، وثبت أن الرسول ﷺ قتل الرجل بالمرأة، الأنثى بالأنثى.... وأما العبد فالعبد فهو باق على حاله ولا يقتل الحر بالعبد فإنه سلعة من أمواله، ولهذا ذهب الجمهور إلى ذلك.

وهكذا لا يقتل المسلم بالكافر لأنه لا يماثله، ولهذا صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ولا يقتل مسلم بكافر، فيؤخذ منه الدية ويعزر إذا قتله عن عمد وهو... لكن لا يقتل به.

وأما حديث سمرة فهو ضعيف لا يقاوم.... من قتل عبده قتلناه جزاء بجزاء الضعيف ضعيف لا يقام مقام نص القرآن الكريم، ويدل على ضعفه حديث: من قذف عبده فإنه يقام عليه الحد يوم القيامة، فلا يقام عليه الحد في الدنيا، فدل على أن القصاص لا يحصل في الدنيا؛ لأن القصاص أشد وأعظم، وإذا كان حد القذف لا يقام فمن باب أولى القصاص.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[**مسألةٌ**] قال الحسن وعطاءٌ: لا يقتل الرّجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ**، وقال اللّيث: إذا قتل الرّجل امرأته لا يقتل بها خاصّةً.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا ضعيف أيضًا والصواب أنه يقتل بها، أنه يقتل بالمرأة مطلقًا إذا كانا مسلمين أو كافرين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

[مسألةٌ] ومذهب الأئمّة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر في غلامٍ قتله سبعةٌ فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم. ولا يعرفُ له في زمانه مخالفٌ من الصّحابة، وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد روايةٌ: أنّ الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنّفس إلّا نفسٌ واحدةٌ، وحكاه ابن المنذر عن معاذٍ وابن الزّبير وعبد الملك بن مروان والزهري وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابتٍ، ثمّ قال ابن المنذر: وهذا أصحّ، ولا حجّة لمن أباح قتل الجماعة، وقد ثبت عن ابن الزّبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصّحابة فسبيله النّظر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب ما قاله الجمهور أن قتل الجماعة بالواحد ولا يلتفت إلى من شذَّ عن ذلك، وهو الذي قاله به عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، وقال فيه النبي ﷺ: **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ**. ولهذا ما ذهب إليه الجمهور؛ ولأن فيه سدًّا على التحريض في قتل الناس بالجماعة، فإنه إذا ترك قتل الجماعة بالواحد صار من هذا أعظم الوسائل في التعدي على الناس وقتلهم بغير حق فيجتمع اثنان وثلاثة وأربعة ويصلون إلى الواحد فيقتلونه ويقولون لا يقتل الجماعة بالواحد، فهو وسيلة إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات.. وقصة عمر في هذا واضحة في ذلك فإذا تجمع ثلاثة أو أربعة على قتل واحد تعاونوا عليه قُتلوا به، وهكذا في قطاع الطريق يقتل الجماعة

بالواحد يقتل هذا ويقتل هذا سدًّا لباب الشر والفساد وحماية للأنفس المعصومة من الظلم، فالجماعة المتآمرون وجماعة قطاع الطريق كالشيء الواحد يقتلون جميعًا حسمًا لمادة الفساد والقضاء على أسباب الحيل والمكر وحفظًا للدماء والنفوس من عبث العابثين، ولهذا ذهب إليه الجمهور، وهو مذهب أحمد ورواية. . . شاذة مخالف لما قاله الجمهور والتي في كتب. . . توافق ما في كتب الآخرين فيقتل الجماعة بالواحد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، فالعفو أن يقبل الدّية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية وأبي الشّعثاء ومجاهدٍ وسعيد بن جبيرٍ وعطاءٍ والحسن وقتادة ومقاتل بن حيّان، وقال الضّحّاك عن ابن عبّاسٍ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ يعني: فمن ترك له من أخيه شيءٌ؛ يعني: أخذ الدّية بعد استحقاق الدّم، وذلك العفو، ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلى الطّالب اتّباعٌ بالمعروف إذا قبل الدّية.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ يعني: من القاتل من غير ضررٍ ولا مَعْكٍ؛ يعني: المدافعة.

وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرٍو، عن مجاهدٍ، عن ابن عبّاسٍ: ويؤدّي المطلوب بإحسانٍ. وكذا قال سعيد بن جبيرٍ وأبو الشّعثاء جابر بن زيدٍ والحسن وقتادة وعطاءٌ الخراسانيّ والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ ومقاتل بن حيّان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا معناه أن الواجب على من عفي له عن القصاص وسمح الورثة بالدية أن يؤدي بإحسان وألا يماطلهم وألا يؤذيهم؛ بل يبادر ويسارع إلى أداء الحق لأن هذه المماطلة والأذى قد يفضي إلى أن يرجعوا عما سمحوا عنه وأن يقتلوه بعدما عفوا عن القتل، فتقع فتنة وفساد، فالواجب

أن يبادر إلى إعطائهم الدية اغتنامًا لسماحهم لئلا يشوِّش عليهم الشيطان أو نواب الشيطان فينكثوا عما قالوا ويرجعوا عمن قالوا ثم يقتلونه بعد ذلك بدله فيستحقون القتل، فتكون فتنة، فيجب البدار بالدية بعد أن عفي له أن يبادر ويسارع حسمًا للمادة وقضاء على أسباب الشر.

• **س**: ...؟

الشيخ: لا ليس لهم الرجوع لكن قد يزين لهم الشيطان إذا أبطأ عليهم قالوا هذا ما قدَّر إحسانًا ولا قدَّر عفونا فيزين لهم الشيطان أو نوابه فيرجعون فيستحقون أن يقتلوا هم أيضًا.

• **س**: ...؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأفضل العفو، وإن عفو عن الدية والقصاص فهو أفضل ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، لكن إذا رأوا أن العفو قد يفضي إلى شر وإلى فساد من قرائن الأحوال فقد يقال حينئذ أن القصاص أولى، إذا رأوا أن القصاص قد يفضي إلى فساد؛ لأن الناس فيهم السفيه وفيهم العاقل وفيهم قوي الإيمان وفيهم ضعيف الإيمان فقد يعفو ويلزمون صغارهم؛ يعني: سفاءهم بالعفو ثم.. يقتلون بعد ذلك، فالذي ينبغي للعافي أن ينظر ويتأمل ولا يعجل بالعفو، فإذا رأى أن العفو مناسب وفي محله ولا يخشى منه فتنة عفا، يطلب الأجر من الله سبحانه، أما إن كان العفو قد يفضي إلى فساد وإلى فتن وإلى اختلاف وإلى قتال فالقصاص حينئذ أحسم للمادة، وهكذا في مسائل أخرى غير القصاص.

• **س**: ....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يسقط القصاص وليس لهم إلا الدية إذا واحد انتهى ما يتبعض.

• س: ....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا بأس، إن عفا على عشر ديات أو عشرين دية، قد وقع هذا في عهد السلف الصالح، إذا عفا الورثة عن أكثر من الدية فلا حرج لأن هذا حق لهم، لكن ما يلزم إذا عفوا إلا برضاه أما الدية المعينة فلا بأس، ولو ما رضوا، أما أكثر من الدية لا يلزمه يقول: اقتصوا مني، أنا ما أعطيكم إلا الدية لو ما رضوا بالدية فلا بأس وإلا خذوا القصاص مني، لا يلزمه الزيادة إلا باصطلاح بينهم، إذا اصطلحوا بينهم فلا بأس.

• س: ...؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

إذا عفا بعضهم سقط القصاص، لكن ينبغي للعافي أن لا يشق عليهم ويسبب فتنة، ينبغي التشاور في العفو حتى يتم الرأي عند الجميع بالعفو؛ لأنه قد يعفو واحد ويسقط القصاص، ثم يقتل أولئك ولا يبالون فتقع فتنة.

• س: ...؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا شبه العمد هذا فيه تفصيل، المقصود العمد واضح محض، أما إن كان قتل في شبه العمد هذا لا يقتل به، والخطأ لا يقتل به، فإن القتل أنواع ثلاثة: عمد، وشبه عمد، وخطأ.

فالقصاص في النوع الأول، أما شبه العمد والخطأ فلا قصاص عليه، ضربه بالعصا ومات بالعصا، ما يكون فيه قصاص لأن هذا في العادة لا يموت به الإنسان هذا مما قتل به شبه العمد، يكون به الدية مغلظة ويكون فيه الكفارة أيضًا، كالخطأ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[مسألةٌ] قال مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي وأحمد في أحد قوليه: ليس لوليّ الدّم

أن يعفو على الدّية إلّا برضا القاتل. وقال الباقون: له أن يعفو عليها وإن لم يرض.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو الصواب أن أولياء المقتول هم الذين لهم الخيار لما ثبت في الصَّحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ قال: **«فَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ بَعْدَ مَقَالَتِي هَذِهِ فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يَأْخُذُوا الْعَقْلَ»**(١). فالخيار ليس للقاتل وإن كان القتل هو المتعين أولًا، لكن إذا سمح عنه أولياء المقتول أو رضوا بالدية فقد رضوا بالأدنى فهم مشكورون...، فالخيرة لهم بنص الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذهب طائفةٌ من السّلف إلى أنّه ليس للنّساء عفوٌ، منهم الحسن وقتادة والزّهريّ وابن شبرمة واللّيث والأوزاعيّ، وخالفهم الباقون.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قول الباقين هو الصواب وأن الحق مشترك بين الذكور والإناث في الدية وفي القصاص، فإذا قتل القتيل عن أبيه وأمه وعن ابنه وبنته فالخيرة للجميع للأب والأم وللابن والبنت عند جمهور أهل العلم لعموم قوله ﷺ: **«فأهله بين خيرتين»** فأهله يشمل الذكور والإناث. وقال بعض السلف يختص بالعَصَبة هم الذين لهم العفو عن القصاص إلا الدية، لأن العار يلحقهم أكثر بالعفو.

والصواب: ما دل عليه الأحاديث وهو أنه حق مشترك بين الورثة من الذكور والإناث، فإذا عفت الأم أو عفت البنت أو عفت الزوجة سقط القود وبقيت الدية وإن عفوا جميعًا كذلك من باب أولى.

● **س**: ....؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٨٤).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأن فيه العار، لأنه قد يعير بأخذه المال، فهذه حجة لا وجه لها ولا يلتفت إليها.

• **س**: ....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

على كل حال قد يكون الإناث أكثر لو مات ميت عن أم وابن وعشر بنات فمن الأكثر؟ البنات أكثر، ولو مات عن أم وزوجة وأربع بنات وابن، كذلك الأمثلة كثيرة.

• **س: وإن عفا واحد؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا عفا واحد سقط القود لأنه ما يتبعض.

• **س**: .....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: القصاص والدية والعفو، فإن أخذوا القصاص فلهم بشروطه، وإن أخذوا الدية فلهم بشروطها، وإن عفوا عن الجميع أو عن أحدهما فجزاهم الله خيرًا.

• **س: العفو مشترك بين الذكور والإناث؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: نعم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنّما شرع لكم أخذ الدّية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمةً بكم ممّا كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصورٍ: حدّثنا سفيان عن عمرو بن دينارٍ، أخبرني مجاهدٌ عن ابن عبّاسٍ قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمّة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ

بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾، فالعفو أن يقبل الدّية في العمد[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا السند صحيح عن ابن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن القصاص كان في اليهود وليس لهم الدية، فإما أن يكون قصاص وإما أن يعفو، ويروى أن النصارى بعكس ذلك، النصارى ليس لهم إلا الدية وليس لهم القصاص، فإما أن يأخذوها وإما أن يتركوها ولا شيء لهم، والله سبحانه جعل لهذه الأمة الأمرين جميعًا تخفيفًا ورحمة، وجعل لهم الخيار بين القصاص وبين الدية والعفو، إن شاءوا أخذوا هذا أو هذا أو عفو. واتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد رواه غير واحد عن عمرو، وأخرجه ابن حبّان في صحيحه عن عمرو بن دينار، ورواه جماعةٌ عن مجاهدٍ عن ابن عبّاسٍ بنحوه.

وقال قتادة: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ رحم الله هذه الأمّة وأطعمهم الدّية ولم تحلّ لأحدٍ قبلهم فكان أهل التّوراة: إنّما هو القصاص وعفوٌ ليس بينهم أرشٌ، وكان أهل الإنجيل: إنّما هو عفوٌ أمروا به وجعل لهذه الأمّة القصاص والعفو والأرش.

وهكذا روي عن سعيد بن جبيرٍ ومقاتل بن حيّان والرّبيع بن أنسٍ نحو هذا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن النصارى مشهور أنه عندهم الدية.... ليس لهم إلا الدية، واليهود لهم القصاص وليس لهم الخيار، وهذه الأمة لها الجمع بين الأمرين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾ برقم (٤٤٩٨).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾، يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدّية أو قبولها، فله عذابٌ من الله أليمٌ موجع شديد، وهكذا روي عن ابن عبّاسٍ ومجاهدٍ وعطاءٍ وعكرمة والحسن وقتادة والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ ومقاتل بن حيّان أنّه هو الذي يقتل بعد أخذ الدّية.

كما قال محمّد بن إسحاق عن الحارث بن فضيلٍ، عن سفيان بن أبي العرجاء، عن أبي شريحٍ الخزاعيّ، أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**مَن أُصِيبَ بِقَتْلٍ أَوْ خَبَلٍ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ، فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، وَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا**» رواه أحمد[(١)].

الطالب: يقول حديث ضعيف، فمحمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح بالتحديث، وسفيان بن أبي العرجاء قال الحافظ الذهبي في الميزان: قال البخاري: في حديثه نظر.

يعني من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث وذكر الحديث، وقد أخرجه أبو داود وابن ماجه من طريق ابن إسحاق عن الحارث بن فضيل عن هذا الرجل ولا يعرف بغير هذا الحديث وهو حديث منكر، ثم ذكره بسنده وقال بعد نهاية الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه عن محمد بن إسحاق انتهى.

وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب نحو هذا، ولكن تعقب الحافظ الذهبي في قوله أن سفيان لا يعرف إلا في هذا الحديث، فقال: كذا قال، وقد أخرج له أحمد في مسنده حديثًا آخر من حديث ابن مسعود. .

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

حتى ولو ما صح هذا الحديث المقصود أن الواجب إما القصاص

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣١).

وإما الدية وإما العفو، أما أن يأخذوا الدية ويقتلوه فهذا منكر ولا يجوز إما الدية أو القصاص لأهل الدية ثم قتل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا أُعَافِي رَجُلًا قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ**»[(١)]؛ يعني: لا أقبل منه الدّية؛ بل أقتله.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنّه إذا علم القاتل أنّه يقتل انكفّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدّمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياةً، فكم من رجلٍ يريد أن يَقتل فتمنعه مخافة أن يُقتَل. وكذا روي عن مجاهدٍ وسعيد بن جبيرٍ وأبي مالكٍ والحسن وقتادة والرّبيع بن أنسٍ ومقاتل بن حيّان.

مسألة: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنّهى، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتّقوى اسمٌ جامعٌ لفعل الطاعات وترك المنكرات.

• **س**: .....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يحتمل هذا أو هذا يطلق على الجنون ويطلق على..... فإذا فعل شيئًا عمدًا لا شبه فيه قتل بالقصاص وإن لا صار شبه العمد.

---

(١) أخرجه البيهقي عن الحسن مرسلًا (الكبرى ٨/ ٥٤)، وأما المرفوع ففيه الحسن لم يسمع من سمرة (المراسيل لابن أبي حاتم ص٣٣).

• **س: هل يقتل الوالد بولده؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الصحيح لا يقتل، به الدية فقط.

• **س: الدية لأمه؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأمه والباقي. والقاتل لا يرث.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ١٨٠ ـ ١٨٢][(١)].

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصيّة للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا على أصحّ القولين قبل نزول آية المواريث، فلمّا نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدّرة فريضةً من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصيّةٍ ولا تحمّل منّة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السّنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول اللهِ ﷺ يخطب وهو يقول: «**إِنِ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عليّة عن يونس بن عبيدٍ عن محمّد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) اخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث برقم (٢٨٧٠)، والإمام أحمد (٤/ ١٨٦ و١٨٧ و٢٣٨ و٥/ ٢٦٧).

البقرة حتى أتى هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نسخت هذه الآية[١].

وكذا رواه سعيد بن منصورٍ، عن هشيم، عن يونس به، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيحٌ على شرطهما. وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلّا وصيّةً للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبيّن ميراث الوالدين وأقرّ وصيّة الأقربين في ثلث مال الميّت.

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا الحسن بن محمّد بن الصّبّاح، حدّثنا حجّاج بن محمّدٍ، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاءٍ عن عطاءٍ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ نسختها هذه الآية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النّساء: ٧]، ثمّ قال ابن أبي حاتمٍ: وروي عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيّب والحسن ومجاهدٍ وعطاءٍ وسعيد بن جبيرٍ ومحمّد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والرّبيع بن أنسٍ وقتادة والسّدّيّ ومقاتل بن حيّان وطاوسٍ وإبراهيم النّخعيّ وشريحٍ والضّحّاك والزهري: أن هذا الآية منسوخةٌ، نسختها آية الميراث.

والعجب من أبي عبد الله محمّد بن عمر الرّازيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلمٍ الأصفهانيّ أنّ هذه الآية غير منسوخةٍ وإنّما هي مفسّرةٌ بآية المواريث، ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النّساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسّرين والمعتبرين من الفقهاء، قال: ومنهم من قال: إنّها منسوخةٌ فيمن يرث ثابتةٌ فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عبّاسٍ والحسن ومسروقٍ وطاوسٍ والضّحّاك ومسلم بن يسارٍ والعلاء بن زيادٍ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٢٣).

(**قلت**) وبه قال أيضًا سعيد بن جبيرٍ والرّبيع بن أنسٍ وقتادة ومقاتل بن حيّان، ولكن على قول هؤلاء لا يسمّى هذا نسخًا في اصطلاحنا المتأخّر، لأن آية المواريث إنّما رفعت حكم بعض أفراد ما دلّ عليه عموم آية الوصاية؛ لأنّ الأقربين أعمّ ممن يرث ولا يرث، فرفع حكم من يرث بما عيّن له، وبقي الآخر على ما دلّت عليه الآية الأولى، وهذا إنّما يتأتّى على قول بعضهم: أنّ الوصاية في ابتداء الإسلام إنّما كانت ندبًا حتّى نسخت، فأمّا من يقول: إنّها كانت واجبةً وهو الظّاهر من سياق الآية، فيتعيّن أن تكون منسوخةً بآية الميراث كما قاله أكثر المفسّرين والمعتبرين من الفقهاء، فإنّ وجوب الوصيّة للوالدين والأقربين الوارثين منسوخٌ بالإجماع؛ بل منهيٌّ عنه للحديث المتقدّم: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»(١).

فآية الميراث حكمٌ مستقلٌّ ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، رفع بها حكم هذه بالكلّيّة.

بقي الأقارب الّذين لا ميراث لهم يستحبّ له أن يوصى لهم من الثّلث استئناسًا بآية الوصيّة وشمولها، ولما ثبت في الصّحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ، يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»(٢).

قال ابن عمر: ما مرّت عليّ ليلةً منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلّا وعندي وصيّتي(٣).

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٩٩).

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ وصية الرجل مكتوبة عنده برقم (٢٧٣٨)، ومسلم في كتاب الوصية برقم (١٦٢٧).

(٣) المصدر السابق.

والآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرةٌ جدًّا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبهذا يعلم أن هذه الآية عند أهل العلم منسوخة بآية المواريث من وصى في سورة النساء قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾، كان هذا في أول الإسلام أن عليهم أن يوصوا لأقاربهم ووالديهم ثم فرض الله المواريث للوالدين وجعل حقًّا لهما السدس مع الولد وجعل للوالدة مع عدم الولد الثلث وللأب الباقي وجعلهم مع البنات بالتفصيل فيعطى الوالد السدس والأم السدس ويأخذ الباقي الوالد زيادة تعقيبًا مع الفرض، وفرض الله للبنات ما فرض وللأخوات ما فرض إلى غير ذلك، فكانت ناسخة لآية الوصية من حيث أن آية الوصية مطلقة وعامة وآية المواريث مفصَّلة، وعلى رأي الآخرين أنها مخصصة أن آية المواريث مخصص لعموم هذه الآية وإطلاقها، ولا منافاة سواء كانت ناسخة النسخ الكلي أو النسخ الذي بمعنى التخصيص، ويبقى الأقارب الذين ليس لهم ميراث كالأخوال والخالات والعمَّات وأولاد الأخوات والجد لأم وأشباههم يستحب أن يوصي لهم بما تيسَّر ولا سيما إذا كانوا فقراء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال عبد بن حميدٍ في مسنده: أخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسّان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ ثِنْتَانِ لَمْ يَكُنْ لَكَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا: جَعَلْتُ لَكَ نَصِيبًا فِي مَالِكَ حِينَ أَخَذْتُ بِكَظْمِكَ لِأُطَهِّرَكَ بِهِ وَأُزَكِّيَكَ، وَصَلَاةُ عبادي عليك بعد انقضاء أَجَلِكَ**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحاصل أن الوصية سنَّة للمؤمن إذا كان لديه شيء يريد أن يوصي

فيه إن أراد أن يتصدق بشيء بالثلث فأقل، فالسُّنَّة أن يوصي ويبادر قبل نزول الأجل، فإن الأجل لا يؤمَن إذا كان عنده عزم بشيء فالسُّنَّة المبادرة، ولهذا قال في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «**ما حق امرئ له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»، وهذا في الشيء الذي يريد أن يوصي فيه، أما إذا كان ما عنده شيء فليس عليه وصية، فأما إن كان عليه ديون أو حقوق وما عليها بيان فلا بدّ من الوصية فيجب للوجوب إذا كان ديون ليس عليها أسانيد حقوق للناس أو عواري عنده أو أمانات يجب أن يوصي بها حتى تعرف حتى لا يأخذها الورثة، وهذا من باب الواجب من باب أداء الأمانة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ أي: مالًا، قاله ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ وعطاءٌ وسعيد بن جبيرٍ وأبو العالية وعطيّة العوفيّ والضّحّاك والسّدّيّ والرّبيع بن أنسٍ ومقاتل بن حيّان وقتادة وغيرهم.

ثمّ منهم من قال: الوصيّة مشروعةٌ سواءٌ قلّ المال أو كثر كالوراثة.

ومنهم من قال: إنّما يوصي إذا ترك مالًا جليلًا، ثمّ اختلفوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن يزيد المقريّ، أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: قيل لعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنّ رجلًا من قريشٍ قد مات وترك ثلاثمائة دينارٍ أو أربعمائةٍ ولم يوص؟ قال: ليس بشيءٍ إنّما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

وقال أيضًا: وحدّثنا هارون بن إسحاق الهمدانيّ، حدّثنا عبدة؛ يعني: ابن سليمان، عن هشام بن عروة عن أبيه: أنّ عليًّا دخل على رجلٍ من قومه يعوده، فقال له: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ إنما تركت شيئًا يسيرًا فاتركه لولدك.

وقال الحكم بن أبان: حدّثني عكرمة عن ابن عبّاسٍ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عبّاسٍ: من لم يترك ستّين دينارًا لم يترك خيرًا، قال

الحاكم: قال طاوسٌ: لم يترك خيرًا من لم يترك ثمانين دينارًا، وقال قتادة: كان يقال: ألفًا فما فوقها.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحاصل من هذا أن الله ﷻ قال: خيرًا، فإذا قيل إن الآية غير منسوخة فيما عدا أصحاب المواريث فإن السُّنَّة إنما تكون في حق من ترك خيرًا، أما من كان ماله قليل فالأفضل تركه للورثة ولا يوصي بشيء، والخير يختلف بحسب أحوال الناس بحسب أحوال الوقت، فقد يكون خيرًا في بلاد وفي قوم وليس بخير في بلاد وفي قوم آخرين، فإذا ترك خيرًا في العرف شيء يعد كثيرًا أوصى، وإذا كان لا يعد كثيرًا لغلاء الأسعار وتغير الأحوال وتغير النفقات فالأفضل ألا يوصي مثل ما قال في حديث سعد في الصَّحيحين قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**» لما قال: أوصي بمالي كله؟ **قال: لا**، قال: الشطر؟ **قال: لا**، قال: فالثلث؟ قال: «**الثُّلُثُ وَالثُّلْثُ كَبِيرٌ ـ أَوْ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»(١).

يعني اترك لهم شيئًا يقوم به حالهم أولى من الوصية بشيء إلى غيرهم فهم أقرب الأقارب وأحوج الناس إلى رشده وإحسانه، فإذا كانت التركة قليلة عرفًا فالأحسن عدم الوصية بشيء لا بالثلث ولا بغيره، وأما إذا كان المال كثير عرفًا بحيث لا يضر الورثة إن أوصى بثلثه أو ربعه فإنه يوصي من باب الصدقة؛ يوصي للفقراء يوصي للأقارب الذين لا يرثون، يوصي في تعمير المساجد، في الجهاد، في أي شيء من وجوه الخير.

---

(١) متفق عليه من حديث سعد بن وقاص عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة برقم (١٢٩٥)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨).

• **س: إن زاد عن الثلث في الوصية؟**

ج: لا ينفذ إلا برضاهم إذا كانوا مكلفين، فإن لم يرضوا يحذف ما زاد على الثلث.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾؛ أي: بالرّفق والإحسان، كما قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا الحسن بن أحمد، حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدّثني سرور بن المغيرة عن عبّاد بن منصورٍ عن الحسن في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فقال: نعم الوصيّة حقٌّ على كل مسلم أن يوصي إذا حضر الموت بالمعروف غير المنكر.

والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصيّةً لا تجحف بورثته من غير إسرافٍ ولا تقتيرٍ، كما ثبت في الصّحيحين أنّ سعدًا قال: يا رسول الله، إنّ لي مالًا ولا يرثني إلّا ابنةٌ لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: **لا**، قال: فبالشّطرِ؟ قال: **لا**، قال: فالثّلث؟ قال: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خير من أن تدعهم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**». وفي صحيح البخاريّ أنّ ابن عبّاسٍ قال: لو أنّ النّاس غضّوا من الثّلث إلى الرّبع، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «**الثُّلُثُ والثُّلُثُ كثِيرٌ**»[1].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيدٍ مولى بني هاشم عن ذيال بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة: أنّ جدّه حنيفة أوصى ليتيمٍ في حجره بمائةٍ من الإبل، فشقّ ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال حنيفة: إنّي أوصيت ليتيمٍ لي بمائةٍ من الإبل كنّا نسمّيها المطيبة، فقال النّبيّ ﷺ: «**لَا لَا لَا الصَّدَقَةُ خُمْسٌ وَإِلَّا فَعَشْرٌ وَإِلَّا**

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة برقم (١٢٩٥)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨).

فَخَمْسَ عَشْرَةَ وَإِلَّا فَعِشْرُونَ وَإِلَّا فَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ وَإِلَّا فَثَلَاثُونَ وَإِلَّا فَخَمْسٌ وَثَلَاثُونَ، فَإِنْ كَثُرَتْ فَأَرْبَعُونَ»(١) وذكر الحديث بطوله.

قوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١٨١﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصيّة وحرّفها، فغيّر حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾. قال ابن عبّاسٍ وغير واحدٍ: وقد وقع أجر الميّت على الله، وتعلّق الإثم بالّذين بدّلوا ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١٨١﴾؛ أي قد اطّلع على ما أوصى به الميّت وهو عليمٌ بذلك وبما بدّله الموصى إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ قال ابن عبّاسٍ وأبو العالية ومجاهدٌ والضّحّاك والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ: الجنف الخطأ.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني قد يقع من المورثين أنواعًا من المحاباة ومن ذلك أن يوصي ببيع سلعة لبعض الورثة محاباة جنفًا... ليس له ذلك... إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث، ومن ذلك أن يوصي لبعض الورثة كأن يقول له دين عليه وهو يكذب......

فالحاصل أنه متى علم أنه فعل جنفًا وجب رد ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثًا بواسطةٍ أو وسيلةٍ، كما إذا أوصى ببيعه الشّيء الفلانيّ محاباةً.

أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إمّا مخطئًا غير عامدٍ بل بطبعه وقوّة شفقته من غير تبصّرٍ، أو متعمّدًا آثمًا في ذلك، فللوصيّ والحالة هذه، أن يصلح القضيّة ويعدّل في الوصيّة على الوجه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٦٧).

الشّرعيّ، ويعدل عن الذي أوصى به الميّت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعًا بين مقصود الموصي والطّريق الشّرعيّ، وهذا الإصلاح والتّوفيق، ليس من التّبديل في شيءٍ، ولهذا عطف هذا فبيّنه على النّهي عن ذلك، ليعلم أنّ هذا ليس من ذلك بسبيلٍ، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

النهي عن الزيادة والظلم عطف هذا على هذا أن الإصلاح بينهم ليس من التبديل، إنما التبديل أن يغير الوصية بغير حق، هذا هو المنكر، أما إذا كان التبديل لأجل الإصلاح وإزالة الظلم والجنف فهذا ليس تبديلًا ولكنه إصلاح لإزالة الشر.

ومن أمثلة ذلك: أوصى لأربعة بنين وهو يميل لأحدهم فأوصى لواحد بسلعة أنه باعها عليه في حياته بكذا وكذا، والبيع فيه جنف فأصلح بينهم بعض المسلمين، أو ولي الصغار أو ما أشبه ذلك، فأصلح بينهم حتى لا يكون جنفًا فتزول الوصية الآثمة، فهذا لا بأس به وليس من التبديل، وإذا تراضى الكبار والمرشدون وأمضوا الجنف، ورضوا بالزيادة فلا بأس أيضًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد قال ابن أبي حاتمٍ: حدّثنا العبّاس بن الوليد بن مزيدٍ قراءةً، أخبرني أبي عن الأوزاعيّ، قال الزّهريّ: حدّثني عروة عن عائشة عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**يُرَدُّ مِنْ صَدَقَةِ الجانف فِي حَيَاتِهِ مَا يُرَدُّ مِنْ وَصِيَّةِ الْمُجْنِفِ عِنْدَ مَوْتِهِ**». وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العبّاس بن الوليد به، قال ابن أبي حاتمٍ: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيدٍ، وهذا الكلام إنّما هو عن عروة فقطٍ. وقد رواه الوليد بن مسلمٍ عن الأوزاعيّ فلم يجاوز به عروة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني أخطأ في رفعه ووصله وإنما هو من كلام عروة.

هذا لا يسلم على القاعدة، كلام ابن أبي حاتم هذا لا يسلم؛ لأن في القاعدة أن الثقة إذا زاد وصلًا أو رفعًا فهو مقبول، فالوليد بن مَزْيَد ثقة... ليس له أخطاء وليس بمدلس...

فالحاصل أن هذه الزيادة من الوليد جيدة وفيه رد الخطأ من الحي والميت وهذا جيد وموافق للأصول، فلو أعطى أحد أولاده زيادة على الآخر يرد، وكذلك إذا أوصى بما يخالف الشرع يرد. وهذا هو معنى هذا الحديث.

• س: .....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحاكم يأخذه عليه إذا اشتكوا، والميت كذلك إذا أوصى لأحد أولاده يرد إلا إذا أمضاه الأولاد فإذا أبوا فالحاكم له أن يرده.

• س: .....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ما في بأس من الثلث فأقل.

• س: **وإذا كان بعض الأولاد يخدم والده أكثر من الثاني؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولو لا يزيده إلا إذا كان فقيرًا ينفق عليه، أما إن كان في أعمال وأحب أن يجعل له راتب مثل راتب الأجنبي جعله في مزرعة جعله في التجارة فلا بأس كأجنبي لا يخصه بشيء.

• س: **ولا يراعي أسباب الصلاح؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا ما يكفي، لو كان هذا صالح وذاك فاسق ما يكفي، بل هذا مما يزيد الفاسق فسقًا.

• **س: إن كان أحدهم فقيرًا لا يستطيع دفع المهر؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

يزوِّجه ما في شيء، يزوج الفقير لأن الزواج من النفقة بل من أهم النفقات.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال ابن مردويه أيضًا: حدّثنا محمّد بن أحمد بن إبراهيم، حدّثنا إبراهيم بن يوسف، حدّثنا هشام بن عمّارٍ، حدّثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبي هندٍ، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ عن النّبيّ ﷺ قال: «**الجنف فِي الْوَصِيَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ**» وهذا في رفعه أيضًا نظرٌ[1].

وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرّزّاق: حدّثنا معمرٌ عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشبٍ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بشرِّ عمله فيدخل النار. وإن الرجل ليعمل بعمل الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ**».

قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

في سماع شهر من أبي هريرة نظر.. انظر شهر بن حوشب؟

الطالب: شهر بن حوشب الأشعري الشامي مولى أسماء بنت يزيد بن السكن صدوق كثير الإرسال والأوهام من الثالثة، مات سنة اثنتي عشرة بخ م ٤.

*

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٦/ ٢٧١).

□ تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤](١).

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة، وآمرًا لهم بالصّيام وهو الإمساك عن الطّعام والشّراب والوقاع، بنيّةٍ خالصةٍ لله ﷯ لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرّديئة والأخلاق الرّذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ الآية [المائدة: ٤٨].

ولهذا قال هاهنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾؛ لأنّ الصّوم فيه تزكيةٌ للبدن وتضييقٌ لمسالك الشّيطان، ولهذا ثبت في الصّحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(٢).

قال سماحة الشيخ ابن باز ؒ:

والصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع وغيرها من

---

(١) من تعليقات سماحته ؒ على تفسير الحافظ ابن كثير ؒ.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: «**من استطاع منكم الباءة...**» برقم (٥٠٦٥)، ومسلم في كتاب النكاح، استحباب النكاح لمن تاقت نفسه... برقم (١٤٠٠).

المفطرات إخلاصًا لله وطلبًا لمرضاته وجهادًا لهذه النفس بما يقربها من الله ﷻ، فالله شرعه لما فيه من العبادة والإخلاص لله ولما فيه من جهاد النفس على مخالفة هواها، ولما فيه من تعويدها على الصبر ومخالفة الهوى وإيثار الحق، ولما فيه أيضًا من التطهير للنفس من أخلاقها الذميمة وأخلاقها المنكرة، ولما فيه أيضًا من علاج بعض الأخلاط الرديئة التي قد تضر الإنسان، فيكون صومه من أسباب شفائها.

ولو لم يكن في ذلك إلا القربة إلى الله ﷻ في ترك ما تهواه النفوس وتشتهيه طلبًا لمرضاة الله وإيثارًا لحقه واتباعًا لأمره ورغبة بما عنده ﷻ مع تعويد النفس مخالفة الهوى في طاعة الله ﷻ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

وقال سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجموع[١]:

إن هذه الآية قد دلت على أن الصيام عبادة قديمة فُرضت على من قبلنا كما فرضت علينا، ولكن هل هم متقيدون بالصيام في رمضان أم في غيره؟ هذا لا أعلم نصًّا عن النبي ﷺ. ثم قال الله سبحانه: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ ففسَّر هذه الأيام المعدودات بعد ذلك بقوله ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾، وقال النبي ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[٢].

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة جمع الشيخ محمد الشويعر (١٥/ ٧).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني أن هذا ليس خاصًا بأمة محمد بل قد أوجبه الله على الأمم الماضية فلهم بمن مضى أسوة صالحة في طاعة الله المولى والحذر من أسباب غضبه وذلك بالالتزام بهذا الصوم الشرعي في وقته إخلاصًا لله ومحبة له وتعظيمًا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووقوفًا عند حدوده وتأسيًا بمن قبلهم من الأخيار.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل ممّا فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والشرائع ابتلى الله بها العباد وكلَّفهم بها ليستبقوا إليه بالخيرات وليجتهدوا بما يقربهم لديه وليعالجوا أوضاعهم بما يُرضي الله عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينافسوا بما يرضيه ويقرب لديه بينهم وبالنسبة إلى من قبلهم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢]؛ أي: يختبركم أيكم أحسن عملًا. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود: ٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فالمؤمن يبتلى بالنسبة إلى أمر به ليكون أحسن من غيره ويجتهد في أحسن الأعمال وينال أفضل الدرجات وأكمل الجزاء، وهكذا بقية الناس يبتلون، فمن اهتدى فله السعادة ومن لم ينجح ورسب في هذا الاختبار وتابع الهوى والشيطان...

سقط في الحديث، ولم يروه كما هو: **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**.. ولعله سقط من بعض النساخ، فإن المؤلف لا يظن أنه خفي هذه الجملة التي هي جملة

عظيمة يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ يعني: مؤنة الباءة المهر وتوابعه، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج؛ يعني: الزواج يغض البصر ويحصِّن الفرج؛ يعني: للجميع من الشباب للنساء ومن النساء للرجال، فلا ينبغي وضع العراقيل بل ينبغي التسهيل في الزواج وتخفيف المهور وتخفيف الولائم وعدم التكلف في كل شيء؛ فإن المبالغة في المهور وفي الولائم في الأعراس من عراقيل النكاح ومن عقباته فلا يليق بأهل الإيمان أن يبالغوا في ذلك بل ينبغي لهم أن يتسامحوا في هذه الأمور حتى يسهل النكاح وحتى تحصن الفروج وتغض الأبصار ويكثر النسل، ويكثر عدد الأمة كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: «**تزَّوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثمّ بيّن مقدار الصّوم وأنّه ليس في كلّ يومٍ، لئلّا يشقّ على النّفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيّامٍ معدوداتٍ. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كلّ شهرٍ ثلاثة أيّامٍ، ثمّ نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه.

وقد روي أنّ الصّيام كان أوّلًا كما كان عليه الأمم قبلنا من كلّ شهرٍ ثلاثة أيّامٍ عن معاذٍ وابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وعطاءٍ وقتادة والضّحّاك بن مزاحمٍ وزاد: لم يزل هذا مشروعًا من زمان نوحٍ إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يحتاج إلى سند صحيح عن النبي ﷺ، هل كان الصوم سابقًا ثلاثة أيام في كل شهر؟ لا تكفي الرواية عن معاذ وابن مسعود وابن عباس، لأنه قد يكون من طريق بني إسرائيل، فالمقام يحتاج إلى حديث

صحيح وإلا فالأصل أن الأيام المعدودات في شهر رمضان، قال في أوله: أيام معدودات، ثم شرع في قوله: شهر رمضان، فشهر رمضان أيام معدودات أيضًا ثلاثون أو تسع وعشرون فلا يجزم أن الصوم الواجب أولًا ثلاثة أيام إلا بدليل ثابت عن الرسول ﷺ معتمد، أما نقله عن بني إسرائيل ما يكفي عمن مضى قبلنا، ولا يكفي في كونه مشروعًا لنا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال عبّاد بن منصورٍ عن الحسن البصْريّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾. فقال: نعم، والله لقد كتب الصّيام على كلّ أمّةٍ قد خلت، كما كتبه علينا شهرًا كاملًا وأيّامًا معدوداتٍ عددًا معلومًا، وروي عن السّدّيّ نحوه.

وروى ابن أبي حاتمٍ من حديث أبي عبد الرّحمٰن المقريّ، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد عن أبي الرّبيع رجلٍ من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِيَامُ رَمَضَانَ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ**» في حديثٍ طويلٍ اختصر منه ذلك.

وقال أبو جعفرٍ الرّازيّ عن الرّبيع بن أنسٍ عمّن حدّثه عن ابن عمر قال: أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ عليهم إذا صلّى أحدهم العتمة ونام، حرم عليه الطّعام والشّراب والنّساء إلى مثلها.

قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرّحمٰن بن أبي ليلى ومجاهدٍ وسعيد بن جبيرٍ ومقاتل بن حيّان والرّبيع بن أنسٍ وعطاءٍ الخراسانيّ نحو ذلك، وقال عطاءٌ الخراسانيّ عن

ابن عبّاسٍ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ يعني: بذلك أهل الكتاب، وروي عن الشّعبيّ والسّدّيّ وعطاءٍ الخراسانيّ مثله.

ثمّ بيّن حكم الصّيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾؛ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسّفر، لما في ذلك من المشقّة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيّام أخر، وأمّا الصّحيح المقيم الذي يطيق الصّيام فقد كان مخيّرًا بين الصّيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكينٍ عن كلّ يومٍ فهو خيرٌ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ ومجاهدٌ وطاوسٌ ومقاتل بن حيّان وغيرهم من السّلف.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القول الأول من أطوار الصيام؛ فإنه قضي على أطوار ثلاثة:

الطور الأول: أنه مخير الصيام فإن شاء صام وإن شاء أفطر، إلا أن يكون مريضًا أو على سفر فيفطر ثم يقضي بعد ذلك، أما إن كان قويًا مقيمًا ليس مريضًا ولا مسافرًا فهو مخير إن شاء أطعم مسكينًا وأفطر، وإذا أطعم أكثر من مسكين فهو أفضل، وإن شاء صام فالصوم أفضل، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ هذا هو.

ثم حتَّم الله الصيام في **الطور الثاني**: وجعله فرضًا لا بدّ منه على من كان صحيحًا مقيمًا، أما من كان مسافرًا مريضًا فله الفطر لكن إذا نام قبل أن يفطر بعد غروب الشمس حرم عليه الأكل واستمر صومه إلى غروب شمس اليوم الآخر. **هذا هو الطور الثاني**، يفطر إن غربت الشمس وهو صاحٍ وأكل وإن نام قبل ذلك استمر في الصوم، وأصاب الناس شدة في ذلك فنسخ ذلك وصار **الطور الثالث**: فمتى غابت الشمس أفطر الصائم مطلقًا نام أو لم ينم، واستقرت الشريعة على هذا ما بين طلوع

الفجر إلى غروب الشمس، فإذا غربت أفطر، ولو قدِّر أنه نام في أول الليل وغلبت عيناه من غير اختياره فالمقصود أنه استقر الصوم على هذا بأن. . . بياض النهار ومتى غربت الشمس أفطر مطلقًا ولو لم يأكل فله حكم الإفطار، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم**» متفق عليه.

● س: .....؟

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

الذي يظهر كما يأتي أنه إذا نام بعد غروب الشمس بعد حين الفطر يعني. إذا نام قبل أن يأكل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النّضر، حدّثنا المسعوديّ، حدّثنا عمرو بن مرّة عن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أحيلت الصّلاة ثلاثة أحوالٍ، وأحيل الصّيام ثلاثة أحوالٍ، فأمّا أحوال الصّلاة فإنّ النّبيّ ﷺ، قدم المدينة وهو يصلّي سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، ثمّ إنّ الله ﷻ أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فوجّهه الله إلى مكّة هذا حولٌ، قال: وكانوا يجتمعون للصّلاة ويؤذن بها بعضهم بعضًا، حتّى نقسوا أو كادوا ينقسون، ثمّ إنّ رجلًا من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي رأيت فيما يرى النّائم، ولو قلت إنّي لم أكن نائمًا لصدقت، أنّي بينا أنا بين النّائم واليقظان إذ رأيت شخصًا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إلٰه إلّا الله ـ مثنى ـ حتّى فرغ من الأذان، ثمّ

أمهل ساعةً ثمّ قال مثل الذي قال غير أنّه يزيد في ذلك: قد قامت الصّلاة مرّتين، قال رسول الله ﷺ: «**عَلِّمْهَا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا**»، فكان بلالٌ أوّل من أذّن بها، قال: وجاء عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنّه سبقني فهذان حالان.

قال: وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النّبيّ ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلّى؟ فيقول: واحدةٌ أو اثنتين فيصلّيها، ثمّ يدخل مع القوم في صلاتهم، قال: فجاء معاذٌ فقال: لا أجده على حالٍ أبدًا إلّا كنت عليها، ثمّ قضيت ما سبقني، قال: فجاء وقد سبقه النّبيّ ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه، فلمّا قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا**» فهذه ثلاثة أحوالٍ.

وأمّا أحوال الصّيام فإنّ رسول الله ﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كلّ شهرٍ ثلاثة أيّامٍ وصام عاشوراء، ثمّ إنّ الله فرض عليه الصّيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينًا، فأجزأ ذلك عنه، ثمّ إنّ الله ﷻ أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥] فأثبت الله صيامه على المقيم الصّحيح، ورخّص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصّيام، فهذان حالان.

قال: وكانوا يأكلون ويشربونَ وَيَأتونَ النّسَاءَ مَا لَم يَنَاموا، فإذا نَاموا امتَنَعوا، ثمَّ إنَّ رَجلًا منَ الأَنصَار يقال له صرمة، كان يعمل صائمًا حتّى أمسى فجاء إلى أهله فصلّى العشاء ثمّ نام، فلم يأكل ولم يشرب حتّى أصبح فأصبح صائمًا، فرآه رسول الله وقد جهد جهدًا شديدًا، فقال: **مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا؟** قال: يا رسول الله، إنّي

عملت أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت حين أصبحت صائمًا، قال: وكان عمر قد أصاب من النّساء بعد ما نام فأتى النّبيّ ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وأخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه من حديث المسعودي به[١]، وقد أخرجه البخاريّ ومسلمٌ من حديث الزّهريّ عن عروة عن عائشة أنّها قالت: كان عاشوراء يصام، فلمّا نزل فرض رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر[٢]، وروى البخاريّ عَن ابن عمر وابن مسعود مثله[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كلّ يوم مسكينًا، وهكذا روى البخاريّ عن سلمة بن الأكوع أنّه قال لمّا نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر يفادي حتّى نزلت الآية التي بعدها فنسختها، وروي أيضًا من حديث عبيد الله عن نافعٍ عن ابن عمر قال: هي منسوخةٌ، وقال السّدّيّ عن مُرّة عن عبد الله،

---

(١) أخرجه في كتاب الصلاة، باب كيف الأذان برقم (٥٠٧)، وأخرجه الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ برقم ٣١٢٢) في كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها في كتاب التفسير، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] برقم ٤٥٠٤)، ومسلم في كتاب الصيام باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٥).

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب التفسير، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ برقم ٤٥٠١)، ومسلم في كتاب الصيام باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٦).

قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ قال: يقول ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾؛ أي: يتجشّمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكينًا ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ يقول: أطعم مسكينًا آخر ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ فكانوا كذلك حتّى نسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه أخبار الصلاة وأخبار الصيام معروفة، لكن هذه الرواية من طريق ابن مسعود فيها ضعف لأن مُرةَ ضعيف.

كان الأول شرع لهم الصلاة ثم يسَّر الله لهم الأذان فأذنوا للصلاة، وكان أولًا يقضي قبل أن يصلي مع الإمام إذا فاته شيء يقضيه أولًا ثم يدخل مع الإمام، ثم شرع الله للناس أن يدخلوا مع الإمام أولًا، وإنهم إذا أتوا والإمام على حاله يكونوا مع الإمام فإذا سلَّم قضوا ما عليهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال البخاري أيضًا: أخبرنا إسحاق، حدثنا روحٌ، حدّثنا زكريّا بن إسحاق، حدّثنا عمرو بن دينارٍ عن عطاءٍ: سمع ابن عبّاسٍ يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كلّ يومٍ مسكينًا، وهكذا روى غير واحدٍ عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبّاسٍ نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوّارٍ، عن عكرمة عن ابن عبّاسٍ، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في الشّيخ الكبير الذي لا يطيق الصّوم، ثمّ ضعف فرخّص له أن يطعم مكان كلّ يومٍ مسكينًا.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدّثنا محمّد بن أحمد، حدّثنا الحسين بن محمد بن بهرام المخزومي، حدّثنا وهب بن بقيّة، حدّثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على عطاءٍ في رمضان

وهو يأكل، فقال: قال ابن عبّاسٍ: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينًا ثمّ نسخت الأولى إلى الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كلّ يومٍ مسكينًا وأفطر.

فحاصل الأمر أنّ النّسخ ثابتٌ في حقّ الصّحيح المقيم بإيجاب الصّيام عليه بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وأمّا الشّيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصّيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنّه ليست له حالٌ يصير إليها يتمكّن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كلّ يومٍ مسكينًا إذا كان ذا جدةٍ؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: لا يجب عليه إطعامٌ؛ لأنّه ضعيفٌ عنه لسنّه، فلم يجب عليه فديةٌ كالصّبيّ؛ لأنّ الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها وهو أحد قولي الشّافعيّ.

والثّاني: وهو الصّحيح وعليه أكثر العلماء، أنّه يجب عليه فديةٌ عن كلّ يومٍ، كما فسّره ابن عبّاسٍ وغيره من السّلف على قراءة من قرأ: وعلى الّذين يطيقونه؛ أي: يتجشّمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخاريّ فإنّه قال: وأمّا الشّيخ الكبير إذا لم يطق الصّيام، فقد أطعم أنسٌ بعد ما كبر عامًا أو عامين عن كلّ يومٍ، مسكينًا، خبزًا ولحمًا وأفطر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا فيه دلالة وهو الصواب على أن الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة إذا لم يستطيعا الصوم لكبر سنهما؛ فإنهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكينًا، قال أهل العلم: وهو الثابت عن ابن عباس وجماعة من السلف، وفعله أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهكذا المريض الذي لا يرجى برؤه الذي قرر الأطباء أنه مرضه لا يرجى برؤه فحكمه حكم الشيخ الكبير؛

لأن ليس لهما حالة يرجى فيها النشاط والقوة بل يضعف وينقص بخلاف المريض المرض العارض والمسافر فإن له حالة يستطيع فيها الصيام، فلهذا يؤجل عليه الصيام ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فإذا شفي قضى وإذا رجع من السفر قضى.

أما الشيخ الكبير الفاني فهو ينزل ما يزداد قوة ينزل يضعف فليس له حالة ترجى يقوى فيها، فلهذا يلزمه الإطعام إذا كان يجده، وإن كان فقيرًا أفطر ولا شيء عليه، وهكذا يلحق به المريض الذي لا يرجى برؤه فإن حكمه حكم الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، فهذا يفطر ولا قضاء عليه وعليه الإطعام.

• **س: كم مقدار الإطعام؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نصف صاع من قوت البلد.

• **س: الحامل والمرضع؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الصواب فيهما أنهما يقضيان لأنهما لهما حالة يرجى عدم الحمل أو وضع الحمل أو وقوف الحمل، فالصحيح أنهما يقضيان كالمريض.

• **س: حديث: وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن الحائض والمرضع شطر الصيام؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني في وقته.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا الذي علّقه البخاريّ قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال: حدّثنا عبيد الله بن معاذٍ، حدّثنا أبي، حدّثنا عمران عن أيّوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس عن الصّوم، فصنع جفنةً من ثريدٍ، فدعا ثلاثين مسكينًا فأطعمهم.

ورواه عبد بن حميدٍ عن روح بن عبادة، عن عمران وهو ابن حدير، عن أيّوب به. ورواه عبد أيضًا من حديث ستّةٍ من أصحاب أنسٍ عن أنسٍ بمعناه، وممّا يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلافٌ كثيرٌ بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فديةٍ، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاةً في كتاب الصيام الذي أفردناه، ولله الحمد والمنة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب أنهما تفطران وتقضيان عند القدرة، فالحامل إذا وضعت والمرضع إذا قويت، وإلا أجلت كالمريض سواء بسواء ولا إطعام عليهما.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥][(١)].

يمدح تعالى شهر الصّيام من بين سائر الشّهور بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصّه بذلك قد ورد الحديث بأنّه الشّهر الذي كانت الكتب الإلٰهيّة تنزل فيه على الأنبياء.

قال الإمام أحمد بن حنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: حدّثنا أبو سعيدٍ مولى بني هاشمٍ، حدّثنا عمران أبو العوام عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة؛ يعني:

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ابن الأسقع: أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشَرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ**».

وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أنّ الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة، والباقي كما تقدم، رواه ابن مردويه.

وأما الصّحف والتّوراة والزّبور والإنجيل، فنزل كلٌّ منها على النّبيّ الذي أنزل عليه جملةً واحدةً، وأمّا القرآن فإنّما نزل جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْـلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا... فإنه أنزل في رمضان وهو سيد الشهور... فهذا كله من الفضائل والخصائص التي خصَّ الله بها كتابه العظيم وهو القرآن العظيم، وهو أفضل الكتب وأصدقها وأعظمها وأكملها، ويدل على أشرف نبي وأكمل نبي محمد عليه الصلاة والسلام وأشرف ليلة، ولهذا كان من اعتصم به واستقام عليه فله السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، ومن حاد عنه هلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم نزل بعده مفرّقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجهٍ عن ابن عبّاسٍ، كما قال إسرائيل عن السّدّيّ، عن محمّد بن أبي المجالد، عن مقسم، عن ابن عباس: أنه سأل عطيّة بن الأسود فقال: وقع في قلبي الشك، قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْـلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] وقد أنزل في شوّال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجّة، وفي المحرّم وصفرٍ وشهر ربيعٍ، فقال ابن عبّاسٍ: إنّه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلةٍ مباركةٍ جملةً واحدةً، ثمّ أنزل على مواقع النّجوم ترتيلًا في الشّهور والأيّام، ورواه ابن أبي حاتمٍ وابن مردويه وهذا لفظه.

وفي رواية سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبّاسٍ قال: أنزل القرآن في النّصف من شهر رمضان إلى سماء الدّنيا، فجعل في بيت العزّة، ثمّ أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنةً لجواب كلام النّاس، وفي رواية عكرمة عن ابن عبّاسٍ، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السّماء الدّنيا جملةً واحدةً، وكان الله يحدث لنبيّه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثلٍ يخاصمون به إلّا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنه أنزل جملة واحدة إلى بيت العزة ثم نزل منجمًا، وكان إنزاله من بيت العزة في ليلة القدر في رمضان، وهي أشرف الليالي.

وقول آخر: أنه أنزل أوله في ليلة القدر في رمضان، ثم بقيته نزل منجمًا على حسب الوقائع والحاجة في مكة وفي المدينة فأنزل في بقية الشهور وفي مكة وفي المدينة وفي الأسفار وكان من آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك يوم جمعة في يوم عرفة في حجة الوداع...

• **س: القرآن أنزل مرة واحدة إلى بيت العزة؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

نعم، هذا معنى كلام ابن عباس، لكن ما رواه عن النبي ﷺ يحتمل أنه اجتهد فيه ويحتمل أنه قاله توقيفًا، ومعلوم أنه نزل في أوقات متعددة في أماكن متعددة فإن... كما قال ابن عباس أنه ﷻ تكلم به وأنزله جملة واحدة، ثم نزل منجمًا بأمره سبحانه على يد جبرائيل.

والقول الثاني إنه أنزل أوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] في ليلة القدر ثم أنزل منجمًا على حسب الوقائع والحاجة، فصدق عليه أنه أنزل... لأن أول أنزله... والباقي أنزل على حسب الحاجة، وأما قول ابن عباس فمعناه أنه كله أنزل في ليلة القدر كان ذلك في... بيت العزة، ثم نزل منجمًا بأمر الله على يد رسوله جبرائيل عليه الصلاة والسلام.

• **س: تكلم به مرة ثانية ﷻ لما نزل منجمًا؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ما هو لازم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ هذا مدحٌ للقرآن الذي أنزله الله هدًى لقلوب العباد ممّن آمن به وصدّقه واتّبعه ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: دلائل وحججٌ بيّنةٌ واضحةٌ جليّةٌ لمن فهمها وتدبّرها دالّةٌ على صحّة ما جاء به من الهدى المنافي للضّلال، والرّشد المخالف للغيّ، ومفرّقًا بين الحقّ والباطل والحلال والحرام.

وقد روي عن بعض السّلف: أنّه كره أن يقال إلّا شهر رمضان، ولا يقال رمضان، قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا محمّد بن بكّار بن الرّيّان، حدّثنا أبو معشرٍ عن محمّد بن كعبٍ القرظيّ وسعيدٍ هو المقبريّ عن أبي هريرة قال: لا تقولوا رمضان فإنّ رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان.

قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن مجاهدٍ ومحمّد بن كعبٍ نحو ذلك، ورخّص فيه ابن عبّاسٍ وزيد بن ثابتٍ.

(قلت) أبو معشرٍ هو نجيح بن عبد الرحمٰن المدني إمام المغازي والسّير، ولكن فيه ضعفٌ، وقد رواه ابنه محمّدٌ عنه فجعله مرفوعًا عن أبي هريرة، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عديٍّ، وهو جديرٌ بالإنكار، فإنّه متروكٌ، وقد وهم في رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه لهذا فقال: بابٌ يقال رمضان، وساق أحاديث في ذلك منها من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدّم من ذنبه ونحو ذلك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو الصواب، فيقال رمضان ويقال شهر رمضان، وليس رمضان من أسماء الله، هذه الرواية التي ذكرت أنه من أسماء الله ضعيفة، فيقال رمضان ويقال شهر رمضان، وفي هذا قوله ﷺ: **«لا تقدموا رمضان بصوم ولا يومين»** في الصحيحين، ومثل قوله ﷺ في الحديث الآخر في هلال رمضان، فالحاصل أن رمضان اسم الشهر نفسه وليس اسم من أسماء الله، ولكنه اسم الشهر فيقال شهر رمضان.

وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ هذا إيجاب حتمٍ على من شهد استهلال الشّهر؛ أي: كان مقيمًا في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيحٌ في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدّمة لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يفطر ويفدي بإطعام مسكينٍ عن كلّ يومٍ كما تقدّم بيانه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تقدم أنه شرع الصوم على أطوار:

الطور الأول: التخيير، فمن شاء صام ومن شاء أفطر والصوم أفضل، ومن أفطر أطعم عن كل يوم مسكينًا...

والطور الثاني: الإلزام برمضان والصوم بنسخ الإفطار والتخيير، وأن من أدركه رمضان وهو صحيح مقيم وجب عليه الصيام، واستقرت الشريعة على هذا على الصوم لمن كان صحيحًا مقيمًا.

والطور الثالث: أنه كان إذا نام بعد المغرب بعد غروب الشمس أو بعد صلاة العتمة حرُم عليه الأكل والشرب، ثم نسخ هذا لما فيه من المشقة العظيمة وجعل الله الليل كله محل إفطار، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فصار الصيام في البياض في النهار والليل كله إفطار نام أو لم ينم، وهذا من توسعة الله ورحمته سبحانه وتعالى.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولمّا حتّم الصّيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر أن يفطر بشرط القضاء، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، معناه: ومن كان به مرضٌ في بدنه يشقّ عليه الصّيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر؛ أي: في حالة السفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السّفر من الأيّام، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾؛ أي: إنّما رخّص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتّمه في حقّ المقيم الصّحيح تيسيرًا عليكم ورحمةً بكم.

● **س: من أفطر في السفر ثم وصل إلى بلده هل يمسك؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

فيه خلاف والصواب أنه يمسك لأنه زال العذر.

● **س: يمسك وجوبًا؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وجوبًا نعم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهاهنا مسائل تتعلّق بهذه الآية:

[إحداها] أنّه قد ذهب طائفةٌ من السّلف إلى أنّ من كان مقيمًا في أوّل الشّهر ثمّ سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السّفر، والحالة هذه لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وإنّما يباح الإفطار لمسافرٍ استهلّ الشّهر وهو مسافرٌ، وهذا القول غريبٌ، نقله أبو محمّد بن حزمٍ

في كتابه المحلّى عن جماعةٍ من الصّحابة والتّابعين، وفيما حكاه عنهم نظرٌ، والله أعلم، فإنّه قد ثبتت السّنّة عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّهُ خَرَجَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لِغَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ ثُمَّ أَفْطَرَ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْفِطْرِ**»، أخْرجهُ صاحِبا الصّحِيحِ(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الإفطار يختص بمن استهل الشهر وهو في السفر قول ضعيف مرجوح، وفي نقله عن بعض الصحابة والسلف نظر، فيما نقله أبو محمد ابن حزم نظر مثل ما قال المؤلف، والصواب أن المسافر يفطر مطلقًا سواء كان استهل الشهر وهو بالسفر أو سافر في أثنائه لعموم قول ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذا يشمل من سافر في أول الشهر ومن سافر في أثناء الشهر، وقد خرج ﷺ في رمضان في عام الفتح في أثناء رمضان وأفطر في السفر عليه الصلاة والسلام.

• **س: والأفضل؟**

الشيخ: الفطر أفضل.

• **س: وإن كان مسافرًا بالسيارة؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن كان بالسيارة مطلقًا، لكن إذا كان الصوم أرفق به وأحب أن يصوم فلا بأس، أما الطائرة ففيها تفصيل إذا كانت الطائرة تذهب إلى بلد وهو يقيم فيها والمدة يسيرة فالصوم أولى له. أما إذا كان يذهب إلى بلد لا يقيم فيها أو المسافة طويلة فهذا لا شك أن الفطر أفضل، كأن مثلًا

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب من لم يعب أصحاب النبي ﷺ بعضهم بعضًا في الصوم والإفطار برقم (١٩٤٧)، ومسلم في كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفر مرحلتين فأكثر برقم (١١١٨).

يذهب إلى جدة ولا يقيم إلا يوم أو يومين ثم يسافر إلى جهة أخرى فهو مسافر على كل حال.

● **س: لماذا عليه وجوب الإمساك عند وصوله إلى بلده؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لأنه صار من أهل الصوم فزال عذره.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الثَّانِيَةُ**] ذهب آخرون من الصّحابة والتّابعيْن إلى وجوب الْإفْطار في السّفر لقوْله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

والصّحيح: قول الجمهور أنّ الأمر في ذلك على التّخيير وليس بحتم؛ لأنّهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: فمنّا الصّائم ومنّا المفطر، فلم يعب الصّائم على المفطر، ولا المفطر على الصّائم، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصّيام؛ بل الّذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنّه كان في مثل هذه الحالة صائمًا لما ثبت في الصّحيحين عن أبي الدّرداء، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديدٍ حتّى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائمٌ إلّا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا يدل على جواز الصوم في السفر ولو كان في الحر، فالنبي فعل هذا ليبيِّن لهم الجواز، والفطر أفضل ولا سيما مع شدة الحر، ويتأكد الفطر لقوله ﷺ: «**ليس من البر الصوم في السفر**»؛ يعني: ليس من البر الكامل الصوم في السفر. فالسُّنَّة للمؤمن أن يقبل رخصة ربه وأن

---

(١) متفق عليه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب إذا سافر أيام من رمضان ثم سافر برقم (١٩٤٥)، ومسلم في كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٢).

يأخذ بالأيسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإذا اشتد الحر أفطر بكل حال تأكد الفطر، وإن كان الوقت باردًا فالأمر فيه سعة وهو مخير إن شاء أفطر وإن شاء صام، والفطر أفضل لقبول الرخصة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

[**الثّالثة**] قالت طائفةٌ منهم الشّافعيّ: الصّيام في السّفر أفضل من الإفطار لفعل النّبيّ ﷺ كما تقدّم، وقالت طائفةٌ: بل الإفطار أفضل أخذًا بالرّخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن الصّوم في السّفر، فقال: «**مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ**»، وقال في حديثٍ آخر: «**عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ التِي رَخَّصَ لَكُمْ**»[(١)].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ليس من البر الصوم في السفر وهو أبلغ مما ذكره المؤلف، أي ليس من البر الكامل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقالت طائفةٌ: هما سواءٌ لحديث عائشة أنّ حمزة بن عمرٍو الأسلميّ قال: يا رسول الله، إنّي كثير الصّيام أفأصوم في السّفر؟ فقال: «**إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ**» وهو في الصّحيحين، وقيل: إن شقّ الصّيام فالإفطار أفضل لحديث جابرٍ: «أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلًا قد ظلّل عليه فقال: **مَا هَذَا؟**» قالوا: صائمٌ، فقال: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**» أخرجاه[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفر مرحلتين فأكثر برقم (١١١٥/٩٢).

(٢) متفق عليه من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**» برقم (١٩٤٦)، ومسلم في كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفر مرحلتين فأكثر برقم (١١١٥).

فأمّا إن رغب عن السّنّة ورأى أنّ الفطر مكروهٌ إليه، فهذا يتعيّن عليه الإفطار، ويحرم عليه الصّيام، والحالة هذه لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابرٍ وغيرهما: «**مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رُخْصَةَ اللهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ جِبَالِ عَرَفَةَ**»[1].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

في صحته نظر، ولو صح المراد به إذا اعتقد عدم قبولها.

الطالب: رواه أحمد في المسند عن ابن عمر بإسناد صحيح، ورواه أيضًا من حديث عقبة بن عامر الجهني وإسناده صحيح ولم أجده من حديث جابر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

محل نظر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

[الرّابعة] القضاء هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التّفريق، فيه قولان:

[أحدهما]: أنّه يجب التّتابع؛ لأنّ القضاء يحكي الأداء.

[والثّاني]: لا يجب التّتابع بل إن شاء فرّق وإن شاء تابع، وهذا قول جمهور السّلف والخلف، وعليه ثبتت الدّلائل؛ لأنّ التّتابع إنّما وجب في الشّهر لضرورة أدائه في الشّهر، فأمّا بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيّامٍ عدّة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

في القضاء ليس مثل الأداء يلزم التتابع، هذا هو قول الجمهور

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٢/ ٧١).

وهو الصواب أنه يلزمه القضاء ولكن لا يلزمه التتابع، لأن الله قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ولم يقل متتابعة، فدل ذلك على التوسعة في القضاء وأنه إذا تابع فلا بأس، وإن فرق فلا بأس، وإن كانت المتابعة أفضل عند جمع من أهل العلم لكن ليس بواجب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾. قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو سلمة الخزاعيّ، حدّثنا ابن هلالٍ عن حميد بن هلالٍ العدويّ، عن أبي قتادة عن الأعرابيّ الذي سمع النّبيّ ﷺ يقول: «**إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ**»(١).

وقال أحمد أيضًا: حدّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلالٍ، حدّثنا غاضرة بن عروة الفقيميّ، حدّثني أبي عروة، قال: كنّا ننتظر النّبيّ ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوءٍ أو غسلٍ، فصلّى، فلمّا قضى الصّلاة جعل النّاس يسألونه: علينا حرجٌ في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن دِينَ اللهِ فِي يُسْرٍ**» ـ ثلاثًا يقولها ـ ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن أبي تميم عن عاصم بن هلالٍ به.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا محمّد بن جعفرٍ، حدّثنا شعبة قال: حدّثنا أبو التّيّاح سمعت أنس بن مالكٍ يقول: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**» أخرجاه في الصحيحين(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٧٩ و٤/ ٣٣٨ و٥/ ٣٢).

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: يسّروا ولا تعسّروا برقم (٦١٢٥)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير برقم (١٧٣٤)، والإمام أحمد (٣/ ١٣١ و٢٠٩).

وفي الصّحيحين أيضًا أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذٍ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**»[١].

وفي السّنن والمسانيد أنّ رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[٢].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو المطلوب من الدعاة إلى الله، والموجِّهين إلى الخير أن يجتهدوا في التيسير والتسهيل والتأليف وعدم التنفير، وكما جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أنه عليه الصلاة والسلام ما خيِّر بين أمرين إلا أَخَذَ أيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يكنْ إِثمًا»[٣]، والله يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾، فالدعاة إلى الله ينبغي لهم أن يعتنوا بالتيسير والتسهيل والرفق والحكمة وعدم العنف؛ لأن ذلك أقرب إلى قبول الحق، وإلى التقيد به.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدّثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدّثنا يحيى بن أبي طالبٍ حدّثنا عبد الوهّاب بن عطاءٍ، حدثنا أبو مسعود الحريري عن عبد الله بن شقيقٍ، عن محجن بن الأدرع: أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلًا يصلّي فتراءاه ببصره ساعةً، فقال: **أَتُرَاهُ يُصَلِّي صَادِقًا**؟ قال: قلت يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بردة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصى إمامه برقم (٣٠٣٨)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير برقم (١٧٣٣)، وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤١٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٦٦).

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ برقم (٣٥٦٠)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته برقم (٢٣٢٧).

صلاةً، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُسْمِعْهُ فَتُهْلِكَهُ** وَقَالَ: **إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْيُسْرَ وَلَمْ يَرِدْ بِهِمُ الْعُسْرَ**»(١).

ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾؛ أي: إنّما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسّفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنّما أمركم بالقضاء لتكملوا عدّة شهركم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبقي الإطعام في حق الشيخ الكبير العاجز والعجوز الكبيرة العاجزة عن الصوم كما ثبت ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجماعة من الصحابة والسلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وقد روى البخاري في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، معنى ما ذكرنا من النسخ للآية المذكورة، وهي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ الآية، وروي ذلك عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجماعة من السلف رحمهم الله.

ومثل الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة المريض الذي لا يرجى برؤه والمريضة التي لا يرجى برؤها، فإنهما يطعمان عن كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليهما كالشيخ الكبير والعجوز الكبيرة. ويجوز إخراج الإطعام في أول الشهر وفي وسطه وفي آخره، أما الحامل والمرضع فيلزمهما الصيام إلا أن يشق عليهما فإنه يشرع لهما الإفطار وعليهما القضاء كالمريض والمسافر، هذا هو الصحيح من قولي العلماء في حقهما، وقال جماعة من السلف: يطعمان ولا يقضيان كالشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، والصحيح أنهما كالمريض والمسافر تفطران وتقضيان، وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث أنس بن مالك الكعبي ما يدل على أنهما كالمريض والمسافر(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٢).

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع الشيخ محمد الشويعر (١٥/ ١٧٠ ـ ١٧٢).

فإذا كان المريض لا يرجى برؤه بشهادة الأطباء الثقات فلا يلزمه الصوم ولا القضاء، وعليه أن يطعم مسكينًا عن كل يوم، وهو نصف صاع بالصاع النبوي من قوت البلد ومقداره كيلو ونصف تقريبًا، وهكذا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة اللذان لا يستطيعان الصوم يطعمان عن كل يوم نصف صاع من قوت البلد، ولا صوم عليهما ولا قضاء. ويجوز دفع الكفارة عن جميع رمضان دفعة واحدة في أول الشهر أو آخره، أو في أثنائه لفقير واحد أو أكثر، وهكذا حال الحامل والمرضع إذا شق عليهما الصيام تفطران وعليهما القضاء كالمريض[1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: ولتذكروا اللّه عند انقضاء عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠] ولهذا جاءت السُّنَّةُ باسْتِحْبَاب التَّسْبيح وَالتَّحْميد وَالتَّكْبير بَعْدَ الصَّلَوَات الْمَكْتُوبَات.

وقال ابن عبّاسٍ: ما كنّا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلّا بالتّكبير، ولهذا أخذ كثيرٌ من العلماء مشروعيّة التّكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ حتّى ذهب داود بن عليٍّ الأصبهانيّ الظّاهريّ إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾. وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه لا يشرع التّكبير في عيد الفطر، والباقون على استحبابه على اختلافٍ في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع الشيخ محمد الشويعر (١٥/ ١٧٥).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا ليس من باب الأمر.. اللام لام التعليل وليست لام الأمر؛ يعني: ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم؛ يعني: شرع لكم ما شرع من الصيام وقضاء ما أفطرتم في حال المرض والسفر لانتهاء العدة وليس المقصود الأمر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة فيما شرع الله أراد بذلك إكمال العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون.

ولهذا ذهب الجمهور إلى استحباب التكبير من غروب الشمس إلى انتهاء خطبة العيد في عيد الفطر، وفي عيد النحر يستحب التكبير والذكر من أول الشهر إلى مساء أيام التشريق ثلاثة عشر يومًا شكرًا لله على نعمته وعلى فضله وعلى إحسانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلّكم أن تكونوا من الشّاكرين بذلك.

*

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ **[البقرة: ١٨٦]**(١).

قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جريرٌ عن عبدة بن أبي برزة السختياني عن الصّلب بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيريّ عن أبيه عن جدّه، أنّ أعرابيًّا قال: «يا رسول الله، أقريبٌ

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فسكت النبيّ ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، [﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾] إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت لهم.

الطالب: يا شيخ يقول في لسان الميزان: الصلب بن حكيم مجهول وذكر له هذا الحديث، والراجح فيه الصلت بن حكيم.

الشيخ راجع ما كتب الشيخ أحمد شاكر على ابن جرير.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن المؤمن يتضرع إلى الله والمؤمنة تتضرع إلى الله، ويسألانه سبحانه أن يوفقهما، وأن يعينهما حتى يؤديا ما أوجب الله عليهما من الحقوق له سبحانه ولِعِبَادِهِ[(١)].

وقد أخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوتهم، فوجب على جميع العباد أن يخصُّوا ربهم بالدعاء؛ لأنه نوع من العبادة التي خُلقوا لها، وأُمروا بها، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣][(٢)].

وقد أخبر الرسول ﷺ في الحديث الصحيح أن الدعاء هو العبادة، وقال لابن عمِّه عبد الله بن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» فاستعن بالله**»[(٣)].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع الشيخ محمد الشويعر (٥/ ٣٧) (٧/ ١٨٨).
(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع الشيخ محمد الشويعر (١/ ١٥٩).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب برقم (٢٥١٦).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ورواه ابن جرير عن محمد بن حميد الرازي، عن جرير به، ورواه ابن مردويه وأبو الشّيخ الأصبهانيّ من حديث محمّد بن أبي حميدٍ عن جريرٍ به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوفٍ عن الحسن قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية.

● **س: الإسناد الأخير؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مرسل، وظاهره الاتصال لأن الحسن أدرك جماعة من الصحابة.

ومعنى الآية واضحة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فالآثار هذه كالشرح للآية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن جريجٍ عن عطاءٍ أنّه بلغه لمّا نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال النّاس: لو نعلم أي ساعة فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الوهّاب بن عبد المجيد الثّقفيّ، حدّثنا خالدُ الحذّاء عن أبي عثمان النّهديّ، عن أبي موسى الأشعريّ، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط واديًا، إلّا رفعنا أصواتنا بالتّكبير، قال: فدنا منّا، فقال: **«أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»**(١). **«إِنَّ الذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ**

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير برقم (٢٩٩٢)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر برقم (٢٧٠٤).

رَاحِلَتِهِ، يَا عبد اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» أخرجاه في الصّحيحين وبقيّة الجماعة من حديث أبي عثمان النّهديّ واسمه عبد الرّحمٰن بن علي عنه بنحوه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا حديث عظيم بيَّن لهم ﷺ أن الذي يدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدهم من عنق راحلته وإن كان فوق العرش فوق السماء السابعة فوق العرش جَلَّ وَعَلَا، لكنه باطلاعه عليهم وبعلمهم به واطلاعه على قلوبهم وسماعه لأصواتهم هو أقرب إليهم من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فينبغي عند دعائه الخشوع والإذلال والتعظيم والاستحضار بأنه يسمع دعاءهم ويعلم حاجاتهم ويعلم إخلاصهم وصدقهم وضد ذلك، فليكن الدعاء عن إخلاص وعن صدق وعن خشوع وعن هيبة وعن تعظيم وعن رغبة بما عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

فهذا حديث أبي موسى الذي رواه الشيخان ورواه غيرهما أنهم رفعوا أصواتهم بالتكبير وإن كان مشروعًا في كل شرف والتسبيح في كل واد، لكنهم كأنهم بالغوا في الرفع فقال: يا أيها الناس، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا وبصيرًا، وفي رواية: سميعًا قريبًا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته؛ يعني: ارفقوا في أنفسكم ولا تبالغوا في الرفع، ثم قال لأبي موسى: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

هذه كلمة عظيمة كنز من كنوز الجنة لأن فيها التجرد من حولك وقوتك إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاعتراف بأنك ضعيف وليس لك طَول ولا حول ولا قوة في شيء إلا بربك عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: **«الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر،**

ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وتقدم في الحديث الصحيح يقول ﷺ: «**من تعارَّ من الليل فقال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله..... ثم قال: اللَّهُمَّ اغفر لي أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلَّى قُبلت صلاته**» هكذا جاء في الصحيح.

فهذا يدل على عظم شأن هذه الكلمة وأنه ينبغي اعتيادها والاستكثار منها، وهي جاءت في التسبيح: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، كما تقدم في درس البخاري، ورواه بإسناد جيد: العلي العظيم، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، أو تبدأ بقول الحمد لله، أو بلا إلٰه إلا الله فلا بأس بذلك؛ يعني: تقدِّم بعضها على بعض، فمن قال: لا إلٰه إلا الله وسبحان الله والحمد لله، أو قال: لا إلٰه إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله، كله طيب، لكن أغلب الروايات التسبيح أولًا وتنزيه الرب ثم الثناء، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفي حديث: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله والله أكبر**» خرَّجه مسلم في الصحيح، والحديث الآخر أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله، علِّمني كلامًا. . . .ربي، قال: «**قل لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم**، قال: هذا لربي فما لي؟ قال: **قل: اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني**» أخرجه مسلم.

فالحاصل أن هذه الكلمات العظيمة ينبغي للمؤمن أن يعتادها وأن يكثر منها أينما كان ولا سيما في الأوقات التي تناسب أيضًا إذا استيقظ من نومه في ليل أو نهار لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله

الحمد وهو على كل شيء قدير، وفي البخاري: يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هكذا في بقية أوقاته يكثر من ذلك.

● **س: يقول: أن الجهر بالذكر بعد الصلاة إنما هو لمجرد التعليم انتهى؟**

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا غلط، لأن الناس يحتاجون إلى التعليم دائمًا، فالصحابة يحتاجون إلى التعليم، والذين بعدهم أحوج وأحوج، ثم أيضًا أحوج له التذكير قد ينسى الإنسان قد يغفل فإذا سمع أخاه يذكر الله ذكر الله، والناس بعد الصحابة أحوج وأحوج إلى التذكير والتعليم إذا كان الصحابة يحتاجون فالذين بعدهم أحوج وأحوج.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا شعبة، حدّثنا قتادة عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ النّبيّ ﷺ، قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(١).

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدّثنا عليّ بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا عبد الرّحمٰن بن يزيد بن جابرٍ، حدّثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن الخشخاش المزنيّة، قالت: حدّثنا أبو هريرة أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(٢).

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ برقم (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠). وعلّقه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]، ووصله في كتاب خلق أفعال العباد من طريق عبد الرحمٰن بن يزيد به برقم (٤٣٦)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي المستدرك (١/ ٤٦٩).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

علَّق عليه شيء؟

الطالب: إسماعيل بن عبيد الله هو ابن أبي المهاجر المخزومي مولاهم الدمشقي أبو عبد الحميد ثقة من الرابعة، مات سنة إحدى وثلاثين وله سبعين سنة، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو مؤدب ولد عبد الملك.

روى أبو حاتم أن الأوزاعي قال: كان مأمونًا على ما حدَّث، وكان سعيد بن عبد العزيز إذا حدث عنه قال: كان ثقة صدوقًا، وقال المفضل الغلابي: هو ممن يُرضى به في الحديث، وقال العجلي والفسوي ومعاوية بن صالح والدارقطني: ثقة، وقال..... عمال عمر بن عبد العزيز ثم ولي إسماعيل بن عبد الله مولى ابن عبيد الله مولى بني مخزوم البربر فقدم سنة مائة فأسمع عامة البربر في ولايته وكان حسن السيرة.

وقوله عن كريمة بنت ابن الخشخاش بمعجمات كلها هذا خطأ وصوابه حسحاس بمهملات كلها وهي كريمة بنت الحسحاس المزنية ثقة من الثالثة، أخرج لها البخاري في خلق أفعال العباد وهكذا بالمهملات ضبطها في الخلاصة.

قال في التهذيب: حدثنا أبو هريرة ونحن في بيت أم الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يأثر عن ربه ﷻ أنه قال: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه**».

وعني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، ورواه إسماعيل أيضًا عن أم الدرداء عن أبي هريرة وكلاهما صحيح.

«قول الحافظ» علَّق البخاري حديثها عن أبي هريرة في كتاب التوحيد، وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع ذكرها ابن حبان في الثقات انتهى.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

علي بن إسحاق؟

الطالب: علي بن إسحاق... مولاهم أبو الحسن المروزي الداركاني أصله من ترمذ ثقة من العاشرة، مات سنة ثلاث عشرة، أخرج له الترمذي، وعبد الله هو ابن المبارك.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

عندك شيء على هذا؟ مقبل؟ على بنت ابن الخشخاش؟

الطالب: نعم صوابه الحسحاس بالمهملات، قال: حديث أبي هريرة أخرج... عن أبي صالح عن أبي هريرة وليس فيه: وتحركت بي شفتاه، أما على طريق... بنت ابن الحسحاس بالمهملات مجهولة كما في الميزان، لكن قال الحافظ في تهذيب التهذيب: ورواه إسماعيل أيضًا عن أم الدرداء عن أبي هريرة وكلاهما صحيح، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كريمة من أين نقلته؟

الطالب: من تقريب التهذيب.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

أيش يقول؟

الطالب: كريمة بنت الحسحاس المزنية ثقة من الثالثة، أخرج لها البخاري في خلق أفعال العباد. وقال في الخلاصة: وضبطها بالمهملات أيضًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا كله يعطينا فضل الذكر لما فيه من الخير العظيم وفضل الدعاء، فالله ﷻ حث عباده على الذكر يقول ﷻ كما في الحديث القدسي: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته

في ملإٍ خير منهم. ويقول ﷻ في كتابه العزيز: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالأمر عظيم في موضوع الذكر فينبغي للمؤمن أن يكون دائم الذكر بعيد الغفلة قليل الغفلة لما في ذلك من الخير العظيم مع السهولة واليسر، والحمد لله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قلت) وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النَّحلِ: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طَهَ: ٤٦]، والمراد من هذا أنّه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ، ولا يشغله عنه شيء؛ بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيبٌ في الدّعاء، وأنّه لا يضيع لديه تعالى.

كما قال الإمام أحمد: حدّثنا يزيد، حدّثنا رجلٌ: أنّه سمع أبا عثمان هو النّهديّ، يحدّث عن سلمان؛ يعني: الفارسيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى ليستحي أَنْ يَبْسُطَ الْعبد إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدُّهُمَا خَائِبَتَيْنِ**» ـ قال يزيد: سمّوا لي هذا الرّجل، فقالوا: جعفر بن ميمونٍ[1].

ـ وقد رواه أبو داود والتّرمذيّ وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمونٍ صاحب الأنماط به، وقال التّرمذيّ: حسنٌ غريبٌ، ورواه بعضهم ولم يرفعه، قال الشّيخ الحافظ أبو الحجّاج المزّيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أطرافه، وتابعه أبو همّامٍ محمّد بن الزّبرقان عن سليمان التّيميّ، عن أبي عثمان النّهديّ به.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عندكم أبي الزبرقان؟

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء برقم (١٤٨٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١٠٥) برقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء برقم (٣٨٦٥)، الإمام أحمد (٥/ ٤٣٨). انظر: تحفة الأشراف للمزي (٤/ ٢٩).

الطالب: راجعتها قوله أبو همام ومحمد بن أبي الزبرقان خطأ وصوابه أبو همام محمد بن الزبرقان بإسقاط الواو وأبي. وهو محمد بن الزبرقان أبو همام الأهوازي صدوق وربما وهم، من الثامنة. أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، قال ابن المديني: ثقة، وقال أبو زرعة: صالح.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

جعفر؟

الطالب: جعفر هو ابن ميمون التميمي أبو علي أو أبو العوَّام بياع الأنماط صدوق يخطئ من السادسة، أخرج له البخاري في جزء القراءة والأربعة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: . . . . . ؟

الطالب: ذكر يقول: جعفر بن ميمون فيه كلام لكنه قد توبع، وللحديث شواهد تزيده قوة. . . .

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تكلم على الزبرقان؟

الطالب: ما تكلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدّثنا أبو عامر، حدثنا علي بن أبي المتوكّل النّاجي عن أبي سعيدٍ: أنّ النّبيّ ﷺ: قال: «**مَا مِنْ مُسْلِم يَدْعُو اللهَ** ﷻ **بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ في الأخرى، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**، قالوا: إذًا نكثر؟ قال: **الله أكثر**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٨).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدّثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أنبأنا محمّد بن يوسف، حدّثنا ابن ثوبان عن أبيه، عن مكحولٍ، عن جبير بن نفيرٍ: أنّ عبادة بن الصّامت، حدّثهم: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**»(١).

ورواه التّرمذيّ عن عبد الله بن عبد الرّحمٰن الدّارميّ، عن محمّد بن يوسف الفريابيّ، عن ابن ثوبان وهو عبد الرّحمٰن بن ثابت بن ثوبان به، وقال: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وقال الإمام مالكٌ عن ابن شهابٍ، عن أبي عبيدٍ مولى ابن أزهر، عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(٢).

أخرجاه في الصّحيحين من حديث مالكٍ به، وهذا لفظ البخاريّ رحمه الله وأثابه الجنة.

وقال مسلم أيضًا: حدّثني أبو الطّاهر، حدّثنا ابن وهبٍ، أخبرني معاوية بن صالحٍ عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولانيّ، عن أبي هريرة، عن النّبيّ ﷺ، أنّه قال: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»(٣).

قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: «**يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٢٩).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل برقم (٦٣٤٠)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي برقم (٢٧٣٥).

(٣) المصدر السابق.

دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يُسْتَجَابُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ويدع الدُّعَاءَ»(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا في الحث على الاستمرار في الدعاء وعدم الضجر وعدم ترك الدعاء، أما كونه يستجاب لك أو لا يستجاب لك، هذا إلى الله، فالدعاء عبادة يثاب عليها إذا أخلصها وربما.... أصلح لقلبك وأصلح لأعمالك وحتى تزداد تضرعًا وخضوعًا وحسابًا لنفسك وجهادًا لها، فكم من دعوة أجِّلت فكانت سببًا لصلاح صاحبها واستقامته وطهارة قلبه وحسابه لنفسه، فالواجب على المؤمن أن يكون ناظرًا في العواقب حريصًا على أسباب السعادة لا يمل ولا يضعف من الخير، ويصبر على الخير ويجتهد في طلب الخير ولا يقول: دعوت ودعوت ولم يُستجب لي فيستحسر ويدع الدعاء بل يستمر في الدعاء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ابن هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْم أَوْ قَطِيعَةِ رَحِم مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»** قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: **«يقول: قد دعوتُ ربي فلم يَستَجبْ لي»**.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسَيط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: ما من عَبْد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعَجَّل له في الدنيا أو تُدّخر له في الآخرة، إذا لم يعجل أو يقنط. قال عروة: قلت: يا أمَّاه كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أُعْطَ، ودعوت فلم أُجَبْ.

قال ابن قُسَيْط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب برقم (٢٧٣٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمٰن الحُبُليّ، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «**الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ ﷻ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ**»(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أُبيَّ بن نافع بن معد يكرب ببغداد، حدثني أبي بن نافع، حدثني أُبي بن نافع بن معد يكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ قال: «يا رب، مسألة عائشة». فهبط جبريل فقال: الله يقرؤك السلام، هذا عبدي الصالح بالنية الصادقة، وقلبُه نقي يقول: يا رب، فأقول: لبيك. فأقضي حاجته.

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وروى ابن مردويه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: حدثني جابر بن عبد الله أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ الآية. فقال رسول ﷺ: «**اللَّهُمَّ أمرتَ بالدعاء، وتوكَّلْتَ بالإجابة، لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صَمَد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوًا أحد، وأشهد وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءَكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنْتَ تَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ**»(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى الأرزي ومحمد بن يحيى القطعي قالا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المرّي، عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٩١).

ابن آدم، واحدة لك وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك؛ فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئًا، وأما التي لك فما عملتَ من شيء وَفَّيْتُكَه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة»[١].

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العِدّة؛ بل وعندَ كلّ فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده:

حدثنا أبو محمد المليكي، عن عَمْرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة**». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا[٢].

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله المدني، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «**إن للصائم عند فطره دَعْوةً ما تُرَدّ**». قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللّهمّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي[٣].

---

(١) أخرجه البزار في مسنده ج١/ ١٩ كشف الأستار. ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورواه البزار وفي إسناده: صالح المُرِّي وهو ضعيف وتدليس الحسن أيضًا.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي بسنده ومتنه، المسند (٢٢٦٢).

(٣) إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد (الحكيم، وابن السني في عمل اليوم والليلة، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو).
ذكره الحكيم (١/ ٢٩٩)، وابن السني فى عمل اليوم والليلة (ص١٨٠، رقم ٤٨٢)، والحاكم (١/ ٥٨٣)، رقم (١٥٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٧، رقم ٣٩٠٤). قال المنذري (٢/ ٥٣): رواه البيهقي عن إسحاق بن عبيد الله عنه، وإسحاق هذا مدني لا يعرف، والله أعلم.

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»(١).

*

❐ **تفسير قوله تعالى:** ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧](٢).

هذه رُخصة من الله تعالى للمسلمين، ورَفْع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعَمْرو بن دينار والحسن، وقتادة، والزهري، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعي، والسّدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في العفو والعافية برقم (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، والإمام أحمد (١/ ٥٥٧ و٢/ ٤٤٥)، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١٩٠١).

(٢) من تعليقات سماحته رحمه الله على تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله ٣ - ٩ - ١٤٠٩هـ.

وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان؛ يعني: هن سَكَن لكم، وأنتم سكن لهن.

وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن.

وحاصله أنّ الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُمَاسه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّص لهم في المجامعة في ليل رمضانَ، لئلا يشقّ ذلك عليهم، ويحرجوا.

قال الشاعر[١]:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا...

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويلِ، وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قَيْس بن صِرْمة الأنصاري كان صائمًا، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حَضَر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك. فغلبته عينُه فنام، وجاءت امرأته، فلما رأته نائمًا قالت: خيبة لك! أنمت؟ فلما انتصف النهار غُشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا.

ولفظ البخاري هاهنا من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَبُون النساء، رَمَضَان كُلّه، وكان رجَال

---

(١) هو النابغة بن جعدة، صرح بذلك الطبري في التفسير (٣/ ٤٩٠).

يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلّوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾، وكذا روى العوفي عن ابن عباس.

وقال موسى بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهُم لم يطعم ولم يشرَب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عُمَر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوْمُ وَقَع على أهله، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت. قال: «**وماذا صنعت؟**» قال: إني سَوَّلَتْ لي نفسي، فوقعت على أهلي بعد ما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبي ﷺ قال: «**ما كنت خليقًا أن تفعل**». فنزل الكتاب: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة في قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ

(١) أخرجه البخاري من حديث البراء رضي الله عنه في كتاب التفسير، باب ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] برقم (٤٥٠٨).

إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ قال: كانَ المسلمون قبلَ أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرُمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وأن صِرْمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلّى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾؛ يعني: بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ يعني: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾؛ يعني: جامعوهن ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾؛ يعني: الولد ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ فكان ذلك عفوًا من الله ورحمة.

وقال هُشَيم، عن حصين بن عبد الرحمٰن، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، إني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجلُ أهلهُ فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعْتلّ، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ وهكذا رواه شعبة، عن عَمْرو بن مُرّة، عن ابن أبي ليلى، به.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لهيعة، حدثني موسى بن جبير ـ مولى بني سلمة ـ أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسَى فنام، حرّم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا

عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [الآية].

وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمة بن قيس؛ فأباح الجماعَ والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقًا.

وقوله: وأنس، وشُرَيح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم؛ يعني: الولد.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ يعني: الجماع.

وقال عَمْرو بن مالك النَّكْري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وقال سعيد عن قتادة: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: ما أحل الله لكم.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا ابن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أيتهما شئت: عليك بالقراءة الأولى.

واختار ابن جرير أنّ الآية أعمّ من هذا كله.

وقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع في أيّ الليل شاء الصائمُ إلى أن يتبين ضياءُ الصباح من

سواد الليل، وعبَّر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللَّبس بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غَسَّان محمد بن مُطَرِّف، حدثني أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم يُنزلْ: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، رَبَطَ أحدُهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني: الليل والنهار(١).

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ:

معنى الآية كلوا واشربوا أيها الصوَّام حتى يتبين لكم الخيط الأبيض؛ أي: الفجر، من الخيط الأسود وهو الليل، والفجر فجران، فجر صادق وفجر كاذب. والفجر في هذه الآية هو الفجر الصادق، وهو الذي ينتشر ويزداد نوره، أما الفجر الكاذب فهو الذي يكون في الشرق منتصب ولا يمتد شمالًا ولا جنوبًا ثم يزول(٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا حصين، عن الشعبي، أخبرني عديّ بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلا يتَبَيَّن لي الأسود من الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «**إنَّ**

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ برقم (٤٥١١)، ومسلم في كتاب الصيام، باب بيان الدخول في الصوم يحصل. . . .برقم (١٠٩١).

(٢) برنامج نور على الدرب (الحلقة ٧٩٦ سؤال ٥).

وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ»(١)، **إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل**».

أخرجاه في الصَّحيحين من غير وجه، عن عَديّ. ومعنى قوله: «**إن وسادك إذًا لعريض**» أي: إن كان يسعُ لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخاري مفسرًا بهذا: أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَين، عن الشعبي، عن عَدِيّ قال: أخذ عَدي عقالًا أبيض وعقالًا أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يتبينا. فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي. قال: «**إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ**»

وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضًا فقفاه أيضًا عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضًا:

حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرّف، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «**إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ**». **ثُمَّ قَالَ**: «**لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**»(٢).

وفي إباحته تعالى جوازَ الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السَّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السُّنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السَّحور [لأنه من باب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ...﴾ برقم (٤٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ...﴾ برقم (٤٥١٠).

الرخصة والأخذ بها، ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(١). وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمٰن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدَعُوهُ وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ عز وجل وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**»(٣).

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهًا بالآكلين. ويستحب تأخيره إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

هذا يبين أن الأفضل أن يكون السحور في آخر الليل، قريبًا من الفجر؛ بعدًا عن مشابهة أهل الكتاب، وتقوي على الصيام في النهار، ولا سيما عند قربه، كلما كان السحور متأخرًا كان أقوى للصائم، وعونًا له على تعب النهار، ولأن أهل الكتاب يقدمون سحورهم في وسط الليل قبل آخر الليل فالسنة للمؤمن أن يخالف اليهود والنصارى، يكون سحوره

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب برقم (١٩٢٣)، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٥).

(٢) أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه في كتاب الصيام، ، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٢و ٤٤).

متأخرًا في آخر الليل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**» رواه مسلم. قول المؤلف إلى وقت انفجار الفجر، أي: إلى قرب انفجار وقت انفجار الفجر. المقصود الفجر الصادق، ولهذا جاء في حديث أنس عن زيد بن ثابت ﵁ أن الصحابة تسحروا مع النبي ﷺ ذات يوم فقال أنس: يا زيد كم بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية كان بين فراغه من السحور وبين أذان الفجر قدر خمسين آية.. خمسين آية في التقدير نحو خمس أو سبع دقائق، عشر دقائق، يعني قرب الوقت في الروايات الأخرى: «كم كان بين السحور وبين الصلاة؟ قال: قدر خمسين آية»، الصلاة يعني الأذان، يعني أذان الصلاة؛ لأن الصلاة يدخل وقتها بالأذان، فالروايات تفسر بعضها بعضًا، فرواية كم كان بين السحور والصلاة قال: قدر خمسين آية يفسرها الرواية الأخرى: كم كان بين الأذان والسحور؛ لأن الأذان هو المُشعِر بدخول وقت الصلاة.

قال الحافظ ابن كثير ؒ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لَهِيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبي عثمان، عن عَديّ بن حاتم الحمصي، عن أبي ذَرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمتي بخير ما عَجَّلوا الإفطار وأخَّروا السحور**». وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمَّاه الغَدَاء المبارك، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زرّ بن حبيش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحَّرْنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع. وهو حديث تفرَّد به عاصم بن أبي النَّجُود، قاله النسائي، وحمله على أن المراد قربُ النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أي: قاربن انقضاء العدة، فإما إمساك أو تَرْك

للفرَاق. وهذا الذي قاله هو المتعيَّن حملُ الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى أن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد رُوي عن طائفة كثيرة من السلف أنَّهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد بن علي بن الحسين، وأبو مِجْلز، وإبراهيم النَّخَعَي، وأبو الضُّحَى، وأبو وائل، وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء، والحسن، والحكم بن عيينة ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش معمر بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والسحور سنة ثابتة وقائمة صحيحة بأن السنة في السحور التأخير والسنة في الفطور التقديم، أنه يقدم الفطور والأفطار، يقال فطور وسحور للأكل تسحر، والأفطار يقال له: سحور وفطور. ولما يؤكل يقال له: سَحور بالفتح، وفَطور بالفتح، والسنة أن الصائم يؤخر السحور إلى آخر الليل، والسنة أن يعجل الإفطار إذا غربت الشمس، كما قال ﷺ: «**إذا أقبل الليل من هاهنا... وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم**». قال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول الله ﷻ: «أحبُّ عبادي إليَّ أعجلهم فطرًا»، وفي إحدى الروايات: «**لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر وأخَّروا السحور**»، وهذه الآثار كلها تدور حول عدم التكلف في الفجر، وأنهم يأكلون حتى يتضح الفجر، وقوله ﷻ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: حتى يتبين الصباح، وليس المراد: تعمُّد الأكل بعد الصباح، وإنما هو عدم التكلف في ذلك حتى يتضح الفجر؛ ولهذا في حديث أنس وابن عمر: أن بلالًا يؤذن بالليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم

وكان رجلًا أعمى، لا ينادي حتى يقال أصبحت أصبحت والصائم مسموح له بالإفطار والأكل والشرب حتى يتضح الفجر، لكن في مكان كالصحراء والبلاد التي ليس فيها أنوار بارزة، فهذه يتضح فيها الفجر، أما اليوم في هذه المدن التي فيها الأنوار الكهربائية فإنه يصعب اتضاح الفجر فيها على الرائي، وإنما يعتمد على التقويمات التي توضع فيعتمد المؤذنون سواء كان فيها تقدم خمس دقائق، أو تأخر خمس دقائق أو نحو ذلك مما يشتبه به.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحكى أبو جَعفر بن جرير في تفسيره، عن بعضهم: أنَّه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها.

قلت: وهذا القول ما أظنّ أحدًا من أهل العلم يستقر له قَدَم عليه، لمخالفته نصّ القرآن في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾. وقد وَرَدَ في الصَّحيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ بِلالًا يُنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُنَادِيَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ**» لفظ البخاري[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، عن قيس بن طَلْق، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلَ فِي الأُفُقِ وَلَكِنَّهُ الْمُعْتَرِضُ الأَحْمَرُ**»[(٢)].

ورواه أبو داود، والترمذي ولفظهما: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا يَهِيدَنَّكُمُ**

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان بعد الفجر برقم (٦٢٠)، ومسلم في كتاب الصيام باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر.... برقم (١٠٩٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣).

السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَحْمَرُ»(١).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن شيخ من بني قشير: سمعت سَمُرة بن جُنْدَب يقول: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَغُرَّنَّكُمْ نِدَاءُ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ حَتَّى يَبْدُوَ الْفَجْرُ أَوْ قَالَ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ»**(٢).

ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سوادة بن حنظلة، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَمْنَعَنَّكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ وَلَكِنِ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيرُ فِي الأُفُقِ»**(٣).

قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَية، عن عبد الله بن سَوادة القُشَيري، عن أبيه، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض، تعمَّدوا الصبح حين يستطير»**(٤).

ورواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم ـ؛ يعني: ابن علية ـ مثله سواء.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حمَيد، حدثنا ابن المبارك، عن سُلَيمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث قيس بن طلق عن أبيه رضي عنهما في كتاب الصيام، باب وقت السحور برقم (٢٣٤٨)، والترمذي في كتاب الصوم، باب ما جاء في بيان الفجر برقم (٧٠٥).

(٢) أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر.... برقم (١٠٩٤).

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان بعد الفجر برقم (٦٢١)، ومسلم في كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر.... برقم (١٠٩٣).

(٤) أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر.... برقم (١٠٩٤).

«لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ مِنْ سَحُورِهِ، فَإِنَّهُ يُؤَذِّنُ - أَوْ قَالَ يُنَادِي - لِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَيُنَبِّهَ نَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ الْفَجْرُ أَنْ يَقُولَ هَكَذَا» وَجَمَعَ يَحْيَى كَفَّيْهِ حَتَّى يَقُولَ هَكَذَا[(١)].

وحدثني الحسن بن الزبرقان النخعي، حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمٰن، عن محمد بن عبد الرحمٰن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْفَجْرُ فَجْرَانِ: فَأَمَّا الْفَجْرُ الَّذِي يَكُونُ كَذَنَبِ السِّرْحَانِ فَلَا يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَلَا يُحَرِّمُ الطَّعَامَ، وَأَمَّا الَّذِي يَذْهَبُ مُسْتَطِيلًا فِي الأُفُقِ فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ»**. وهذا مرسل جيد[(٢)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يُحِلّ ولا يحرِّم شيئًا، ولكن الفجر الذي على رؤوس الجبال، هو الذي يحرّم الشراب. قال عطاء: فأما إذا سطع سطوعًا في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولًا فإنه لا يحرم به شراب لصيام ولا صلاة، ولا يفوت به حج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف، رحمهم الله.

مسألة: ومِن جَعْله تعالى الفجرَ غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُسْتَدَلّ على أنه من أصبح جُنُبًا فليغتسل،

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد برقم (٧٢٤٧)، ومسلم في كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... برقم (١٠٩٣).

(٢) أخرجه البيهقي (١/ ٣٧٧) برقم (١٨٣٧).

وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، أنهما قالتا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ احْتِلَامٍ ثُمَّ يَصُومُ»[١]. وفي حديث أم سلمة عندهما: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جِمَاعٍ لَا مِنْ حُلُمٍ ثُمَّ لَا يُفْطِرُ وَلَا يَقْضِي»[٢].

وفي صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلًا قال: يا رسول الله، تُدْركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم»**. فقال: لست مثلنا ـ يا رسول الله ـ قد غفرَ اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: **«والله إني لأرجو أن أكونَ أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»**.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

هذه المسألة قد تخفى على بعض الناس، ولهذا أوضحها أزواج النبي ﷺ وبيَّنوها للناس، وهي ما إذا جامع في آخر الليل هل يلزمه أن يقدم الغسل قبل الصبح أو لا مانع أن يتسحَّر ويأخذ حاجته ثم يغتسل بعد ذلك ولو بعد الصبح، دلَّت السنة على أنه لا بأس يكون الغسل بعد الصبح، المهم أن يكون الجماع قبل ذلك لا يجامع إلا في الليل، فإذا جامع قبل الصبح ثم اغتسل بعد الصبح فلا حرج؛ ولهذا قالت أم سلمة وعائشة رضي الله تعالى عنهما: إنه عليه الصلاة والسلام كان يصبح جنبًا من جماع من غير احتلام ثم يغتسل ويصوم. وفي الحديث الثاني: «أن

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة وأم سلمة. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنبًا برقم (١٩٢٥و١٩٢٦)، ومسلم في كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١٠٩).

الرجل قال: يا رسول الله! تدركني صلاة الصبح وأنا جنب؟ قال: **وأنا كذلك**، قال الرجل: يا رسول الله! لست مثلنا إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال عليه الصلاة والسلام: «**وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**»، فهو ﷺ أخشى الناس لله وأتقى الناس لله عليه الصلاة والسلام، وفيمن يأثم هو أبعد الناس عنه عليه الصلاة والسلام، والله ﷻ قال في كتابه الكريم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾، فالليل فيه محل أكل وشرب وجماع، فإذا جامع في آخر الليل وأخَّر الغسل حتى فرغ من حاجته واغتسل بعد الصبح فلا حرج في ذلك، أما الاحتلام فلا يضر، الاحتلام لو احتلم في النهار ما يضره؛ لأن الاحتلام ليس فيه اختيار، فبعضهم يغلب عليه، وكذا النوم فإذا احتلم نهارًا وقد رأى المني كل ذلك لا يضر؛ لأنه ليس باختياره يغتسل وصومه صحيح، كما لو أكل وشرب ناسيًا في النهار صومه صحيح، فهكذا لو احتلم في النهار فإن صومه صحيح وعليه الغسل إذا رأى المني..

● **س: أحسن الله إليك! إذا رأيته يشرب ناسيًا أنهاه وإلا أسكت عنه؟**

○ **الجواب**: ينبغي تنبيهه؛ لأنه لا يدري ينبَّه، وإنما معذور.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَأَحَدُكُمْ جُنُبٌ فَلَا يَصُمْ يَوْمَئِذٍ**»[(١)].

فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، كما ترى وهو في

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣١٤)

الصَّحيحين عن أبي هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبي ﷺ وفي سنن النسائي عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه. فمن العلماء من علَّل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويُحْكى هذا عن أبي هريرة، وسالم، وعطاء، وهشام بن عروة، والحسن البصري. ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبًا نائمًا فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختارًا فلا صومَ له، لحديث أبي هريرة. يحكى هذا عن عُروة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه ويقضيه وأما النَّفْل فلا يضره. رواه الثوري، عن منصور، عن إبراهيم النخَعي. وهو رواية عن الحسن البصري أيضًا، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه.

وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيد أيضًا، وأبعد؛ إذ لا تاريخ؛ بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالّين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والخلاصة أن هذا القول هو الذي عليه الأئمة الأربعة وغيرهم أن الإنسان إذا أصبح جنبًا فإنه لا يضره ذلك يغتسل ويصلي وصومه صحيح، إذا كان الجماع في الليل وإنما تأخر الغسل، فتأخر الغسل لا حرج فيه، ولا يضر الصوم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غُرُوب الشمس حكمًا شرعيًّا، كما جاء في الصَّحيحين، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ**

هاهُنَا، وَأَدْبَرَ النهارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَر الصَّائِمُ» متفقٌ عَلَيْهِ(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»** أخرجاه(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا قُرّة بن عبد الرحمٰن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: **«قَالَ اللهُ عز وجل: أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا»**(٣).

ورواه الترمذي من غير وجه، عن الأوزاعي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا يفيد شرعية تعجيل الفطر، وأن السنة: تعجيل الفطر من حين غروب الشمس؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **«لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»**، وقال عليه الصلاة والسلام: **«إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ ههُنَا،** ـ يعني: من جهة المشرق ـ **وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ ههُنَا، من جهة المغرب بغروب الشمس، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائمُ**، يعني: حكمًا هو صار في حكم المفطرين. وفي هذا الحديث حديث أبي هريرة:

---

(١) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب متى يحل فطر الصائم برقم (١٩٥٤)، ومسلم في كتاب الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار برقم (١١٠٠).

(٢) متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار برقم (١٩٥٧)، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في تعجيل الإفطار برقم (٧٠٠)، والإمام أحمد (٢/ ٢٣٧).

«**قَالَ اللهُ ﷻ أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**». وهذا الحديث القدسي يؤيد ما تقدم أيضًا، وأن السنة والأفضل للمؤمن أن يبادر بالإفطار، ومن أحب أن يؤخر إلى السحر فلا بأس، إذا رأى ذلك لمصلحة فلا بأس، لكن من أفطر فهو أفضل، من عجل الإفطار وأفطر؛ لأنها أقوى على العبادة وأنشط على العبادة، وأكمل في الامتثال.

وأما الوصال فمكروه: أن يواصل اليوم باليوم ولا يأكل ولا يشرب لا في الليل ولا في النهار، هذا يسمى الوصال، كان النبي يفعله ﷺ وهو من خصائصه، وأما الأمة فيكره لها ذلك، الأمة يكره لها أن تواصل، لكن لا مانع من الوصال الخاص إلى السحر، ويكون عشاؤه سحورًا لا بأس، والأفضل هو أن يفطر من أول الليل من حين تغيب الشمس، هذا هو الأفضل أن يفطر، أن يبادر بذلك كما صحت به السنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أحمد أيضًا: حدثنا عفان، حدثنا عبيد الله بن إياد، سمعت إياد بن لقيط قال: سمعت ليلى امرأة بَشِير بن الخَصَاصِيَّة، قالت: أردت أن أصومَ يومين مواصلة، فمنعني بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال: «**يفعل ذلك النصارى، ولكنْ صُوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيامَ إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا**»(١).

[وروى الحافظ ابن عساكر، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا يحيى بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الملك بن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة؛ فأتاه جبريل فقال: إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحدٍ بعدك، وذلك بأن الله قال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ فلا صيام بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٢٥).

الليل، وأمرني بالوتر قبل الفجر، وهذا إسناد لا بأس به، أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر في تاريخه].

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئًا. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تواصلوا**». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «**فإني لست مثلكم، إني أبِيتُ يُطْعمني ربي ويسقيني**». قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «**لو تأخر الهلال لزدتكم**» كالمُنكِّل لهم(١).

وأخرجاه في الصَّحيحين، من حديث الزهري به، وكذلك أخرجا النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل.

فقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويًا لا حسيًا، وإلا فلا يكون مواصلًا مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديثُ من ذكراك تَشْغَلها   عن الشراب وتُلْهيها عَن الزادِ

وأما من أحبّ أن يُمْسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال برقم (١٩٦٥)، وفي كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ برقم (٧٢٤٢)، ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم (١١٠٣).

ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**». قالوا: فإنك تواصِل يا رسول الله. قال: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مُطْعِم يطعمني، وساقٍ يسقيني**». أخرجاه في الصحيحين أيضًا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله:

وهذا يبين لنا أن الوصال مكروه وليس بمحرَّم؛ ولهذا واصل بهم يومًا ثم يومًا، يواصل بهم اليوم الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، فرأوا الهلال ليلة الثلاثين فأفطروا، قال: «**لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ**». كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ. حين أبوا أن ينتهوا، هذا يبين لنا أنه كره لهم ذلك كراهة شديدة، ولكنهم طمعوا في أن يباح لهم ذلك؛ لأنه كان يواصل عليه الصلاة والسلام، فأحبوا أن يتأسوا به، ويعملوا عمله حرصًا منهم على الخير رضي الله عنهم وأرضاهم، فبيَّن لهم أن هذا شيء يخصه، وأنه ليس لهم ذلك هم، وإنما السنة لهم أن يفطروا ولا يواصلوا، وأخبر أنه كان يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه، في اللفظ الآخر: (إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني) وهو كما قال المؤلف: طعام وشراب معنوي، وهو ما يفتح الله عليه من مواد أنسه، ونفحات قدسه، وتلذذه بطاعة ربه وذكره ومناجاته، فيستغني بهذا عن الطعام والشراب، فيحصل له بهذا من القوة العظيمة ما يعينه على المواصلة، ولو كان يؤتى بطعام أو شراب من الجنة ما كان صائمًا، فعلم بذلك أن المراد أنه كان يقوى على ذلك ويعان لما يقع في قلبه من الأنس بالله، والتلذذ بطاعته وذكره، وسعة ما يقع له من ذلك حتى يكون به قويًّا على المواصلة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُريْب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العَبْسي عن أبي بكر ابن حفص، عن أمّ ولد حاطب بن أبي بَلْتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر، فدعاها إلى الطعام.

فقالت: إني صائمة. قال: «**وكيف تصومين؟**» فذكرت ذلك للنبي ﷺ. فقال: أين أنت من وصال آل أحمد من السحر إلى السحر.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

على كل حال إن واصل إلى آخر الليل لا بأس بها لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين مثلما تقدم: «**فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السحَرِ**»؛ ولكن هذا المواصلة مفضولة والأفضل عدم المواصلة حتى السحور، الأفضل أنه يفطر في أول الليل، لكن من أراد أن يواصل فلا حرج إلى السحر خاصة، أما أن يواصل الليل كله ولا يأكل لا ليلًا ولا نهارًا فهذا هو المكروه كراهة شديدة.

مداخلة: الذي صرف النهي إلى الكراهية.

الشيخ: لأن الرسول ﷺ واصل بهم، ولا يقر على محرَّم، ولا على معصية، هو لا يفعل المعصية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي ﷺ لم كان يواصل من السَّحَر إلى السَّحَر.

وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزّبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة. وحمله منهم على أنهم كانُوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأقرب أنهم يفعلونه عبادة؛ ليس برياضة، رأوا من أنفسهم قوة ففعلوا ذلك لمزيد الأجر، ولعله خفي عليهم نهي النبي ﷺ عن المواصلة، لعله خفي عليهم ذلك وإلا الخير والقربة والطاعة في امتثال أمر النبي ﷺ وأخذ سنته، والتأسي به عليه الصلاة والسلام، لكن من

ثبت عنه ذلك عن ابن الزبير أو غيره فهو محمول على أنه لم يبلغه الحديث، أو حمله على أن هذا النهي لمن يضره ذلك ويضعفه ولا يقوى عليه، أنه ينشط ويقوى فلا بأس وتأولوا على هذا التأويل، وبكل حال فهم محجوجون بالسنة، إن كانت ما بلغتهم، فمن بلغته السنة قامت عليه الحجة، وإن كانت بلغتهم وتأولوها بحملها على من ضعف عن ذلك فهو قول ضعيف؛ لأن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك ولم يفصل، وحثهم على عدم الوصال، ولم يقل لهم: إذا قويتم فافعلوا، فعلم بذلك من السنة عدم الوصال مطلقًا ولو قوي على ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرْشَاد،[أي] من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنُه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قُوة عليه. وقد ذُكرَ عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصَّبِر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولًا. وقد رُوي عن ابن الزبير أنَّه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾[(١)]، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلًا ونهارًا حتى يقضي اعتكافه.

وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ أي:

---

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ٧ ـ ١٤٠٩هـ.

لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد إنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسُّدِّي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرمُ عليه النساءُ ما دامَ معتكفًا في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبَّث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبِّل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه.

وللاعتكاف أحكام مفصَّلة في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه. وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا يبين لنا أن المعتكف له أحكام: أنه لا يقرب أهله، يعني: زوجته حال اعتكافه، سواء كان في المسجد أو في خارج المسجد؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ والحال، يعني: حال كونهم عاكفين في المساجد، فيتفرغ للعبادة وقراءة، وذكر وتعليم، ونحو ذلك مما ينفع الأمة، وينفع نفسه وليس له قربان الزوجة، لا بالتقبيل واللمس والشهوة، ولا بالجماع، حتى ينهي اعتكافه، كذلك ليس زيارة الناس ولا عيادة المرضى، إلا وهو مار على الطريق إذا سأل عنه، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «السنة للمعتكف ألا يعود مريضًا، ولا يتبع جنازة، ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج إلا لحاجة». هذا هو السنة في حق المعتكف ، يخرج لحاجته، كقضاء حاجة من بول أو غائط أو غسل ووضوء، والأكل والشرب إذا تيسر له من يأتيه بحاجته، لكن

يأتوه في محله الخاص أنه يلاحظ هذا الأمر حتى يكون وقته مشغول بالعبادة؛ لأن المقصود من الاعتكاف التفرغ للعبادة والخلو بربه ﷻ، فهو في الحقيقة قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وبمعنى آخر التفرغ للعبادة بخلوه مع ربه ﷻ والاعتكاف سُنَّة، وليس بواجب، مستحب، وأفضله في رمضان، كان النبي ﷺ يعتكف في رمضان عليه الصلاة والسلام، في العشر الأواخر، اعتكف العشر الأول، اعتكف العشر الأوسط، ثم اعتكف العشر الأخيرة، لما علم أن ليلة القدر في العشرة الأخيرة استقر اعتكافه في العشر الأخيرة واعتكف في بعض السنوات العشر الأول من شوال.

مداخلة: أحسن الله إليك، الاعتكاف لا بد في رمضان.

الشيخ: ليس بشرط، لا، في رمضان وفي غيره؛ لكن في رمضان آكد من غيره، لأن الرسول حافظ عليه في رمضان عليه الصلاة والسلام في العشر الأخيرة، إلا في سنة واحدة اعتكف في شوال، فإذا اعتكف في غير رمضان فلا بأس.

مداخلة: في السند أبو الزبير وأبو أنس.

الشيخ: الربيع بن أنس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا كان الفقهاء المصنِّفون يُتْبِعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبَّه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان، حتى توفَّاه الله ﷻ. ثم اعتكف أزواجُه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وفي الصحيحين أن صَفيَّة بنت حُيي كانت تزور النبي ﷺ

وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها ـ وكان ذلك ليلًا ـ فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها[(١)]، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ـ وفي رواية: تواريا ـ؛ أي: حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبي ﷺ: **«على رِسْلكما إنها صفية بنت حيي»** أي: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي: زوجتي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا»**[(٢)]، أو قال: **«شرًّا»**.

---

(١) قال سماحته: قوله: إلى دارها محل نظر والذي أذكره في الحديث أنه قام معها؛ ليوصلها حتى باب المسجد فقط أوصلها إلى باب المسجد، فمرا رجلان وهو يتحدث معها عند باب المسجد، فلما رأيا ذلك أسرعا، فقال: على رسلكما إنها صفية بنت حيي يعني زوجتي، فقالا: (سبحان الله يا رسول الله): يعني ما أنت بمحل الشك والتهمة، فقال: **«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال شيئًا»** متفق على صحته.

ثم أيضًا فيه فائدة كبيرة وهي: أن المؤمن يتباعد عن مواضع الريبة، ولا يقف مواقف الريبة، حتى لا يظن به السوء وهو بريء. فالمؤمن يتنزَّه ويتباعد عن مواضع الريبة، وإذا وقع في شيء من ذلك للحاجة كما وقع للنبي ﷺ في هذا مع صفية يبيِّن لمن مرَّ عليه الأسباب حتى لا يقع في مهلكة، حتى لا يقع في ظن السوء إذا دعت الحاجة إلى موقف أو طريق غير مناسب فليبيِّن الأسباب لمن مر عليه وليقل إني وقفت هنا أو وصلت إلى هذا المحل لأجل كذا وكذا؛ حتى لا يتهم بسوء.

(٢) متفق عليه من حديث صفية زوج النبي ﷺ. أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب برقم (٦٢١٩)، ومسلم في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو مَحرمًا له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به برقم (٢١٧٥).

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أراد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنْ يعلِّم أمّته التبرِّي من التُّهْمَة في محلها، لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقى لله أن يظنا بالنبي ﷺ شيئًا. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُدْني إليّ رأسه فأرجِّلُه وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارَّة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي بينَّاه، وفرضناه، وحدَّدناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذِكْر غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أي: شَرَعها الله وبيَّنها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها وتعتدوها.

وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: المباشرة في الاعتكاف.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المقصود من هذا أن المعتكف لا بأس أن يأخذ زوجته وأهله ويعطيهم، وهكذا المحرم بالحج والعمرة لو مس امرأته لا لقصد الشهوة، أخذ يعطيها إناء، أو يأخذ منها إناء، أو حاجة أخرى في حال اعتكافه، أو في حال إحرامه فلا بأس شيء عليه، الممنوع كونه يجامع، أو يباشر بشهوة، أو مسِّها بشهوة، أو ضمِّها إليه بشهوة، وما أشبه ذلك، أما تناول الأشياء والأخذ والعطاء والمكالمة فيما بينهما فلا شيء في ذلك، لا في حق المُحرِم ولا في حق المعتكف.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم؛ يعني: هذه الحدود الأربعة،

ويقرأ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ حتى بلغ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مَشْيَختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ ظاهره بأن المراد: المحارم، ولهذا قال: (فَلا تَقْرَبُوهَا)، ما قال: لا تتعدوها، قال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾، يعني: لا تقعوا فيها ولا تفعلوها، الحدود قسمان: حدود بمعنى المحارم والمعاصي والمنهيات؛ فهذه يقال فيها: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾، كما هنا. وحدود بمعنى الفرائض والواجبات المحددة، يقال فيها: فلا تعتدوها، كما في الآية الأخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾، في آخر السورة: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾، لما ذكر الطلاق والرجعة قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ وهكذا في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ يزيد فيها... الفرائض المحددة ليس لأحد تجاوزها، أو الزيادة فيها ولا النقص منها، والمحارم والمنهيات ليس لأحد قربانها، فليس لأحد أن يقرب المباشرة، وليس لأحد أن يقرب الأكل قبل غروب الشمس ولا بعد طلوع الفجر، هذه حدود، وهكذا الجماع ليس له الجماع في النهار، إنما هو الجماع في الليل، تفسير الرفث في الليل الجماع. هذه الحدود بمعنى: المحارم، ليس للمؤمن قربانها، فليس له أن يجامع نهارًا، وليس له أن يأكل نهارًا، ولا أن يشرب نهارًا، ولا أن يباشر في حال اعتكافه، هذه كلها ممنوعة، ليس له قربانها.

مداخلة: طيب يا شيخ!

الشيخ: نعم.

مداخلة: وكان أبي أم أبي؟ هل يقصد أبوه زيد بن أسلم.

الشيخ: نعم.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾، يعني: ليتقوا، لعلهم، اللام للتعليل، يعني: الله لا يرجو أحد، ولا يخاف أحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلعل هنا في كلام الله للتعليل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ليتقوا يعني، مثل ما قال في الآية أول السورة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، يعني: لتتَّقوه، وبين الأحكام ليتقى، بين الأحكام والأوامر والنواهي ليتقى. ومعنى التقوى: أن يطاع أمره وينتهى عن نهيه هذه التقوى؛ طاعة الأوامر وترك النواهي، فبيَّنًا لهم الواجبات والمحارم والشرائع؛ ليتقوا الله سبحانه، يعني: ليتقوا غضبه وعقابه بفعل الأوامر وترك النواهي، هذه التقوى، طاعة الأوامر التي أعظمها توحيد الله والإخلاص له، وترك النواهي التي أعظمها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فالبيان والإيضاح والدلالة والدعوة والتوجيه هذه أسباب ووسائل للتقوى، وهذا من رحمته جَلَّ وَعَلَا ومن عظيم إحسانه أن بين لعباده في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام الشرائع والأحكام من الأوامر والنواهي؛ ليقفوا عندها وليلزموها، وليتقوا بذلك غضب الله أينما كانوا حتى يقابلوه ويلقوه سبحانه.

الأسئلة:

المعتكف هل له قطع الاعتكاف قبل انتهاء المدة أم لا؟

○ **الجواب:** إن كان متطوعًا فلنفسه له أن يقطعه، إذا كان متطوع، أما إذا كان فرض، أم نذره نذر قال: لله عليه أن اعتكف العشر الأواخر، أو لله عليه أن اعتكف يوم الخميس، أو يوم كذا أو أيام كذا،

لا، ليس له ذلك؛ لأن النذر فرض، هذا يكمل؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١).

أما إذا كان تطوع فله أن يقطعه، السنة أن يكمل، وإن قطع فلا بأس.

• **س: لو اعتكف في غير رمضان، لا بد من الصيام؟**

○ **الجواب**: ليس بشرط الصحيح ليس بشرط، جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**لَا اعْتِكَافَ إِلَّا بِصَوْمٍ**»(٢)، لكنه قول مرجوح؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: [ليس على المعتكف صوم إلا أن يجعله على نفسه]، يعني: إلا أن ينذره.. فله أن يعتكف وهو مفطر، وله أن يعتكف في غير رمضان، لكن في رمضان وفي حال الصيام يكون أفضل.

• **س: أحسن الله إليك! عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم كأنه من المفسرين كثيرًا ما ينقل عنه؟**

○ **الجواب**: نعم، من أئمة التفسير، لكنه ضعيف الرواية، ضعيف في الحديث، إمام في التفسير، مثل الواقدي ضعيف الرواية، إمام في المغازي والأخبار، نعم. مثل بعض العلماء جهات، جهات يكون فيها ثقات وجهات فيها ليس مثل ذلك.

• **س: لا بد له من نية مدة الاعتكاف يا شيخ؟!**

○ **الجواب**: نعم، العبادات بالنية.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة برقم (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في وفاء النذر برقم (١٥٣٩).

مداخلة: لكن لمدتها.

○ **الجواب**: في الحديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١)، لو دخلت المسجد ما نويت الاعتكاف ما يصير اعتكاف، حتى تنوي فيه لطاعة الله، الاعتكاف الذي في المسجد اللبث فيه يعني لطاعة الله.

مداخلة: يا شيخ! أقله؟

○ **الجواب**: وليس له حد محدود، قال بعضهم: لا بد أن يكون يوم، والصواب: ليس له حد، قال بعضهم: لا بد أن يكون معه الصوم، والصواب: ليس كذلك، فليس حد محدود، لا من جهة الزمان، ولا من جهة الصيام، فله الاعتكاف وإن كان غير صائم، وإن كان أقل من يوم وأقل من ليلة.

مداخلة: إنما لا بد من تحديد المدة يا شيخ!

الشيخ: ينوي ما أراد، ساعة أو ساعتين، أو يوم أو يومين، الأعمال بالنيات.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

الشيخ: بركة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: كما بيَّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبيِّن سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي برقم (١)، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» برقم (١٩٠٧).

محمَّد ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يَعْرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

كل الخير في اتباع السنة، كل الخير والهدى والصلاح كله في اتباع السنة، وما خالفها فقُصارى صاحبها أن يكون معذورًا، إما لتأويل تأوله يغفر الله له فيه ويكون له أجر الاجتهاد وإن فاته أجر الصواب، وإما لخفاء السنَّة عليه، وإلا فالصواب والحق والهدى والصلاح كله في اتباع السنة وتعظيمها.

*

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

□ **تفسير قوله تعالى:** ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨][(١)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل للحرام. وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ**

(١) من تعليقات سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ على تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ٩ ١٤٠٩هـ ـ [٤].

بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»[١]، فدَّلت هذه الآيةَ الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حرامًا هو حرام، ولا يحرم حلالًا هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾؛ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وتروِّجونه في كلامكم. قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحلُّ لك حرامًا ولا يُحِقُّ لك باطلًا، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قُضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجودَ مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا.

وقال أبو حنيفة: حُكم الحاكم بطلاق الزوجة إذا شهد عنده شاهدا زور في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتى للشاهدين ويحرمها على زوجها الذي حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلعان المرأة، إنه يبينها من زوجها ويحرمها عليه، وإن كانت كاذبة في نفس الأمر، ولو علم الحاكم بكذبها لحدها ولما حرمها وهذا أولى.

مسألة: قال القرطبي: أجمع أهل السنة على أن من أكل مالًا

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه برقم (٢٤٨٥)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة برقم (١٧١٣).

حرامًا ولو ما يصدق عليه اسم المال أنه يفسق، وقال بشر بن المعتمر في طائفة من المعتزلة: لا يفسق إلا بأكل مائتي درهم فما زاد، ولا يفسق بما دون ذلك، وقال الجبائي: يفسق بأكل درهم فما فوقه إلا بما دونه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا كله تحذير من الله ﷻ لعباده من أكل أموال الناس بالباطل بواسطة الترافع إلى الحكام والتدليس والخداع ببيِّنات الزور والأيمان الفاجرة، وأن هذه كلها لا تحل ما حرم الله، ولا تسوغ له ظلم أخيه، بل يجب عليه أن يحذر الحرام وأن يُنصِف من نفسه، وألا يخاصم في الباطل، متى عرف أن أخاه مصيب فليعطه حقه، ولا يجوز له أن يخرجه إلى المحاكمة، ولا أن يتحيل عليه بشهود الزور ولا بالأيمان الفاجرة، وإن نفعته في الدنيا فإنه وبال عليه شر عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا أخبر النبيُّ ﷺ في حديث أم سلمة المخرَّج في الصحيحين: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا**»[(١)]، يكون أقوى في الاستدلال والتمويه والجدال فيقضي له القاضي على نحو ما سمع منه، ولهذا قال: «**فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا**». لا يحسب أن الحكم يحل له الحرام، فالقاضي ليس له إلا الاجتهاد والنظر، وسماع البينات، وتحليف المدَّعى عليه عند عدم البينة، والباطن إلى الله ﷻ. وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ**

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين برقم (٢٦٨٠)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة برقم (١٧١٣).

مُسْلِمٍ وَهْوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»[(١)]. فإذا استغل أخاه؛ لأنه ما عنده بينة أحسن به الظن، ولم يشهد عليه، أو ماتت البينة، أو فقدت الوثيقة فلا يستغل هذا الحدث في ظلم أخيه، بل يجب أن يعترف بالحق، وفي اللفظ الآخر الذي رواه مسلم من حديث أبي أمامة الحارثي ﷺ يقول ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»، رواه مسلم[(٢)].

فالواجب على أهل الإسلام الحذر، وأن يردعهم إيمانهم وتقواهم لله عن ظلم إخوانهم في قليل أو كثير، وبظلم الناس ونسيانهم وكذبهم أوجب الله البينات وأمر بالكتابة حتى لا تضيع الحقوق، فينبغي للمسلم ألا يتساهل في الكتابة والإشهاد وإن كان أخوه ثقة قد ينسى فلا ينبغي التساهل إلا التجارة الحاضرة كما قال الله ﷻ، فالتجارة الحاضرة لا حرج في بعدم كتابتها.

وقال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله في المجموع:

وقال سيد الخلق ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ برقم (٤٥٥٠)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار برقم (٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار برقم (٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٧٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٧٢) برقم (١١٣).

• **س: أحسن الله إليك. يا شيخ إذا لم يصل الإنسان إلى حقه من طريق الحاكم إلا بشيء يعطيه إياه ليس ظلمًا وإنما وصول إلى الحق؟**

○ **الجواب**: الرسول ﷺ لعن الراشي والمرتشي، ولا يجوز لأحد التساهل في هذا وتقديم الرشوة؛ لأنه قد يظن أنه مصيب وهو ليس بمصيب، قد يكون مخطئ ثم يعود الحاكم الباطل ويعينه على الباطل ويؤكله الباطل، ثم هذا الباب إذا فتح انفتح فيه شرٌّ كثير وبلاء عظيم.



فهرس الأحاديث

طرف الحديث | الصفحة

طرف الحديث | الصفحة

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث | الصفحة

طرف الحديث	الصفحة

طرف الحديث | الصفحة

طرف الحديث	الصفحة



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ـ تفسير الآيات ١٧٤ـ ١٧٦ (الحافظ ابن كثير)	٤٦٦
ـ تفسير الآية ١٧٧ (الحافظ ابن كثير)	٤٧١
ـ تفسير الآيات ١٧٨ ـ ١٧٩ (الحافظ ابن كثير)	٤٨٧
ـ تفسير الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢ (الحافظ ابن كثير)	٤٩٩
ـ تفسير الآيات ١٨٣ ـ ١٨٤ (الحافظ ابن كثير)	٥١٠
ـ تفسير الآيات ١٨٥ (الحافظ ابن كثير)	٥٢٢
ـ تفسير الآيات ١٨٦ (الحافظ ابن كثير)	٥٣٦
ـ تفسير الآيات ١٨٧ (الحافظ ابن كثير)	٥٥٠
ـ تفسير الآيات ١٨٨ (الحافظ ابن كثير)	٥٨٠
ـ فهرس الأحاديث	٥٨٥
ـ فهرس الموضوعات	٥٩٧

